

النبوءة

الروايةُ كاملةً
في خمسة مجلدات



البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم
فيكتور هيغو

المجلد الثالث

نقله إلى العربية
مُنِير العَبَّاسِي

دار العالم للملايين
بيروت



البُؤْسَاءُ

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

القسم الثالث

ماریو سیس

الكتاب الأول

باريس مدروسة من خلال ذرتها

١

في نضارة الصبا

لباريس طفل ، والغابة طائر . أما الطائر فيدعى الدثوري ، وأما
الطفل فيدعى المنشرد .

زاورج ما بين هاتين الفكرتين ، التي تتطوي احدهما على جميع
حرارة الفرن ، والاخرى على جميع ضياء الفجر . إقدح هاتين الشرارتين
معاً : باريس والطفولة ؛ وعندئذ يثب منها كائن صغير ، كائن يجدر

بـ « بلوتوس » * أن يدعوه Homuncio **

* Platon شاعر لاتيني هزلي (حوال ٢٥٠ - ١٨٤ ق . م .)

** في اللاتينية ، ومعناها الطرح ، او الجبش .

هذا الكائن الصغير مغمم بالبهجة . إنه لا يأكل الطعام كل يوم ، ومع ذلك فهو يمضي الى المسرح كل ليلة ، اذا رأى ذلك مناسباً . إنه مخلوق لا تقيص على ظهره ، ولا حذاء في رجله ، ولا سقف فوق رأسه . إنه مثل ذباب السماء الذي لا يملك شيئاً من هذه جميعاً . أما سنه فتراوح ما بين السابعة والثالثة عشرة ؛ وهو يجيا مع العصاة التي ينتمي اليها ، ويضرب في الشوارع ، وينام في الهواء الطلق ، ويرتدي سروالاً عتيقاً من سراويل أبيه ينتهي الى عقبيه ، وقبعة عتيقة من قبعات أبي آخر تهبط الى أبعده من أذنيه ، وحالة بنطون مفردة ذات حاشية صفراء . إنه يعدو ، ويتتبع الأثر ، ويقتل الوقت ، ويسود الغليون بالاستعمال ، ويُقسم مثل رجل من اهل الجحيم ، ويختلف الى الحانات ، ويعرف اللصوص ، ويخاطب الفتيات بضير المفرد ، ويهذر بلغة السوق ، ويفني اغاني داعة ، وليس في فؤاده شيء رديء على الاطلاق . ذلك بأن في نفسه جوهرة ، هي البراعة . والجواهر لا تتحلل في الوحل . وما دام المرء طفلاً فإن ارادة الله تقضي بأن يكون بريئاً .

ولو قد سألنا هذه المدينة الهائلة : مَنْ ذلك المخلوق ؟ اذن لاجابت : إنه ولدي الصغير .

٢

بعض أماراته الخصوصية

إن « متشرد » باريس هو قزم العملاقة . ولن نبالغ . فعند ملاك الساقية هذا تقيص في بعض الاحيان ؛ ولكنه في هذه الحالة تقيص مفرد ليس غير . وعنده حذاء في بعض

الاحيان ؛ ولكنه في هذه الحالة حذاء من غير نعل . وإن له في بعض الاحيان مأوى ، وهو يجبه ، لأنه يجد فيه أمه ؛ ولكنه يفضل الشارع ، لأنه يجد هناك حرته . إن له ألعاباً خاصة به ، وحيلاً خاصة به قائمة على اساس من بغضه للبورجوازيين . وإن له استعاراته الخاصة . فهو يكتب عن موت الشخص بـ « أكل الهندباء البرية من جذورها » . وإن له مهنة الخاصة ، مثل إحضار عجلات الكراء ، وخفض مواطىء العربات ، وقبض مكوس المرور من ضفة الشارع الى الأخرى حين تهطل الامطار الغزيرة ، وهو ما يدعو « إقامة جسور الفنون » ، ويذيع الحطب التي تكثر السلطات من إقامتها لصحة الشعب الفرنسي ، ويكشط العروق التي تقصل ما بين بلاط الشوارع . وإن له عمله الخاصة ، وهي تتألف من مختلف ضروب القطع النحاسية الصغيرة المطرقة التي يجدها المرء على الطريق العام . ولهذا العملة الغريبة ، التي يُطلق عليها اسم الـ « مزق » ، دورة نظامية لا تعرف التغيير في دنيا الاطفال النجربة الصغيرة هذه .

و « المنتشد » مجموعة حيواناته الخاصة التي يدرسها في الزوايا بعناية : بقعة الرب الرحيم ، الدودة ذات الرأس الميت ، عنكبوت الحقل ، « الشيطان » ، وهي حشرة سوداء تهددك بأماله ذيلها الملتح بترنين . وإن له غوله الحرافي إذا الحراشف تحت البطن ومع ذلك فهو ليس مجردون ، وإذا البثور على الظهر ومع ذلك فهو ليس بملجوم * - غوله الذي يعيش في ثقوب الاتان العتيقة ، والبواليع الجافة : مخلوق أسود ، مخلي ، دبى ، زحاف ، بطيء في بعض الاحيان ، سريع في بعض الاحيان ، لا يصرخ البتة ولكنه مجدق ، وهو فظيع جداً الى حد أن احداً من الناس لم يره من قبل . وهو يدعو هذا القول « الشيء الاصم » . والبحث عن « الاشياء الصم » بين الحجارة متعة

* الملجوم : ضفدع الجبل .

خطرة الى حدّ مثير . ومنعة اخرى من 'منعه' ، ان يرفع بلاط الشارع فجأة ويرى قمل الحشب . وكل منطقة في باريس مشهورة باللّقى التي يجدها المرء فيها . هناك 'حرش' * في مستودعات الحشب والفحم بال 'أورسولين' ؛ وهناك 'كثيرات الارجل' ، في الـ 'بانتيون' ، وهناك أشراخ** في خنادق الـ 'شان دو مارس' .

وهذا الطفل مشهور بأجوبته المفحمة مثل تاليران : إنه لا يقلّ عنه شكاً وسخرية ، ولكنه اكثر اخلاصاً . ولقد 'فطّر' على ضرب غريب من المزاج الطروب غير متوقع . إنه 'يذهل' صاحب الدكان بضحكك المرح الذي لا سبيل الى وقفه . إن 'سلمه' الموسيقية لتزلق من الكوميديا الرفيعة الى المهزلة الرخيصة .

وتمرّ جنازة . ويتفق ان يكون في الموكب طيب . فيصبح
'متشرد' :

- 'غريب ! من أيّ عهد بدأ الاطباء يشتمون ضحاياهم ؟'
- ويضمّ حشد من الناس 'متشرداً' آخر . ويلتفت اليه رجل مقطب الوجه زيتن نفسه بنظارة وحليّ ويقول في اشمزاز :
- 'انت ايها اللوغد ، لقد كنت نخاصر امرأتى !'
- فيجيبه 'المتشرد' :
- 'اها يا سيدي ! نعال وفتشني !'

* جمع حريش ، وهي دويبة تعرف أيضاً بأبي مفس ، وثاقب الاذن .
** جمع شرخ ، وهو ولد الضفدع .

إنه قريب إلى النفس

وفي الماء ، وبفضل بضع درجيات يعرف دائماً كيف يحصل عليها ، يدخل « الطرح » الى احد المارح . فما ان يجتاز تلك العتبة السحرية حتى ينتقل من حال الى حال . كان « المتشرد » *Gamin* ، فأسمى و منتشرد باريس ، *Tis* والمارح أشبه شيء بضرب من المراكب مقلوبة رأساً على عقب ، وقد جعل قعرها في اعلاها . وإنما يجتشد « متشردو باريس » في هذا القمر . و « متشردو باريس » بالنسبة الى « المتشرد » بمثابة الفراشة بالنسبة الى اليرقانة* . إنها هي هي ، ولكنها مزودة بجناحين يكتنهما من الطيران في الجو . وبجسده ان يكون هناك ، بأشراق سعادته ، وبقوة حماسه وبهيمته ، وتصفيق يديه الشبيه بتصفيق الاجنحة حتى يجعل من ذلك القمر الضيق ، الآسن ، المظلم ، القدر ، غير الصحي ، البسح ، المقيت قطعة من الجنة نفسها .

أعطى الكائن البشري ما لا غناء فيه ، واحرمه بما هو ضروري ، تخلق « المتشرد » .

و « المتشرد » ليس خلواً من كل ميل الى الادب . ولكن نزعت هذه - ونحن نقول هذا بالقدر الملائم من الاسف - ليست نحو الآثار الكلاسيكية . فهو بطبيعته قليل الحظ من الروح الاكاديمية . وهكذا نقول ، على سبيل المثال ، ان شعبية ماداموزيل مارس** بين هذا الجمهور الصغير المؤلف من اطفال رُثجين كانت مُتَبَلِّة بشيء من التهمك .

كان « المتشرد » يدعوها ماداموزيل « موش » *Muche* *** .

* البرقانة : الدودة التي تتحول الى حشرة .

** *Mars* كاتبة مسرحية فرنسية شهيرة (١٧٧٩ - ١٨٤٧)

*** اصطلاح عامي يؤدي معنى الشاب المحبول .

وهذا الخلق يصرخ ، ويجزأ ، ويستخّر ، ويعارك . إن له خيراً
 مثل طفل من الاطفال ، واسمياً مثل فيلسوف من الفلاسفة . وهو
 يتصيد السك في البالوعات ، ويصطاد الطير في المستنقعات ، ويعتصر
 البهجة من القذارة ، ويقذف مفارق الطرق بشمات قريحتة الوقادة .
 يتهم ويلسع ، يصفر ويغني ، يهال ويوسعُ سباً ، يلطف هللوا *
 بـ « ماتانتور لوريت » ، ويرتل من غير تفسير في لهجة الصوت جميع
 الاوزان من مزمو *de Profundis* ** حتى *Chi - en Lit* *** ، ويجد من
 غير ان يبحث ، ويعرف ما يجله . اسارطي حتى المكر ؛ مجنون
 حتى الحكمة ؛ غنائي حتى الاقذاع ، يجلس القرفصاء على الالوب ،
 ويتمرغ في المزابل ، ويخرج منها مغطىً بالنجوم . ان « منشرّد »
 باريس هو « رابليه » *** صغيراً .

إنه لا يرضى عن بنطلونه إلا اذا كان ذا جيبٍ خاص بالساعة .

وهو لا يدهش الا نادراً ، ولا يروع إلا في أحوال اكثر ندرة ؛
 وهو مجول الحرافات الى أبياتٍ من الشعر غير الموزون ويفنيها ،
 ويحطم المبالغات ، ويسخر من الفوامض والاسرار ، ويخرج لسانه في
 وجه الاشباح ، وينزع مسحة الشعر عن التمدح والفخر ، ويدخل
 الكاريكاتور على كل تضخم ملهمي . وليس مرّة ذلك الى انه ذو نزعة
 نثرية . لا ، فالمسألة بعيدة عن ان تكون كذلك . ولكنه يستمض
 عن الاحلام الفخيمة باختلاط الصور على نحوٍ هزلي ضاحك . فاذا برز

* تعبير كنسي . والكلمة عبرانية معناها « سبحوا الرب . »

** هو المزمو المنة والثلاثون ، ومعناه الحرفي « من الاعماق » .

*** اسم أغنية . ومعناها الحرفي « قناع الكارنافال » .

**** الاديب الفرنسي الشهير ، وقد سبق التعريف به .

له آدامستر * صاح :
- «مرحباً بك ، ايها الغول !»

٤

إنه قد يكون ذا غناء

تبدأ باريس بالمتبطل المضيق وقته في التعديتق الى كل شيء والاصفاء لكل شيء وتنتهي بالمتشرد - كائنات ليس ثمة مدينة اخرى جديرة بها . الرضا المنفعل الذي يكتفي بمجرد النظر ، والمبادرة التي لا تتضب . « برودوم » و « فويو » . إن باريس وحدها تعتنق هذين في تاريخها الطبيعي . إن الملكية كلها لمنطوية في المتبطل المضيق وقته . وإن الفوضوية كلها لمنطوية في المتشرد .

إن طفل الضواحي الباريسية الشاحب هذا ليعيش ، وينمو ، ويقتمع المآزق ويخرج منها ، في غمرة من الآلام ، شاهداً مُروياً على واقعنا الاجتماعي ومشكلاتنا الانسانية . إنه يحسب نفسه مُهيباً ، ولكنه ليس كذلك . وهو ينظر ، مستعداً لان يضحك ، مستعداً لشيء آخر ايضاً . ألا فليسمع التعامل ، وسوء الاستعمال ، والحزبي ، والاضطهاد ، والجور ، والاستبداد ، والبغي ، والتعصب ، والظفان . ولتعذر المتشرد ، الفاجر فاه .

إن هذا الصبي سوف يكبر .

* Adamastor أو « عملاق العواصف » شخصية روائية ابتدعها كاموثين اكبر الشعراء البرتغاليين في قصيدته Lusitades حيث يروي مغامرات فاسكا داغاما ، فما إن يعتم المكتشف البرتغالي الشهير اجتياز « رأس العواصف » الذي دعي في ما بعد « رأس الرجاء الصالح » حتى يبرز له هذا العملاق ويمنعه من الذهاب إلى ابد .

من أيّ طين 'جبل' ؟ من حماة الشارع الاولى . حفنة من وحل ،
 ونفخة ، فاذا آدم بين يديك ا يكفي ان يمرّ ربّ من هناك . ولقد
 مرّ بالمشرد رب ما ، دائماً . فلاحظ أثره في هذا الكائن الصغير . وانما
 نعني بكلمة الحظ هذه ، المصادفة بعض الشيء . والان ، أبعد لهذا
 القزم المجهول بالتراب العام الغليظ ، هذا الجاهل ، الأمي ، المروع ،
 السوقي ، الفوغائي ، ان يصبح أروياً * أم بيوتياً ** ؟ إنْتَظِرْ فأن
 curris nota روح باريس ، هذا للشيطان الذي يخلق أولاد المصادفة ورجال
 القدر ، عاكساً عمل الحزاف اللاتيني ، يصنع من الجرة زهرية نقية .

٥

حلموده

إن « المتشرد » يحب المدينة ، ويحب العزلة ايضاً ، إذ كان فيه
 شيء من الحكيم . انه *urbis amator* * مثل فوسكوس و *rustici amator* **
 مثل فلاكوس .

إن النكع المتفكر ، يعني التبطل ، هو عند الفيلسوف وسية حسنة
 من وسائل قتل الوقت ، وبخاصة في ذلك الضرب من الريف النفل ،
 البشع ولكن الغريب ، والمكون من طبيعتين ، الذي يسيطر بعض

conton نسبة الى « أيونيا » في آسيا الصغرى القديمة . وكانت لهجة الايوبين
 اليونانية معروفة بالذوبة والركة .

.. *beotton* نسبة الى « بيوتيا » وهي من مقاطعات بلاد الاضيق القديمة ، ويصرف
 اهلها بالجلالة وعدم المبالاة بالجمال الفني .

*** في اللاتينية ، وتعني : « هاوي المدينة . »

**** في اللاتينية ، وتعني : « هاوي الريف . »

المدن الكبرى ، وبيارس على وجه الخصوص . إن دراسة ضاحية ما لا تعدو ان تكون دراسة لمزدوج الطبيعة . نهاية الاشجار ، وبداية المنازل ؛ نهاية الاعشاب ، وبداية الطرق المعبدة ؛ نهاية الانلام ، وبداية الدكاكين ؛ نهاية آثار العجلات العميقة ، وبداية الآلام ؛ نهاية الحريق الالهي ، وبداية الضوضاء البشرية . ومن هنا كان الاهتمام بها قائماً العادة .

من هنا كانت هذه المواطن غير المغرية ، الموصوفة دائماً بأنها كثيبة هي المواطن التي يختارها الخالم لتزهاته التي تبدو وكأن ليس لها هدف ما .

ومديح هذه السطور تسكع دهرآ طويلاً حول « باب بارس » ، ولقد أفاده ذلك مَعِيناً من الذكريات البعيدة الغور . فهذا العشب الحليق ، وهذه الازقة الكثيرة الحجارة ، وهذه الطباشير ، وهذا التراب الكلسي المزوج بالصالح ، وذلك الجبسين ، وتلك الرتبة النظفة التي تتكشف عنها الاوض الموات والاراضي التي لم تُرَوَّع ، وطلانغ نباتات البتانيين وقد لُحِت فجأة في ارض غائرة ، وذلك المزيج المؤلف من برّي ومدينيّ ، وهذه الرقع الواحة المقفرة حيث يقم طبالو الحامية مدرستهم الصاخبة ويقلدون دمدمة المعركة ، وهذه العزلة التامة نهاراً ، وتلك المهالك ليلاً ، والطاحون العجوز المتقلقة التي تدور مع الريح ، والدواليب الرافعة للانتقال في مقالع الحجارة ، والحانات القائمة عند زوايا المقابر ، والحر الحفي الذي لتلك الجدران الكالحة العالية التي تقطع على نحو مربع اراضي متراصة الاطراف لا تكاد ترى في المدى البعيد إلا رؤية ضبابية ولكنها مفرقة بأشعة الشمس ، حافة بالفراشات - كل اولئك كان يجذبه ويأخذ بجامع قلبه .

ولعله لا يوجد فوق ظهر الارض احد لا يعرف هذه المواطن الفريدة : « لا غلاسير » ، و « لا كونيت » ؛ وجدار غرونيل

المائل المرتش بقذائف المدافع ؛ والد « مون يارناس » ؛ و « لا فوس »
 أو « لو » ؛ وشجرات البندق البيضاء على ضفاف المارن العالية ؛
 والد « مون سوري » ؛ و « لانومب إيسوار » ؛ و « لا بيير بلات
 دو شاتيون » ، حيث يوجد مقلع حجارة مستنقذ لم يعد يصلح لغير
 إنبات الفطر ، فهو موحد على مستوى الأرض بباب يُرفع ويوضع
 باليد ذي ألواح منتهرة . و « ريف رومة » ، فكرة . و « ضاحية باريس »
 فكرة ثانية . وليس إلا سطحياً ذلك النظر الذي لا يري في كل ما
 يشكّل أفقنا غير حقول ، وبيوت ، وأشجار . إن مظاهر الأشياء هي
 أفكار الهمية . والمكان الذي يتصل عنده السهل بالمدينة يحمل دائماً طابعاً
 لا سبيل الى وصفه من الكتابة العميقة . هناك تحاطبك الطبيعة وتحاطبك
 الانسانية في آنٍ معاً . هناك تبرز الأصالات المحلية .

وكل من هام على وجهه ، مثلنا ، في تلك البقاع المنعزلة المحاذية
 لضواحيننا التي نستطيع ان ندعوها « تيمبوس » * باريس ، قد لمحح
 هنا وهناك ، في البقعة الاكثر إقفاراً ، ولحظة كان على غاية من عدم
 التوقع ، خلف سياج مهزول من الاشجار الشائكة ، او عند زاوية
 جدار كثيب ، أطفالاً مجتمعين على نحو مشوش ماخب ، اطفالاً ساهبي
 الوجوه ، موّحلين مغتربين ، ممزقي الثياب ، متنفسي الشعر ، يلعبون
 لعبة المذبة والوند متوّجة بالنفج ، انهم جميعاً أطفال آبقون من
 الأمر الفقيرة . إن الجادة الخارجية هي مدام التنفسي ، وان الضاحية
 ملكهم . هناك كان من دأبهم ابدأ ان يتزهوا بدلاً من الذهاب الى
 المدرسة . هناك يغنون ، في براءة ، مجموعة اغانيهم القذرة . إنهم هناك ، او

* ألبتوس ، في العميدة الكاثوليكية ، موطن بين الجنة والجحيم تستقر فيه
 ارواح الرجال الصالحين الذي توفوا قبل مجيء المسيح كما تستقر فيه ارواح الاطفال
 الذين ماتوا قبل أن يسمدوا . وهذا يذكر بالأعراف في العميدة الاسلامية ، وهو
 سور بين الجنة والنار .

على الاصح ، انهم يعيشون هناك ، بعيدين عن كل عين ، وسط اشعة نوار او حزمون الرفيقة ، راكمين حول حفرة في الارض ، لاعبين بالكرات ، متنازعين على ارباع الدسو ، متحررين من المسؤولية ، مرسي الاجنحة ، مطلق السراح ، سعداء . فما إن يروا اليك ، حتى يتذكروا أن لهم صناعة ، وان عليهم ان يكسبوا رزقهم ، فاذا بهم يعرضون عليك ان تشتري جورباً صوفياً عتيقاً مليئاً بالخنافس او باقة من الزنابق . وهذه الاجتماعات بالاطفال الغريبيين هي احدى الميكنة اللغائنة ، المحزنة في الوقت نفسه ، التي يقع عليها المرء في ضواحي باريس . وقد يكون بين هذا الحشد من الغلمان ، في بعض الاحيات ، بضع قتيات صغيرات - أهن أخواتهم ؟ - يكدن ان يكن شابات ، مهزولات ، محومات ، خلعت عليهن الريح للساعة ضرباً من التقافيز ، وعلا للنش وجرهين ، واتخذن قبعات من سنابل الجاودار والحشاش البري ، منبهجات ، شاردات الأبصار ، حافيات الأقدام . إننا لئرى بعضهن يأكلن حبات الكرز وسط القمع الناهض على سوقه . واننا لنسمن في الماء يضحكن . والواقع ان هذه الجماعات ، التي تجلوها أشعة الظهيرة القوية جلاء دافئاً ، او التي تلمح في الفسق ، لتشفل المتأمل فترة طويلة ، فتختلط هذه الرؤى بأحلامه .

باريس نقطة الدائرة ؛ والضاحية يحيط هذه الدائرة . - ذلك هو العالم كله عند هؤلاء الاطفال . انهم لا يفامرون في الذهاب الى مسا وراه ابدأ . وليس في استطاعتهم بعد ان يعيشوا خارج الجو الباريسي اكثر مما يستطيع السك ان يجيا خارج الماء . فعلى بُعد فرسخين من باب المدينة ، لا يوجد في نظرم شيء . إن داييري ، ، ود جانتني ، ، ود آر كوثي ، ، ود بيليل ، ، ود اوفيليه ، ، ود مينيلوتان ، ، ود سوازي لو روا ، ، ود بيلانكور ، ، ود مودون ، ، ود ايسي ، ، ود فانف ، ، ود سيفر ، ، ود بوتو ، ، ود نوثي ، ، ود جينفيليه ، ، ود كولومب ، ، ود رومانفيل ، ، ود شاتو ، ، ود آسيير ، ،

و « بوجفال » ، و « قانتير » ، و « آنفيان » ، و « نوازي لو
سيك » ، و « نوجان » ، و « غورقاي » ، و « دوانسي » ،
و « غونيس » - عند هذه المواطن ينتهي الكون .

٦

قليل من التاريخ

في تلك الفترة - برغم انها تكاد تكون معاصرة - الجارية فيها
أحداث' هذه القصة ، لم يكن ثمة ، كما هي الحال اليوم ، ضابط بوليس عند
كل زاوية من زوايا الشوارع (وهي حنة ليس لدينا منسج من
الوقت للاسهاب فيها) ؛ كانت باريس تغص بالاطفال المتسكمين .
وتشير الاحصاءات الى ان نحواً من مئتين وستين طفلاً لا مأوى لهم -
في المتوسط - يقبض عليهم البوليس سنوياً ، في الاراضي غير المبيجة ،
وفي البيوت التي لمّا يتمّ تشييدها ، ونحت قناطر الجور . ولقد أنتج
احد هذه الاعشاش ، ولا يزال شهيراً الى اليوم ، « سنونو جر
آركولا » . والى ذلك ، فهذا هو أشدّ أعراضنا الاجتماعية أذىً
وتخريباً . إن جميع جرائم الانسان لتبدأ بتشرد الاطفال .

ومع ذلك فيتعين علينا ان نرتضي باريس . وهذا الارضاء حق ،
الى درجة نسبية ، وبرغم الذكوى التي استرجعناها منذ لحظة . فبينما
نجد في كل مدينة كبيرة اخرى ان الطفل المتكع هو الرجل المالك ؛
وبينما نجد في جميع المواطن تقريباً أن الطفل المستفرك في بطائه قد نذر
نفسه واستسلم ، بمعنى من المعاني ، لضرب من الانغماس المشؤوم في
الردائل العمومية التي تقفوس فيه الحشنة والضمير ، نرى ان متشرد
باريس - ونحن نصرّ على ذلك - برغم خشونته البالغة ، واتلام شره

في الظاهر - يكاد يكون سليماً لم يس ، باطنياً . وانه شيء رائع
جدير بالتأمل ، شيء يلتمع في الطهارة الجيدة التي نكتشف عنها ثوراتنا
الشمسية : أن نزاهة ما ، تنشأ عن الفكرة التي تملأ هواء باريس كما يملأ
الملح ماء المحيط . إن استنشاق المرء هواء باريس يحفظ عليه نفسه .

وما نقوله ههنا لا يُزيل ، مجال من الاحوال ، انقباض الصدر الذي
نستشعره كلما التقينا واحداً من هؤلاء الاطفال الذين يتواهى انا وكان
روابط الاسرة المتهدمة تطفو من حولهم . فني حضارتنا الحالية ، التي
ما تزال بعيدة جداً عن الكمال ، ليس من غير السوي ان نرى كسيرات
الأسر هذه تنفوخ نفسها في الظلام ، غير عاقفة ، الا نادراً ، ما الذي
حل بأولادها ، طارحة فلذات من حياتها على الطريق العام . ومن هنا
تنشأ المقادير المظلمة . وهذا ما يُعرف - ذلك ان الشيء الحزين قد
صاغ مصطلحه - بـ « إلقاء الطفل على حصاب الطريق في باريس » .

ولتقل بالمناسبة ان هذا التخلي عن الاطفال شيء لم تعمل الملكيات
القديمة قط على إخماده . إن قليلاً من مصر ومن بوهيميا في الطبقات
الدنيا قد لامم الطبقات العليا ولبى مصالح الاقوياء . ان كراهية
تعليم اطفال الشعب كانت عقيدة جوهرية . أي فائدة ترتجى من الانوار
الجزئية ، ؟ ذلك كان شعارهم . ومن هنا كان الطفل المتسكع حصية
الطفل الجاهل .

وفوق هذا فقد كانت الملكية في حاجة الى الاولاد؛ وهكذا
ألفت على الشوارع نظرة خاطفة .

ففي عهد لويس الرابع عشر - لكي لا نذهب الى ابعد - رغب الملك
بمحق ، في ان ينشئ اسطولاً . كانت الفكرة جيدة . ولكن لننظر
الى الوسيلة . إن بلداً ما ، لا يستطيع ان يملك اسطولاً اذا لم يكن ثمة ،
الى جانب السفينة للشرعية ، دمية الرياح ، مركب آخر قادر على ان
يجري بالمجداف او بالبخار الى حيث يريد لكي يقطرها عند الحاجة .

وآنذاك كان سجن الاشغال الشاقة بالنسبة الى الاسطول بمثابة السجن البخارية اليوم . ومن هنا ، كان ينبغي ان تكون ثمة سجون خاصة بالاشغال الشاقة . ولكن سجون الاشغال الشاقة لا تتحرك الا بالاشغالين . واذن ، فيجب ان يكون ثمة اشغالون . ومن طريق البرمائيات ومدراء المقاطعات صنع كولبير * اكبر عدد ممكن من رقيق الاشغال الشاقة . ونهض القضاء بالهمة في حماسة . لقد أبقي رجل^١ قبعته على رأسه أمام موكب ديني^٢ ، وهي عادة هوغونونية ، فأرسل الى سجن الاشغال الشاقة . وكان الشرطة اذا ما وجدوا في الشارع غلاماً قد بلغ الخامسة عشرة ولم يكن له مكان بيت فيه ، ساقوه الى سجن الاشغال الشاقة . عهد^٣ عظيم وعصر^٤ عظيم .

وفي ظل لويس الخامس عشر اختفى الاطفال من باريس . لقد حاقهم البوليس لغرض خفي^٥ لم يدرك احد^٦ ما هو . وتهاصم الناس باحداس رهيبه مروعة عن حمامات الملك الارجوانية . وانما يتحدث بارييه ** ، في سذاجة ، عن هذه الاشياء . ولقد اتفق في بعض الاحيان ان الضباط ، وقد اعوزهم الاطفال ، اخذوا بعض من كان لهم آباء . وهجم الآباء ، بالسين ، على الضباط . وفي مثل هذه الاحوال كان البرلمان يتدخل ويشتق - من ؟ الضباط ؟ لا . الآباء !

* Colbert رجل الدولة الفرنسي المشهور (١٦١٩ - ١٦٨٣)

** Barbier مؤرخ فرنسي معروف (١٦٨٩ - ١٧٧١) أرخ للعبة المتدة ما بين

عام ١٧١٨ و عام ١٧٦٣ .

سوف يحتل المشرد مكانه

بين طبقات الهند

إن أخوية المشردين الباريسية تكاد ان تكون طبقة من طبقات الهند الاجتماعية المغلقة . وفي استطاعة المرء ان يقول : ان احداً لا يريد ان تكون له علاقة بهم .

وكلمة « المشرد » هذه طُبعت أول ما طُبعت ، وانتقلت من اللغة العامية الى لغة الادب ، عام ١٨٣٤ . وانما كان ظهورها للمرة الاولى في كتيب اسمه « كلود فو » *Claude Guenz* . ولقد احدث ذلك هزةً عنيفة . وسرت الكلمة وحازت القبول

والعناصر التي هي قوام الأجلال بين المشردين مختلفة جداً . فقد عرفنا وجربنا واحداً كان يتمتع باعظم الاحترام ومحظى باكبر الاعجاب لانه رأى رجلاً يسقط من ابراج نوتر دام ؛ وآخر لانه وُفق الى ان يشق طريقه الى الفناء الخلفي حيث وضعت مؤقتاً تماثيل قبة الانفاليد وسرق بعض الرصاص ؛ وثالثاً لانه بَصُرَ بعربة مسافرين منقلبة رأساً على عقب ؛ ورابعاً لانه عرف جندياً كاد يفتق عُنين رجلٍ من البورجوازيين .

وهذا يفسر ذلك التعجب الذي أرسله مشردٌ باريسي ، وانها لزفرة عميقة يسخر منها الدهماء من غير ان يفهموا : « اوه ، يا الهي ! يا اله الآلهة ! الستُ ميه الحظ ؟ فكو أني لم أرَ الى الآن شخصاً يسقط من الطابق الخامس ! » ، ناطقاً بهذه الكلمات بغتة خاصة لا سبيل الى التعبير عنها .

وما أجملها كلمة تصدر عن فلاح ! يقول احدم : « يا أبا فلان ، إن الداء قد أمات زوجتك ؛ فلمَ لم تستدع طبيباً ؟ » فيجيبه الآخر : « ولماذا يا سيدي ؟ اننا نحن الفقراء يجب ان نموت بانفسنا ! » ولكن اذا كانت انفعالية الفلاح كلها منطوية في هذه الكلمة فان جميع الفوضوية المتحررة التي تسمي طفلاً الضواحي منطوية في هذه الكلمة الاخرى : كان احد المحكوم عليهم بالموت يصفي الى الكاهن المعرف الجالس أمامه في العربة التي نقلته الى المشقة . فصاح أحد غلمان باريس : « إنه يتحدث الى كاهنه . أوه ، يا له من جبان ! »

إن قدرأ من الجرأة في الامور الدينية ليرفع من شأن « المتشرد » . فلأن يكون المرء متزناً شيئاً ليس بالقليل .
وهم يرون ان من واجبه ان يشهدوا بإعدام المحكوم عليهم بالموت . إنهم يشيرون الى المقصلة ويضحكون . وهم يخلمون عليها مختلف الالقاب : « نهاية الحساء » - و « العاوية » - و « الام السماوية » - و « القعة الاخيرة » الخ . الخ . ولكي لا يفقدوا شيئاً من المشهد ، ترام يتسورون الجدران ، ويتسلقون الشرفات ، ويصعدون الى رؤوس الاشجار ، ويتعلقون بالقضبان الحديدية ، وينشبتون بالمداخن . « المتشرد » يولد بناء سطوح كما يولد ملاحاً . والسطح لا يوقع في نفسه من الخوف اكثر مما يوقعه الصاري . وليس من عيد يعدل ساحة الاعدام : « لا غريف » . وشمشون والاب مونتيز هما الاسمان الشعبان حقاً . إنهم ينادون المحكوم عليه بالموت لكي يشجعوه . وهم يعلنون ، في بعض الاحيان ، عن إعجابهم به . ولقد لفظ المتشرد ، لاسينيرو ، عندما رأى « دوتان » الرهيب يموت بشجاعة ، هذه الكلمة المفعمة بالمستقبل : « لقد حسدته ! » . وفواتير غير معروف عند أخوية المتشردين ، ولكنهم يعرفون « بابافوان » جيداً . إنهم يمزجون رجال السياسة بالمجرمين ، في الخبر الواحد . وهم يروون الاحاديث عن آخر

الملابس التي ارتداها كلٌ منهم . إنهم يعرفون أن « توليون » اعتمر
 بقلنسوة وقناد ؛ وأن « آفريل » اعتمر بقبعة ذات حافة ، مصنوعة
 من جلد كلب الماء ؛ وأن « لوفيل » اعتمر بقبعة مستديرة ؛ وأن
 « دولابورت » المعجوز كان أصلع حاسر الرأس ؛ وأن « كاستينغ »
 كان متورّد الوجنتين بالغ الجمال ؛ وأن « بوريس » كان ذا لحية صغيرة
 حلوة ؛ وأن « جان مارتن » احتفظ بجماله بنظونه ؛ وأن « لاكوفيه »
 وأمه تخصما . ولقد صاح احد المتشردين في وجه هذين الاخيرين :
 « لا ننتلدا الآن العربة التي تحملكما ! » ولكي يرى متشرداً آخر
 « ديباكر » يمرّ - وكان ذلك المتشرد قصيراً وسط الحشد - راح
 يتسلق عموداً من أعمدة المصابيح عند الرصيف . فعبس دركيّ كان هناك
 في وجهه . فقال المتشرد : « دعني اتسلق ، يا سيدي الدركي . »
 ولكي يلطّف من نعمة مثل السلطة أخاف : « أنا لن أقع ! » فأجابه
 الدركي : « أنا لا أبالي أوقعت أم لم تقع . »

وللعادة التي لا تنسى قيمة كبيرة في أخوية المتشردين . وإنما
 يبلغ أحدهم قمة المجد اذا ما اتفق أن يجرح نفسه جرحاً بليغاً حتى
 العظم ، كما يقولون .

وقبضة اليد ليست وسيلة هزيلة من وسائل الاحترام . ومن
 الاشياء التي يولع « المتشرد » بتوذيدها ولوعاً شديداً قوله : « أنا
 قوي جداً ، أنا ! » . ولأن تكون أعسرَ يحطك عندم موضع
 الحسد . والحول ، في نظرم ، مدعاة الى الاحترام العظيم .

حيث نقرأ كلمة فاتنة للملك السابق

وفي الصيف ، يمشي نفسه الى ضفدعة . وفي الماء ، حين يجتاز الليل
تجاه جسرَيّ أوسترليتز وبيننا ، ينبثق من أطراف الفصم ومن مراكب
الغسالات ويفطس مخفوض الرأس في الدارين ، وفي مختلف ضروب
الحرق لقوانين الحشمة والبوليس . بيد ان شرطة المدينة له بالمرصاد ،
ومن هنا كانت تنشأ عن هذا الوضع حالة مسرحية الى حد بعيد اذت في
احدى المناسبات الى ارسال صيغة أخوية لا تنسى . وهذه الصيغة ،
التي كانت شهيرة حوالى عام ١٨٣٠ ، هي تنبيه استراتيجي من « متشرد »
الى « متشرد » . إنها مُقطّعة مثل بيت من شعر هوميروس ، في
اسلوب من الاختزال يكاد يمنع على التفسير امتناع ألحان عبد * مينيرفا
الأيولوسينية ** ، وتذكر مرة اخرى بـ « ايفويه » *** العتيقة .
وهذه هي : « اوهيه ، ايها المتشرد ، اوهيه ! انظر هناك ! إنهم
قادمون ليقبضوا عليك ! خذ ثيابك ، واهرب من خلال البالوعة ! »
وفي بعض الاحيان يكون في ميسور هذه الذبابة الصغيرة - وهو القلب
الذي يجلمعه هو على نفسه - ان تقرأ . وفي بعض الاحيان يكون في
ميسورها ان تكتب ، ولكنها تعرف دائماً كيف « تخربش » .
و « المتشرد » يكتسب بتعليم خفي متبادل لنا نعرفه جميع المواهب

* عند قدماء اليونان .

** نسبة الى ايلوليس ، وهي مدينة في بلاد الاغريق القديمة ، في آبيكا ،
حيث كانت تقام الاحتفالات الدينية على شرف الآلهة سيريس .
*** Evohé آناه نداء وتعب في اللاتينية ، وكانت ترسلها كاهنات بانوس
الراقصات وهنّ شعث الثور ، متوجات الرؤوس بالبلابل ، حاملات الصبي ذات الرؤوس
الصنوبرية الشكل في ايديهن ، مطلقات صيحات متتارة .

المسكنة النفع في القضايا العامة . فمن سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٣٠ فسد
صياح الديك الرومي ؛ ومن سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٨ كان من دأبه
أن يرسم إجازة على الجدران رسماً متعجلاً رديئاً . وذات امسية من
امامي الصيف ، فبا كان لويس فيليب عائداً الى قصره ماشياً ، بصراً
بواحد منهم ، صغير جداً ، لا يزيد طوله على هذا المقدار ، يتصبب
العرق منه ، ويرفع نفسه على رؤوس اصابعه لكي يرسم بالنعم إجازة
هائلة على أحد أعمدة باب دو 'نوني' . فما كان من الملك ، بتلك السذاجة
التي ورثها عن هنري الرابع ، إلا أن ساعد المتشرد وأتم رسم الاجازة ،
وأعطى الغلام ليرة ذهبية لويبة قائلاً : « الاجازة موسومة على
هذه ايضاً ! » ، والمتشرد يحب الجلبة والصخب . فالعنف والضجة يروقان
له . إنه يمقت الكهنة . وذات يوم ، في « شارع الجامعة » ، كانت
'تخرج لسانه استهزاءً عند باب العربات رقم ٦٩ . فسأله عابر سبيل :
« لماذا تفعل ذلك عند هذا الباب ؟ » فأجابه الغلام : « إن هناك
كاهناً ا ، وكان ذلك ، في الواقع ، مقر السفير البابوي . ومع ذلك ،
ومهما تكن نزعات « المتشرد » الفولتيرية قوية ، فانه ما إن تسنح له
الفرصة التي تمكنه من ان يصبح منشداً في الجوقة الكنسية حتى يسارع
الى انتهازها ، وفي مثل هذه الحال يخدم القديس في أدب . وثمة شيان
لا سبيل له الى بلوغهما ، فهو يتوق اليهما ابدأ ، ولكن على غير طائل :
أن يقلب الحكومة ، وان يوقع بنطلونه .

والمتشرد ، في أكمل أحواله ، يعرف جميع رجال الشرطة الباريسية ،
فما ان يلتقي واحداً منهم حتى يلمص اسمه على وجهه . إنه يحرص على
اصابع يديه . إنه يدرس اخلاقهم ويضع ملاحظاته الخاصة عن كل منهم .
إنه يقرأ نفوسهم وكأنما يقرأ كتاباً مفتوحاً . وهو يقول لك على البديهة
ومن غير تردد : « فلان خائن . » - « فلان خبيث جداً » - « فلان
عظيم » . « فلان مضحك » (وجميع هذه الكلمات : خائن ، خبيث ،

عظيم ، مضحك ، لها في فيه معنى خاص) « هذا الشرطي يتوهم ان « الجسر الجديد ، ملكه ويمنع العالم من التنزه على الكورنيش خارج الحواجز . وذاك الشرطي عنده هوسٌ بشدة آذان الناس ! ، الخ . الخ .

٩

روح غالة ◊ القديم

كان ثمة شيء من هذا الغلام في بوكولين ** ، ابن السوق . وكان ثمة شيء منه في بومارشيه . *** والواقع ان اسلوب « المتشرد » في الحياة لا يعدوان يكون ظلًا من ظلال الروح الغالي . وهذا الاسلوب ، اذا ما مزج في حكمة ، يعطي المرء في بعض الاحيان قوةً جديدةً ، كما تفعل الكحول بالخر . وهو في بعض الاحيان ناحية ضعف . إن هوميروس يكرر الكلام على غير طائل . ليكن ذلك . وفي استطاعة المرء ان يقول ان فولتير يمثل دور « المتشرد » . ولقد كان كامبل ديولن من ابناء الاحياء الخارجية العتيقة . أما سامبيونيه **** الذي جعل المعجزات وحشيةً فكان غلاماً من غلمان الشوارع الباريسية ؛ لقد اجتاح ، وهو بعدُ صغير ، أروقة سان جان دو بوفيه وسان ايتيين دو

◊ غالة او بلاد الغال هي فرنسة القديمة .

** يقصد مولير . وكان والده ، جان بوكولين Poquelin ، سانع سجاد .

*** Beaumarchais كاتب فرنسي (١٧٣٢ - ١٧٩٩) . اعبر آراه « حلاق

لشبيبة » و « زواج فينارو » .

**** Championnet قائد فرنسي (١٧٦٢ - ١٨٠٠) نظم الجمهورية التي

اتمامها الفرنسيون في نابولي عام ١٧٩٩ وكان رجلاً زعيماً وانسانياً .

مون . وكان قد لعا مع صندوق ذخائر القديسة جانفريف الى حد
كاف لايقاع الفشتج في قارورة القديس جانفريف المقدسة .
ومشرد باريس محشم ، ساخر ، متفطرس . إن اسنانه قبيحة ،
لأنه يشكو سوء التغذية ولأن معدته تؤلمه ، وإن عينيه جيلتان لان له
نصباً من العبقرية . وخليق به ان يطفر مرتقياً سلم الجنة في حضرة
« جود » نفسه . وهو ماهر في الملاكمة باليدن والرجلين معاً . وكل
ضروب النمو يمكنه بالنسبة اليه . إنه يلعب في الساقية وينتصب ثانية
بالثورة . ووقاحت لا تشفيها القذائف ؛ فقد كان ولدأ طائشاً . إنه
بطل ! وهو مثل الطيبي * الصغير يزر جلد الاسد . وبارا الطبال كان
مشرداً من مشردى باريس . إنه يتفد الى الامام ! ، كما يقول
جواد التوراة « ها ! ها ! ها » ، وينتقل في لحظة من طفل الى عملاق .
وغلام المائة هذا هو غلام المثل الأعلى أيضاً . قس مدى انبساط
الجناح هذا المتمدن من مولير الى بارا .
وعلى الجملة ، ولكي نوجز ذلك كله في كلمة ، نقول إن المشرد
مخلوق يعبت ويلهو لأنه تعس .

١٠

هي ذي باريس ، هوذا الانسان

ولكي نوجز مرة اخرى نقسول إن مشرد باريس اليوم شبه شيء
به غريكولوس * رومة في العصور القديمة . إنه الشعب طفلاً ،
وقد تبدت نجايد العالم القديم على جبينه .

* نسبة الى طيبة ، عاصمة بيوتيا ، احدى مقاطعات بلاد الاغريق القديمة .

** Graculne لفظة لاتينية تعني الاغريقي .

المشرد نعمة من نعم الله على الأمة ، وهو في الوقت نف مرض
من امراضها . مرضٌ ينبغي ان يعالج . كيف ؟ بالضياء .

الضياء بشفي .

الضياء ينور .

إن جميع الاشعاعات الاجتماعية السخية لتفتق عن العلم ، عن الادب ،
عن الفنون ، عن التعليم . اصنعوا رجالاً ؛ اصنعوا رجالاً . امنحوم
الضياء لكي يعطوكم الدف . وسواء عاجلاً أم آجلاً ، ستعزل مسألة التعليم
الشامل الباهرة مكانها بسلطان الحقيقة المطلقة الذي لا حيل الى مقاومته .
وعندئذ سيتعين على اولئك الذين يحكمون تحت اشراف الفكرة القرنية
ان يختاروا واحداً من أمرين : أطفال فرنسة ، او مشردي باريس ؛
شعل في الضياء ، او شهب في الظلام .

المشرد لسان حال باريس ، وباريس لسان حال العالم .

ذلك بأن باريس حاصل جمع . باريس ذروة الجنس البشري . إن
هذه المدينة العجيبة كلها هي مجمل الاخلاق والعادات الميتة والاخلاق
والعادات الحية . ومن يرى باريس يُخيل اليه أنه يرى التاريخ كله ويرى
السماء رابراجها في اثناء ذلك . في باريس كايبتول * ، وهو الـ اوتيل
دو فيل ، ** . وفيها بارتينون *** هو نوتردام **** وفيها هـ مون
آفانتين ***** هي ضاحية سان انطوان . وفيها آسبناريوم هو

* Capitole هيكل جوبيتير القائم على احدى التلال السبع في رومة القديمة .
** Hôtel de Ville مقر بلدية باريس ، وقد بديء بنيته عام ١٥٣٣ وأتم عام
١٦٢٣ ثم جدد ووسع في عهد الملك لويس فيليب ، ثم اتت عليه النار عام ١٨٧١ فأعيد
بناؤه من عام ١٨٧٢ - ١٨٨٢ .

*** parthénon هيكل ايتنا الشير الذي زخره بدياس .

**** كاتدرائية نوتردام دو باري الشهيرة .

***** Mont - Aventin احدى التلال السبع التي بنيت عليها مدينة رومة .

للسوربون . وفيها باتييون * هو البانتييون . وفيها
 « طريق مقدس » ** هو جادة الايطاليين . و « برج رباح » *** هو
 الرأي العام : وهي تعوض عن ال « جيمونيا » **** بالسخرية . إن
 « ماجور » ***** باريس هو المفاجئ ؛ وإن ال « ترانستيفرينو »
 فيها هو ابن الضواحي القديمة ، وإن حملها ***** هو رجل السوق
 القوي ، و « لازارونها » ***** هي جماعة اللصوص بوصفها طبقة
 اجتماعية ؛ وال « كوكني » ***** فيها هو الشاب المتأنق المضحك .
 إن كل ما تقع عليه في سائر المدن موجود في باريس . فبائعة سمك
 « دومارسيه » ***** تستطيع ان تحافظ على مركزها امام
 بائعة اعشاب يوريبيديس . وفيجانوس قاذف القرص يجيبا من
 جديد في شخص فوربوسو الراقص على الحبال . وثيرابونتيغونوس ميل

* Pantheon هيكل شهر شيد في وسط ساحة مارس برومة وقد اتم بناؤه
 فيباليوس آغريا . اما باتييون باريس فأثر باريسي مشيد على « الطراز الاغريقي الجديد »
 ما بين ١٧٥٤ و ١٧٨٠ .

** Via Sacra طريق رومة من البالين ال السكاينول مرأ بالفوروم ، وكان
 يلكه اللانجون والمتصرون .

*** Tour des Vents وقد شيد آندرويلغوس في اثينا (القرن الاول قبل الميلاد)
 على شكل مشن الزوايا وجل على كل وجه من وجوهه صورة مجسة تمثل هذه الريح
 او تلك .

**** Gémonies في رومة القديمة ، سلم تهبط الجانب الشمالي للترني من جبل كايتولين
 حيث تعرض جث المحكوم عليهم بالموت ويثا يقذف بها الى نهر التيبر .

***** majo لقب يطلق على التأتين في اسبانية الجنوبية .

***** Transtévérin لفظ كان يطلق في رومة على سكان ما وراء التيبر .

***** وردت هذه الكلمة هكذا في الاصل الفرنسي مرسومة بالحرف اللاتيني Hammal

***** Lazzarone كلمة يطلقها اهل نابولي على أحط طبقات الشعب .

***** Cockney لفظة انكليزية تعني اللندي الجاهل وتطلق بخاصة على الحى
 المروف بال East End

***** Dumarsais كالب ونحوي فرنسي (١٦٧٦ - ١٧٥٦)

يستطيع ان يمضي ويده في يد فادبونكيو رامبي القنابل . وداماسب
 المتاجر بالتحف على سبيل الاتفاق خليق به ان يكون سيداً في
 الدكاكين التي تبيع السلع الجيدة والرخيصة في وقت معاً . وجده
 بفانسان * ان تلقي القبض على سفاط كما تضع الـ و آغورا ، **
 ديدرو في صندوق حديدي . ولقد اكتشف غريمو دو لا رينبير لحم
 البقر المحمر المطبوخ بدنه نفسه كما اخترع كورنيوس القنفذ المشوي .
 ونحن نرى من جديد تحت منطاد قوس النجمة ، ذلك المربع المنحرف
 الذي تحدث عنه بلوتوس *** . واكل الأسياف الذي التقاه أبوليوس
 *** في الـ و بوسيلوم ، ***** هو مبتلع السيوف ذوات الحد
 الواحد في الـ و بون نوف ، . وابن اخت و رامبر ، *****
 و كوركيون ، ***** الطفلي بشكلان زوجاً . ويقوم ديفروفوني
 بتقديم إرغاسيوس في صالون كامباسيريس ***** . وفي استطاعة المرء ان
 يرى شبان رومة الأربعة المعجبين بأنفسهم ، آلسيبارثوس ، وفودروموس
 وديابولوس ، وآغريبا ، عبطون الـ و كورتي ***** في مركبة برید

* Vincennes مدينة فرنسية في شمالي فرنسا، شرقي باريس، ولها قصر اثري وكنيسة
 بالغة الجمال .

- ** Agora لفظ يطلق على الساحة الرئيسية في المدن الاضريقية القديمة .
 *** Plaute شاعر هزلي لاتيني (٢٥٠ - ١٨٤ ق م)
 **** Apulée كاتب لاتيني من اهل القرن الثاني للبلاد .
 ***** Pœcillum رواق في آتينا مزدان بالرسوم اللبية .
 ***** Rameau مؤلف موسيقي فرنسي (١٦٨٣ - ١٧٦٤)
 ***** Curculion هو بطل مسرحية هزلية للشاعر اللاتيني بلوتوس تحمل اسمه .
 ***** Cambacérés سياسي فرنسي (١٧٥٣ - ١٨٢٤) كان رئيساً لمؤتمر
 الوطني بعد يوم ٩ ترميدور (أو ٢٧ تموز سنة ١٧٩٤ وهو اليوم الذي أسقط فيه
 روببير وانتهى عهد الارطاب)
 ***** La Courtille حي من احياء باريس القديمة اشتهر بكثرة حافاته .

لابانوت . ولم يقف آلوس جيلوس * أمام كونفرير أطول بما وقف شارل نوديه ** امام بوليشبيل *** . إن ماوتون ليست نيرة ، ولكن بارداليسكا لم يكن تيناً . ونرى بانتولابوس المهرج يضحك من نومتانوس المنغمس في اللذات في المقهى الانكليزي ، وهيرموجينوس **** صادقاً في لهو شان زيليزيه ، وحوله ثراسيوس الشاذ في زي يويش ***** يجمع الصدقات . والملاح الذي ينثبث بأزوار ملايك في التويلري بعيد الى ذاكرتك ، بعد ألفي عام ، كلمة تيزبريون : ***** *quis proferantem me prehensit pallio* إن خمر سورين تقلد خمر ألبا ***** ، ووازن حافة ديسوجيه الحمراء كأس بالاترون الضخمة . وتطلق مقبرة د الاب لاشيز ، ***** تحت وابل الامطار الليلية البوارق المتوهجة عنها التي كانت تطلقها ال « أسكيليز » ***** وقبر الفقير الذي يُشترى خمس سنوات يساوي نعش للعبد المستأجر . حاول أن تسمي شيئاً لا يوجد في باريس . إن دن

-
- * Aulus Gellius نحوي وناقد لاتيني من اهل القرن الثاني للبلاد .
 ** Nodier اديب وكاتب سير فرنسي (١٧٨٠ - ١٨٤٤)
 *** نمودج من فاذج الشخصية الكوميدية ، وهو في غرسة ذو حدة خلفية وحدة امامية وقبة ذات قرنين الخ . وقد سبق التعريف به .
 **** Hermogenus خطيب يوناني من اهل القرن الثاني للبلاد .
 ***** Bobéche مشعوذ فرنسي كان يلقي الناس باعمال الرخافة . وقد اشتهر في عهد الامبراطورية وعهد عودة آل بوربون الى العرش .
 ***** من الذي يملك بيتوني في ايطاليا ؟
 ***** Alba Longa مدينة في لاتيوم القديمة كانت منافسة لرومة ، وقد دمرتها المدن المجاورة خلال حكم الملك الروماني طالوس هوستيلوس .
 ***** Perr - Lachaise هي مقبرة باريس الرئيسية ، وقد سبق التعريف بها .
 ***** Lee Esquiline حدائق أنشأها ميسين الفارس الروماني على احدى تلال رومة السبع شرقي المدينة واقام وسطها دارة (فيلا) ضخمة .

تروفونوس * لا يحتوي على شيء غير موجود في وعاء
كَمَر * الحشي الصغير . ويُنبت إرغافيلاس *** حياً في شخص
كاغليسترو **** . ويتجسد فاسافانتا للبرهي في الكونت دو سان
جيرمان ***** . وتجتوح جبانة سان ميدار من العجائب الحيرة قدور
ما يجترحه المسجد الاموي في دمشق .

إن لباريس « إيزوب » ***** هو مايو ***** ، وكانيداهي الآنة
لينومار ***** . إنها تقف مشدوهة مثل دلف ***** أمام

Trophonius مزار بارع انشا مبد دلف . وقد أسمى النار الذي دين به
شيراً بهوائه الآمية الكاشفة من النيب .

Meomer طبيب آلامي ، واضع نظرية القوة المغناطيسية الحيوانية المعروفة بـ
« المسرية » . ولقد اقام عدة سنوات في باريس حيث تدفق الرضى واهل
الفضول على « وعائه الحشي » ليشهدوا مسر يقوم حوله بمختلف العابه المغناطيسية .
Ergaphilas منحوذ قديم .

Cagliostro مشرذ وطبيب وممثل بالسر والتنجيم (١٧٤٣ - ١٧٩٥) وهو
إيطالي لقي نجاحاً كبيراً في قصر لويس السادس عشر وفي المجتمع الباريسي الرافئ في
ذلك الحين ولعب دوراً كبيراً في الحركة الماسونية .

Le comte de Saint Germain مفامر شهير ، ولله يهودي من اصل برتغالي ،
توفي عام ١٧٨٤ ولقد ادعتى بلاط لويس الخامس عشر بالثقة التي كان يزعم بها انه
عاش في القرن السادس عشر . ثم انه طرد من فرنسا فتنحى الى الكثرة فالروسيا
فالمالية . وكان كاغليوسترو - الوارد ذكره في الحاشية السابقة - يتباهى بأنه تفينه .

Esopé مؤلف أمثال يوناني ، وكان شخصية نصف اسطورية يتلوننا قبيحة
تتامة محدوبة .

Mayeux شخصية ابتكرت بعد ثورة ١٨٣٠ . وكان مايو ، الحرس
الوطني برغم حديثه المزوجة ، يمثل على نحو كاريكاتوري بورجوازية ذلك العهد للذين
تتردد على السنتم دائماً كلمتا الدستور والمواطن وغيرها .

Lenomard وكانت تدعى القدرة على كشف النيب من خلال اوراق
العب . (١٧٧٢ - ١٨٤٣)

Delphes مدينة اغريقية قديمة على سفح جبل براس حيث كان لابلون
يهكل يرسل النبوءات والمواقف الالهية .

حقائق الرؤيا الساطعة . إنها 'تدمير الطاولات كما كانت دودون * تدمير
 الأثاث' المثلثة القوائم . إنها تتوَج العامة المنجاج كما كانت رومة تتوَج
 البني' البقة الذكية . وخلاصة القول ، اذا كان لويس الخامس عشر
 اسوأ من كلوديوس ** فقد كانت مدام دوبارتي *** خيراً من
 ميسالين . **** وإنما تجمع باريسُ في طراز واحد رائع كان له وجود
 حقيقي وقد دَقَعْنَا بِمِرْفَقِهِ فعلاً ، المرئيّ الاغريقي ، والقرحة العبرية ،
 والمزاج الفاسكوني ***** المستفح . إنها تمزج ديوجين ، وأيوب ،
 وباتياس ***** ، وتلبس احدَ الاشباح ثوباً من أعداد صحيفة
 ' الدستور ' ، ونضع شودروك دوكلو .

وعلى الرغم من ان بلوتارك ***** يقول ' إن الطاغية لا
 يشيخ أبداً ، فان رومة في عهد سيلاً ***** ، وفي عهد دوميتيان

* Dodone مدينة قديمة في ' ايبير ' جنوبي مقدونية ، وكان لها هيكل لجوبيتر
 قرب غابة من السديان .

** Claude الأول ، امبراطور روماني حكم من عام ٤٦ الى عام ٥٤ للميلاد .
 تزوج اولاً من ميسالين ثم من آغريين . وكان ذا عنصر طيب وضع قوانين لتطلق
 بطلنه على السيد الارقاء ولكنه وقع تحت سلطان زوجته التي ما لبثت ان سمته .

*** Madame du Barry محظية لويس الخامس عشر وقد سبق التعريف بها
 (١٧٤٣ - ١٧٩٣)

**** Messaline زوجة الامبراطور كلوديوس الاول وكانت معروفة بفجورها وفسوقها .
 ***** نسبة الى غاسكونيا ، المقاطعة الفرنسية القديمة .

***** Paillasse احدى شخصيات المسرح المشي في نابولي .
 ***** Le Constitutionnel صحيفة متحررة انشئت عام ١٨١٥ ، وقد وجهت
 حملات عنيفة ضد حكومة شارل الماشر مهدت لثورة ١٨٣٠ .

***** Plutarque المؤرخ اليوناني المعروف (٤٥ أو ٥٠ - حوالي ١٢٥ م)
 ***** Sylla و Domitien امبراطوران رومانان .

أفغنت وخفقت من غلواتها . كان التير نهراً أشبه بـ « لينيه » . *
 إذا كان لنا ان نصدق المرثية النظامية ، بمض الشبيء ، التي لفظها
 فاروس فييسكوس : *Contra Gracchos Tiberim habemus . Bibere Tiberim* .
 إن باريس تشرب مليون ليترو ماء كل يوم ولكن *id est seditionem oblitisci*
 هذا لا ينمها في بعض المناسبات من ان تدق نافوس الحظر .
 ومع هذا كله فباريس ولد طيب . انها تقبل كل شيء في أهنة .
 وهي غير شكة في ما يتصل بفينوس . ان « كالبييج » ** باريس
 هونتوتوي *** الطابع . إنها نغفر ، شرط ان تضعك . إن
 البشاعة لتبهبها . وإن الدمامة لتوقع السرور في نفسها . وإن الرذية
 لتلفت انتباهها . كن مضحكاً وعندئذ يكون من الجائز ان تصبح
 وتعداً . حتى الرياه ، ذلك السفه الوضيع ، لا تتور باريس عليه . وهي
 أديبة للزعة الى حد يجعلها لا تسد أنفها أمام باسيل **** ولا نجفل من
 صلاة تارتوف ***** أكثر مما اجفل هوراس ***** من فواق (حازوقة)
 بريابوس ***** . والواقع ان صورة باريس الجانبية لا يُعوزها أي من

* *Léthé* احد انهار جهنم ، في الميثولوجيا ، ومعنى اسمه « النسيان » . ذلك ان
 الاشباح تشرب من مياهه لكي تنسى الماضي نسياناً تاماً .
 ** *Callipyge* اسم لاحد تماثيل فينوس موجود في متحف نابولي .
 *** نسبة الى الهوتتوت *Hottentots* وهم شعب من شعوب الريفية الجتوية صير
 القامة ذو بشرة سمراء خاربة الى الصفرة .
 **** هو بطل مسرحية « بومارشيه » الهزلية : « حلاق اشيلية » . وقد أمسى
 رمزاً للمرائي الملاطف الطمّاع .
 ***** *Tartuffe* بطل مسرحية شهيرة لمولير وهو يتل شخصية الرجل المرائي ايضاً .
 وقد « مصّرت » هذه المسرحية في فجر النهضة الحديثة ومثلت باسم « الشيخ متلوف » .
 ولا تزال شخصية الشيخ متلوف الى اليوم تصوّر الورع الكاذب والتلّي الخادع .
 ***** *Horace* الشاعر الروماني الشهير (٦٥ - ٨ ق م)
 ***** *Priapus* إله الجنائز والبرائس ، ثم إله الحب والتناسل . وكان ابن
 اخوس وفينوس .

ملاحج الوجه الكلي . إن مرقس مابي * لا يعرف رقص
 الجانيكولوم * البوليفيني *** ولكن مؤجرة الملابس هناك تنتهم
 بعينها الحناء السهلة القيادة كما كانت « ستافيليا » القوادة تراقب العذراء
 « بلانيزيوم » تماماً . والد « باربير دو كومبا » ليس كولوسيوم ***
 ولكنه يتكشّف عن قدر هائل من الوحشية وكان قيصر نفسه كان يشهد
 الحفلة . وصاحبة الحان السوربة اكثر ملاحظة من الامّ ساعيه ، ولكن
 اذا كان فيرجيل قد اختلف الى الحانة الرومانية فان دافيد دانجيه *****
 وبالزواك ***** وشارليه ***** يتخذون مجالسهم في الحارة الباريسية .
 إن باريس لتقبض على ازمة الساطان . إن العبقريات لتسقع في سحائها ،
 وان العدائر الحمراء الملفة لتزدهر في ربوعها . ويترّ ادونيس هناك بركبته
 البارقة الراجعة ذات الاثنتي عشرة عجلة . ويدخلها سيلينوس *****
 على أتانه . ذلك أن سيلينوس قد قرأ رامبونو *****
 إن باريس مرادف الكون . باريس هي اثينا ، ورومة ،

-
- * Mabile مرقس باريسي شهير مطع نجمة من عام ١٨٤٠ الى عام ١٨٧٥
 ** Janiculum رابية قرب نهر التير في رومة .
 *** نسبة الى بوليبيمتيا Polyhymnia عروس الترانيم الزفيرة او الاعادي المقدسة .
 **** Coliseum مدرج رومة العظم حيث كان الثقاتلون يضطرعون ، وحيث
 كان يقذف بالمسيحين طعاماً للوحوش .
 ***** David d'Angers مثل فرنسي شهير (١٧٨٨ - ١٨٥٦)
 ***** Balzac الكاتب الفرنسي الكبير ، مؤلف « الأب عوريو » و « اوجي
 غرانديه » . (١٧٩٩ - ١٨٥٠)
 ***** Charlet رسام فرنسي برع برسم المشاهد العسكرية (١٧٩٢ - ١٨٤٦)
 ***** Silenus ابو باخوس بالرضاع وقد جعلته الميثولوجيا الاغريقية مهرج
 الاولب .
 ***** Ramponneau مؤسس حانة « العطل الملكي » المشهورة في باريس .
 (١٧٢٤ - ١٨٠٢)

وسياريس * ، وبيت المقدس ، وبانتين ** . إن حقب الحضارة كلها لمائة فيها على نحو موجز ، وكذلك جميع عهد البربرية ايضاً . وخليق بباريس أن يستبد بها الفيظ لو لم تعرف المقصة . إن قليلاً من ساحة غريف *** لمقبول ، إذ اي شيء كان يمكن ان تنتهي اليه تلك الحياة المرحية الصاخبة كلها من غير ذلك التتيل ؟ لقد احتاطت قوانينا ، في كثير من الحكمة لذلك . وبفضلها يقطر الدم من ذلك الساطور فوق هذا الكارنافال العام .

١١ سخرية وُحْكَم

وفي باريس لا حدود ولا قيود . إن اياً من المدن الاخرى لم تعرف هذا السلطان الذي يهزأ في بعض الاحيان بأولئك الذين يُخضعهم لأمرته . « لكي أرضيكم ، ايها الاثنيون ! » كذلك هتف الاسكندر . ولكن باريس تذهب الى ابعد من وضع القوانين . إنها تضع « الموضة » ، بيد انها تذهب الى ابعد من وضع « الموضة » ايضاً . انها تضع « الروتين » . وقد تتباله باريس اذا بدا ذلك حسناً في عينيها . فهي تميز لنفسها هذا الترف أحياناً . وعندئذ يغدو الكون كله أبله معها . ثم ان باريس تستيقظ ، وتترك عينيها ، وتقول : « أنا بلهاء ؟ » وتنفجر ضاحكة في وجه الجنس البشري . اي اعجوبة هي هذه المدينة !

* Sybaris مدينة ايطالية قديمة أسسها الآخيون سنة ٧٢٠ ق . م وكانت ذات تجارة زاهرة افادت عليها ثروات هائلة جعلت اهلها ينتمون في الشهوات .
 ** Pantin محلة قرب باريس تكثر فيها المصانع .
 *** Place de Grève ساحة الاعدام في باريس .

ما أغرب أن نلتقي هذه الأشياء العظيمة كلها وهذه الأشياء المضحكة وتتناغم ، وأن لا يُزَعَج هذا الجلال كله من هذا التروير المازيء كله ، وأن يكون الفم نفسه قادراً على أن ينفخ اليوم في صور القيامة وينفخ غداً في مزمارةٍ منه بضعة درجات ! إن لباريس مزاجاً مرحاً مطلقاً السلطان . ان ابتهاجها لمن الصاعقة ، وان أضحاحها لتحمل صولجاناً . وقد تنطلق اعاصيرها من تقطيب وجه . ان انفجاراتها ، وأيامها الحامسة ، وروائعها ، وأعاجيبها ، وملاحمها ، لتمضي الى اقاصي الكون ، وكذلك كلامها المتهافت الذي يعوزه المنطق والترابط . ان ضحكها هو فوهة بركان يصيب رشاشه الارض كلها . وان مزاحها الحاجن تشرر . انها تقرض كاريكاتورها على الشعوب ، كما تقرض مثلها الاعلى . وأسمى آثار الحضارة الانسانية تتقبل سخرياتها ، وتُعير خلودها لاقوالها الداعرة . انها ساحخة . ان لها يوم ١٤ تموز الاعجوبي الذي يحجر الكرة الارضية . وهي تحمل جميع الأمم على ان تقسم بين ملعب التنس * . إن ليها في ٤ آب ليبدد في ثلاث ساعات ألف عامٍ من الاقطاعية . إنها تجعل من منطقها عَضَلَ الارادة الأجماعية . إنها تضاعف نفسها تحت مختلف اشكال السموات . إنها تملأ باشعاعها واشطون ، وكوسبيو-سكو ** وبوليفار ***

* Serment du Jeu de Paume التي أُنسبها ، في ٢٠ حزيران سنة ١٧٨٩ نواب طبقة الدوام على « ان لا يتفرقوا قبل ان يخطوا فرسة دستوراً » ، وكان الملك قد حضر عليهم الاجتماع في قاعتهم المألوفة فانتقلوا الى قاعة مجاورة تعرف بقاعة « ملعب التنس » وأقسموا اليهين هناك .

** Kociuszko جنرال بولوني (١٧٤٦ - ١٨١٧) ناضل طويلاً من اجل تحرير بلاده من سيطرة الروسا البصرية .

*** بطل من ابطال الاستقلال وحركات التوحيد في اميركة الجنوبية وقد سبق التعريف به .

وبوتزاريس * وريغو ** وبم * ومانين *** ولوبيز *****
 وجون براون ***** وغاربيالدي . إنها في كل مكان يتوهج فيه
 المستقبل . في بوسطون عام ١٧٧٩ ؛ وفي جزيرة سان ليون عام ١٨٢٠ ؛
 وفي بينث عام ١٨٤٨ ؛ وفي بايرمو عام ١٨٦٠ . إنها تهمس بالشعار
 الجبار ، الطوية ، في آذان دعاة تحريم الاسترقاق الاميركيين المجتمعين
 في المركب في هاربرز فيري ، كما تهمس به في آذان وطني آنكوت
 المجتمعين في الظلام في آرشي ، أمام فندق غوزي على شاطئ البحر . إنها
 تخفق كاناريس ***** . إنها تخلق كبروغا ***** . إنها تخلق بيزا كان .
 وهي تشعّ العظمة على الارض كلها . واذا كان بايرون قد قضى نحبه في
 ميسولونغي ***** ، واذا كان مازيه قد قضى في برشلونة فلأنهما قد انطلقا

* Botzaris احد ابطال حرب الاستقلال اليوناني . (١٧٨٨ - ١٨٢٣)
 ** Riego جنرال وطني اسباني (١٧٨٥ - ١٨٢٣) وقد مات قتلاً بأمر
 الملك فرديناند السابع .

*** Bem جنرال بولوني (١٧٩٥ - ١٨٥٠) ابلى بلاءً حسناً في القتال ضد
 النمسيين والروس خلال الثورة الهنغارية عام ١٨٤٩ .

**** Manin وطني ايطالي (١٨٠٤ - ١٨٥٧) رئيس جمهورية البندقية عام
 ١٨٤٨ وكان مناوئاً للبطرة النموية .

***** Lopez رجل دولة باراغواي (١٨٢٧ - ١٨٧٠) تولى رئاسة الجمهورية .
 وقد ناضل ، في عناد ، ضد الارجنتين والبرازيل .

***** John Brown داعية اميركي من دعاة الغاء الرقيق (١٨٠٠ - ١٨٥٩)
 وقد شقّق لأنه دعا الرنوج الى امتشاق الحام ، وكان موته سيئاً في انفجار حرب
 الانفصال .

***** Conatanin Canaria ملاح يوناني (١٧٩٠ - ١٨٧٧) استشهد في حرب
 الاستقلال .

***** Antonio Quiroga جنرال اسباني (١٧٨٤ - ١٨٤١) قائد القوات
 الدستورية ايام ثورة ريفو التي اشير اليها من قبل .

***** Missolonghi مدينة يونانية اشتهرت بصمودها الاسل في وجه الاتراك
 عام ١٨٢٢ ، و ١٨٢٣ ، و ١٨٢٥ وكان الشاعر الانكليزي بايرون متطوعاً آنذاك
 في صفوف الثوّار .

الى حيث دفعتهما رياحها . إنها منبر تحت قدمي ميرابو ، وفوهة بركان تحت قدمي روبينيير . إن كتبها ، ومسرحها ، وفنّها ، وعلمها ، وأدبها ، وفلسفتها هي الأصول التي ينهل منها الجنس البشري . إن عندها باسكال ، وربينييه ، وكورنيّ ، وديكارت ، وجان جاك ، وفولتير لكل لحظة ، وموليير لكل عصر . إنها تجعل الفم الكورنيّ يتكلم بلغتها ، وتنتهي تلك اللغة الى ان تصبح كلمة الله . إنها تنشىء في جميع العقول فكرة التقدم . والعقائد الجوهرية المحرّرة التي تصوغها ، هي الاجيال سيوف لا تسمو عليها سيوف ؛ وإنما بروح مفكرها وشعرائها صنيع جميع الابطال في جميع الشعوب ، منذ عام ١٧٨٩ ؛ وليكن ذلك لا يحول بينها وبين أن تمثل دور المشرّد . وهذه العبقرية الهائلة التي ندعوها باريس ، حتى وهي تخلق العالم بضيائها خلقاً جديداً ، ترسم بالفم أنف بوجينييه على جدار هيكل نيزيه * وتكتب كويندوفيل الصّ على الأهرام .

إن باريس لتبدي نواجذها دائماً . فهي إما مزججة أو ضاحكة . تلك هي باريس . إن أذخنة سطوحها هي أفكار الكون . وكأم من الوحل والحجارة ، إذا شئت ، ولكنها فوق ذلك كائن أخلاقي . إنها أكثر من عظيمة ؛ إنها غير متناهية . لماذا ؟ لأنها تتجرأ . المرأة . هذا هو ثمن التقدم .

إن جميع الفتوح الجليلة هي ، كثيراً أو قليلاً ، ثواب المرأة . فلم يكن كافياً - لكي تندلع الثورة - ان يتنبأ بها مونتيسكيو ، ويبدشّر بها ديدرو ، ويعظنها بومارشيه ، ويبدبّرهما كوندورسيه ** ،

* Thérèse بطلة اغريقي ، وهو شخصية نصف اسطورية تصل اعمالها البطولية بأعمال هرقل البطولية .

** Condorcet فيلروف ورياضي فرنسي (١٧٤٣ - ١٧٩٤) لعب في الثورة دوراً بارزاً ثم تجرّع السم في عهد الارهاب ، اجتناباً للعقصة .

ويمتد لها آرويه * ويتعمدها روس . كان من الضروري ان
يجرؤ عليها دانتون .

إن تلك الصيحة « الجرأة ! » * هي ضربٌ من الـ *fac lux* *** .
والحق أن تقدم الجنس البشري الى الأمام يقتضي ان تلتهب القمم التي
حوله بدروس في الشجاعة نبيةً دائمة . إن الجراءات لتُدْهَل للتاريخ ،
وهي تشكل أحد أنوار الانسان الهادية . والفجر يشجراً حين يبزغ .
الكفاح ، واقتحام الاخطار ، والمثابرة ، والاصرار ، والاخلاص لذات ،
والمصارعة مع القَدْر ، وإذهال الهزيمة بالذعر البير الذي تنزله بنا ،
ومواجهة القوة الفاشية حيناً ، ونحدي الطقّر النشوان ، والصدود ،
والمقاومة - تلك هي الأمثلة التي تحتاج اليها الامم والنور الذي
يكهرها . ان البرق الرهيب نفسه لينطلق من شعة بروميبوس ومن
بوق كامبرون *** الفخاري .

١٢

المستقبل كامنٌ في الشعب

أما الشعب الباريسي ، حتى حين يبلغ مبلغ الرجال ، فهو « متشرد »

* يقصد لولتير .

** يقصد كلمة دانتون الشهيرة : « الجرأة ! تم الجرأة ! ودائماً الجرأة ! » التي
وردت في خطابه الذي ألقاه في ٢ ايلول ١٧٩٢ والذي ألهم الجمية التشريعية ثم
ألهم فرنسا كلها .

*** في اللاتينية ، ومعناها « ليكن نوراً » إشارة الى ما جاء في سفر التكوين:
« وقال الرب ليكن نور ، فكان نور . » فكان المؤلف يريد ان يقول : إن
صيحة دانتون تلك كانت بمثابة مولد النور في فرنسا .

**** راجع الفصل الخامس بكامبرون في الجزء الخامس .

من المتشردين دائماً . إنك إذا تصوّر الطفلَ تصور المدينة . ومن أجل ذلك درسنا هذا النسر من خلال ذلك الدؤوري الصريح .

إن العريق الباريسي ، ونحن نصرّ على ذلك ، إنما يوجد في الضواحي قبل كل شيء . هناك تقع على الدم الصافي ؛ هناك نجد السياة الحقيقية ؛ هناك يعمل هذا الشعب ويتألم ، والألم والكدح هما صورتا الانسان . هناك أعداد هائلة من الكائنات المجهولة تكثُرُ فيها أغرب الناذج البشرية ابتداءً من مُتزل البضائع من « لا راييه » حتى قصاب مونتفوكون . *Fex urbis* * كذلك يصيح شبّرون . فيضيف بورك ** الساخط : الرعاع . - التقطيع ، الجمهور ، السوقة . إن هذه الكلمات تُلفظ لفظاً سريعاً . ولكن إذا كان الأمر كذلك ، فأيّ بأسٍ فيه ؟ وماذا يضيرني إذا كانوا يمشون حفاةً ؟ إنهم لا يعرفون القراءة ؛ يا للخرابة ! أتخطئ عنهم من أجل هذا ؟ أتجعل سقام لعة عليهم ؟ الا يستطيع للنور أن ينفذ الى هذه الجماهير ؟ فلنعدّ الى تلك الصيحة : النور ! ولنصرّ على ذلك ! النور ! النور ! ومن ذا الذي يستطيع ان يجزم أن هذه الكثافات لن تغدو سفاقة ؟ البيت للتورات تموتلاً في الصورة الى ما هو أسى ؟ فامضوا ، ايها الفلاسفة ، علموا ، نوروا ، أهبوا ، فكثروا جهاراً ، تكلموا جهاراً ، اهرعوا في جذل الى وضع النهار ، آخروا في الساحات العامة ، بشروا بالانباء السارة ، انثروا ألفباءاتكم في سخاء ، أعلنوا حقوق الانسان ، أنشدوا المارسييز ، أبذروا الحماة ، إزغوا الاغصان الخضراء من شجر السديان ، إجعلوا الفكر إعصاراً . إن هذه الجماهير يمكن أن يُسمى بها . فلنتعلم كيف نُفيد من اضطرام المباديء والفضائل الواسع هذا ، الذي يطلق الشرر ، ويفرقع

* في اللابية ، ومن خلال المدينة .

** *Berko* كتاب وخطيب انكليزي (١٧٢٩ - ١٧٩٧) اشتهر بدائه هورة الفرنسية .

ويوقع الشعريرة في بعض الفترات . إن هذه الاقدام الخافية ، هذه الاذرع العارية ، هذه الاسمال البالية ، هذه الجمالات ، هذه الحقاوات ، هذه الكلمات ، يمكن ان تصطنع في النضال من اجل تحقيق المثل الأعلى . انظر من خلال الشعب تلمح الحقيقة . إن هذا التراب الحبيس الذي تطأه بقدميك ، اذا ما قذفت به في الأتون ، وتركته يذوب ويفور ، يصبح بلوراً يبهر الأبصار ، وبفضله سوف يلمع غاليليو جديد ، أو نيوتن جديد فيكتشف النجوم .

١٣

غافروش الصغير

بعد حوالي ثماني سنوات او تسع سنوات انقضت على الاحداث التي رويناها في القسم الثاني من هذه القصة شوهد ، علي « جادة التامبل » وعلى مقربة من « ساتو دو » فتى صغير في الحادية عشرة او الثانية عشرة من العمر كان خليقاً به أن يحقق في دقة كبيرة المثل الاعلى المنتشر ، الذي وصفناه آنفاً ، لو لم يكن - وضحكة عمره على شفته - ذا فؤاد مظلم فارغ بالكلية كان هذا الطفل يرتدي على نحو غريب بنطلون رجل ، ولكنه ليس بنطلوناً أخذه من أبيه ، وُصدرةً نسائية ذات ردين ، ولكنها لم تكن صدرةً ورثها عن امه . لقد كساه نفر من الغرباء ، بهذه الاسمال صدقةً وإحساناً . ومع ذلك ، فقد كان له أب ، وكانت له ام . ولكن أباه لم يفكر به قط ، وأمه لم تحبّه قط . كان واحداً من اولئك الاطفال الجديرين بالشفقة من بين جميع أولئك الذين لهم آباء وامهات والذين هم - برغم ذلك - يتامى . ولم يكن هذا الطفل لينشعر فيضاً من السعادة إلا في الشارع . إن

حصابه الطريق كانت عنده اقل قوة من قلب أمه .

كان ابواه قد ألقياه في حضم الحياة بوفة .

وكان قد نشر جناحيه في كثير من البساطة ، وطار .

كان صيباً صاخباً ، شديد الشحوب ، رقيقاً ، نيبهاً ، ساخراً

تبدو عليه سيما من الحيوية والمرض في وقت واحد . كان يروح ويجيء

ويغني ، ويلعب لعبة النقش والطغراء ، * ويكشط السواقي ، ويسرق

قليلاً ، ولكنه كان يفعل ذلك في ابتهاج ، مثل القطط وعصافير

الدوري ، ويضحك حين يدعوه الناس صيباً خالغ العذار ، ويفض

حين يدعونه صيباً زقاقياً . لم يكن عنده لا مأوى ، ولا طعام ، ولا

نار ، ولا حب ، ولكنه كان مبتهجاً لأنه كان حرّاً .

وحين يكون هؤلاء الساكنين رجالاً تحك بهم رحي نظامنا الاجتماعي

دائماً تقريباً ، ونسحقهم ، ولكن حين يكونون اطفالاً يفرّون بأنفسهم

لأنهم صغار . إن اصغر الثوب تنجيهم .

بيد أنه كان يتفق لهذا الولد في بعض الاحيان ، ان يقول لنفسه

كل شهرين او ثلاثة اشهر ، برغم الاهمال الذي يجيا في غمرته : « اسمع ،

سوف أذهب وأرى أمي ! » ثم يغادر الجادة ، و« السيرك » و« باب

سان ماربان » ويحيط أرضفة النهر ، ويمسير الجسور ، ويفتحي الى

الضواحي ، ويمشي حتى الى « السليير » ويعمل - الى ابن ؟ بالضبط

الى ذلك الرقم المزوج ، ٥٠ - ٥٢ ، الذي يعرفه القاري ، الى بيت

غوربو للمتيق .

في تلك الحقبة ، كان البيت ذو الرقم ٥٠ - ٥٢ ، الخالي في العادة ،

المزدان على نحو سمردي باللوحة القائدة « غرف للتأجير » - نقول كان

ذلك للبيت ، وهو رضع قادر ، أهلاً بعدد من الاشخاص الذين لم تكن

هي اللعبة التي ترمى فيها طعة تقود في الهواء ثم يقبض عليها باليد ، وعلى الشخص

الأخر مرة وجها .

لأحد منهم ، من جميع النواحي الاخرى ، كما هي الحال في باريس دائماً ، صلة أو علاقة بالآخر . كانوا كلهم ينتسبون الى تلك الطبقة البلدية التي تبدأ بالبورجوازي الصغير المُعسر ، وتهبط درجات للبؤس في طبقات المجتمع الدنيا ، درجةً درجةً حتى تصل الى هذين المحلوقين اللذين تنتهي بها اشياء التمدن المادية كلها : البلايمي الذي يكنس الوحل ، والحرقّي الذي يلتقط المِزق البالية .

كانت « المستأجرة الرئيسية » التي عرفها البيت في عهد جان فالجان قد ماتت ، وكانت قد خلقتها امرأة اخرى مثلها تماماً . ولست اذكر ايّ فيلسوف قال : « نحن لن نفتقر ابدأ الى نسوة عجائز . » وكانت العجوز الجديدة تدعى مدام بورغون . ولم يكن في حياتها ما يلفت النظر غير سلالة من ثلاث بينغاوات تربعت واحدة اثر اخرى على عرش فؤادها .

وكان اشده سكان ذلك البيت للعتيق بؤساً أسرة مؤلفة من اربعة اشخاص - الاب والام وقتاتين في ميعه الصبا - يقطنون كلهم في علبة واحدة من تلك العلامي التي نحدثنا عنها من قبل .

ولم تكن تلك الاسرة لتبده المره ، للوهلة الاولى ، بشيء فريد غير عوّزها المتطرف . وكان الاب قد اتخذ ، يوم استأجر الغرفة ، اسم جوندريت . ولم تنقض فترة على انتقاله الى هناك - ذلك الانتقال الذي كان يشبه ، اذا اردنا ان نستعير تعبير المستأجرة الرئيسية الجدير بالذكر ، دخول لا شيء على الاطلاق - حتى قال جوندريت هذا لتلك المرأة التي كانت ، مثل العجوز التي سلفتها ، بوابة تكنس السلم في الوقت نفسه : « ابنتها الأم الفلانية ، اذا ما أقبل أحد بالمصادفة وسأل عن رجل بولوني ، او ايطالي ، أو ربما عن رجل اسباني ، فأعلمي أنّي انا المنصور . »

كانت هذه الاسرة هي اسرة ذلك الصبي المرح الحافي القدمين ، وكان

إذا ما وصل الى هناك وجد الفقر ، والبؤس ، ووجد - وهذا أدعى الى الحزن - عيباً موصولاً . كان يجد موقداً بارداً ، وقلوباً باردة . فاذا ما دخل سأله : « من أين أتيت ؟ » فيجيب : « من الشارع » . حتى اذا فارقه سأله : « الى اين انت ذاهب ؟ » فيجيب : « الى الشارع . » فتقول له امه : « ما الذي جاء بك الى هنا ؟ »

لقد عاش ذلك الطفل في انعدام الحنان مثل تلك الاعشاب الشاحبة التي تنبت في الاقمية . ان تلك الحياة لم تورثه المأما ، وانه لم يكن ليعتقد على احد . كان لا يدري ، على وجه الضبط ، كيف ينبغي ان يكون الأب والام .

ومع ذلك فقد أحب امه وأخته .

ولقد نسينا ان نقول ان القوم كانوا ، في جادة التامبل ، يدعون هذا الفلام غافروش الصغير . لماذا سمي غافروش ؟ لعلّ مرد ذلك الى ان أباه كان يدعى جوندريت . ان قطع الحيط جميعاً هو ، في ما يبدو ، غريزة عند بعض الأسر البالية .

لقد كانت الغرفة التي احتلتها اسرة جوندريت في بيت غوربو العتيق هي آخر غرفة في اقصى الرواق ، وكان يحتل الغرفة المحاذية شاب فقير جداً يدعى مسيو ماريوس .

فلنرَ من كان مسيو ماريوس هذا .

الكتاب الثاني

البورجوازي الكبير

١

تسعون عاماً واثنان وثلاثون سنة

في شارع بوشر ، وشارع نورماندي ، وشارع سانتونج ، لا يزال بضعة سكان قدماء يحتفظون بذكرى رجل عجوز يدعى ميو جيلنورمان ويحبون التحدث عنه . كان ذلك الرجل عجوزاً يوم كانوا في نضارة الشباب . وكانت هذه الصورة المظلمة عند اولئك الذين ينظرون في كآبة الى هذه الجهرة الغامضة من الظلال التي ندعوها الماضي ، لما تخفف بعدُ من تيه الشوارع القائمة على مقربة من « التامبل » والتي خلعت عليها في عهد لويس الرابع عشر عشر اسماء مقاطعات فرنسة كلها ، كما خلعت

في اباننا هذه اصماء عوامم اوروبه كلها على شوارع حبيّ تيفولي الجديد .
تدوج* - ولتقل ذلك قولاً عابراً - يتجلى فيه التقدم .

وكان مسيو جيلنورمان ، الذي تمتع بالحياة قدراً ما تمتع بها أيما
رجل آخر ، عام ١٨٣١ ، واحداً من اولئك الرجال الذين أمسوا موضوع
فضولٍ لجرّد أنهم عمّروا دهرًا طويلاً ، والذين تصكّنتهم القراءة لانهم
كانوا من قبل مثل أيّ اسان آخر ، ثم غدوا الآن لا يشبهون احداً
البتة . كان شيخاً غريباً . وكان في الواقع من أهل جيل آخر ، فهو
يمثل بوجوازي القرن الثامن عشر الحقيقي ، الكامل المتعجرف بعض
الشيء ، اللابس بوجوازيه الطيبة العجوز ، كما يلبس المراكيز*
مركيزتهم . كان قد تجاوز التسعين . وكان يشي منتصب القامة ،
ويتحدث بصوت مرتفع ، ويرى في وضوح ، ويشرب الخمر صرفاً ،
ويأكل ، وينام ، ويفطّر في النوم . وكان يحفظ باسنانه الاثنتين
والثلاثين جميعاً . وكان لا يصطنع نظاونه إلا عند القراءة . كان ذا
مزاج غرامي ، ولكنه قال إنه هجر النماء منذ عشر سنوات هجرأ
كاملاً لا تردّد فيه . إنه لم يعد يُعجّب ، كذلك قال . وما كان
ليضيف : « أنا هرمٌ أكثر مما ينبغي » ، ولكن « أنا فقير أكثر مما
ينبغي . » كان يقول : « لو لم اكن متهدماً ، هيء ! هيء ! »
وكان دخله الباقي لا يتجاوز ، في الواقع ، خسة عشر الفيرة تقريباً .
وكان يحلم بأن يفوز بأرث ، وان ينعم بدخل مقداره مئة الف فرنك
لكي يتخذ بعض الخيلات . إنه لم يكن من ذلك الضرب المريض من
ابناء الثمانين الذين كانوا يموتون ، مثل مسيو دو فولتير ، طوال حياتهم .
إن تعبيره** لم يكن تعبيراً لبين رماء . وهذا العجوز المرح كان
دائماً في صحة جيدة . كان سطحياً ، طيئاشاً ، سريع الغضب . وكان

* جمع مركيز .

** اي امتداد الاجل به حتى غدا هراً عجوزاً .

الحق يستبد به في كل مناسبة ، واكثر ما يكون ذلك حيث لا يقتضي الموقف حنقاً البتة . كان يرفع عصاه كلما اختلف امرؤ معه في الرأي ؛ وكان يضرب خدمه كما كانت الحال في العصر العظيم * ؛ وكانت له ابنة غير متزوجة تبلغ من العمر الحسين ، وكان يضربها - حين يستبد به الغضب - ضرباً مبرحاً ؛ ويتمنى لو يُلهب ظهرها بالسياط . لقد كانت تبدو في عينيه وكأنها في الثامنة من العمر . وكان يصفع خدمه في عنف ويقول : « آه ، اينها الجيفة ! » وكانت احدي آياته : « قساً يبابوج البابوجية الاكبر ! » وكان في بعض النواحي على سكينه فريدة . فهو يعهد في حلقة ذقنه ، كل يوم ، الى حلاق كان قد جنّ ، حلاق كان يكرهه لحسده مسيو جيلنورمان بسبب من زوجته ، وهي امرأة جميلة ، مفناجة . وكان مسيو جيلنورمان يعجب بظننه الخاصة في جميع الحقول ، ويصرّح بذلكه الشديد . فمن اقواله : « إن عندي شيئاً من نفاذ البصيرة حقاً . انا استطيع ان احزر ، حين يلدغني برغوث ، من اية امرأة قد جاء في ! » وكانت اكثر الكلمات تردداً على لسانه هي التالية : « الانسان الحساس » و « الطبيعة » . ولم يكن يضي على هذه الكلمة الاخيرة المعنى الواسع الذي جعلته حقبنا لها . ولكنه كان يُقحمها على طريقته في أهاجيه الصفيرة المرسله من زاوية الموقد . فيقول : « ان الطبيعة ، لكي يكون للعضارة شيء من كل شيء ، تعطيا حتى بعض النماذج من البربرية المسلية . فعند اوروبية نماذج من آسية وافريقية ، على صورة مصفرة . إن المرة هي نسيرة الصالون ، والحزدون هو نماغ الجيب . إن راقصات الاوبرا متوحشات ورديات اللون . انهن لا يفترسن الرجال ، ولكن يعشن عليهم . أو بالاحرى ، فأن الساحرات يحولنهم الى عمارات ثم يبتلعنها .

* يقصد بالعصر العظيم عهد الملك لويس الرابع عشر .

إن قبائل الكارايب * لا تدع شيئاً غير العظام ، أما هاتيك الراقصات فلا يبقين شيئاً غير الاصداف . تلك هي عاداتنا . نحن لا نقترس ، ولكن نقرض . نحن لا نبيد ، ولكن ننشئ الاطفاار .

٢

سيد كهذا جدير بمسكن كهذا

كان يقطن في ماريه ، شارع « فتيات كالفير » رقم ٦ . وكان البيت ملكه . والواقع ان ذلك البيت كان قد هدم ثم سُيِّد من جديد ، ولعل رقمه قد عُيِّر في ثورات الترقيم تلك التي تخضع لها شوارع باريس . ولقد احتل شقة عتيقة واسعة في الدور الاول ، بين الشارع والحدائق ، مغطاة حتى السقف يُبْسَط « غوبلين » و « بوفيه » تمثل مشاهد من حياة الرعاة . وكانت موضوعات السقوف والجدران تُكرَّر في صورة مصغرة على الكراسي ذوات الاذرع . ولقد طوق مريره بحجاب (بارافان) عريض ذي تسع أوراق مطليّة بلكة كورومانديل . وكانت ستائر طويلة فضفاضة تتدلى على النوافذ ، فتُشَدُّ طيات عريضة متكسرة رائعة . وكانت الحديدية ، الواقعة تحت نوافذه مباشرة ، متصلة بالزاوية التي بينها بسلم ذات اثنتي عشرة درجة او خمس عشرة درجة كان الرجل المعجوز يرتقيها ويهبطها في نشاط وجدل . وبالإضافة الى مكتبة ملاصقة لغرفته كان عنده جهنم نسائيّ أنيق يحرص عليه كثيراً - خلوة بهيجة مزدانة بالسجاد الرائع التبنّيّ اللون الموشى بازهار السوسن والمصنوع في سجون لويس الرابع عشر الخاصة بالمحكوم عليهم بالاشغال

* Caraibes م السكان الاصليون لجزر الآنتيّ الصغرى والشواطئ الامبركية المجاورة ، وقد انقرضوا اليوم أو كانوا .

الشاقة ، وقد امر مسيو دو فيفون * نزلاء تلك السجون بان يصنعوه لمخيطته .
وانما ورث مسيو جيلنورمان ذلك من اخت شرسة لجدته ماتت وعمرها
مئة عام . وكانت له زوجتان اثنتان . وكان سلوكه منزلةً وسطاً بين
رجل البلاط الذي لم يكنه ، وبين رجل القانون الذي كان يمكن ان
يكونه . كان مبتهجاً كريم النفس حين يشاء . وفي شبابه كان واحداً
من اولئك الرجال الذين يُخدعون بزوجاتهم دائماً ولا يُخدعون بتخلياتهم
ابداً لانهم ابغض الازواج الى النفس واكثر الأهبة فتنةً ، في وقت
معاً . كان خبيراً بالرسم . وكانت في غرفته لوحة تمثل رجلاً مجهولاً من
عمل جوردين ** ، وقد أخرجت بضربات فرشاة جليئة وبلايين من
التفاصيل ، على نحو مضطرب ، وكأنما كان ذلك محض مصادفة . ولم
تكن ملابس مسيو جيلنورمان على غرار ملابس الملك لويس الخامس
عشر ، بل لم تكن على غرار ملابس الملك لويس السادس عشر . كان يرتدي
ملابس كملابس فتيان عهد القنصلية « الذين لا يصدقون » *** وكان
يجب نفسه غضّ الاهاب ، حتى ذلك الحين . فهو يتبع الزيّ أنى
اتجه . وكانت سترته من جوخ رقيق ذات ظهر عريض ، وذيل طويل
كذيل سمك « مورو » ، وازرار فولاذية ضخام . وكان يرتدي الى هذا
بنطلوناً قصيراً وحذاء ذا أبازيم . وكان يضع يديه ، دائماً ، في بعض
جيوبه . ويقول في نبوة ذي السلطان : « الثورة الفونسية حكومة
من اللصوص المسلحين » .

* de Vivonne مارشال فرنسة (١٦٣٦ - ١٦٨٨) ، ونائب الملك في صقلية عام
١٦٧٥ وقد ابلى بلاء حسناً في معركة باليرمو البحرية .
** Jordansens رسام فلنندي (١٥٩٣ - ١٦٧٨)
*** incroyables وهو الاسم الذي اطلق في عهد القنصلية على جماعة من الشبان الملوكيين
المارضين ، المتكلمين في كلامهم وملابسهم . وكانوا يرتدون ثياباً خضراً مزدانة بازرار
ضخام وسترة طويلة مشقوفة تغطي نصف تغطية بنطلوناً ذا ثنيات .

لوقا - الروح

ويوم كان في السادسة عشرة 'شرف ذات مساء ، في الاوبرا ،
بتعديق حسناوين اليه في وقت واحد ، وكانت هاتان الحسنان قد تخطتا
آنذاك مرحلة الشباب ، وكانتا شيرتين تفتن بها فولتير : « لا كامارغو »
و « لا ساليه » . واذ وقع بين نارين ، فقد ارتد ارتداداً بطولياً الى
راقصة صغيرة - وكانت فتاةً تدعى ناهزي يبلغ عمرها ستة عشر عاماً مثله
- خاملة الذكر مثل هرة ، قد شففته حباً . كان مُفعماً بالذكريات .
وكان يهتف : « كم كانت جميلة ، غويمارد غويماردن غويماردينيت تلك ،
يوم رأيتها آخرة مرة في لونشان ، وقد غضتتها العواطف السامية ،
وازدانت بجليتها الغريبة المصنوعة من الفيروز ، وارقدت ثوباً لونه كلون
الاطفال الذين أبصروا النور منذ قريب ، وفي يديها وقاء من فرو
عصف به الاهتياج ! » وكان قد ارتدى في شبابه سترة من نوع
« اللندني القزم » كان يُكثر من التحدث عنها في طلاقة فيقول : « لقد
لبست كما يلبس تركي من المشرق المشرقي ! » ورأته مدام دو بوفليير
مصادفةً ، وهو في العشرين من عمره ، فوصفته بقولها : « مجنون فاتن » .
وكان يهزأ بجميع الاسماء التي رآها على مسرح السياسة أو في مناصب
الدولة الرئيسية ، إذ كان يجدها وضيفة مبتذلة . كان يقرأ الجرائد ،
الصحف ، النشرات الاخبارية ، كما كان يقول ، وهو يكاد يَخْتَنق من
شدة الضحك ويقول : « من هؤلاء الناس ! كوربيير ! هومان !
كازيمير بيريه ! هؤلاء وزراء لكم . أنا التخيّل اني أرى ما يبلي في
احدى الصحف : مسيو جيلنورمان ، وزيراً . سوف يكون ذلك
مضحكاً . حسن ! إنهم بلهائه الى حدّ يجعلهم قادرين على الرضا بذلك ! »

وكان يسمى كل شيء باسمه ، في حرية ، سواء أكان ذلك الاسم نظيفاً أم قذراً ؛ ولم يكن ليستشعر الحرج في حضرة النساء . كان يتألف من باشيا ، جلقة ، بذينة ، فاحشة بكينة وبرود غريبين أنيقين . كانت ذلك ضرباً من « البساطة وعدم التكلف » الذين عُرف بها عصره . فما تجدر ملاحظته ان عصر الكتابات في الشعر كان عصر الفعاجات في النثر . لقد تبأ جده بأنه سوف يغدو رجلاً عبقرياً ، وكان قد خلع عليه هذين الاسمين ذوي المغزى : لوقا - الروح * .

٤

يرجوان يعيش مئة عام

وكان قد ربح في شبابه عدة جوائز ، في كلية مولين ، وهي البلدة التي ولد فيها ، وتوَّج بيدمي دوق نيفونيه ، وكان يدعو دوق نيفير . ولم يستطع لا المؤتمر الوطني ، ولا مسوت لويس السادس عشر ، ولا نابوليون ، ولا عودة آل بوربون ، ان تمحو من ذهنه ذكرى هذا التتويج . كان دوق نيفير ، عنده ، أعظم شخصيات العصر . وكان يقول : « أي سيد عظيم ساحر ! وائي سجا رائعة له بوشاحه الازرق ! » وفي رأي مسيو جيلنورمان ، ان كاترين الثانية كقرت عن جريمة تجزئة بولونيا بشراء سرّ إكسير الذهب من بيستوشيف مقابل ثلاثة آلاف روبل . وهنا كانت تعرفه هزة ، فيصيح : « إكسير الذهب ، صبغة بيستوشيف الصفراء ، قطرات الجنرال لاموت ، كانت الزجاجاة الواحدة منها ، المتسمة لنصف أوقية ، تباع في القرن الثامن عشر بليرة ذهبية لويسية - الدواء العظيم لكوارث الحب ، العلاج الكلي لجميع الامراض الناشئة عن فينوس .

* احد الانجليين الاربعة ، ويُعتبر راعي الرسامين .

لقد أرسل لويس الخامس عشر مئتي زجاجة منه الى البابا . وكان الحنفى يستبد به والسخط يعصف به اذا ما قال له امرؤ إن اكسير الذهب ليس شيئاً غير بركاوور الحديد . وكان مسيو جيلنورمان يقدر آل بوروبون ، ويرتعد مشتراً من ذكرى عام ١٧٨٩ . كان لا يفتأ يروي كيف نجا بنفسه اثناء عهد الارهاب ، وأي مبلغ من المرح والذكاء كان ينبغي ان يتكشفت عنه لكي ينقذ رأسه من المقصلة . واذا ما خطر لاي شاب ان يطري الثورة في حضرته اسود وجهه واستبد به الغضب حتى الاغماء . ولقد كان يشير في بعض الاحيان ، من طرف خفي ، الى سنه البالغة تسعين عاماً ، ويقول : « لشد ما أمل ان لا اوى الثالثة والتسعين مرتين . » وفي احيان اخرى ، كان يوحى الى الناس أنه يعترم ان يعيش مئة عام .

٥

باسك ونيقوليت

وكانت له نظرياته . ودونك واحدة منها : « حين يجب امرؤ النساء حباً عارماً ، وتكون له زوجة لا يُعنى بها الا قليلاً ، زوجة بشعة ، شرمة ، شرعية ، مولعة بتوكيد حقوقها ، جائمة على القانون ، حسود عند الحاجة ، فليس له غير سبيل واحدة للخلاص من ذلك واقرار السلم ، وهي ان يلقي بأزمة صرة ماله الى زوجته . ان هذا التنازل يجعله حراً . عندئذ تشغل نفسها على نحو موصول ، وتقف ذاتها للاهتمام بالقطع النقدية ، مزنجرة بذلك أصابعها ، وتتولى تربية مستأجري الارض المشاركين في غلاتها ، وتروض الفلاحين ، وتدعو المهامين الى الاجتماع ، وتشرف على الكتاب العدول ، وتلقي الخطاب في محرري العقود ، وتزور المهامين الصغار ، وتلاحق دعاوى ، وتحرر الامجارات ، وتلمي العقود ، وتتشمر أنها صاحبة السلطة ،

وثبيح ، وتشثري ، وتنظّم ، وتأمر ، وتعدّ ، وتحلّ المشكلات بالتنازل عن بعض الحقوق ، وتعقد وتفسخ ، وتتخلى عن أشياء وتسلم بأشياء كانت موضع خلاف ، وتردّ بعض الحقوق ، وترتب ، وتبعثر ، وتقتصد ، وتبذر . إنها ترنكب الواناً من الحماقات - سعادة - آمرة وشخصية - وهذا ما يعزبها . إنها ، وقد احتقرها زوجها ، تستمد الارتياح من العمل على خراب ذلك الزوج . وهذه النظرية طبقها مسيو جيلنورمان على نفسه ، فأمت هي تاريخه . فقد دبرت زوجته - الثانية - أمر ثروته على نحو لم يبق له حين وجد نفسه ، ذات يوم صاح ، رجلاً أرمل ، (اذا حوّل كل شيء تقريباً الى راتب سنوي) ، غير دخل مقدار خمسة عشر الف فرنك لا بد ان ينفد ثلاثة ارباعها معه . ولم يتردد ، إذ ما كان ليعنى كثيراً بان يخلّف ميراثاً . والى هذا ، فقد رأى الاخطار تحدق بالتركات ، وتصبح مثلاً بمتلكات قومية . كان قد شهد التغييرات الجوهرية التي طرأت على الفوائد التي تدفعها الحكومة للرهون التي لا تُردّ ، وكان قليل الثقة بالدفتر الكبير المعروف بـ « الاستاذ » . وكان يقول : « سوف يؤول ذلك كله الى الى شارع كوينكامبوا . » * وكان بيته في شارع « فتيات كالفير » ، كما قلنا من قبل ، ملكاً له ؛ وكان عنده خادمان ، « ذكر وانثى » . وكان مسيو جيلنورمان يعيد تعييد الخادم حين يدخل بيته . وكان يخلع على الرجال اسماء مقاطعاتهم : نيموا ، كوتتوا ، بواتفين ، بيكارد . وكان خادمه الاخير رجلاً ضخم الجثّة عاجزاً عن المشي ، مبهوراً ضيق النفس ، في الخامسة والخمسين من العمر ، غير قادر على ان يركض عشرين خطوة ، ولكن لما كان قد ولد في بايون ، فقد خلع عليه مسيو جيلنورمان اسم « باسك » . أما الخادمت فكانت « كهنّ » يُسمّين في بيته نيقوليت (حتى مانيون ، التي ستظهر مرة اخرى في ما بعد) . وذات يوم وفدت عليه طاهية مفرورة

* rue Quincampoix شارع في باريس حيث كان يقوم مصرف « لو » الذي اغلق ابوابه بعد

ان افلس عام ١٧٢٠

ذات وشاح ازرق ، تنتسب الى جنس البوابين الرفيع . فسألها مسيو
جيلنورمان : « كم تطلين في الشهر ؟ » - « ثلاثين فرنكاً ، - « ما
اسمك ؟ » - « اوليمي » - « سوف تأخذين خمسين فرنكاً ، وسيكون
اسمك نيقوليت . »

٦

حيث نرى مانيون وصغيريها

كان الاسمي يُترجم ، في منزل مسيو جيلنورمان ، الى غضب .
وكان الغيظ يعصف به حين يستشعر اليأس . كانت له اهواؤه المختلفة ،
وكان يبيع لنفسه كل شذوذ . وكان من بين الاشياء التي أقام على
أساسها رونقه الخارجي وارتياحه الباطني ، كما أشرنا آنفاً ، أنه لا يزال
غزلاً ناضر العود ، وأنه يُقبلُ في قوة على أنه كذلك . وكان يدعو
ذلك « تمتع المرء بشهرة ملكية » . ولكن الشهرة الملكية عادت عليه
في بعض الاحيان بهدايا فريدة . فقد حمل اليه ذات يوم ، في سلة
مثل سلال الحمار ، صبيّ بدينٍ ابصر النور منذ قريب . وكان هذا الصبيّ
يصرخ مثل الشيطان ، وقد لُفّ بالاقمطة على أحسن وجه . وكانت
خادمةٌ تُطردت قبل ستة أشهر تقول إنه ولدهُ . وكان مسيو جيلنورمان
قد اتمّ آنذاك عامه الرابع والثمانين . واستبدت السخوط بالحاشية ،
وأطلقت صيحات الاحتجاج . وهل حبت هذه العاهرة الوقعة ان ثمة
مخلوقاً يمكن ان يصدق هذا ؟ يا لها من جسارة ! يا لها من فريسة
قبيحة ! اما مسيو جيلنورمان فلم يُظهر شيئاً من الغضب . لقد نظر
الى الاقمطة في ابتسامة محببة كابتسامة رجل وجد في القرية إطراء له .
وقال وكأنما يخاطب شخصاً وهمياً : « حسناً ، ماذا ؟ ما هذا ؟

ما المسألة ؟ ما الذي عندنا هنا ؟ انتم في حالة لطيفة من الدهش ،
وتبدون مثل شعب جاهل فعلاً . إن دوق آنفوليم ، وهو ابن سيفاح
من صاحب الجلالة شارل التاسع ، تزوج في الخامسة والثمانين بامرأة بلهاء
في الخامسة عشرة من العمر . وان مسيو فيرجينال ، مركيز آلوي ،
أخا الكاردينال دو سورديس ، كبير اساقفة بوردو ، رُزق - وهو في
الثالثة والثمانين ، ومن خادمة لزوجته الرئيس جاكان - ولدأ ، ولدأ
من اولاد الحب الحقيقيين أصبح في ما بعد فارساً من فرسان مالطة ،
ومستشاراً للدولة من اهل الحمام . وأحد كبار الرجال في هذا القرن ،
الأب تابارو ، كان ابن رجل في السابعة والثمانين من العمر . ان هذه
الاشياء لا تعدو ان تكون عادية جداً . واخيراً ، الكتاب المقدس !
وبناء على ذلك ، أعلن ان هذا السيد الصغير ليس مني . ولكن
احيطوه بعنايتكم . إنها ليست غلظته . ، وكانت العملية سهلة جداً .
فقدّمت اليه الخلوقة ، تلك التي تدعى مانيون ، هدية ثانية في السنة
التالية . وكان المولود ذكراً ايضاً . وهذه المرة استسلم مسيو جيلنورمان .
لقد ردّ الطفلين الى الأم ، واخذ على نفسه أن يدفع ثمانين فرنكاً
كل شهر لأعالتهم ، شريطة ان لا تعود تلك الأم الى مثلها مرة ثانية .
وأضاف : « اريد ان تحسن الأم معاملتهما . سوف اذهب لاراهما بين
الفينة والفينة . » وهو ما قام به فعلاً . وكان له من قبل اخ كاهن
ظلّ طرال ثلاثة وثلاثين عاماً رئيساً لاكاديمية بواتيه ، وقد توفي في التاسعة
والسبعين من العمر . وكان مسيو جيلنورمان يقول : « لقد فقدته شاباً » .
وكان هذا الاخ الذي كاد يُنسى ، رجلاً بخيلاً لين الجانب استشر بوصفه كاهناً
انه مضطر الى ان يمنح الفقراء الذين يلتقيهم بعض الصدقات ، ولكنه ما
كان ليعطيهم أبداً غير قطع نحاسية او فلوس فقدت قيمتها الشرعية ،
واجداً بذلك وسيلة للذهاب الى جهنم من طريق الجنة . اما مسيو
جيلنورمان ، الأرشد ، فلم يتخذ من اعطاء الصدقات تجارة ، ولكنه كان

يعطي عن طيب نفس ، وفي نبل . كان عطوفاً ، خفيف اليد ، محباً
 للاحسان ؛ ولو قد كان غنياً اذن لكان ميملاً خليقاً بأن يكون
 سامياً . كان يرغب في ان يكون كل ما يتصل به معمولاً على نطاق
 واسع ، حتى الفس والحداع . وذات يوم ، بعد ان سرقه احد رجال
 الاعمال ، في مائة ميراث ، على نحو صفيق ملحوظ ، أطلق هذه
 الصيحة المهيبه : « تبا لك ! هذا شيء قدر ! أنا خجل جداً من هذه
 المخادعات الصغيرة . لقد فسد كل شيء في هذا القرن ، حتى الاندال .
 وحق الموت ، ليست هذه هي الوسيلة الى سرقة رجل مثلي . لقد
 سرقت وكأني في غاب ، وليكني سرقت في خة .
Sylvae sint consule dignae . وكانت له في وقت ما ، كما ذكرنا ،
 زوجتان . وقد رُزق من الاولى فتاة ظلت غير متزوجة ، ورزق من
 الثانية فتاة اخرى توفيت في الثلاثين من عمرها وكانت قد تزوجت ،
 بحكم الحب او بحكم المصادقة ، جندياً ثرياً كان قد خدم في جيوش
 الجمهورية والامبراطورية ، وفاز بوسام لحسن بلائه في اوستوليتز ، ورُقي
 الى رتبة كولونيل في واترلو . وكان البورجوازي العجوز يقول :
 « هذا هو عارُ أمرتنا . » وكان يتنشق مقداراً كبيراً من السعوط ،
 وكانت له براعة فريدة في تفضين مقدم قميصه المخرم بظاهر يده وكان
 لا يؤمن بالله إلا قليلاً .

٧

قاعدة : لا تستقبل احداً

إلا في المساء

كذلك كان ميسو لوقا - الروح جيلنورمان الذي لم يفقد شعره

البتة ، الرماديّ اكثر منه أبيض ، والمسرح دائماً على طريقة اذني الكلب . وعلى الجملة ، ومع ذلك كله ، فقد كان رجلاً جليلاً .
لقد كان يشبه القرن الثامن عشر : طيباً وعظيماً .

وعام ١٨١٤ ، في السنوات الأولى لعودة آل بوربون الى العرش ، كان مسيو جيلنورمان - الذي كان لا يزال شاباً ، فهو لم يتجاوز آنذاك الرابعة والسبعين - يجي في ضاحية سان جيرمان ، شارع سيرفاندوني قرب سان سوليس . ولم يكن قد انسحب الى شارع ماربه إلا حين اعتزل المجتمع بعد ان تخطى عامه الثمانين .

وإذ اعتزل المجتمع احاط نفسه بسور من عاداته . وكانت عاداته الرئيسية ، التي لم يشذ عنها قط ، هي إبقاء باب داره موصداً طوال النهار ، وعدم استقبال احد كائناً من كان ، ولأجماً مسألة من المسائل إلا في المساء . كان يتعشى في الساعة الخامسة ، ثم يفتح باب داره . كان ذلك هو الزمي الشائع في عصره ، وما كان ليتخلى عنه مجال . وكان يقول : « النهار سافل ؛ وليس يستحق غير المصارع المغلقة . إن الناس الجديرين بالاحترام لا يضيئون ذكاهم إلا حين تضيء نقطة سمّت الرأس نجومها . » لقد تمّوس متربصاً بكل انسان ، ولو كان الملك نفسه . تلك هي كياسة عصره القديمة .

٨

واحدة وواحدة لا تساويان زوجاً

أما ابنتا مسيو جيلنورمان فقد سبق منا الكلام عليها . لقد وُلدت احدهما بعد ولادة الاخرى بعشر سنوات . وفي صباحهما ، كان الشبه بينهما ضئيلاً جداً ؛ وكانتا لا توحيان سواء من حيث الشخصية او من

حيث الهيا ، أنها شقيقتان . فأما الصغرى فكانت مرحة الروح يجذبها كل ما هو مشرق ، منهكةً بالأزهار والاشعار والموسيقى ، تواقفةً الى التحليق في الأجواء المهيبة ، شديدة الحماسة ، لطيفة ، مخطوبة منذ الطفولة ، في الخيال ، لشخصية بطولية غامضة . وأما الكبرى فكانت لها هي الاخرى اوهاهما . ففي الاعماق اللازوردية كانت ترى مقاولاً ، مومناً جنوداً طبيباً ضخماً غنياً جداً ، زوجاً أبه على نحو باهر ، رجلاً مليونيراً ، أو والياً . وكانت الحفلات المقامة في دار الولاية وحاجب غرفة الانتظار المطوق عنقه بسلسلة ، والحفلات الرسمية الراقصة ، والخطب الملقاة في مقرّ العدة ، وأن تكون السيدة الوالية ، - كان ذلك كله يعصف في خيالها عصفاً . وكذلك تاهت الشقيقتان ، كل في حلمها ، يوم كانتا فتاتين صغيرتين . كانت لكتيها اجنحة ، فأما احدهما فكان جناحها مثل جناحي ملاك ، وأما الاخرى فكان جناحها مثل جناحي اوزة .

ولكنّ أياً من الآمال لا يتحقق تحققاً كاملاً ، هنا في هذه الدنيا على الاقل . إن اياً من الجنان لا تغدو أرضية خلال الفترة التي نعيشها . لقد تزوجت الصغرى فتى أحلامها ، ولكنها ماتت . أما الكبرى فلم تزوج .

وكانت هذه ، عند دخولها القصة التي نرويها ، فضيلةً عجوزاً ، مخدرةً غير قابلة للاحتراق ، أحد الأنوف الحادة على نحوٍ متطرف ، وأحد العقول التي لا يمكن ان يقع المرء على أغلظ منها . وظاهرةٌ مميزة : فمخرج نطق الأسرة المباشرة ما كان أحدٌ يعرف اسمها . كانت تدعى الآنسة جيلنورمان الكبرى .

ومن حيث الرياء كانت الآنسة جيلنورمان الكبرى خليقة بأن تتفوق على أيما آنسة انكليزية . كانت هي الحياء مغالياً في الشر ، وكانت لها في حياتها ذكرى رهيبية : لقد رأى رجل ، ذات يوم ، رباط ساقها .

ولم ترد السنّ على ان ضاعفت من هذا الحياء القاسي الفؤاد . فاذا
بشوبها المطرز يعنى في الكثافة ، واذا به يعنى في الارتفاع . لفته ضاعفت
عدد الأباريم والدبابيس هناك ، حيث ما كان ليخطر في بال احد . أنت
ينظر . إن وجه الفراية في خُلق اللواتي يفرطن في الاحتراس في كل ما
يتصل بالعمة أنهم يكثرن من عدد الحرس كلما كانت القلعة اقل تعرضاً
للخطر .

ومع ذلك - وليفسر من يستطيع التفسير ألغاز البراة القديمة
هذه - فقد ارتضت ، من غير ما استنكار ، أن يقبلها ضابط من
الرماحة ، هو ابنُ ابنِ عمها ، ويدعى تيبودول .

وبرغم هذا الرماح المفضل فان لقب « المحدثرة » الذي خلعهنا عليها
يلائمها ملامة مطلقة . كانت الآنة جيلنورمان ضرباً من النفس الغسقية .
إن المغالاة في التعلق بأهداب العفة هي نصف فضيلة ونصف رذيلة .

ولقد اضافت الى الغلوّ في التعفف التطرف في التقوى ، وهي بطانة منسجمة
معه . كانت من اخوية العذراء ، فهي تصطنع تقابلاً ابيض في بعض الاعياد
وتتم ببعض الصلوات الخاصة ، وتعظم « الدم الطاهر » ، وتجلّ « القاب
المقدس » ، وتسلخ ساعات من التأمل أمام مذبح يسوعي على الطراز
القديم في كنيسة موصدة في وجه العوامّ من المؤمنين ، وتدع روحها تخلق
وسط سحائب الرخام الصغيرة ، ومن خلال اشعة الحشب المذهب السابغة .

وكانت لها صديقة من صديقات العبادة ، وهي عانس مثلها تدعى
الآنة فوبوا ، وكانت هذه الصديقة على غاية البلاهة ، فكان فؤاد الآنة
جيلنورمان يطفح ، الى جانبها ، بسعادة ناشئة عن شعورها بأنها نسر .
وفي ما وراء ما كانت تردّده من الـ *Agnus Die* و الـ *Ave Maria* * لم تكن
الآنة فوبوا - لتعرف شيئاً غير الاساليب المختلفة في صنع المربيات .
لقد كانت الآنة فوبوا - الكاملة بين افراد نوعها رمز البلاهة الحالى

* سلاقان ، وتنى الاول « حمل الرب » والثانية « السلام عليك يا مريم . »

من إما مسحة من الذكاء .

ويتعين علينا ان نقول ان الآنسة جيلنورمان كسبت ببلوغها سنّ الشيخوخة اكثر مما خسرت . وتلك هي الحال مع الطبائع المطواعة المنفعة . انها لم تكن في يوم من الايام عنيدة ؛ وهي طيبة نسبية . والى هذا فان السنين تُبلي الزوايا ، ولقد أدركها عامل الزمن الملطّف . كانت محزونة حزناً غامضاً لم تكن هي نفسها لتعلم سرّه . كان في كيانها كله خدرٌ حياة انتهت ولكنها لم تبدأ قط .

لقد دبرت منزل أبيها . فقد كان مسيو جيلنورمان يجيا الى جانب بنته ، كما رأينا مونسينيور بينفينو يجيا الى جانب اخته . وهذه الأسر المؤلفة من شيخ وعانس ليست شيئاً نادراً ، وانها لتوقع في النفس دائماً تلك الانطباعة المؤثرة التي يوقعها مشهد ضَمَمَيْن يتوكأ احدهما على الآخر . وكان المنزل يضمّ فوق ذلك ، بين هذه العانس وهذا الشيخ ، طفلاً ، صبياً صغيراً يرتجف دائماً وينعقد لسانه أمام مسيو جيلنورمان . ولم يكن مسيو جيلنورمان ليكلّم هذا الطفل ابداً إلا في صوت فِظٍّ ، وبمساعدة عصاً مرفوعة في بعض الاحيان : « هاي ! مسيو ! - ايها الوغد ، ايها الفاجر ، تعال الى هنا ! أجيني ايها الحقير ! دعني أراك ، يا من لا يصلح لشيء ! ، الخ . الخ . كان يجبه حباً جماً كان حفيده . وسوف نرى هذا الطفل كرة = أخرى .

الكتاب الثالث

الجدُّ والحفيد

١

صالون قديم

كان من دأب مسيو جيلنورمان ، يوم كان يجيأ في شارع سيرفاندوني ، ان يتردد على عدد من الصالونات الفخمة جداً ، النبيلة جداً . وكان يُستقبل في تلك الصالونات ، برغم انه بورجوازي . واذ كان على ذكاه مضاعف ، ذكائه الذاتي والذكاه الذي كان يُعزى اليه ، فقد كان رواد تلك الصالونات ياتمسونه ويرحبون به ترحيباً بالغاً . وما كان ليذهب الى ايما مكان إلا على شريطة أن يسيطر هو على المجلس . إن هناك رجالاً يرغبون في ان يفرضوا نفوذهم ، بأي ثمن ، ويجرّسون

على لَمَت انتباه الناس اليهم . فحيث لا يستطيعون أن يكونوا جهابذة ناطقين بالحكمة ، يجهلون من أنفسهم مهرجين . إن مسيو جيلنورمان لم يكن من هذا الضرب من الرجال . فسيطرته على الصالونات الملكية التي كان يختلف إليها لم تكلفه شيئاً من احترام الذات . كان جهبذاً في كل مكان . ولقد قُدِّر له أن يقاوم مسيو دو بونالد ، بل ان يقاوم مسيو بنجي - بوي - فاليه نفسه .

وحوالى عام ١٨١٧ جرت عادته بأن يقضي فترة ما بعد الظهر مرتين كل اسبوع في منزل مجاور لمنزله ، بشارع فيرو ، عند البارونة دو ت..... ، وهي سيدة جليلة محترمة كان زوجها سفيراً لفرنسة في برلين في عهد الملك لويس السادس عشر . وتوفي البارون دو ت..... الذي وقف حياته على ضروب النشوة الروحية والرؤى المغناطيسية ، في ديار الهجرة ، مفتقراً حتى الافلاس ، غير مخلف غير عشرة مخطوطات مجلدة مجلد أحمر ، مذهبة الحوافي ، تنتظم ذكرياته الغربية عن مسمر * ووعائه الحشبي الصغير . ولم تشأ مدام دو ت..... ان تنشر المذكرات قطّ بدافع من الوقار ، وأعالت نفسها بدخل ضئيل لبس يدري احد كيف ثبت في وجه الطوفان . لقد عاشت مدام دو ت..... بعيدة عن البلاط - وهو مجتمع يتفاوت افواده تفاوتاً عظيماً في العادات والمركز الاجتماعي ، كما قالت - في عزلة نبيلة ، مختالة ، فقيرة . وكان نفر قليل من الاصدقاء يجتمعون حول نارها المترملة مرتين في الاسبوع ، وهذا ما شكّل صالوناً ملكياً متحصناً . كانوا يشربون الشاي هناك ، ويطلقون - وفقاً لهبوب الريح نحو الرثاء أو نحو الشعر الغنائي الحماسي - أنات الاسي او صيحات الشنينة في وجه العصر ، وفي وجه الدستور ، وفي وجه البونايرتين ، وفي وجه تسليم الطاهيات الماهرات الى البورجوازيين ، وفي وجه نزعة لويس الثامن

* سبق التعريف به في الفصل العاشر من الكتاب الاول ، من هذا القسم ، فليراجع .

عشر اليمقوبية * . ولقد تلهوا بالتهامس بالآمال التي كانوا يعلقونها على اخي الملك ، الثاني في تسلسل الاتمار ، وهو الذي تولى العرش بعد فحرف بشارل العاشر .

وكانوا يستقبلون الاغاني السؤوية التي تدعو نابوليون « نيقولا ، بعاصفة من البهجة . وكانت بعض الدوقات ، اكثر نساء العالم رقةً وأشدّهن فتنة ، ينتشين بمقاطع مثل هذه موجهة الى المتحالفين » ** :

« اغرزوا في سراويلكم مرة ثانية ،
اطراف القمصان التي تتدلى على اجسامكم ،
لكي لا يقولوا ان الوطنيين
قد رسوا الراية البيضاء ! »

وتسلّوا بنكت جناسية اعتقدوا انها فظيعة ، وبتلاعب لفظي بريء حبه ساماً ، وبيعض الرباعيات الشعرية ، بل وبيعض النثائيات ، من مثل هذين البيتين اللذين قيلتا في وزارة دوسول *** وهي وزارة معتدلة اشترك فيها السيدان « دوказ » **** و « دوسير » :

« لكي تثبتوا المرش المتزعزع على قاعدته ،
يجب ان تميزوا الارض (de sol) والبرئن (de terre) والكوخ (de case) ***** »

* يقصد بالترعة اليمقوبية الترعة الثورية التحريرية نسبة الى جماعة « اليعاقبة » الشهيرة في تاريخ الثورة الفرنسية .

** يقصد بالمتحالفين هنا ، Fédération ، الحرس الوطني الذي غالف عام ١٨١٥ لخمرة آل بوربون .

*** Desolles جنرال فرنسي (١٧٦٧ - ١٨٢٨) وقد تولى رئاسة الوزارة عام ١٨١٨ . ولكن « دوказ » كان هو الرئيس الحقيقي للحكومة .

**** Decazes رجل دولة فرنسي (١٧٨٠ - ١٨٦٠) تولى رئاسة الوزارة ايضاً .
***** لاحظ الجناس بين قوله de sol واسم رئيس الوزارة Desolles وبين قوله de serre واسم الوزير Deserre ، وبين قوله de case واسم الوزير دوказ .

وفي بعض الاحيان كانوا يضعون لائحة باعضاء مجلس الاعيان ، ذلك المجلس اليعقوبي الى حدّ قبيح ، ويرتبون الاسماء ، في تلك اللائحة ، بحيث تتألف منها مثلاً ، جمل كهذه : * Damas, Sabran, Gouvion Saint-Cyr وكانوا يفعلون ذلك كله في مرح وابتهاج .

وفي ذلك العالم الصغير كانوا يقلدون الثورة ساخرين . وكان لديهم ميل غريب الى ان يشعذوا الغضب نفسه بمعنى معكوس . وهكذا أنشدوا أغنية ça ira على هذا النحو :

Ah ! ça ira ! ça ira ! ça ira !
Les buonapartist , à la lanterne ! **

ان الاغاني كالمفصلة . فهي تحتز الرؤوس في غير مبالاة : اليوم هذا الرأس وغداً ذلك الرأس ؛ انه مجرد اختلاف في النسخ . وفي قضية فوبالديس *** التي ترقى الى ذلك العهد ، ١٨١٦ ، تعصبوا لـ « باستيد » و « جوسيون » لأن فوبالديس كان « بونابرتياً » . كانوا يسمون الأحرار « الاخوة والاصدقاء » وكانت تلك أعلى درجات التحقير . ومثل بعض ابراج الكنائس كان لصالون السيدة البارونة دو ت... ديكان اثنان . احدهما مسيو جيلنورمان ، والآخر الكونت دو لاموت فالوا

* أي : « داما » يطمن بالسيف « غوفيون سان سير . » على اعتبار الجناس بين اسم Sabran عضو ذلك المجلس و Sabrant « اي طاعناً بالسيف » .
** أي أن انصار بونابرت سوف يشتمون على رؤوس اعمدة الفوانيس ...
والاغنية في الاصل من اغاني الثورة ، وهي تقول في البيت الثاني :

Les aristocrates à la lanterne

وهكذا يكون رواد الصالون الملكي الذي يتحدث عنه المؤلف قد وضعوا كلمة « البونابرتيين » محل كلمة الارستوقراطيين ، اذ كان الملكيون - انصار آل بوربون - يرون في البونابرتيين عدوم الاول .

*** Fualdés حاكم فرنسي قتل في روديز عام ١٨١٧ (هكذا في معجم لاروس)
وقد احدثت الهاكمة الجنائية دويأ هائلاً في فرنسا كلها .

الذي كان القوم يتهامسون حوله في ضرب من الاحترام : « اندوي ؟ هذا هو لاموت Lamothe قضية العقد * . إن الحزبيين ليصابون بمثل فقدان الذاكرة هذا .

ولنصف أيضاً : إن رُتب الشرف ، عند البورجوازيين ، تتناقص من طريق الاتصال الميسر اكثر مما ينبغي . واذن فيتعين عليك أن تعرف من تستقبل . وكما يفقد المرء شيئاً من الحرارة في جوار اولئك الذين يشكون البرد كذلك يُعنى بنقص في الاعتبار اذا اقترب من المحقرين من الناس . والواقع ان المجتمع الارستوقراطي القديم جعل نفسه فوق هذا القانون كما وضع نفسه في سائر القوانين جميعاً . فقد كان ماريني اخو مدام بومبادور * يُستقبل في صالون البرنس دو سوييز *** . على الرغم ؟ لا . لأنه . وكان دو باري ، عراب لا فوبرنيه ، يُستقبل احسن استقبال في صالون المارشال دو ريشيليو **** . إن ذلك المجتمع

* قضية العقد فضيحة شغلت الناس في فرنسا في السنوات التي سبقت الثورة الفرنسية (١٧٨٤ - ١٧٨٦) وتفصيل المسألة ان الكاردينال دو روهان كان يحرص على امتراء الملكة ماري انطوانيت فسمح للكوتتيس دو لاموت La Motte بأن تحدهه . ذلك ان هذه المرأة اوهمته ان الملكة ترغب اشد الرغبة في الحصول على عقد تبلغ قيمته مليوناً وستمئة الف فرنك ولكن الملك يرفض ان يشتريه لها . فما كان من الكاردينال الا ان اشتراه لها ، وسلمه الى الكوتتيس دو لاموت لكي تحمله الى الملكة . ولكن العقد اختفي . ولم يتمكن الكاردينال من دفع الثمن . واكتشفت المسألة ، فوضع في الباسيل ، ولكن البرلمان برأه فنفى من باريس ... وواضح ان الكوتتيس دو لاموت La Motte بطلة هذه الفضيحة هي غير الكونت دو لاموت Lamothe « ديك » الصالون المشار اليه ... وهذا ما عناه المؤلف بقوله : ان الحزبيين يصابون بمثل فقدان الذاكرة هذا .

** المركيزة دو بومبادور Pompadour عظيمة لويس الخامس عشر . وكان اخوها ماريني Marigny (١٧٢١ - ١٧٨١) المدير العام لباني الملك .
*** Prince de Soubise مارشال فرنسا (١٧١٥ - ١٧٨٧) وكان خادماً مطواعاً للمركيزة دو بومبادور .

**** Maréchal de Richelieu مارشال فرنسا (١٦٩٦ - ١٧٨٨) لعب دوراً بارزاً في بلاطي لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر .

اشبه بجبل الاولب . فيه يستشعر كل من عطارد * والبرنس دو غومينيه أنه في بيته . إن اللص يُسمح له في الدخول الى هناك ، شرط ان يكون إلسهآ .

ولم يكن الكونت دو لاموت ، الذي أوفى عام ١٨١٥ على الحامسة والسبعين ، ليمتاز بشيء غير صمته وإفراطه في إطلاق الحكم والامثال ، ووجهه البارد ذي الزوايا ، وسلوكه المعسن في اللطف ، وسترته المزرة حتى ربطة عنقه ، وساقيه الطويلتين المتصالبتين ابدأ في بنطلون طويل رخوي ذي لون كاون تراب « سينتآ » ** المحروق . وكان وجهه من لون بنطلونه .

إن مسيو لاموت هذا كان « مبعثلاً » في ذلك الصالون بسبب من « شهرته » ، وبسبب من أن اسمه - وهو شيء غريب ، ولكنه صحيح - فالوا . ***

أما مسيو جيلنورمان فكان مديناً بالاحترام الذي أحيط به لشخصه وحده ليس غير . لقد فاز بالاحترام لأنه جدير بأن يفوز بالاحترام . كانت له - برغم مرحه ، ومن غير ان يكلفه ذلك شيئاً من ابتهاجه - طبيعة مهيبة ، وقور ، نزيه ، متغطرمة على نحو بورجوازي ؛ ولقد ظهرت شيخوخته ذلك وقوته . إن المرء لا يكون قرناً من الزمان على غير طائل . فالسنون تلبس الرأس ، آخر الامر ، تاجاً من الوراق .

والى ذلك كله ، كان يطلق بعض تلك الكلمات التي تنطوي من غير

* Mercure ابن جوبيتر ورسول الالهة . وكان هو نفع إله الفصاحة والتجارة والاصوص . وهو يقابل « هرمس » عند الاغريق .

** sienne تراب حديدي يتخذ منه مادة صبغية تكون سمراء ضاربة الى الصفرة في حالته الخام ، فاذا ما أحرق استخرج منه صبغ اسمر ضارب الى الحمرة .

*** Valois على اسم الاسرة الفرنسية المالكة التي نوت عرش فرنة عام ١٣٢٨ في شخص فيليب السادس .

ريب على شررِ النسب العريق . وهكذا ، حين اقبل ملك بروسيا - بعد ان اعاد لويس الثامن عشر الى عرشه - لزيارته تحت اسم الكونت دو رويين استقبله المتحدرون من لويس الرابع عشر وكأنه مركيز من مراكزة براندبورغ ، تقريباً ، وفي جفاء بالغ الرقة . وأقرت مسيو جيلنورمان ذلك قائلاً : « إن جميع الملوك ، الذين لا يتربعون على عرش فونسة هم ملوك مقاطعات . » ولقد نطق بالسؤال والجواب التاليين في حضرته ، ذات يوم : « بم 'حكم على محررال « كورييه فونسيه ؟ » - « بان تعطل جريدته » *à être suspendu* فما كان من مسيو جيلنورمان إلا ان قال : « ان *sus* هذه زائدة . » * إن اقوالاً من هذا النوع لتجعل للمرء مركزاً .

وفي « تسبحة شكر » سنوية لمناسبة عودة آل بوربون الى العرش ، قال عند رؤيته مسيو دو تاليران : « هوذا صاحب الفخامة الشر . » وكان يوافق مسيو جيلنورمان ، عادة ، ابنته - هذه الآنة التي تجاوزت آنذاك الاربعين وبدت وكأنها في الخمسين - وغلامٌ وسيم في السابعة ، أبيضٌ ، متورد الوجنتين ، غض ، ذو عينيْن سعيدتين واثقتين ، كان لا يكاد يظهر في هذا الصالون حتى يسمع من حوله أزيزاً : « ما أجمله ! يا للخسارة ! يا له من طفل مسكين ! » وكان هذا الطفل هو الذي قلنا كلمة عنه منذ لحظة . كانوا يدعونه « الطفل المسكين ! » لأن أباه كان « قاطعاً من قطاع الطرق في اللوار . »

وكان « قاطع طريق اللوار » هذا هو صهر مسيو جيلنورمان ، الذي سبق ان اشرنا اليه ، والذي كان مسيو جيلنورمان يدعوه « عارأسرته » .

* يقصد انه كان ينبغي ان يحكم عليه بالشنق *être pendu* لا بتعطيل الجريدة فحسب *être suspendu* ، لان حذف السابعة *sus* من فعل *suspendre* ينقل المعنى من « التعطيل » الى « الشنق » .

احد اشباح ذلك العصر الحمراء

إن كل من 'قدّر له ان يمر' ، في تلك الحقة ، بمدينة فيرنون الصغيرة وان يسير على ذلك الجسر الجميل الفخم الذي نرجو ان يحل محله في وقت قريب جسر وهيب من اسلاك الحديد ، قد لاحظ من غير ريب ، عندما خفض بصره من أعلى سور الجسر ، رجلاً في نحو الخمسين من العمر يعتمر بقبعة جلدية ذات حافة ناتئة ، ويرتدي بنطلوناً وصدرة من جوخ رمادي غليظ خيطاً فوقها شيء اصفر كان في وقت ما عصابة حمراء ، وينتمل حذاء خشبياً ؛ رجلاً لو تحنه الشمس ، ذا وجه يكاد يكون أسود وشعر يكاد يكون أبيض ، على جبينه ندبة عريضة تمتد فنشغل جزءاً من خده ؛ رجلاً محدودب الظهر ، متقوساً ، ألمت به الشيخوخة قبل الاوان يتمشى كل يوم تقريباً ، وفي يده إما مسحاة وإما مدية لتشذيب الاغصان في أحد تلك البيوت المسورة المجاورة للجسر ، والمحيطة بصفة الـ « سين » ، اليسرى مثل سلسلة من السطائح - أحواش فاتنة ملأى بالرياحين يستطيع المرء ان يقول ، لو كانت اكبر كثيراً : انها حدائق ، ولو كانت اصغر قليلاً : انها باقات . وجميع هذه الاحواش تقضي ، من ناحية ، الى النهر ومن ناحية اخرى ، الى بيت من البيوت . وإنما كان الرجل ذو الصدرة والحذاء الخشي ، الرجل الذي تحدثنا عنه اللحظة ، يجيا حوالى عام ١٨١٧ في اصفر هذه الاحواش ، وفي اكثر تلك البيوت تواضعاً . كان يجيا هناك متوحداً منعزلاً ، يكتنفه الصمت والفقر ، مع امرأة ليست بالشابة وليست بالعجوز ، ليست بالجميلة وليست بالقبيحة ، ليست بالريفية وليست بالمدينية كانت تقوم على خدمته . وكان ذلك المربّع من الارض الذي يدعوه

حديقته شهيراً في المدينة بجمال ازهاره التي كان يتعهدا بعنايته . لقد كانت الازهار موضوع اهتمامه .

وبالاكثر من العمل ، والمواظبة ، والانتباه ، ودلاء الماء ، ووفقى الى ان يخلق بعد الخالق ، وكان قد اخترع بعض الزنابق والزهرات الذهبية التي بدت وكأن الطبيعة قد نسيتها . كان حاذقاً . ولقد سبق سولانج بودين الى تشكيل كتل صغيرة من التربة التي ينبت فيها الخلع لاستنبات بعض الشجيرات النادرة الثمينة المحلوبة من اميركة والصين . فما إن يرتفع الضحى ، من كل يوم ، في فصل الصيف ، حتى يكون في ممرات حديقته يحفر ، ويشذب الاغصان ، ويقطف الاعشاب الطفيلية ، راوياً النباتات ، ماشياً وسط ازهاره في سبيا من الطيبة ، والحزن ، والرقه ، مستسلماً الى الاحلام في بعض الاحيان ، واقفاً لا يتحرك ساعات بكاملها ، مصغياً الى انشودة طائر على شجرة أو زقزقة طفل في بيت ، او محدقاً الى فطرة من ندى على طرف نصل من نصال العشب كانت الشمس تجعل منها ياقوتة جهرية . كانت مائدته مهزولة جداً ، وكان يشرب اللبن اكثر مما يشرب الحمر . كان جديراً بايما طفل ان يحمله على الاستسلام ، وكانت خادمته تؤنبه . كان خجولاً الى حد جعله يبدو نفوراً . وكان قادراً ما يغادر بيته ؛ وما كان ليرى احداً غير الفقراء الذين يخفقون زجاج نافذته بأصابعهم ، وغير كاهنه ، الأب مابوف ، وكان رجلاً عجوزاً طيباً . ومع ذلك فقد كان يفتح باب داره في ابتسامه كلما قرعه احد من ابناء المدينة أو من الغرباء ، كائناً من كان ، مجدوه الفضول الى رؤية زنايقه ووروده . ذلك كان « قاطع طريق اللوار » . وكل من قرأ ، في الوقت نفسه ، المذكرات العسكرية ، وسير

الرجال ، و « المونيتور » * ، وبلاغات « الجيش العظيم » ** الرسمية خليق " بأن بيده" اسم" كثيراً ما يتردد فيها ، هو اسم جورج بوغيرمي . ففي صدر الشباب ، كان جورج بوغيرمي هذا جندياً في كتيبة سينتونج . وانفجرت الثورة . وكانت كتيبة سينتونج تؤلف جزءاً من جيش الرين . ذلك ان كتاب النظام الملكي القديمة احتفظت باسمائها المنذوبة الى المقاطعات حتى بعد سقوط الملكية ، ولم توحد في ألوية إلا سنة ١٧٩٤ . وقاتل بوغيرمي في « سير » ، و « وورمز » ، و « نويشتات » ، و « توركهايم » ، و « آزري » ، و « ميانس » حيث كان احد المتين الذين شكلوا مؤخرة جيش هوشار *** . لقد صمد هو وأحد عشر مقاتلاً آخرين في وجه فيلق أمير هيس بكامله ، خلف متراس آندرناخ القديم ، ولم يرتد الى «جماع الجيش إلا عندما احدثت مدافع العدر نغرةً من أعلى السور الى منحدره . وكان تحت امره كليب في مارشين ، وفي معركة مون باليسيل حيث كسرت ذراعه بقذيفة من بندقية . ثم انتقل الى الحدود الايطالية ، وكان احد رماة القنابل الثلاثين الذين دافعوا عن شُعب تاند مع جويير **** . ورُقي جويير الى رتبة

* Lo Moniteur Universel الجريدة الرسمية للحكومة الفرنسية من السنة الثانية للجمهورية حتى عام ١٨٦٩ .

** هو الجيش الذي نظمه نابليون عام ١٨٠٤ ابتداء غزو بريطانيا ، اول الامر ثم وجهه لشن الحملات العسكرية التي قام بها عام ١٨٠٥ وعام ١٨٠٦ . (وبعد عام ١٨٠٦ أُطلق على هذا الجيش اسم جيش الرين .) وقد خُلج هذا الاسم نفسه - الجيش العظيم Grande Armée - على الجيش الذي قاده نابليون عام ١٩١٢ ، الى روسيا .

*** Houchard جنرال فرنسي (١٧٣٨ - ١٧٩٣) هزم الانكليز في هوندشوت عام ١٧٩٣ ، ولكنه لم يطارده القوات المهزومة فاتهم بمداراة العدو ، وحكمت عليه المحكمة الثورية بالموت على المقصلة .

**** Joubert جنرال فرنسي (١٧٦٩ - ١٧٩٩) أبلى بلاء حثاً تحت إمرة نابليون في الحملة الايطالية عام ١٧٩٦ .

جنرال معاون ، ورتقي بوغيمسي الى رتبة ملازم ثانٍ . وكان بوغيمسي الى جانب بيرتييه * وسط وابل القذائف الذي انصب في معركة لودي ** تلك التي قال نابوليون عنها : « كان بيرتييه مدفعياً ، وفارساً ، ورامي قنابل . » اقد رأى جنراله القديم ، جوبير ، يخرق صريعاً في « نوفي » ، لحظة كان يصيح ، « شاهراً سيفه : « الى الامام ! » ، واذ ركب هو وسريرته ، بحكم ضرورات الحلة ، زورقاً شرعياً خفيفاً كان متجهاً من جنوا الى مرفأ صغير على الشاطئ ، فقد وقعوا في وكر مؤلف من سبعة مراكب او ثمانية مراكب شرعية انكليزية . وأراد الربان ان يلقي بالمدافع الى البحر ، وان يجنب الجنود في الطبقة القائمة بين جسري المركب ، وينسل تحت جنح الظلام مثل سفينة تجارية . فما كان من بوغيمسي إلا ان ثبت الراية المثلثة الالوان الى حبال سارية العلم ، ومرّ تحتاً تحت مدافع السفن الحربية البريطانية . حتى اذا اجتاز عشرين فرسخاً من هناك هاجم بزورقه الشرعي واعتقل - وقد تعاضمت جسارته - ناقلة انكليزية ضخمة تحمل الجنود الى صقلية ، وكانت مثقلة بالرجال والحيل الى حد جعل كل زاوية فيها ملأى بمن تحمل ، حتى الفجوات المؤدية الى « عنبر » البضائع . وفي سنة ١٨٠٥ كان في فصل ماهر ذاك ، الذي انتزع غونزبورغ من الارشيدوق فيرديناند . وفي وتجن تلقى بين ذراعيه ، تحت وابل من القذائف ، الكولونيل موبيني الذي اصيب بجراح مميتة على رأس كتية الفرسان التاسعة . ولقد أبلى بلاءً حسناً في أوستوليتز ، اثناء ذلك الزحف الرائع الذي انتشر فيه الجنود انتشاراً عميقاً ، تحت نيران العدو . وحين سقطت خيالة الحرس الامبراطوري الروسي فوجاً من كتية المشاة الرابعة التي يحارب جنودها مصطفيين كان بوغيمسي بين اولئك الذين ثاروا لهذا الفوج

* Berthier مارشال فرنسة (١٧٥٣ - ١٨١٥) كان من اعوان نابوليون وقائداً من اكبر قواد « الجيش العظيم » .

** Lodi مدينة ايطالية اتصر فيها نابوليون على النموسيين في ١٠ نوار ١٧٩٦

والذين هزموا ذلك الحرس . ومنحه الامبراطور صليب الحرب . وعلى
التعاقب رأى بوغيرسي الى وورمر* يقع أسيراً في مانتو* ، وميلاس***
يقع اسيراً في الاسكندرية ، وماك يقع أسيراً في أولم . كان يؤلف جزءاً
من الفيلق الثامن ، من الجيش العظيم ، الذي قاده مورتييه****، والذي
استولى على هامبورغ . ثم انتقل الى الكتيبة الخامسة والخمسين من كتائب
الجند المقاتلين مصطفين ، تلك التي كانت من قبل كتيبة الفلاندر . وفي
ايلو***** كان في المقبرة التي قاوم فيها الرئيس الباسل ، لويس هيجو ، عم
مؤلف هذا الكتاب ، هو وأفراد سريته وحدهم ، وعددهم ثلاثة وثمانون
رجلاً ، مجهود الجيش العدو كله طوال ساعتين كاملتين . وكان بوغيرسي
واحداً من اولئك الثلاثة الذين خرجوا من تلك المقبرة على قيد الحياة . ولقد
شهد معركة فريدلند ، ثم رأى موسكو ، ثم ال « بيريزينا » ، ثم لوتزين ،
وبوتزين ، ودرسدن ، وفاساو ، وليبزغ ، وفجاج جيلينهاوزن ، ثم مونيراى ،
وشاتو تييري ، وكراون ، وضاف المارن ، وضاف الأين ، والوضع الرهيب
في لاون . وفي « آرنى لو دوك » ، وكان برتبة رئيس ، طعن عشرة من
الجنود القوزاق بسيفه ، وانقذ من الموت عريفه لا جنراله . واقد جرح
في تلك المناسبة ؛ ولقد استخرجت سبع وعشرون سُنْطية من ذراعه

* Wurmsier جنرال نموي (١٧٢٤ - ١٧٩٧) هزمه بونابرت في كاستيليون
واكرمه بعد ذلك على الاستسلام في مانتو .

** Mantoue مدينة في ايطاليا ، وقد استولى عليها بونابرت ، بعد ان هزم وورمر
عام ١٧٩٧

*** Baron de Mélas جنرال لموي (١٧٢٩ - ١٨٠٦) هزمه بونابرت في
معركة مارانتو .

**** Mortier مارشال فرنسة (١٧٦٨ - ١٨٣٥) وقد خاض معركة فريدلند ،
ولوتزين ، وليبزغ .

***** Eylau مدينة في بروسية حيث هزم بونابرت (٨ شباط ١٨٠٧) القوات
البروسية والروسية .

اليسرى وحدها . وقبل استسلام باريس بثمانية ايام اجرى تبادلاً مع رفيق له ، ودخل سلاح الفرسان . كان له ما يدعى في النظام القديم «اليد المزدوجة» ، يعني انه كان بارعاً - بوصفه جندياً - في اصطناع السيف او البندقية ، وبارعاً - بوصفه ضابطاً - في قيادة كوكبة من الفرسان او فوج من المشاة . والحق ان هذه البراعة ، التي تنتهي بها الثقافة العسكرية الى حد الكمال ، هي التي تخلق بعض الاسلحة الخاصة ، كسلاح «التنانين» مثلاً الذي يتألف من جنود هم خيالة ورجالة في وقت معاً . لقد رافق نابليون الى جزيرة ألبا . وفي واترلو ، قاد كوكبة فرسان دارعين في لواء دوبوا . وكان هو الذي انتزع الراية من فوج لونبورغ . لقد طرح الراية على قدمي الامبراطور ، وكان مضرباً بالدم ، فقد اصيب ، وهو ينتزع الراية ، بضربة سيف عبر وجهه . وصاح الامبراطور يخاطبه ، وقد غلبه السرور : « أنت كولوئيل ؛ انت بارون ؛ انت ضابط في جوقة الشرف ! » واجاب بوغيرسي : « مولاي ، إني اشكرك بالنيابة عن ارملي » . وبعد ساعة سقط في وادي أوهين . فمن كان جورج بوغيرسي هذا ؟ لقد كان « قاطع طريق اللوار » ذلك نفسه .

لقد روينا ، من قبل ، شيئاً من قصته . فبعد واترلو أخرج بوغيرسي ، كما نذكر ، من طريق أوهين العائرة ووفتق الى اللهاق بالجيش ، فنقل من عربة إسعاف الى عربة إسعاف حتى بلغ معسكر الجند الموقت في اللوار .

وخضت حكومة آل بوربون تعويضاته ، ثم ارسلته الى فيرنون ليقيم فيها إقامة جبرية ، تحت الحراسة . وإذا انكر الملك - لويس الثامن عشر - كل ما تمّ خلال « الأيام المئة » فإنه لم يعترف لا بمنزلة كضابط في جوقة الشرف ، ولا برتبته ككولوئيل ، ولا بلقبه كـ « بارون » . أما هو فلم يغادر فرصة إلا وقع فيها اسمه هكذا : الكولوئيل البارون بوغيرسي . ولم يكن عنده غير سترة زرقاء عتيقة ،

وما كان ليخرج من بيته البتة من غير ان يعلّق عليها العقدة الوردية الشكل المؤذنة بأن حاملها ضابط في جوقة الشرف . وأعلمه النائب العام أن النيابة سوف تلاحقه لانه يزين صدره ، « على نحو غير شرعي » ، بهذا الوسام . فلما حمل اليه احد الوسطاء غير الرسميين هذا الاعلام اجابه بوغريسي في ابتسامة مريرة : « يجيل اليّ ان ثمة واحداً من امرين : إما ان اكون أنا لم اعد افهم الفرنسية ، وإما ان تكونوا انتم لم تعودوا تتكلمونها . ولكن الامر الذي لا ريب فيه هو اني لا أفهمكم . » ثم راح يخرج من بيته ، يوماً ، طوال اسبوع ، معلقاً تلك العقدة الوردية . ولكن احداً لم يجرؤ على إزعاجه . ومرتين او ثلاث مرات كتب اليه وزير الحرب أو الجنرال قائد القوات في المقاطعة موجهاً الخطاب على النحو التالي : « السيد الكومندان بوغريسي » . فكان يعيد الرسائل الى مصدرها من غير ان يفتّحها . وفي تلك الآونة نفسها كان نابوليون في سانت هيلانة يقف الموقف ذاته من رسائل « السير هديسون لو » المعنونة : الى الجنرال بونابرت . وأخيراً انتهى بوغريسي - وليغفر لنا القارئ هذه الكلمة - الى ان يجد في فمه اللعاب نفسه الذي وجده امبراطوره .

ولقد كان في رومة ، كذلك ، بضعة اسرى من الجنود القرطاجيين رفضوا الانحاء لفلامينيوس * وكانت تعتلج في صدورهم نفحة من روح هتّيبيل .

وذات صباح التقى النائب العام في احد شوارع فيرنونث ، فمضى اليه وقال : « سيدي النائب العام ، هل يجاز لي ان احمّل كندّيتي ** ؟ »

* Flaminius قائد روماني (٢٣٠ ؟ - ١٧٤ ق . م) وقد تولى منصب (قنصل)

في عام ١٩٨ ق . م .

** التدية : اثر الجرح الباقي على الجلد .

ولم يكن لديه غير نصف راتبه المزيل جداً والذي كان يقدم اليه بوصفه قائد كوكبة فرسان ؛ ولقد استأجر اصغر بيت استطاع ان يجده في فيرنون . وهناك عاش وحده على النحو الذي وصفنا منذ لحظة . ففي عهد الامبراطورية ، بين حربيين اثنتين ، وجد متعمداً من الوقت لأن يتزوج الانسة جيلنورمان . ولقد اقر البورجوازي العجوز ، الذي استبد به السخط ، ذلك الزواج ، وقال وهو يُطلق زفرة : « ان اعظم الاسر تكوه على ذلك . » وفي عام ١٨١٥ ، توفيت مدام بونيرسي - وكانت امرأة معجبة من كل ناحية ، مثقفة ونادرة المثال ، جدية بزوجها - مخافةً وراها طفلاً ، وكان هذا الطفل خليقاً بأن يكون بهجة الكولونيل في عزلة ، ولكن الجد طالب بحفيده في صلف ، معلناً أنه إذا لم يفز به فسوف يحرمه الميراث . واذعن الأب حرصاً منه على مصلحة الفتى . حتى اذا حُرم ابنه انشأ بحب الرياحين .

والى ذلك ، فقد هجر كل شيء فهو لا يتحرك ، وهو لا يتأمر مع الآخرين . لقد وزع افكاره بين الاشياء البريئة التي يقوم بها ، والاشياء العظيمة التي قام بها . لقد سلخ وقته آملاً ان يبتدع قرنفلة ، او متذكراً اوسترليتز .

ولم يكن لمسيو جيلنورمان ايما اتصال بصهره . كان الكولونيل ، في نظره ، « قاطع طريق » ، وكان هو ، في نظر الكولونيل ، « رجلاً متبلد الذهن » . ولم يتحدث مسيو جيلنورمان الى الكولونيل قط ، إلا لكي يشير ، في بعض الاحيان ، اشاراتٍ ساخرة الى « بارونيته » . وكان مفهوماً على نحو واضح جداً ان نونيرسي يجب ان لا يحاول رؤية ابنه او التحدث اليه البتة ، والا تُطرد الفتى وحرم الميراث . لقد كان بونيرسي عند آل جيلنورمان ، مصاباً بالطاعون . ولقد رغبوا في ان ينشئوا الطفل كما يحلو لهم . ولعل الكولونيل قد اخطأ في قبول هذه الشروط ، ولكنه اذعن لارادتهم معتقداً أنه يحسن

صنعاً ، وانه يضحّي بنفسه ليس غير . ولم يكن ميراث جيلنورمان الجدد شيئاً مذكوراً ، ولكن ميراث الانسة جيلنورمان الكبرى كان ذا شأن . فقد كانت هذه الحالة التي ظلت عذراء ، مومرة جداً من ناحية أمها ، وكان ابن شقيقتها هو وريثها الطبيعي .

وعرف الطفل ، الذي يدعى ماريوس ، ان له أباً ولكنه لم يعرف شيئاً اكثر من ذلك . إن احداً لم يقل له كلمة عنه . ومع ذلك ، ففي المجتمع الذي كان جده يصطحبه اليه ، وفقت المهمات ، والتلميحات ، والغمزات الى ان تنور الفتى الصغير ، آخر الأمر . لقد انتهى الى ان يدرك شيئاً . وإذ تشرب على نحو طبيعي - بضرب من الترشح والتسرّب البطيء - الافكار والآراء التي شكلت ، اذا جاز التعبير ، مداه التنفسي ، فقد أمسى شيئاً فشيئاً ، لا يفكر بأبيه إلا في خجل وفي انقباض صدر .

وفما كان الفتى يشبّ على هذا النحو ، كان الكولونيل يفرّ - كل شهرين او ثلاثة اشهر - ويفدّ خلصةً على باريس ، وكأنه مجرم قديم يغادر مكان إقامته الاجبارية ، ليضي الى سان سوليس ، ساعة كانت الحالة جيلنورمان تصطحب ماريوس الى القديس . هناك كان يرى طفله ، وهو يرتجف خشية ان تلتفت الحالة الى الوراء ، ويخفي خلف احد الأعمدة ، جامداً لا يتحرك ، غير واجد في نفسه الجرأة على ان يتنفس . كان المحارب القديم ذو الندبة يخاف هذه العانس العجوز .

ومن هنا ، في الواقع ، نشأت صلته بكاهن فيرنون ، الأب مابوف . وكان هذا الكاهن الفاضل أنخاً لوكيل كنيسة سان سوليس ، الذي لاحظ ذلك الرجل ، عدة مرات ، يحدّق الى هذا الغلام كما لاحظ الندبة التي على خده ، والمعبرات الكبار التي في عينيه . وكان هذا الرجل - الذي كانت له سببا رجلاً حقاً والذي بكى مثل امرأة - قد لفت انتباه وكيل الكنيسة . ولم يبرح ذلك الوجه ذاكرته . وذات يوم ، وكان قد شخص الى فيرنون ليرى اخاه ، التقى بالكولونيل

بونغيرسي على الجسر فعرف فيه رجلاً سان سوليس . وحدثت وكييل
 الكنيسة أخاه في ذلك ، فقام كلاهما ، تحت ستار ذريعة من الذرائع ،
 بزيارة للكولونيل . وأدت هذه الزيارة الى زيارات أخرى . وما لبث
 الكولونيل ، الذي اعتصم بادىء الامر بتحفظ شديد ، أن باح بمكنون
 صدره ، فعرف الكاهن وكييل الكنيسة القصة كلها ، وكيف ضحى
 بونغيرسي بسعادته من أجل مستقبل ولده . وكان من نتيجة ذلك أن
 استشعر الكاهن إجلالاً له وحنواً عليه ، وان استشعر الكولونيل
 بدوره مودةً للكاهن . والى هذا ، فحين يتفق أن يكون كلٌّ من
 الكاهن القديم والجندي القديم مخلصاً وصالحاً ، فليس ثمة ما يتأزج
 ويلتغم أكثر مما يتأزجان ويلتغمان . إنها ، في الأساس ، ينتسبان الى
 ضرب واحد من الرجال . لقد وقف احدهما نفسه للوطن الذي على
 الارض ، ووقف الآخر نفسه للوطن الذي في السماء . ولا فرق غير ذلك .
 ومرتين كل عام ، في اليوم الاول من كانون الثاني وفي عيد
 القديس جورج ، كان ماريوس يكتب رسائل بنوية الى ابيه - رسائل
 كانت خالته تليها ، وكان في ميسور المرء ان يزعم أنها منقولة عن واحد
 من تلك الكتب التي تقدم الى الناس نماذج مختلفة من الرسائل الجاهزة .
 ذلك كان كلٌّ ما سمع به مسيو جيلنورمان . ولقد كان الوالد يجيب
 برسائل تفيض حناناً كان الجد يقحمها في جيبه من غير ان يقرأها .

٣

« لقد رقدوا في سلام »

كان صالون مدام دو ت... كلٌّ ما عرفه ماريوس من العالم .
 كان الكوة الوحيدة التي استطاع ان يطل منها على الحياة . وكانت

هذه الكوة قائمة ، وكان يخرقها البرد اكثر مما يخرقها الدفء ، وينفذ منها الظلام اكثر مما ينفذ النور . وما لبث الطفل - الذي كان عند دخوله هذا العالم الغريب مجرد بهجة وضياء - أن أمسى عزوناً ، وان أمسى - وهو ما يتناقض مع سنه اكثر - وقوراً وصيناً . لقد وجد نفسه محوطاً بجميع هؤلاء الاشخاص المهيبن الغريبين ، فراح ينظر في ما حوله بدهش جدي . وتضافر كل شيء لزيادة هذا الذهول . فقد كانت في صالون مدام دو ت . . . سيدات عجائز نبيلات موقرات يُدعَيْن « ماتات » و « نوح » و « Lévia » التي كانت تلفظ « ليفي » ، و Cambis التي كانت تلفظ كامبيس . وامتزجت هذه الوجوه العتيقة وهذه الاسماء التوراتية في ذهن الطفل بـ « العهد القديم » الذي كان قد شرع يحفظه عن ظهر قلب . وحين كان عقدهن ينتظم في حلقة حول نار محتضرة ، وفي ضوء مصباح باهت مظلل بلون اخضر ، وقد بدت صورهن الجانبية الصارمة وشعورهن الرمادية حيناً ، للبيضاء حيناً آخر ، واثوابهن الطويلة التي جعلت لعصر آخر ، والتي ما كان في استطاع المرء ان يتبين منها غير الألوان الحدادية ، وراحت تند من افواههن بين الفينة والفينة كلمات فضيحة وكالحة في وقت معاً ، كان ماريوس الصغير ينظر اليهن بعينين مروعتين حاسباً انه يرى لانسوة ولكن آباءه ومجوساً ، لا كائنات حقيقية ، ولكن اشباحاً .

وبين هاته الاشباح انتثر عدد من الكهنة الذين كان من دأبهم أن يختلفوا الى هذا الصالون العتيق ، وعدد من الأشراف : المركيز دو ساسني ، سكرتير الاسعاف الخاص بدمام دو بري ؛ والفيكونت دو فالوري الذي نشر تحت اسم « شارل انطوان » المستعار بعض القوائد الوحيدة القافية ؛ والبرنس دو بوفرومون الذي كان شعره قد خالطه الشيب برغم انه ما يزال شاباً والذي كانت له زوجة جميلة ذكية كان ثوبها المحملي القرمزي ذو الحواشي الذهبية الكاشف عن جزء غير

يسير من الصدر 'يُجفّل' هذه الظلمات ؛ والمركيز دو كوربوليس ديسلينوز ،
خير من فهم ، في فرنسة ، « الكياسة المتعادلة » ؛ والكونت داماندر
الرجل الطيب ذو الذقن الحيرة ؛ والفارس دو بور دو غي الكثير
التردد على مكتبة اللوفر المدعوة مكتبة الملك . وقد روى مسيو دو
بور دو غي ، الأصلع ، الهرم اكثر منه طاعناً في سنّ ، انه أرسل
في عام ١٧٩٣ ، حين كان في السادسة عشرة ، الى سجن الاشغال الشاقة
بوصفه « متردّاً » ، وُقيد بالحديد مع رجل في العقد التاسع من عمر
هو الاسقف ميربوا ، وكان متردّاً ايضاً ، ولكن ككاهن ، على حين
كان هو متردّاً كجندي . وكان ذلك في طولون . وكانت مهمتهما
ان يذهبا الى المقصلة ليلاً ، ويجمعا رؤوس اولئك الذين أُعدموا ذلك
النهار وجثثهم . كانا يجملان هذه الابدان القاطرة منها الدم على ظهرهما ،
وكانت قلنسوتاهما الأشغاليّتان الحمراءوان تعلوهما ، من وراء ، طبقة من
الدم ، جافة في الصباح ، ندية في الليل . وكانت هذه الحكايات
الفاجعة تغزر في صالون مدام دو ت ... وبجك الاكثار من لعن مارا *
انتهوا الى ان يصفقوا لـ « تريستايون » ** . ولقد لعب بعض النواب
الذين هم من نوع يتعذر وجوده لعبة الـ « هويست » * هناك : مسيو
تيبور دو شالار ، ومسيو لومارشان دو غوميكور ، ومتهكم اليمين
الشهير مسيو كورنيه دينكور . وكان قاضي فوريت ، بينطلونه قصير
ورجليه المهزولتين ، يمرّ أحياناً بهذا الصالون في طريقه ، بيت مسيو
تاليران . كان رفيقّ اللهو للكونت دارتوا ؛ وعلى نقيض ارسطو الجاني
أمام كامباسب **** سَحمَلْ « لاغيار » ***** على ان رحف على يديها

*** مارا احد وجوه الثورة الفرنسية البارزين ، وتريستايون احد زعماء العصابت
الملكية ، وقد سبق التعريف بها .

**** whist ضرب من لعب الورق .

***** Cambasbe او Pancaste خليعة الاسكندر المقدوني .

*** Marie — Madeleine Guimard راقصة الاوبرا الفرنسية الشهيرة (١٧٤٣ - ١٨١٦)

ورجلها . وهكذا مكن الاجيال من ان ترى فيلسوفاً يثار له احد القضاة .
اما جماعة الكهان فكان يمثلها الأب هالما ، وهو الرجل نفسه الذي
قال له مساعده في « الصاعقة » ، مسيو لاروز : « عجباً ! ومن الذي لم
يبلغ الخمسين من العمر ؟ بعض الفلمان الاغوار ، وبما » ويمثلها ايضاً
الأب لوتورنير ، واعظ الملك ؛ والأب فريستينو الذي لم يكن قد أمسى
بعدُ لا كوتناً ، ولا اسقفاً ، ولا وزيراً ، ولا عضواً في مجلس الاعيان ،
والذي كان يرتدي ثوباً كهنوتياً عتيقاً يعوزه بعض الازرار ؛ والأب
كيرافتان ، كاهن سان جرمان دو بويه . والى جانب هؤلاء كانت السفير
البابوي ، وكان في ذلك الحين مونسينور ماتشي ، وكبير اساقفة نيزيبي
الذي اصبح بعدُ كاردينالاً ، والتميز بانفه الطويل المستغرق في التفكير ،
وصاحب سيادة آخر يحمل هذه الالقاب : « الآبات بالميري ، حبرٌ أهلي » ،
أحد القتيين السبعة المشاركين في مكتب الوثائق بالكرسي الرسولي ؛
كاهن قانوني في الكنيسة الملكية الليبيرية ، محامي القديسين
Postulatore di Santi وهي رتبة يناط بها أمر إعلان القداسة وتعني تقريباً
مقدم العرائض الى قسم اللجنة . واخيراً كان ثمة كاردينالان : مسيو دو
لا لوزيرن ، ومسيو دو كليرمون تونير . وكان الكاردينال دو لا لوزيرن
كاتباً ، ولقد كان له بعد ذلك بسنوات شرف توقيع بعض المقالات في
صحيفة « المحافظ » *Conservateur* جنباً الى جنب مع شاتوبريان . وكان
مسيو دو كليرمون تونير كبير اساقفة تولوز ، وكثيراً ما كان يفسد
على باريس لقضاء فصل الصيف فيها عند اخيه المركيز ذو تونير ،
الذي كان وزيراً للبحرية والحربية . وكان الكاردينال دو كليرمون تونير
عجوزاً قميء الجسم مرحاً يكشف عن جوربه الاحمر تحت ثوبه الكهنوتي
المرفوع . ومن فرائده كرهه الشديد للأنيكلويديا * ، ولعبه اليائس في

* هي دائرة المعارف الشهيرة التي وضعها (١٧٥١ - ١٧٦٦) دالامبير وديدرو
بالاشتراك مع فولتير ، وموتيسكيو ، وروسو وغيرهم . وقد كان لها ابد الاثر في تنوير
العقل الفرنسي والتنميد للشورة .

البيليارد . وكان الناس الذين مرّوا في ذلك العهد ، في ليالي الصيف ،
 بـ « شارع السيدة » حيث كان آنذاك « فندق كليرمون تونير » يقفون
 ليشمّعوا تصادم الكرات ، وصوت الكاردينال الحاد يصبح مخاطباً مساعده
 مونسينيور كوتريه ، اسقف كاريسنا من غير أبرشية : « أنظر ، ايها
 الاب ، لقد أصبت الكرتين في وقت واحد . » وانما اصطحب الكاردينال
 دو كليرمون تونير ، اول مرة ، الى صالون مدام دو ت حديقته
 المقدم عنده ، مسيو دو روكور ، اسقف سينليس السابق ؛ وأحد الاربعين
 الخالدين . وكان مسيو دو روكور جديراً بالاعتبار لقامته الفارعة ومواظته
 على حضور جلسات الاكاديمية . ومن خلال الباب الزجاجي ، قرب
 المكتبة ، حيث كانت الاكاديمية تعقد جلساتها آنذاك ، كان في ميسور
 الفضولين ان يروا ، كل خميس ، اسقف سينليس السابق واقفاً ، في الاغلب ،
 منضوحاً بالذور منذ قريب ، مرتدياً جورباً بنفسيجياً ، مولىً الباب
 ظهره ، ولعل مراده من ذلك ان يُظهر قِبته الصغيرة احسن ما يكون
 الأظهار . والواقع ان هؤلاء الاكاديميين جميعاً ، على الرغم من ان
 اكثرهم كانوا رجال بلاط بقدر ما كانوا رجال كنيسة ، زادوا في رصانة
 صالون دو ت ، هذه الرصانة التي اكدها خمسة من اعضاء مجلس الاعيان
 الفرنسي هم المر كيز دو فيبراي ، والمر كيز دو تالارو ، والمر كيز ديبوفيل ،
 والفيكونت دامبري ، والدوق دو فالانتينوا . وكان الدوق دو فالانتينوا
 هذا ، برغم انه امير موناكو ، يعني برغم انه امير أجنبي ، يُجملّ فرنسة
 وهيته اعيانها إجلالاً عظيماً الى درجة جعلته يرى كل شيء من خلالها .
 وكان هو الذي قال : ان الكوادلة هم « اعيان فرنسة » الرومانيون ،
 واللوردات هم « اعيان فرنسة » الانكليز . واخيراً ، ولما كان من الواجب
 ان تُثبت الثورة وجودها في هذا القرن ، في كل مكان ، فقد كان هذا
 الصالون الاقطاعي يسيطر عليه ، كما قلنا ، رجل بورجوازي . لقد تربع
 مسيو جيلنورمان على العرش هناك .

كان ثمة جوهرُ المجتمع الباريسي « الشرعيّ » . فقد كان مجال بين كثير من الشخصيات الشهيرة ، على الرغم من نزعتها الملكية ، وبين الدخول إليه . فثي الشهرة فوضويةٌ دائماً . ولو قد دخل شاتوبريان الى هناك ، اذن لترك مثل ذلك الاثر الذي يجدر بـ « الأب دوشين » * ان يتركه . ومع ذلك ، فقد تسرّب بعض المنضوين الجدد تحت لواء الملكية الى ذلك العالم « الصحيح المعتقد » بشيء من التسامح . ولقد استقبل الكونت بونيو ، هناك ، بثمة خاصة .

إن صالونات اليوم « النبيلة » لا تشبه تلك الصالونات على الاطلاق . فضاحية سان جيرمان الحاضرة تفوح منها رائحة المهرطقة . إن ملكي اليوم هم - ولتقلنا إعجاباً بهم - ديماغوجيون يتظاهرون بخدمة الشعب لاستمالة اليهم .

وفي صالون مدام دو ت ، حيث المجتمع رفيعٌ سامٌ ، كانت الذوق مصفى متشاحناً تحت زخرف عريض من الجمالة . وكانت عادات القوم هناك تقتضي مختلف ضروب الرقة ، المبالغ فيها ، على نحو لا إراديّ : هذه الضروب التي كانت هي النظام القديم نفسه ، دفيناً ، ولكنه حيّ . وبعض هذه العادات ، في اللغة بخاصة ، كانت تبدو مضحكة . ولقد كان خليقاً بالملاحظين السطحيين ان يحسبوا كلاماً ريفياً بعضاً ما هو كلامٌ عتيق ليس غير . فقد كان « قصّاد ذلك الصالون يدعون امرأةً ما : « السيدة الجنوالة » . ولم تكن « السيدة الكولونيل » خارج نطاق الاستعمال تاماً . وكانت مدام دو لبيون الفاتنة ، إحياءً منها لذكرى دوقة لونغفيل ودوقة شيفروز من غير شك ، تؤثر هذه التسمية على لقبها بوصفها أميرة . وكانت المركيزة دو كريكوي ، هي الاخرى ، تدعو نفسها « السيدة الكولونيلة » .

* *le Père Duchesne* صحيفة سياسية كان يصدرها « هبير » اثناء الثورة الفرنسية ، وقد سبق التعريف بها .

كان ذلك المجتمع الصغير السامي هو الذي اخترع في التويلري تلك
الدمانة التي تقضي بأن يقال دائماً ، حين يُتحدث الى الملك في ألفة :
الملك ، بضمير الغائب ، وليس جلالتم على الاطلاق ، ذلك لأن هذا
اللقب ، جلالتم ، قد « دنته الغاصب » .

كان القوم يجامون الحقائق والناس ، هناك . لقد سخروا من
العصر ، وهو ما أسقط عنهم واجب فهمه . وكانوا يتعاونون على
الدهش . كان كل منهم يُطلع سائر الجماعة على ما عنده من معرفة .
كان ميتوشالغ * يعلم أيبينيد . ** وكان الأصم يزود الأعمى
بالانباء . ولقد أعلنوا ان الزمن الذي كرم منذ كوبلنتز *** لم يتصرم
قط . وكما كان لويس الثامن عشر ، بنعمة الله ، في السنة الخامسة
والعشرين من سني حكمه ، فكذلك كان « المهاجرون » في السنة
الخامسة والعشرين من شبابهم ، قولاً واحداً .

كان كل شيء متناقماً . إن شيئاً ما ، لم يكن حيويّاً اكثر مما
ينبغي . كان الكلام نقشاً أو بكاد . وكانت الصحيفة ، المتساقطة مع
الصالون ، تبدو وكأنها ورقة من اوراق البردي . كان ثمة شبان ،
ولكنهم كانوا امواتاً بعض الشيء . وفي غرفة الانتظار ، كانت الخادومات
عجائز . فقد كانت هذه الشخصيات ، التي ولى زمانها نهائياً ، تُخدم بايدي
أناس من الطراز نفسه . وكان ذلك كله تبدو عليه سِما من عاش منذ

* من شخصيات التوراة ، وكان جدّ نوح ، وقد عاش في ما رووا ٩٦٩ سنة .
وقد غدا اسمه طمأ على كل من عمر دهرأ طويلاً .

** Epiménide فيلسوف كريتى من اهل القرن السابع قبل الميلاد ، وكان
شخصية نصف اسطورية ، فقد زعموا انه كان ابن حورية من حوريات الماء ، وانه
نام سبأ وخمين سنة في احد الكهوف . وكثيراً ما يشار الى نوم أيبينيد ويقظته
وخصوصاً في لغة السياسة .

*** Coblents مدينة المانية تجمت فيها ، عام ١٧٩٢ ، حشود النبلاء المهاجرين
وشكلت « جيش كوندبه » الملكي ، وقد سبق التعريف بها .

دهر بعيد جداً ، فهو يعاند القبر . كانت هذه الالفاظ ، حافظ ، محافظة ،
محافظ ، هي القاموس كله تقريباً . وكان تمتع الموء بالصيت الحسن هو
النقطة الجوهرية . والواقع أنه كان ثمة بعض الطيب في آراء هذه
الجماعات الجليلة ، وكانت أفكارهم تفوح منها رائحة الاعشاب الهندية .
كان عالماً مومياً . كان السادة محتطين ، وكان الخدم محشونين
بالتبن .

وكانت مركيزة عجوزاً فاضلة - احدى المهاجرات اللواتي افتقرن -
تواصل القول : « شعبي » وهي التي لم يبق عندها الآن غير خادمة
واحدة .

اي شيء كانوا يفعلون في صالون مدام دو ت ... ؟ كانوا منظرين
مغالين في التطرف .

والواقع ان كون المرء مغالياً في التطرف - على الرغم من ان ما يمثله
هذا التعبير قد يكون قائماً ما يزال - فقد اليوم معناه . فلتوضح ذلك .
إن المغالاة في التطرف هي ان تجاوز المطلوب . إنها ان تهاجم الصولجان
باسم العرش ، وتاج الاسقف باسم المذبح . إنها ان تسيء الى من تدعمه .
إنها ان ترفض وسط سيور العربية . إنها ان تقاحك - أمام ركام الحطب
المكديس لاسراق المجرمين - في درجة اكتواء المرافقة . إنها ان تعيب
على الصنم قلة صنيمته . إنها ان تحقر بدافع من الافراط في الاحترام .
إنها لا تجمد في البابا مقداراً كافياً من البابوية ، وفي الملك مقداراً وافياً
من الملكية ، وأن تجمد في الليل قدرأ من النور اكثر مما ينبغي . إنها ان
تستاء من حجر الشطوط * ، من الثلج ، من التّم ** من الزنبق ، باسم
البياض . إنها ان تكون مؤيداً للاشياء الى حد ان تصبح عدوآ لها .

* ضرب من الرخام الابيض الشفاف . ويعرف في الفرنسية بـ albatre
** طائر مائي شديد البياض يشبه الاوز ولكنه اطول منه عنقاً . وهو يعرف

في اللغات الاجنبية بـ cygne

لأنها أن تغلو في الموالاة حتى تنتهي الى المعارضة .
 إن روح « التطرف المغالى فيه » خاصة فريدة من خصائص الصدر
 الاول من عهد عودة آل بوربون الى العرش .
 والواقع ان التاريخ لم يعرف شيئاً لهذه الفترة القصيرة ، التي بدأت
 عام ١٨١٤ وانتهت حوالي ١٨٢٠ بمجيء مسيو دو فيفيل * ، رجل
 « اليمين » العملي ، الى الحكم . لقد كانت هذه السنوات لحظة خارقة
 للعادة ، فهي مشرقة ومظلمة في آنٍ معاً ، ضاحكة وعابسة ، مضادة
 بمثل اشعة الشمس ، ومغلقة في الوقت نفسه بظلام الكوارث الكبرى
 التي كانت ما تزال تلاً الاقن على الرغم من أنها كانت تدفن نفسها ، على مهل ،
 في غياهب الماضي . كان ثمة في ذلك الضوء وفي ذلك الظل عالم صغير
 نسيجٌ وحده ، عالمٌ حديثٌ عتيق ، بهيجٌ محزونٌ ، فنيٌ هرمٌ ، يفرك
 عينيه ، فليس من شيء يشبه الاستيقاظ اكثر من العودة . كانت هناك
 جماعة تنظر الى فرنسا في سخط ، على حين تنظر فرنسا اليها في سخرية .
 وكانت الشوارع ملأى بمراكزة كالبوم صالحين عجائز ، ومهاجرين قد
 عادوا ومهاجرين في سبيلهم الى العودة ، وبجمهرة من المتعلقين باهداب
 النظام القديم ذاهلين منسدين أمام كل شيء . رجال ذوو نبالة وشجاعة
 يتسمون لوجودهم في فرنسا ويبيكون عليها ايضاً . لقد اسعدهم ان
 يروا وطنهم كرةً أخرى ، واستبدت بهم اليأس لأن ابصارهم لم تعد تقع
 على نظامهم الملكي . كان نبلاء الحروب الصليبية يبصقون على نبلاء
 الامبراطورية ، يعني على نبلاء السيف ؛ وكانت الأعراف التاريخية
 تفقد معنى التاريخ ؛ وابناء رفاق شارلمان يحترقون وفاق نابوليون . لقد

* Comte de Villèle سياسي فرنسي (١٧٧٣ - ١٨٥٤) كان زعيماً للفئسات
 الملكية الغالية في التطرف ، بعد عوده آل بوربون الى العرش . وقد تول وئاسة
 الوزارة من عام ١٨٢١ الى عام ١٨٢٨ .

تبادلَت السيوفُ ، كما ذكرنا ، الشتامَ والاهانات . كان سيف فونتنوا * مضحكاً ، ولم يكن غير صداً ؛ وكان سيف مارانفو ** بغيضاً ، ولم يكن غير حسام . لقد أنكرت الايام السالفة يومَ امس . ولم يبقَ ثمة لا احساسٌ بما كان عظيماً ، ولا احساسٌ بما كان مضحكاً . كان هناك من اطلق على بونابرت اسم سكاين *** . لقد انقضى ذلك العالم . إن شيئاً ما - ونكرر ذلك - لم يبقَ منه اليوم . وحين يتفق لنا ان نرسم صورة عنه ، وان نجعلها تعيش ككرة ثانية في أذهاننا ، يبدو غريباً لدينا مثل عالم سابق للطوفان . وفي الحق ، ان طوفاناً قد ابتلعه هو الآخر . لقد اختفى تحت ثورتين . أيّ فيضانات هي الكلمات ! ما أسرع ما تفسر كلَّ ما يُوكَلُ اليها هدُمه ودفنه ، وما اعجل ما تخلق الأهراقَ المروعة !

تلك كانت سيا الصالونات في تلك العهود النائية الساذجة ، عند ما كان ميو مارينفيل **** اشد دكاء من فولتير .

كان لتلك الصالونات ادبها الخاص وسياستها الخاصة . كانت تؤمن بـ « فيفيه » ***** . وكان ميو آجيه يضع القوانين لها .

لقد انتقدت ميو كولنيه ، الصحافي المتاجر بالكتب القديمة في « كي مالاكيه » . ولم يكن نابوليون عندهم غير « غول كورسيكة » . وفي ما

* Fontenoy من اعمال بلجيكة حيث هزم المارشال دو ساكس في حفرة لويس الخامس عشر الانكليز والهولنديين سنة ١٧٤٥ وقد سبق التعريف بها .

** احدى المارك الشهيرة التي انتصر فيها بونابرت ، وقد سبق التعريف بها .

*** Scapin احدى شخصيات الكوميديا الايطالية وهي تمثل خادماً ذا حيل ومؤامرات . وقد قدم موليير هذه الشخصية في مزلته المائة « مخاتلات سكاين » .

**** Martainville صحافي وكاتب مسرحي فرنسي (١٧٧٦ - ١٨٣٠) . كان ملكياً متحسناً ، ولقد امس عام ١٨١٨ صحيفة « الراية البيضاء » .

***** Flévéه صحافي واديب فرنسي (١٧٦٧ - ١٨٣٩)

بعد كان إدخال المركيز دو بونوايرت ، قائد قوات الملك العام ، الى دنيا التاريخ ، اذعاناً لروح العصر .

ولم تحتفظ هذه الصالونات بصفاتها دهرأ طويلاً . فمذ عام ١٨١٨ شرعت بعض العناصر المتحررة في اعتدالٍ تنبت بينها ، مشكلة نوعاً مزعجاً . وكان اسلوب هؤلاء يقتضيهم ان يكونوا ملكيين وان يلتسوا العذر بسبب من ذلك . فحيث كان المغالون في التطرف شديدى الزهو ، كانت هذه العناصر المعتدلة في تحورها خجلة بعض الشيء . كانوا ذوي ذكاء ، وكانوا يعنصون بالهمت ، وكانت عقائدهم السياسية 'منشأة' بالكبرياء على نحو لائق . وكان ينبغي ان يوفقوا الى النجاح . لقد انهكوا في ما كان ملائماً من نواح اخرى : الافراط في عقد الرقبة البيضاء وفي السترات المزورة . والواقع ان غلطة هذا الحزب المتحرر ، أو مصيبتة ، كانت خلق الشباب الهرم . لقد اتخذ رجاله اوضاع الحكماء . ولقد حطموا بأن يلقحوا مبدأ السلطة المطلقة المفرطة ليفوزوا منه بسلطة معتدلة . لقد عارضوا التحرر الهدام ، وعارضوه في ذكاء نادر احياناً ، بتحررٍ محافظ . ولقد سمعناهم يقولون : 'لا تظلموا الحزب الملكي . لقد ادى للبلاد اكثر من خدمة . لقد أعاد الينا التقليد ، والعبادة ، والدين ، والاحترام . إنه مخلص ، شعاع ، أيّ ، محب' ، متفانٍ . لقد أضاف ، ولو في اسف ، عظمة الملكية القديمة الى عظمة الأمة الجديدة . إنه مخطيء في عدم فهمه الثورة ، والامبراطورية ، والمجد ، والحربة ، والافكار الجديدة ، والاجيال الجديدة ، والقرن الذي نعيش فيه . ولكن هذا الخطأ الذي ارتكبه في حقنا ، ألم نرتكب نحن مثله ، بعض الاحيان ، في حقّه ؟ إن على الثورة ، التي نحن وراثتها ، ان تفهم كل شيء . ان هجوم العناصر المتحررة على الحزب الملكي ضرب من سوء للفهم . ايّ غلطة ا و أيّ عمى ! إن فرسة الثورة يُعوّزها الاحترام لفرسة التاريخية ، يعني لأمتها ، يعني لنفسها . فبعد الحامس من ايلول يعامل نبلاء الملكية كما عومل نبلاء الامبراطورية بعد الثامن من

تمرز . لقد كانوا هم ظالمين للنسر * ، وما نحن أولاء نظلم زهرة الزنبق**
 أينبغي ان يكون عندنا دائماً شيء نأمر بقتله أو مجبسه من غير محاكمة ؟
 راية فائدة توجب من تشويه تاج لوبس الرابع عشر ، او توس هنري
 الرابع الحامل شعار أمرته ؟ نحن نسخر من مسيو دو فوبلان الذي عا
 حروف N *** التي كان يحملها جسر « بينا » ! ولكن ما الذي فعله
 مسيو دون فوبلان هذا ؟ ما فعله نحن اليوم . إن بوفين *** هي ملك
 لنا مثل مارانغو سواء بسواء . وان زهرات الزنبق هي ملك لنا
 ايض مثل حروف N تماماً . إنها ميراثنا . ما الذي نكسبه من إنقاصه ؟
 ينبغي أن لا نتبرأ من وطننا في الماضي كما ينبغي ان لا نتبرأ منه في
 الحاضر . لماذا لا نوجب في تاريخنا كله ؟ لماذا لا نجب فرسة كلها ؟ ،

تلك هي الطريقة التي كانت العناصر المتحررة في اعتدال تنتقد بها
 الحزب الملكي وتدافع عنه ، فيستاء ذلك الحزب من الانتقاد ، ويعصف به
 السخط بسبب من الدفاع .

لقد طبع المتحررون المعتدلون الفترة الاولى من العهد الملكي بطابعهم ،
 في حين ان المجمع **** طبع الفترة الثانية بطابعه . ان البراعة قد
 خلفت النزوة . فلنوجز هذه اللحة .

لقد وجد مؤلف هذا الكتاب في طريقه ، وهو يروي هذه القصة ،

* شعار نابوليون .

** شعار آل بوربون .

*** الحرف الاول من اسم نابوليون بونابرت .

**** Bouvines هي المعركة التي انتصر فيها ليليب اوغست ، عام ١٢١٤ ،
 على الامبراطور اوتون وحليفه ملك انكلترا وكونت الفلاندر .

***** La Congrégation هو « مجمع العذراء المقدسة » الذي أسس عام ١٨٠١ ثم
 تماطلت قوته في عهد عودة آل بوربون الى الحكم وتم له في الدولة نفوذ عظيم .
 ولقد سقط هذا المجمع بسقوط شارل العاشر .

تلك اللحظة الغربية من التاريخ المعاصر . ولقد كان مضطراً الى ان يلقي عليها نظرة عابرة ، وان يعيد رسم بعض ملامح ذلك المجتمع الفريدة التي أمست اليوم مبهولة . ولكنه يفعل ذلك على عجل ، ومن غير ما فكرة لاذعة او هازئة . ان ذكريات ترشح بالحنان والوقار - فهي ذكريات تتصل بأمه - تشده الى تلك الحقبة . والى ذلك -- ولنقل هذا - فقد كان لذلك العالم الصغير عظمته . إننا قد نبسم له ابتسامة ساخرة ، ولكننا لا نستطيع أن نزدريه أو ان نبغضه . كان فرصة الايام السالفة .

وخضع ماريوس بونغيرسي ، شأن سائر الاطفال ، لتعليم ما . فحين فارق يدي الحالة جيلنورمان عهد جدّه في تثقيفه الى استاذ وقور يميز بأصفي البراءة الكلاسيكية . لقد انتقلت تلك النفس الآخذة في التفتح من يدي امرأة مغالية في التمسك باهداب الفضيلة والاحتراس في كل ما يتصل بالعلقة الى يدي متعالم غليظ مضحك . وأتم ماريوس سنوات دراسته في المدرسة الثانوية ثم التحق بمدرسة الحقوق . كان ملكياً ، متعصباً ، صارماً . كان قليل الحب لجدّه الذي كان مرحه' وعدم احتشامه يجرحانه ، وكان موضع ابيه في نفسه فراغاً قائماً . وكان ماريوس ، في ما عدا ذلك ، ولدأ' هماماً ولكنه فاتر ، نبيلاً ، كريماً ، فخوراً ، متدينأ' ، متهموساً . كان فاضلاً حتى القسوة ، طاهراً حتى التوحش .

٤

نهاية قاطع الطريق

وإنما أنهم ماريوس دراساته الكلاسيكية في تلك الفترة التي اعـتزل

فيها مسيو جيلنورمان الحياة الاجتماعية . ولقد ودع الشيخ ضاحية سان جيرمان ، وصالون مدام دوثة ... وانتقل الى ال « ماريه » ليستقر في منزله بشارع « فتيات كالفير » وكان يخدمه هناك ، الى جانب البواب ، « نيقوليت » تلك التي خلقت مانبون ، وذلك ال « باسك » المهور الضيق النفس الذي تحدثنا عنه من قبل .

وفي عام ١٨٢٧ بلغ ماريوس سنه السابعة عشرة . واذ انقلب الى المنزل ذات مساء رأى جده وفي يده رسالة .

وقال مسيو جيلنورمان :

« ماريوس ، سوف تسافر غداً الى فيرون . »

فتساءل ماريوس :

« لماذا ؟ »

« لكي ترى أباك . »

وارتعد ماريوس . لقد فكر في كل شيء . إلا هذا : أن يوماً قد يأتي يضطر فيه الى ان يرى والده . ان شيئاً ما ، لم يكن أبعد عن التوقع من هذا ، وأدعى الى الدهش ، وأبغض - ولنقل هذا - الى النفس . كان ذلك هو الجفاء يُكرهه على ان ينقلب مودة . إنه لم يكن حزناً .. لا . لقد كان عملاً من اعمال السخرة .

كان ماريوس مقتنعاً ، الى جانب الدوافع السياسية التي تنفّره من ابيه ، بأن هذا الأب السيف الجاهل فنّ الحرب - كما كان مسيو جيلنورمان يدعوه في لحظاته الدمثة الرفيقة - لم يكن يجبه . وكيف لا يقتنع بذلك وهو الذي هجره وتركه للآخرين . واذ أحس أنه لم يُحبّ قط فانه لم يُحبّ قط . وقال في ذات نفسه : ليس ثمة ما هو طبيعي اكثر من هذا . وكان من الانشدهاء بحيث لم يوجه الى مسيو جيلنورمان سؤالاً ما . وأردف الجد قائلاً :

« يبدو أنه مريض . إنه يريد أن يراك . »

وبعد لحظة صمت ، اضاف :

- « إنطلق غداً صباحاً . أحسبُ ان في فِناء دو فونتين عربية تنطلق في الساعة السادسة وتصل الى هناك ليلاً . أركب هذه العربية . هو يقول إن الحالة ملحة . »

ثم إنه دعك الرسالة ووضعها في جيبه . لقد كان في وسع ماريوس ان يسافر ذلك المساء نفسه فيكون الى جانب ابيه صباح اليوم التالي . كانت ثمة في ذلك العهد عربية صومية تغادر روان ليلاً وتمر بفيرونوت . ولكن لا مسيو جيلنورمان ولا ماريوس فكّر في الاستعلام عنها .

وفي اليوم التالي ، وصل ماريوس الى فيرونوت مع الفسق . وكانت الشوع قد بدأت تضيء . وسأل اول غابر سبيل التقاء : بيت مسيو بونغيرسي ؟ ذلك بأنه كان متفقاً في تفكيره مع وجهة نظر العهد البوربونى الجديد ، فلم يعترف هو ايضاً ببارونية ابيه او برتبته ككولونيل . وهدّوه الى المنزل . وقرع الجرس . واقبلت امرأة ففتحت الباب حاملةً بيدها مصباحاً صغيراً .

وقال ماريوس :

- « مسيو بونغيرسي ؟ »

وظلت المرأة جامدة لا تتحرك .

وسألها ماريوس :

- « أهو هنا ؟ »

واومأت المرأة برأسها إيماءة ايجابية .

- « هل استطيع ان اتحدث اليه ؟ »

واومأت المرأة ايماءة سلبية .

فأردف ماريوس :

- « ولكني ابنه . إنه ينتظرنى . »

فقال المرأة :

- « إنه ما عاد ينتظر ك . »

ولاحظ عندئذ أنها تبكي .

واشارت بأصبعها الى باب غرفة منخفضة . ودخل .

كان في تلك الغرفة ، المضاءة بشعة من شمع موضوعة على الموقد ، ثلاثة رجال ، اقدم واقف ، والآخر راكع ، والثالث مرتد قيصه ليس غير وقد تمدد بطوله على الارض . كان ذلك الممدد على الارض هو الكولونيل .

وكان الرجلان الآخران طبيباً وكاهناً يصلي .

كان الكولونيل قد اصيب منذ ثلاثة أيام بجحى دماغية . وكان قد كتب عند بدء المرض ، وقد استشر قرب المنية ، الى مسيو جيلنورمان مطالباً بروية ابنه . وتفاقم الداء . ولبية وصول ماريوس الى فيرونون كان الكولونيل قد أصيب بنوبة من الهذيان . لقد وثب من سريره على الرغم من الحادمة وهو يصيح : « ابني لم يأتِ حتى الآن ! سوف اذهب للقاءه ! » ثم انه خرج من غرفته وسقط على ارض غرفة الانتظار . كان قد لفظ انقاسه منذ لحظة ليس غير .

وكان الطبيب والكاهن قد دعيا الى المنزل ، ولكن الطبيب كان قد وصل بعد فوات الاوان ؛ والكاهن كان قد وصل بعد فوات الاوان ؛ وكذلك كان الابن قد وصل بعد فوات الأوان .

وعلى ضوء الشمعة الباهت ، كان في استطاعتهم ان يتبينوا على وجنة الكولونيل الشاحب الصريع دمعة كبيرة كانت قد تحدرت من عينيه الميتة . كانت العين خامدة ، ولكن الدمعة لم تكن قد جفت . كان قد سفع هذه الدمعة لتأخر ولده .

وتأمل ماريوس هذا الرجل الذي رآه للمرة الأولى ، وللمرة الاخيرة ؛ هذا المحيّا الجليل الناضج بالرجولة ؛ هاتين العينين المفتوحتين اللتين لا تريان البتة ؛ هذا الشعر الأشيب ؛ هذه الأوصال القوية التي كانت في ميسور

المراء ان يتبين عليها ، ههنا وههناك ، بعض الخطوط السمراء التي كانت ضربات سيف ، وضروباً من النجوم الحمر التي كانت حفرأ احدثتها القذائف . لقد تأمل هذه الندبة المائلة التي طبعت البطولة على ذلك الوجه الذي كان الله قد طبع عليه الطيبة . وفكر في ان هذا الرجل كان أباه ، وان هذا الرجل كان ميتاً ؛ وظلّ جامداً لا يتحرك .

كان الحزن الذي استشعره هو الحزن الذي كان خليقاً بأن يستشعره أمام ايّ امريء تقع عيناه عليه طربيع الموت .

كان الحداد ، الحداد المضّ ، يخيم على تلك الغرفة . فالخادمة تنتحب في احدى الزوايا ، والكاهن يصلي ، مسوع الزفرات ؛ والطبيب يكفكف العبرات . إن الجثة نفسها قد بكت .

ونظر هذا الطبيب ، وهذا الكاهن ، وهذه المرأة من خلال اشجانهم الى ماريوس ، من غير ان ينطقوا بكلمة . كان هو - لا غيره - الغريب وسط هذه المناحة . وإذ لم يغلب التأثر على ماريوس إلا قليلاً ، فقد احسّ بالحجل واستشعر الارتباك بسبب من وضعه هذا . وكان يمسك بقبعته في يده ، فتركها تقع على الارض لكي يحملهم على الاعتقاد بان الامى قد حرمه القدرة على الامساك بها .

وفي الوقت نفسه استشعر شيئاً كتبكيت الضمير ، واحتقر نفسه لتصرفه على هذا النحو . ولكن أهى غلطته ؟ إنه ما كان يجب أباه ، حقاً ! ولم يخلف الكولونيل شيئاً . ان بيع أاثه لم ينهض بنفقات دفنه إلا بشق النفس . ووجدت الخادمة قصاصة من الورق قدّمتها الى ماريوس كانت تنطوي على هذه الكلمات مكتوبة بخط الكولونيل :

- « الى ولدي : - إن الامبراطور قد جعلني باروناً في ساحة القتال بواترلو . ولما كان عهد آل بوربون الجديد ينكر عليّ هذا اللقب الذي دفعت دمي ثمناً له فان ولدي سوف يأخذه ويحمّله . وليس من ريب في انه سوف يكون جديراً به . »

وعلى قفا تلك القصاصة كان الكولونيل قد أضاف :
- « وفي معركة واترلو تلك نفسها ، انقذ حياتي جندي برتبة رقيب .
إن ذلك الرجل يدعى تيناردييه . وأعتقد انه كان يدبر ، منذ فترة
غير بعيدة ، فندقاً صغيراً في قرية بضواحي باريس ، في « شيل » ،
او في مونفيرماي . فاذا ما لقيتهُ ولدي فلسوف يقدم الى تيناردييه
كل خدمة يقدر عليها . »

وبدافع من الاحترام الغامض للموت ، هذا الاحترام الذي يفرض
نفسه دائماً على قلب الانسان ، لا بدافع من واجب الطاعة لأبيه ،
اخذ ماريوس تلك الورقة ، وضغط عليها .

ولم يبق من الكولونيل أثرٌ ما . كان مسيو جيلنورمان قد باع
سيفه وبذلته العسكرية لأحد المتاجرين بالسلع القديمة . وسطا الجيرات
على الحديقة ، ونهبوا الرياحين النادرة . أما للنباتات الاخرى فأُمت
عوسجاً وعليقاً ، أو ماتت .

ولم يُقَم ماريوس غير ثماني وأربعين ساعة في فيرونون . وبعد الدفن ،
رجع الى باريس ، واستغرق في دروسه الحقوقية من غير أن يفكر في
أبيه اكثر مما كان يفعل لو انه لم يعيش قط . لم ينقض يومان حتى كان
الكولونيل قد دُفن ، ولم تمض ثلاثة ايام حتى كان قد نسي .
وطوق ماريوس قبعته بعصابة حريرية . ذلك كان كل شيء .

٥

فائدة الذهاب الى القديس

في جعل المرء ثورياً

كان ماريوس قد احتفظ بعبادات صباه الدينية . وذات يوم من ايام

الأحد ذهب لبسع القديس في « سان سوليس » ، في « كنيسة العذراء » نفسها التي كانت خالته تصعبه اليها يوم كان صبياً صغيراً . واذ كان في ذلك اليوم اكثر ذهولاً وأشد استسلاماً للاحلام بما كانت في العادة ، فقد اتخذ مكاناً له خلف أحد الأعمدة وركع ، من غير أن ينتبه لذلك ، أمام كرسي من مخمل أوترخت 'كتب على ظهره هذا الاسم : مسيو مابوف ، وكيل كنيسة . ولم يكد القديس يبدأ حتى يبرز رجلٌ عجوز وقال للماريوس :

- « سيدي ، هذا مكاني . »

وسارع ماريوس الى مغادرة المكان ، واتخذ العجوز كرسيه . وبعد القديس ، ظل ماريوس مستغرقاً في التفكير على بُعد بضعة خطوات . واقترب العجوز نحوه ، كرة اخرى ، وقال :

- « عفوك يا سيدي لازعاجي اياك منذ لحظة قصيرة ، ولازعاجي اياك الآن مرة ثانية . ولا شك في انك قد حسبتني شرساً ، ومن اجل ذلك ينبغي أن ابور لك موقفي . »

فقال ماريوس :

- « هذا غير ضروري يا سيدي . »

فاستأنف العجوز كلامه قائلاً :

- « أجل ! انا لا اريد ان تكون فكرة سيئة عني ، انت ترى اني أزم ذلك المكان ، والذي يبدو لي ان القديس هو هناك افضل . لماذا ؟ سوف اقول لك . فطوال سنوات عديدة رأيت اباً صالحاً فقيراً في الى ذلك المقعد مرة كل شهرين او كل ثلاثة اشهر من غير انقطاع - اباً لم تكن لديه ايما فرصة اخرى او ايما وسيلة اخرى لرؤية ولده الصغير بعد ان حرمته ذلك بعض التسويات العائلية ، كان يقبل ساعة يعرف انهم قد جاءوا بابنه الى القديس . و يخظر بيال الصغير قط ان أباه كان هناك . بل لعل ذلك الصبي البريء ما كان يدري ان له أباً ! وكانت

الأب ، من ناحيته ، يلتزم الجلوس خلف هذا العمود لكي لا يكون في ميور أحد ان يراه . كان ينظر الى ولده ويبكي . كان ذلك الاب المسكين يعبد هذا الولد الصغير ! لقد رأيتُ ذلك . لقد أمسى هذا الموضع مقدساً عندي ، ومنذ ذلك الحين أخذتُ نفسي بالهجيء الى هنا لكي اسمع القداس . أنا أؤثره على « مقعد العمل » ، حيث يحقّ لي ان اجلس بوصفي وكيلاً من وكلاء الكنيسة . بل لقد عرفت ذلك السيد المسكين بعض المعرفة . كان له حمّ * ، وعمه غنية جداً ، وأنسابه ، لم اعد اذكر تماماً ، وكانوا يهدونه بجرمان الولد من الميراث اذا ما رآه هو ، هو أبوه ! لقد ضعى بنفسه لكي يصبح ابنه ، ذات يوم ، غنياً وسعيداً . وإنما تفرّق شملهم بسبب من الآراء السياسية . أنا أقرّ اعتناق الآراء السياسية طبعاً ، ولكن هناك اناساً لا يعرفون ابن ينبغي أن يقفوا . يا السّهبي ! لأن الرجل الذي شهد واترلو ليس غولاً ؛ إن الاب لا يفصل عن ابنه من اجل ذلك . لقد كان زعيماً (كولونيل) من زعماء بونابرت . لقد توفي ، على ما أعتقد . كان يسكن في فيرونون ، حيث يعمل أخي كاهناً ، وهو يدعى بونغاري او مونبارسي أو شيئاً مثل ذلك . لقد كان في جسده ، في الواقع ، اثر من ضربة سيف .

فقال ماريوس وقد شعّب لونه :

« بونغيوسي ؟ » .

« تماماً . بونغيوسي . أكنت تعرفه ؟ »

فقال ماريوس :

« اها السيد ! لقد كان ابي . »

وشبك وكيل الكنيسة العجوز يديه ، وصاح :

« آه ! انت ذلك الطفل ! اجل ، هذا صحيح . ينبغي ان يكون قد

أصبح رجلاً الآن . حسناً ، اها الطفل المسكين ، في استطاعتك أن تقول

* ابو الزوجة .

انه كان لك اب أحبك حباً عظيماً !
 وبسط ماريوس ذراعه الى الرجل المعجوز ومشى معه حتى منزله .
 وفي اليوم التالي قال لمسيو جيلنورمان :
 - « لقد أعددتُ مع بعض الاصدقاء نزهة صيد . هل تسمح لي بان
 أغيب ثلاثة أيام ؟ »
 فاجابه الجد :
 - « وأربعة ! اذهب وروح عن نفسك . »
 وبغزة من احدى عينيه همس في أذن ابنته :
 - « مسألة عشق موقت ! »

٦

معنى الالتقاء بوكيل كنيسة

اما الى اين ذهب ماريوس فذلك ما سنعرفه بعد قليل .
 وغاب ماريوس ثلاثة ايام ، ثم انقلب الى باريس ، فقصد توأ الى
 مكتبة مدرسة الحقوق ، وطلب مجموعة أعداد ال « مونيتر » .
 لقد قرأ ال « مونيتر » . قرأ تاريخ الجمهورية والامبراطورية .
 قرأ مذكرات القديسة هيلانة* ، وجميع المذكرات ، والصحف ،
 والبيانات الرسمية ، والاذاعات . لقد التهم كل شيء . ويوم وقع على
 اسم ابيه ، أول مرة ، في بيانات الجيش العظيم الرسمية عصفت به
 حتى تطاولت اسبوعاً بكامله . وسمى الى الاجتماع بالجنرالات الذين

* Mémoires de Sainte Hélène تأليف Las Cases وهو عرض لاممال نابوليون الاول
 في غنات عوده . وفيه عطف ظاهر على الامبراطور . (١٨٢٣)

حارب جورج بوغيرسي تحت امرتهم ، ومن بينهم الكونت هـ . وقدّم
اليه وكيل الكنيسة مابوف ، وكأث قد ذهب لزيارته مرة اخرى ،
صورة عن حياة فيرنون واعتزال الكولونيل الحياة الاجتماعية ، ورياحينه ،
ووجدته . وهكذا انتهى ماريوس الى ان يفهم ، اوضح الفهم ، هذا
الرجل النادر ، السامي ، الوديع ، هذا الضرب من الاسد - الحبل الذي
كان اباه .

وفي غضون ذلك لم يعد يرى احداً تقريباً من آل جيلنورمان بعد
ان استغرق في هذه الدراسة التي شغلت وقته كله وأفكاره كلها . كان
يبرز عند تناول الطعام ، حتى اذا التمسوه بعد ذلك لم يعثروا عليه .
كانت الحالة تتدهر ؛ وكان الجلد يتشم قائلًا : « بوه ! بوه ! إنه عهد
البُنَيَات ! » وفي بعض الاحيان كان المعجوز يضيف : « يا للشيطان !
لقد حبتُ انها مغازلة . ولكن يبدو أنه هيام . »
كان هياماً ، حقاً .

كان ماريوس في سبيله الى الشغف بأبيه .
وفي الوقت نفسه طراً تغير فوق العادة على أفكاره . وكانت مظاهر
هذا التغير متعددة ومتعاقبة . واذ كان هذا التاريخ هو تاريخ كثير من
العقول في عصرنا فنحن نعتقد ان من المفيد ان نتبع هذه المظاهر
خطوة خطوة ، وأن نشير اليها جميعاً .
إن ذلك التاريخ الذي وقعت عليه ، الآن ، عيناه ، قد اذهله .
لقد كان الاثر الاول انشدها .

ان الجمهورية والامبراطورية لم تكونا عنده ، حتى ذلك الحين ، غير
كأنتين مخيفتين . الجمهورية ، مقصلة في غسق ؛ والامبراطورية ، حسام
في الليل . كان قد نظر اليهما ، وهناك ، حيث توقع ان لا يجد غير
ظلمات مختلطة ، وجد في ضرب من دهش خارق مشوب بالخوف

وبالبهجة كواكب ساطعة : ميرابو ، فيرنيو * ، سان جوست ، روبسيير ، كاميل ديولان ، دانتون ، وشمأ مشرقة : نابوليون . ولم يدّر أين هو . لقد ارتدّ وقد أعمته الانوار . وشيثاً بعد شيء ، زابله الدهش ، وتعود هذه الاشاعات . وانشأ يتأمل الاعمال من غير دوار ، ويدرس الشخصيات من غير دعر . لقد برزت الثورة والامبراطورية بروزاً مضيئاً أمام عينيه الجاهدين . لقد رأى كلاً من مجموعتي الحوادث والرجال هاتين تلخصن نفسيهما في حقيقتين ضخمتين : الجمهورية ، في سيادة حق المواطن 'معاداً الى الجماهير ؛ والامبراطورية ، في سيادة الفكرة الفرنسية مفروضة على اوروبه . لقد رأى صورة الشعب الجليلة تنبثق من الثورة ، وصورة فرنسة العظيمة تنبثق من الامبراطورية . وأعلن في ما بينه وبين نفسه ان ذلك كله كان حسناً .

اما ما أمهله انشداؤه في هذا التقدير الأول التركيبي اكثر مما ينبغي فلنا نرى ان من الضروري أن نشير اليه هنا . إنما نصف حالة عقلٍ يُعذّ الحطى . والتقدم لا يتم بوثبة واحدة . وإذا قلنا هذامرةً والى الأبد ، في ما يتصل بما تقدم وفي ما يتصل بما سوف يلي ، نتابع الكلام .

لقد شعر عندئذ انه لم يفهم وطنه ، حتى تلك اللحظة ، باكثر مما كان قد فهم أباه . إنه ما كان يعرف لا هذا ، ولا ذاك ، ولقد كان يفشي عينيه ضرب من الظلمة الارادية . أما الآن فقد أخذ يرى . واستبدّ به الاعجاب من ناحية ؛ وغلب عليه التقديس من الناحية الاخرى .

كان مفعماً بالاسف وتبكيّت الضمير . وخطر له ، في بأس ، انه لا يستطيع الآن أن يبثّ كل ما في روحه إلا الى جدث . أوه ! لو ان أباه كان حياً ، لو لم يُجرّمه ، لو ان الرب قد أجاز ، برحمته وخيريته ، ان يبقى ابوه على

* Vergnaud من رجال الثورة البارزين (١٧٥٣ - ١٧٩٣) وقد اعتقل مع الجيرولدين ومات على المقصلة .

قيد الحياة، اذن لاسرع الى العَدُو، واذن ل طرح نفسه على قدميه ، واذن لصاح مخاطباً اياه : «أبي انا هنا اهذا انا ! إن لي قلباً مثل قلبك ! انا ولدك !» ما كان اجدره بان يعانق رأسه الابيض ، ويندّي شعره بالدموع ، ويحدق الى ندبته ، ويضغط على يديه ، ويهيم بشيابه ، ويقبل قدميه ! اوه ! لماذا توفي والده في مثل هذه السرعة ، قبل الكهولة ، قبل العدالة ، قبل حب ولده ! واعتلجت في فؤاد ماريوس زفرة موصولة كانت تقول في كل لحظة : «والأسفاه !» وفي الوقت نفسه أمس اكثر أخذاً بأسباب الجدّة ، وأشدّ إمعاناً في الرصانة ، واعظم ثقة بأيمانه وعقله . لقد اقبلت ومضات من الحقّ ، في كل لحظة ، لكي تتمّ تفكيره . كان ذلك أشبه شيء بنموّ باطني ، فقد استشعر ضرباً من الاتساع الطبيعي الذي حمله اليه هذان الشيطان ، الجديدان عليه : أبوه ووطنه .

وانفتح كل شيء ، وكان في يده مفتاحاً . لقد شرح لنفسه ما كان قد أبغضه ، واستوعب ما كان قد مقته . لقد رأى في وضوح ، منذ ذلك الحين ، المعنى السماويّ ، الالهيّ ، البشريّ الذي انطوت عليه الاشياء العظيمة التي علّم أن يكرهها ، والرجال العظام الذين لقّن أن يسبّهم . وحين فكّر في آرائه السابقة ، التي كان يعتنقها حتى وقت قريب ، والتي بدت له مع ذلك عنيقة جدّاً ، اخذه السخط على نفسه ، وابتسم . ومن إعادة اعتبار ابيه ، انتقل على نحو طبيعي الى اعادة اعتبار نابوليون .

بيد أن هذا - وهو ما يتعين علينا ان نقوله - لم يمتّ من غير عناء .

لقد أشرب ، منذ الطفولة ، بآراء حزب سنة ١٨١٤ في بونابرت . والواقع ان تحاملات العهد البوربوني الجديد كلها ، ومصالحه كلها ، وغرائزه كلها كانت تنزع الى تشويه نابوليون . لقد أبغضه ذلك العهد اكثر مما ابغض روبسبير نفسه . ولقد استقل في كثير من البراعة تعب الأمة ، وبغض

الأمهات . وكان بونابرت قد أمسى ضرباً من غول يكاد يكون اسطورياً . ولكي يصور هذا الغول لحيال الشعب ، الذي يشبه كما قلنا من قبل خيال الاطفال ، فقد اظهر حزب سنة ١٨١٤ جميع الاقنعة المروعة ، واحداً بعد واحد ، ابتداء من تلك التي تنسم بالفضاعة ولكنها تظل عظيمة ، حتى تلك التي تنسم بالفضاعة ولكنها مضحكة ، من تيباريوس * الى كروكوميتين **. وهكذا كنت ، عند الكلام على بونابرت ، حرأ في أن تنتهب او في ان تنفجر بالضحك ، شرط ان يكون البغض هو الأساس . ولم يسبق لمايوس ان كانت له عن ذلك الرجل - كما كانت يدعى - أبة افكاو غير هذه الافكار على الاطلاق . لقد نمت جنباً الى جنب مع الصلابه التي كانت في طبيعته . لقد كان في بورديه رجلاً صفيو عنيد يكره نابوليون .

حتى اذا قرأ تاريخه ، وبخاصة حين درسه في الوثائق وفي العناصر الرئيسية التي يتشكل منها ، اخذ ذلك النقاب الذي كان يجنب نابوليون عن عيني مايوس يتمزق شيئاً بعد شيء . لقد لمح شيئاً غير متناه ، وتراهى له انه كان يخدع نفسه - حتى تلك اللحظة - في أمر نابوليون كما خدعها في سائر الامور . وكل يوم ، كان نظره يزداد وضوحاً ؛ وشرع يرقى في بطنه ، خطوة خطوة - في اسفٍ تقريباً باديه الامر وفي نشوة بعد ذلك وكأنما كان موقفاً بسحر لا يقاوم - درجات الحماسة المظلمة اولاً ، ثم درجاتها المضادة على نحو باهت ، واخيراً درجاتها النيرة الباهرة .

وذات ليلة ، كان وحده في غرفته الصغيرة القائمة تحت السطح . كانت شمعه مضادة ، وكان يقرأ متكئاً على طاولته الى جانب النافذة

* هو ثاني اباطرة الرومان (٤٣ ق . م - ٣٧ ب . م) كان حاكماً قديراً ولكنه شديد القوة . وقد سبق التعريف به .

** كائس خرافى يخوف به الاطفال . وهو اقرب شيء الى « النول » الذي يخوف به اطفالنا في بعض البيئات .

المفتوحة . وتقاطرت عليه ، من الفضاء الرحب ، ضروب الهواجس
وامتزجت بتفكيره . أيُّ مشهد هو الليل ! نحن نسمع اصواتاً مبهمة
لسنا ندري من اين تقبل . نحن نرى جوبيتير وهو اكبر من الارض
ألفاً ومئتي مرة ، يلتمع مثل جرة . القبة السماوية زرقاء ؛ النجوم
تتألاً ؛ ذلك شيء مخيف .

وقرأ بيانات الجيش العظيم الرسمية ، تلك الفلذات البطولية التي كتبت
في ساحة المعركة . كان اسم ابيه يرد فيها احياناً ، وكان اسم
الامبراطور يتردّد خلالها دائماً . وتبدّت له الامبراطورية العظيمة كلها .
لقد احسّ وكان مَدأً كان ينتفخ في ذات نفسه ويرتفع . لقد بدا له في
بعض اللحظات ان اياه يمرّ على مقربة منه مثل نسمة من النسيمات ،
ويمس في أذنه . وشيئاً بعد شيء ، غداً غريباً تأمناً . لقد حسب انه
سمع الطبول ، والمدافع ، والابواق ، وخطى الافواج الموزونة ،
وخبب الفرسان المبهم الثاني . وبين الفينة والفينة كانت عيناه ترتفعان
نحو السماء ، فتريان البروج الهائلة تسطح في الاعماق التي لا قرار لها ،
ثم ترتدان الى الكتاب فتريان هناك اشياء اخرى بالغة الضخامة تضطرب
في غير وضوح . كان منقبض الصدر . وكان مهتاجاً ، مرتجفاً ، لاهناً .
وفجأة ، ومن غير ان يدري هو نفسه ايّ شيء يحركه ، أو ايّ شيء
كان يطيع ، نهض وبسط ذراعيه خارج النافذة ، وحدّق الى الظلام ،
الى الصمت ، الى اللانهاية المظلمة ، الى الرحب الأزلي الذي لا حدّ له ،
وصاح : « فليحيّ الامبراطور ! »

ومن ذلك الحين انتهى كل شيء ؛ الغول الكوروسكي - الفاصب -
الطاغية - الوحش الذي كان عشيق أخواته - الممثل الذي تتلمذ على
تالما * - مسمّم يافا - النمر - بُوُونابرتيه - كل هذا قد تلاشى وأخلى

* Talma مسرحي فرنسي (١٧٦٣ - ١٨٢٦) وكان نابوليون يؤثره على
الممثلين جميعاً .

مكانه في عقله لأشراق غامض وساطع تألق فيه من ارتفاع سامق لا يدرك طيفُ قيصر الرخاميّ الشاحب . إن الامبراطور لم يكن عند أبيه غير القائد القدير المحبوب ، الذي يُعجب به المرء ، ويقف نفسه لخدمته . أما عند ماريوس فكان شيئاً أكثر من ذلك . كان الرجلَ المختاراً لأنشاء الفرقة الفرنسية التي خلفت الفرقة الرومانية في السيادة على العالم . كان المهندسَ الأعجوبيّ لسقوطِ ما ، والمنتمِ عملَ شارلمان ، ولويس الحادي عشر ، وهنري الرابع ، وربشليو ، ولويس الرابع عشر ، ولجنة السلامة العامة ؛ وكانت له ، من غير ريب ، عيوبُهُ ، واخطاؤه ، بل وجرائمه ، يعني بوصفه بشراً . ولكنه كان جليلاً في أخطائه ، متألّقاً في عيوبه ، جباراً في جرائمه . كان الرجلَ الذي اختارته الاقدار لكي يُكرمه الامم على ان تقول : الامة العظيمة . بل لقد كان خيراً من ذلك . كان تجسّدَ فرنسة نفسه ، قائماً اوربةً بالسيف الذي شهره ، والعالمَ بالضياء الذي سفعه . لقد رأى ماريوس في بونابرت ذلك اللطيفَ الباهر الذي سيظهر على الحدود دائماً ، والذي سيرس المستقبل . طاغية ، ولكنه حاكمٌ فوق العادة مُنح جميع الصلاحيات وأطلقت يداه في العمل . طاغية منبثق من جمهورية ، ومختصرٌ لثورة . لقد أمسى نابوليون ، في نظره ، الرجلَ الشعب ، كما كان يسوع الرب الانسان .

وشأن جميع الداخلين حديثاً في دين من الاديان أسكره دخوله في الدين ، واندفع في تشيعة اندفاعاً متهوراً ، وذهب الى أبعد مما ينبغي . كانت طبيعته هكذا ؛ فما إن يهبط منعديراً حتى يتعذر عليه أن يتوقف ، أو يكاد . واستبدت به العصبية للسيف ، واختلطت في ذهنه بالحماسة للفكرة . إنه لم يدرك أنه ، الى جانب العبقرية ، ومن غير ما تميز ، قد أعجب بالقوة ، يعني أنه أقام في رُكني صميمته ما هو السهي من جهة ، وما هو وحشي من جهة . ومن نواح كثيرة ، انشأ بخدع نفسه في شؤون اخرى . لقد أقرّ كل شيء . فتنة وسيلة للوقوع في

الخطأ فيها يتخذ المرء سبيله الى الحق . وكان له ضرب من سلامة القلب العنيفة الجافية التي ابتلعت كل شيء جملة . ففي السبيل الجديدة التي سلكها ، اهل في محاكمته أخطاء العهد القديم كما اهل في تقديره عظمة نابوليون مختلف الملبسات والاسباب التخفيفية .

وأياً ما كان فقد خطا تلك الخطوة الكبيرة . فحيث رأى من قبل سقوط الملكية ، رأى الآن جلوس الشعب على العرش . لقد تغيرت قبيلته . فما كان غروب الشمس ، انتهى الان الى ان يصبح إشرافها . لقد دار الى الورا .

ومت هذه الثورات كلها في ذات نفسه من غير ان تشعر أسرته بها على الاطلاق .

وحين اطرح في هذا الجهد الحفي جلد البوربونى القديم المغالي في التطرف اطراحاً كاملاً ؛ حين تعرّى من كل ما هو ارسوقراطي ، يعقوبي ، وملكي ؛ حين أمسى ثورياً بكل معنى الكلمة ، ديموقراطياً الى الاعماق ، جمهورياً او يكاد ، شخص الى حفار في الدكي ديزوريفير ، وأوصى على مئة بطاقة تحمل هذا الاسم : البارون ماريوس بونغيرسي .

ولم يكن ذلك غير نتيجة منطقية جداً للتغير الذي طرأ عليه ، وهو تغير دار كل شيء فيه ، بمنزلة القوة الجاذبة ، على محور أبيه . وإذا لم يكن يعرف أحداً ، وإذا لم يكن في وسعه ان يتوك بطاقته عند باب أحد ، فقد وضع تلك البطاقات في جيبه .

وبسبب من نتيجة طبيعية اخرى كان كلما ازداد قريباً من ابيه ، من ذكراه ، من الاشياء التي قاتل الكولونيل من أجلها طوال خمس وعشرين سنة ، ازداد بعداً عن جده . وقد سبق منا القول إن خصال مسيو جيلنورمان ما كانت لترضيه منذ عهد بعيد . كان يكرهه كره شاب آخذٍ باسباب الجد شيخاً عاتياً مستهتراً . ان مرح جيرونت * ليصدم كآبة

* Géronte إحدى شخصيات موليير ، ويمثل العجوز القاسي الفؤاد ، الشحيح ، العنيد .

فيرتر* وبفيظها. والواقع انه ما دامت الآراء السياسية نفسها والافكار نفسها مشتركة بين ماريوس ومسيو جيلنورمان فقد التقيا بواسطتها وكأنما يلتقيان على جسر، حتى اذا سقط هذا الجسر برزت الهوة. وفوق ذلك كله، فقد عصفت الثورة بماريوس على نحو لا سبيل الى وصفه عندما فكر أن مسيو جيلنورمان قد فصله من غير ما رحمة، وبدوافع حمقاء، عن الكولونيل، وبذلك حرم الأب ابنه، والابن أباه.

ومن خلال بريرة بأبيه كاد ماريوس أن ينتهي الى كره جده. ومهما يكن من أمر فإن اياً من هذا لم يُعلن، كما قلنا، عن نفسه على نحو خارجي. كل في الامر أنه ازداد فتوراً يوماً بعد يوم، وانه كان قليل الكلام على المائدة، نادر الاقامة في المنزل. فاذا عنفته خالته من اجل ذلك كان بالغ الرقة، وكان يتذرع بدروسه، وبالحكام، والامتحانات، والمحاضرات الخ. وما كان الجد ليغير تشخيصه المتزه عن الخطأ: «عاشق! أنا أفهم ذلك!»

وكان ماريوس يغيب عن المنزل بين الفينة والفينة.
وكانت الحالة تتسائل:

— «الى اين تراه يذهب، على هذه الشاكلة؟»

وفي احدى هذه الرحلات، البالغة القصر دائماً، قصد الى مونفيرماي إنفاذاً للوصية التي تركها له ابوه، وبحث عن رقيب وانزلوا السابق، الفندق في تيناردييه. وكان تيناردييه قد أفلس، وكان الفندق قد أوصد، ولم يكن احد ليدري ما الذي حل به. واضطرت ماريوس، من اجل القيام بهذا البحث، الى التغيب عن المنزل أربعة أيام.
وقال الجد:

— «لا ريب في انه ضلّ السبيل».

ولقد خيل اليهما أنها لاحظا أنه يحمل على صدره وتحت قميصه شيئاً

* Werther بطل قصة الشاعر الألماني غوته الشهيرة الحاملة هذا الاسم.

يتدلى من عنقه بشريطة سوداء .

٧

تنورة ما

لقد تحدثنا عن أحد الرماحة .

كان ابن ابن أخى مسيو جيلنورمان ، الذي كان يجيا بعيداً عن الاسرة ، وبعيداً عن الحياة العائلية كلها ، في مقر الحامية . وكان الملازم الاول نيبودول جيلنورمان قد حقق جميع الشروط التي يحتاج اليها المرء لكي يكون ما يدعى ضابطاً جميلاً . كان له « خصر آنسة » ، وطريقة في جر الحسام المظفر ، وشارب معقوص . كان نادراً ما يذهب الى باريس ، نادراً الى حد ان ماريوس لم يره قط . والواقع ان ابني العمومة لم يعرف واحداً منها الآخر إلا بالاسم . وكان نيبودول ، كما نعتقد أننا ذكرنا ، اثيراً لدى الحالة جيلنورمان تفضله لأنها لم تكن تراه . إن عدم رؤية الناس يساعدنا على ان نتخيل فيهم مختلف ضروب الكمال . وذات صباح انقلبت الآنسة جيلنورمان الكبرى الى غرفتها وهي مهتاجة الى ابعاد ما تسمع لها وداعتها بأن تحتاج . كان ماريوس قد سأل جده ، كرة اخرى ، ان يأذن له في القيام برحلة قصيرة ، مضيفاً أنه يعتزم الانطلاق تلك الليلة نفسها . وكان الجدة قد أجاب : « اذهب ! » ، ثم اضاف ، على انفراد ، رافعاً حاجبيه الى أعلى جبينه : « إنه يعاود جريمة الميت خارج المنزل . » وكانت الانسة جيلنورمان قد رجعت الى غرفتها في ارتباك شديد ، ملقية على السلم علامة التعجب هذه : « هذا جميل ! » وعلامة الاستفهام هذه : « ولكن الى اين تراه يذهب ؟ » وتخيّلت مغامرة من مغامرات القلب المحظورة قليلاً او كثيراً ، امرأة

في الظل ، موعداً غرامياً ، سرّاً خفياً ؛ ولم تكن خليقة بأن تفضب لو قدّر لها ان 'تقعّم نظارتها فيها . إن مذاق سرّ من الاسرار أشبه شيء بياكورة ريبة . والنفوس الطاهرة لا تكره ذلك البتة . إن في 'حجرات التطرف في التقوى بعض الفضول الى الفضيحة .
لقد كانت اذن فريسة رغبة عياء في معرفة قصة ما .

ولكي تتلهم عن هذا الفضول الذي كان يُورثها من الاحتياج اكثر مما تعودت ، لجأت الى مواهبها وشرعت تنشيء - بخيط من القطن فوق خيط من القطن - قطعة من وشي الامبراطورية وعودة آل بوربون الذي كانت تكثر فيه عجلات العربات ذوات الدولابين . عمل عبوس ، وعاملة شرسة . وكانت قد سلفت في كرسيها عدة ساعات عندما 'فتح الباب . ورفعت الأكنسة جيلنورمان أنفها . كان الملازم الأول تبيودول أمامها يجيها بتحية المرافق العسكري . وأطلقت صيحة ابتهاج . فقد تكون المرأة عجوزاً ، وقد تكون مسرقة في التعفّف ، وقد تكون ورعة ، وقد تكون عمّة أو خالة ، ولكن من المستحب دائماً ان ترى رماحاً يدخل غرفتها .
وهنت :

- « انت هنا ، يا تبيودول ! »

- « لقد احببت ان امرّ بكم في طريقي ، ايها العمّة . »

- « عانقني اذن . »

فقال تبيودول :

- « ها أنا ذا افعل ! »

وعانقها . ومضت العمّة جيلنورمان الى مكتبها وفتحته .

- « سوف تبقى عندنا طوال الاسبوع على الاقل ، اليس كذلك ؟ »

- « ايها العمّة ، سوف أرحل هذا المساء . »

- « مستحيل ! »

- « إنني مضطر الى السفر معها كلف الامر . »

- « إبقى ، يا صغيري تيبودول ، ارجوك . »
 - « القلب يقول نعم ، ولكن الاوامر تقول لا . القصة بسيطة . لقد
 'غير مقرّ حاميتنا . كنا في ميلون ، وها قد وُجّهنا الآن الى غايون .
 ولكي نذهب من مقر الحامية القديم الى المقر الجديد يتعين علينا أن نمرّ
 بباريس . وهكذا قلت : سوف أذهب وأرى عمّي . »
 - « دونك هذه جزاء ما لقيتَ من تعب . »
 ووضعت في يده عشر ليرات ذهبية .
 - « تعين جزاء ما نعمتُ به من سرور ، ايها العمّة العزيزة . »
 وعانقها تيبودول ككرةٍ أخرى ، وسعدتُ بأن خدشتُ جدائلُ توبه
 العسكري رقبتهَا خدشاً طفيفاً .
 وسألته :

- « اتقوم بهذه الرحلة على صهوة الجواد مع كتبتك ؟ »
 - « لا ، ايها العمّة . لقد اردتُ ان أراك . لقد حصلت على اجازة
 خاصة . ان خادمي يقود جوادي . اما انا فأركب العربية العمومية .
 وبالمناسبة ، هناك سؤال أحب ان أوجه اليك . »
 - « ماذا ؟ »

- « إن ابن عمّي ماريوس بونغيرمي راحلٌ ايضاً ، اليس كذلك ؟ » .
 فصاحت العمّة وقد استثير فضولها ، فجاءت ، الى ابعد حدود الاستشارة :

- « كيف تعرف ذلك ؟ »
 - « حين وصولي ، شخصتُ الى مركز العربات العمومية لأحجز محلاً
 في القسم الامامي من العربية . »
 - « ثم ماذا ؟ »

- « كان احد المسافرين قد حجز محلاً في القسم الأعلى من عربية .
 لقد رأيت اسمه في السجل . »
 - « ايّ اسم ؟ »
 - « ماريوس بونغيرمي . »

فصاحت العمة :

« الفتى الشرير ! آه ، إن ابن عمك ليس غلاماً حسن السلوك مثلك .
انا لا أستطيع ان افكر انه سوف يمضي الليل في عربة عمومية . »
« مثلي انا . »

« ولكنك تفعل ذلك بحكم الواجب . أما هو فيفعله بدافع الفسق
والفجور . »

فقال تيبودول :

« وما الفرق ؟ »

وهنا وقعت حادثة في حياة الأنسة جيلنورمان الكبرى . لقد راودتها
فكرة . ولو كانت رجلاً ، اذن لصفعت جبينها . وخاطبت تيبودول في
لهجة شديدة ، قائلة :

« اتدري ان ابن عمك لا يعرفك ؟ »

« لا . لقد رأيت انا . ولكنه لم يتنازل يوماً فينظر اليّ . »

« وسوف تسافران معاً على هذا الشكل ؟ »

« هو في القسم الأعلى من العربة العمومية ، وانا في القسم

الأمامي منها . »

« الى أين تذهب هذه العربة العمومية ؟ »

« الى الآنديلي . »

« اذن فماريوس ذاهب الى هناك ؟ »

« وإلا اذا غادر العربة ، مثلي ، في بعض الطريق . سوف أنزل في

فيرون لاتخذ الطريق الفرعية الى غايون . انا لا اعرف شيئاً عن
طريق ماريوس . . »

« ماريوس ! ياله من اسم بشع ! ويا لها فكرة صائبة ، تلك

التي جعلتهم يسمونه ماريوس . ولكن انت ، على الاقل - انت
تدعى تيبودول ! »

- فقال الضابط :
- « كنت أوتر ان يكون ألفرد . »
 - « إسمع يا تيبودول . »
 - « انا سامع ، ابنتها العمة . »
 - « انقبه . »
 - « أنا منقبه . »
 - « هل أنت مستعد ؟ »
 - « نعم . »
 - « حسناً . إن ماريوس يغيب عن البيت في كثير من الاحيان . »
 - « إيه ! إيه ! »
 - « إنه يسافر . »
 - « آه ! آه ! »
 - « انه بيت خارج المنزل . »
 - « اوه ! اوه ! »
 - « زويد ان نعرف ما وراء ذلك كله . »
 - وفي هدوء رجل من بروتر ، أجاب تيبودول :
 - « تتورة ما . »
 - وبتلك الضحكة المكبوحه التي تتم عن اليقين أضاف :
 - « فتاة صغيرة . »
 - « هذا واضح ، كذلك صاحت العمة التي حسبت أن ميو جيلنورمان يتكلم ، والتي استشعرت ان اقتناعها بأثمه ينبثق على نحو لا يقاوم من هاتين الكلمتين ، « فتاة صغيرة » ، اللتين انطلقنا بالجرس نفسه من فم أخي الجدة وفم ابن ابن الاخ جميعاً . واستأنفت كلامها :
 - « تم بهذا الصنيع من أجلنا . إتبع ماريوس قليلاً . إنه لا يعرفك ؛ ولسوف يكون ذلك سهلاً عليك . فما دام ثمة « فتاة صغيرة »

فحاول أن ترى « الفتاة الصغيرة » . في استطاعتك ان تبعث الينا بالحكاية . إن ذلك سوف يسلي جدك . »

ولم يكن نبيودول شديد الرغبة في مثل هذا الضرب من الترويض . ولكن الليرات الذهبية العشر وقعت في نفسه موقع الارتياح العظيم ، وخيل اليه انه يرى تمةً يمكن ان تتلوها . فقبل المهمة ، وقال :

— « كما تريدن ، ايها العمة . »

ثم اضاف بينه وبين نفسه :

— « ها أنا ذا قد أمسيتُ دُوَيْبِنَا * . »

وعانقته الآنسة جيلنورومان .

— « إنك لا تقوم بمثل هذه الحيل ، يا نبيودول . أنتَ تطيع الانظمة ؛ انت عبدٌ للاوامر الصادرة اليك ؛ انت رجلٌ تدقيق وواجب ، وإنك لا تترك أمرتك لكي تذهب وترى مخلوقة كهذه . » وصقر الرماح خده في ارتياح ، وكأنه كارتوش ** أطريبتْ أمانته .

وفي المساء الذي تلا ذلك الحوار ، ركب ماريوس العربة العمومية من غير أن يخطر في باله أنه مراقب . أما المراقب فكان اول ما عمله ان استسلم للرقاد . كان نومه صيحاً يوذن بضمير مرتاح . لقد غطَّ آرغوس *** طوال الليل .

وعند منبجج الصباح صاح سائق العربة العمومية :

* Duenna عجوز تكلف في اسبانية بمراقبة فتاة صغيرة او امرأة شابة .

** Cartouche زعيم عصابة من اللصوص ، وقد سبق التعريف به .

*** Argus في الميثولوجيا الاغريقية عملاق ذو مئة عين عهد اليه في مراقبة « لايو » التي مسخت بقره ، فما كان من « عطارد » الا ان اوقع النوم في عينيه بانقام قيثارته واحتر وأسه . ثم زرعت عيونه في ذنب الطايروس . والمراد بـ « آرغوس » هنا ، نبيودول .

- « فيرونون ! محطة فيرونون ! المسافرون الى فيرونون ! »
وأفاق الملازم الأول تيبودول من سباته ، ودمدم نصف نائم :
- « حسن . في هذا المكان سوف أنزل . »
حتى اذا انجلت ذاكرته شيئاً بعد شيء ، نتيجة اليقظة ، تذكرت حتمه
والليرات الذهبية العشر ، والتقارير الذي كلف بتقديمه عن سلوك ماريوس .
وأغراه ذلك بالضحك .

وفكر ، فيما كان يزور صدرته غير الرسمية : « لعله غادر العربة .
جائز ان يكون قد ترجل في « بواسي » . لعله قد نزل في « ترييل » .
إن لم يكن قد نزل في « مولان » فلهل قد ترجل عند « مانت » ، إلا
اذا نزل في « روليبواس » ، وإلا اذا ذهب حتى « باسي » ليس غير ، مع
امكان انعطافه الى الشمال نحو « إيفرو » ، أو الى اليمين نحو « لاروش
غوييون » . إتبعه ، يا عمي . يا للشيطان ! اي شيء سوف اكتبه اليها ،
الى تلك المعجوز الطيبة ؟ » .

في تلك اللحظة بدا من زجاج القسم الامامي من العربة بنظاوت
أسود كان يبط من قسمها الأعلى .
وقال الملازم الاول :
- « أياكون هذا ماريوس ؟ »
لقد كان هو ماريوس .

وكانت ريفية صغيرة واقفة الى جانب العربة ، بين الحيل والسائقين ،
تعرض الازهار على المسافرين ، صائحة :
- « أزهار لسيداتكم ! »

واقترب ماريوس منها ، واشترى اجل ما في ملتها من الرياحين .
وقال تيبودول واثباً من العربة :

- « والآن ، هو ذا شيء مشير . الى من توى يحمل هذه الرياحين ؟

ينبغي ان تكون امرأة جميلة الى حد فائق تلك التي تحمل اليها باقة كهذه .

إني أودّ أن أراها . »

وشرع يتبع ماريوس ، لا تنفيذاً لهمة عهد بها إليه ، هذه المرة ، ولكن بدافع من الفضول الشخصي ، مثل تلك الكلاب التي تقتنص لحسابها الخاص .

ولم يلتقِ ماريوس بالأى تيودول . وخرجت من العربة العمومية بعض النسوة الانبغات . لقد بدا وكأنه لم ير شيئاً مما حوله .

وفكّر تيودول : « ايكون عاشقاً ؟ »

ومشى ماريوس نحو الكنيسة :

وقال ماريوس مخاطباً نفسه :

- « حسن ، الكنيسة ! هذا هو . إن المواعيد الفرامية المتبثة بشيء من القدّاس هي المواعيد الفضلى . ليس ثمة ما هو ألدّ من غمزة تمّ عبرَ الربّ الرحيم ! »

حتى إذا انتهى ماريوس الى الكنيسة لم يدخلها ، بل استدار خلف البناء . ثم اخفضى عند زاوية عمود من اعمدة صدر الكنيسة . وقال تيودول :

- « اللقاء في الخارج . فلتنرّ الفتاة الصغيرة . »

واقترب على رؤوس اصابعه نحو الزاوية التي استدار ماريوس حولها . حتى إذا بلغها وقف مشدوهاً .

كان ماريوس راكماً على العشب ، مخفياً وجهه بيديه ، فوق قبر من القبور . كان قد نثر باقته هناك . وفي أقصى القبر ، عند مرتفع يعين موضع الرأس ، انتصب صليب من خشب أسود كتّيب عليه هذا الاسم بأحرف بيضاء : الكوثونيل الباون بوغيممي . لقد سمع ماريوس ينتحب .

كانت « الفتاة الصغيرة » قبراً .

رخام ضد صوان

الى هناك كان ماريوس قد ذهب أول مرة غاب فيها عن باريس .
والى هناك كان يعود كلما قال مسيو جيلنورمان : « انه يبيت خارج
المنزل . »

واضطرب الملازم الاول تيودول لهذا الالتقاء ، غير المتوقع ،
يقبر . لقد اعتراه شعور مقيتٌ غريب لم يكن قادراً على تحليله -
شعورٌ مؤلف من احترام لقبرٍ ، مزوجٌ باحترامٍ لكولونيل . وانكفاً ،
تاركاً ماريوس وحده في المقبرة ، وكان في انكفائه ذاك شيء من
النظام . لقد بدا له الموت بكتفتين ضخمتين ، ولقد أدى له التحية
العسكرية أو كاد . وإذا لم يدر ما ينبغي ان يكتبه الى عمته ، فقد
اعتزم ان لا يكتب اليها شيئاً على الاطلاق . واهل شيئاً ما كانت
لينتج عن الاكتشاف الذي تم لتيودول في موضوع غراميات ماريوس
لو لم يُتبع مشهدُ فيرونون - بفضل تدبير من تلك التدابير الحفية التي
تحفل بها المصادفة - بنوع من الضربة المقابلة في باريس .

لقد رجع ماريوس من فيرونون في ساعة مبكرة من صباح اليوم الثالث
وشخص الى بيت جده . واذا استبدت به التعب بسبب من الليلتين
اللتين قضاهما في العربة العمومية ، واستشعر الحاجة الى التهويض
عن قلة نومه بساعة يمضيها في مدرسة السباحة ، فقد ارتقى السلم مسرعاً
الى غرفته ، فنزع سترة المفرد الطويلة والشريطة السوداء المطوَّرة عنقه
ومضى على جناح السرعة الى الحمام .

وكان مسيو جيلنورمان - وقد أفاق باكراً مثل جميع الشيوخ
المنتمين بصحة جيدة - قد سمعه يعود ، فسارع بأقصى ما تكنته رجلاه

المعجوزان الى ارتقاء السلم المؤدية الى غرفة ماريوس لكي يعانقه ، ولكي يستجوبه في اثناء العناق ، ويستطلع بعض الاستطلاع من ابن اقبل . ولكن المراهق اقتضاه النزول وقتاً أقصر من ذلك الذي احتاج اليه ابن الثمانين في الطلوع . حتى اذا دخل مسيو جيلنورمان عليّة ماريوس لم يجده هناك .

كان السرير مرتباً لم يُمسّ ، وقد انتشرت فوقه ، في غير ما احتياط أو حذر ، سترة ماريوس الطويلة وشريطته السوداء .

وقال مسيو جيلنورمان :

« انا أفضل هذا . »

وبعد لحظة دخل غرفة الاستقبال حيث كانت الآنسة جيلنورمان الكبرى قد جلست ، وأخذت تطرّز عجلات عربتها . وكان الدخول مظفراً .

وأمسك مسيو جيلنورمان السترة في يده ، وشريطة العنق في يده ، وصاح :

« النصر ! سوف ننفذ الى السرّ ! سوف نعرف نهاية النهايات ! سوف نلصق فجبور مرائينا ! ها نحن مع الرواية كاملة . إنّ عندي الصورة ! »

والحقّ ان علبة من الجلد الأسود المُبرّغل ، اشبه ما تكون بجلية بيضية الشكل ، كانت تتدلى من الشريطة .

واخذ الشيخ هذه العلبة وتأملها ، فترة ، من غير ان يفتحها ، وعلى وجهه سيما الشهوة ، والدهش ، والغضب التي ينظر بها شيطان فقير جائع الى مائدة بمتازة تمرّ تحت أنفه وهي غير معدة له .

« ذلك ان في جوف هذه العلبة صورة من غير ريب . أنا أعرف كل شيء عن ذلك . ان هذه العلبة تُحمل في رفق ، فوق القلب . يا لهم من مجانين ! إنها عاهرة بفيضة ما ، قد توقع الرعدة في اوصال

المرء ! إن للشبان مثل هذا الذوق الرديء كله ، في هذه الايام ! ،
فقال العانس :

« فلنترَ يا أبتِ ! »

وُفتحت العلبة بالضغط على نابضٍ . ولم يجدا فيها غير قصاصة من
الورق طويت في عناية .

وقال مسيو جيلنورمان ، وهو ينفجر بالضحك :

« من داعرة الى داعر . أنا ادري ما هي . إنها رسالة غرام ! »
فقال الحالة :

« آه ! اذن فلنقرأها ! »

ولبست نظارتها . ثم نشرت قصاصة الورق وقرأت ما يلي :

« الى ولدي : - إن الامبراطور قد جعلني باروناً في ساحة

القتال بواترلو . ولما كان عهد آل بوربون الجديد ينكر عليّ هذا اللقب
الذي دفعت دمي ثمناً له فان ولدي سوف يأخذه ويحمله . وليس من
ريب في أنه سوف يكون جديراً به . »

وليس من سبيل الى وصف الشعور الذي اعتلج في صدرَيّ الاب

وابنته . لقد أحسّ بالشعريرة وكأنّ أنفاس رأس الموت قد مستها .

ولم يتبادلا كلمة واحدة . بيد ان مسيو جيلنورمان قال في صوت
خفيض وكأنما كان يخاطب نفسه :

« انه خطّ ذلك السيف الجاهل . »

وفحصت الحالة الورقة ، وقلبتّها ظهراً لبطن ، وبطناً لظهر ، ثم

أعادتها الى الصندوق .

وفي تلك اللحظة نفسها سقطت رزمة مستطية صغيرة ، ملفوفة بورق

أزرق ، من جيب من جيوب السترة . والتقطتها الانسة جيلنورمان ،

وفضت الورقة الزرقاء . كانت بطاقات ماريوس المئة . ودفعت احداها

الى مسيو جيلنورمان الذي قرأ : البارون ماريوس بوغيرمي .

وقرع الشيخ الجرس . واقبلت نيقوليت . وتناول مسيو جيلنورمان الشريطة ، والعلبة ، والسترة الطويلة والقاهما على الارض وسطاً غرفة الاستقبال وقال :

- « أعيدي هذه الاشياء الى مكانها . »
وانقضت ساعة كاملة ساد فيها أعمق الصمت . كانت الرجل العجوز والعانس العجوز جالسين ، وقد ولّتي كل منهما ظهره للآخر ، واعلما كانا يفكران - كلٌ من ناحيته - في الاشياء نفسها . وفي ختام تلك الساعة قالت الحالة جيلنورمان :

- « جميل ! »
وبعد لحظات برز ماريوس . ودخل . وحتى قبل ان يجتاز عتبة غرفة الاستقبال لمح جدّه الذي كان حاملاً احدى بطاقاته في يده ، والذي لم يكدر يراه حتى صاح في نبرة تفوق بورجوازية ساخرة كان فيها شيء يسحق سحقاً :

- « قف ! قف ! قف ! قف ! انت « بارون » الان .
انا أقدم اليك تهنيتي . ما معنى هذا كله ؟ »
وشاع الدم في وجه ماريوس ، بعض الشيء ، واجاب :
- « هذا يعني اني ابنُ ابي . »
وكفّ مسيو جيلنورمان عن الضحك ، وقال في قسوة :
- « أبوك ؟ انا أبوك . »

فأردف ماريوس وقد خفض بصره وغلبت الصرامة على وجهه :
- « لقد كان والدي رجلاً متواضعاً وبأسلاً خدام الجمهورية وفرنسة خدمةً ماجدة ؛ رجلاً عظيماً في أعظم تاريخ قُدر للبشر ان يصنعوه ؛ رجلاً عاش ربع قرن في معسكرات القتال ، في النهار تحت القذائف ونحت القنابل ، وفي الليل وسطَ الثلج ، وفي الوحل ، ونحت المطر ؛ رجلاً انتزع رايتين ، وأصيب بعشرين جرحاً ، ومات منسياً مهجوراً ؛

رجلاً لم يكن يرتكب غير خطأ واحد ، هو انه أحب اكثر مما ينبغي
عاقبتين اثنين : وطنه وأنا ! ،

كان ذلك اكثر مما استطاع مسيو جيلنورمان أن يجتمل سماعه . فلم
تكذب هذه الكلمة ، الجمهورية ، تطرق سمعه حتى نهض ، او على
الاصح ، حتى انتصب واقفاً . وكانت كل من الكلمات التي نطق بها
ماريوس قد احدثت ، في وجه الملكي العجوز ، مثل ذلك الاثر الذي
تحدثه أنفاس الكير في الفحم المشتعل . كان قائماً ففداً أحر ، وكان
أحر ففداً أرجوانياً ، وكان أرجوانياً ففداً متوهجاً .
وصاح :

- « ماريوس ايها الولد البغيض ! أنا لا أدري اي شيء كان أبوك !
انا لا أريد أن اعرف شيئاً عنه ولست اعرفه . ولكن الذي أعرفه
انه لم يوجد قط غير جماعة من البؤساء بين اولئك القوم جميعاً . أنهم
كانوا كلهم شحاذين ، سفاحين ، ذوي فلانس حمراء * ، ولصوصاً .
أقول كلهم ! اقول كلهم ! انا لا اعرف أحداً ! اقول كلهم ! اسمع
أنت ، ماريوس ! انظر جيداً . ان فيك من البارونية مقدار ما في بابوجي
منها ! لقد كانوا كلهم لصوصاً اولئك الذين عملوا تحت إمرة روبسيير !
وكانوا كلهم قطاع طرق اولئك الذين عملوا تحت إمرة بو - وو - فا - برته !
كلهم خونة خذلوا ، خذلوا ، خذلوا ملكهم الشرعي ! كلهم جبناء فرّوا من وجه
البروسيين والانكليز في واترلو ! هذا هو الذي أعرفه ، فاذا كان أبوك
واحداً منهم فلست أعرفه . أنا آسف لذلك ، يا سيدي . » .

وأسمى ماريوس ، بدوّره ، الفحم ، وأسمى مسيو جيلنورمان
أنفاس الكير . وسرت الرعدة في اوصال ماريوس كلها . انه لم يدرك ما
يجب ان يفعل ؛ لقد اشتعل رأسه . كان الكاهن الذي يرى الى قرابينه

* يفصد انهم ثوريون ، لان الفلانس الحمراء كان يثمر بها اشد انصار الثورة
الفرنسية خاصة .

يقذف بها كلها في مهب الريح ، و«الفقير» الذي يرى عابراً سبيل يبصق على صنه . انه ما كان يستطيع ان يسمح بالتلفظ امامه بمثل هذه الاشياء من غير أن يردّ عليها . ولكن اي شيء كان يستطيع ان يعمله ؟ لقد ديس أبوه ورفس على مسمع منه ، ولكن من الذي داسه ورفسه ؟ جده . فكيف يثار لأحدهما من غير أن يبين الآخر ؟ كان متعذراً عليه ان يحقرّ جده ، وكان متعذراً عليه أن لا يثار لأبيه ، على حدّ سواء . كان امامه ، من ناحية ، حدث مقدس ، وكان امامه ، من ناحية اخرى شعر أشيب . وأخذ الدوار ، وترنح من أثر تلك الزوبعة التي عصفت في رأسه . ثم رفع عينيه وحدق الى جده ، وصاح في صوت واعد :

— « فليسقط آل بوربون ، وذلك الخنزير الكبير لويس الثامن عشر ! ، كان لويس الثامن عشر قد توفي منذ اربع سنوات ، ولكن ذلك ما كان ليقدمّ عنده أو يؤخر .

وفجأة غدا لون الشيخ ، برغم قرمزيته الشديدة ، اشدّ بياضاً من شعره . لقد استدار نحو تمثال نصفيّ لدوق دو برّي قائمٍ على الموقد . والمحنى له في احترام شديد ، وبضرب من العظمة الفريدة . ثم مشى مرتين ، في تزددة وفي صمت ، من الموقد الى النافذة ، ومن النافذة الى الموقد مجتازاً طوال الغرفة بكامله ، جاعلاً ارض الغرفة تقضض وكأن صورة من حبر تخطر فوقها . وفي المرة الثانية انحنى نحو ابنته ، التي كانت تتحمل الصدمة في انشدها خروفٍ طاعن في السن ، وقال لها في ابتسامة كادت تكون هادئة :

— « إن باروناً مثل حضرة السيد وبورجوازيّاً مثلي لا يستطيعان ان يظلا تحت سقف واحد . »

وتصدّر فجأة ، شديد الشحوب ، مرتعداً ، فظيماً ، وقد تعاظم جبينه بأشعاع الغضب المروّع ، وبسط ذراعه نحو ماريوس وصاح به :

— « اغرب من هنا ! ، .

وغادر ماريوس البيت .

وفي اليوم التالي قال مسيو جيلنورمان لابنته :

- « سوف ترسلين ستين « بيستولا » * كل ستة اشهر الى شارب

الدماء هذا ، ولن تحدثيني عنه بعد اليوم على الاطلاق . »

واذ كان لديه رصيد ضخم من الغيظ ينبغي ان ينفقه ، واذا لم يكن يعرف ما الذي يصنعه به ، فقد تحدث مع ابنته في برود طوال ثلاثة اشهر ونيف .

وانصرف ماريوس ، من ناحيته ، ساخطاً . ويجسن بنا أن ننص هنا

على حادثة أذكت غيظه اكثر فاكثرو . فثمة دائماً مثل هذه المقادير *

الصغيرة التي تعقد المآسي العائلية . إن المظالم لتعاضم برغم ان الأخطاء

لم ترد ، في الاساس ، اتساعاً . ذلك ان نيقوليت حين سارعت الى نقل

« أشياء » ماريوس الى غرفته - تنفيذاً لأمر العجوز - كانت قد اسقطت

من غير ان تشعر ، وربما على سلم العلية التي كانت مظلمة ، الحلية الجلدية

السوداء المنطوية على الورقة المكتوبة بخط الكولونيل . ولم يُعثر لتلك

الورقة او لتلك الحلية على أثر . وكان ماريوس مقتنعاً بأن « مسيو

جيلنورمان » - فهو لم يسه منه ذلك الحين بغير هذا الاسم - قد

قذف بـ « وصية أبيه » الى النار . كان يحفظ عن ظهر قلب تلك الاسطر

القليلة التي خطها الكولونيل ، ومن هنا لم يضع شيء البتة . ولكن الورقة ،

الخط ، ذلك الاثر المقدس ، كل ذلك كان قلبه نفسه . اي شيء قد صنع بها ؟

وغادر ماريوس المنزل من غير ان يقول الى ابن كان ذاهباً ، ومن

غير ان يعرف الى ابن كان ذاهباً ، وليس معه غير ثلاثين فرنكاً وساعته

وبعض الملابس في قطعة من بساط . واستأجر عربية من عربات الاجرة ،

ووثب اليها ، وانطلق كيفما اتفق نحو الحي اللاتيني .

أي شيء سيحل بماريوس ؟

* عملة فرنسية ذهبية قديمة . (pistole)

* المقادير ، هنا ، جمع مقلدور ، وهو الأمر الخنوم .

الكتاب الرابع

أصدقاء الأئمة

جماعة كادت تصبح تاريخية

في تلك الحقبة ، اللامبالية في الظاهر ، كانت فرنة نحسّ بقشعريرة ثورية غامضة . كانت بعض المسات المنبثقة من اعماق عامي ٨٩ ، ٩٢ و حديث القوم . وكانت باريس الفتية ، وليُففر لنا هذا التعبير ، علي وسلك ان تبدل جلدها . لقد تحوّل الناس من غير ان يعوا ذلك تقريباً ، بحكم حركة العصر نفسها . إن العقرب الذي يمشي فوق ميناء الساعة يمشي في النفوس ايضاً . لقد خطا كل امرئ تلك الخطوة التي كان يتعين عليه ان يخطوها الى أمام . وهكذا اصبح الملكيون متحررين ، واصبح المتحررون

ديموقراطيين .

كان ذلك اشبه بمدّ صاعد يعقده ألف جزر . ان من خصائص الجزر أن يُحدث مزيجات ؛ ومن هنا تلك المتعدّات الفكرية البالغة الغرابة . فقد قدّس الناس نابوليون وقدّسوا الحربة في آن واحد . اننا نكتب هنا التاريخ . لقد كان ذلك هو سراب تلك الفترة . ان الاواء تجتاز اطواراً متباينة . فالملكية الفولتيرية ، وهي ضرب من المذاهب غريب ، كان لها نِدْ لا يقل عنها غرابة ، هو التحررية البونابرتية .

كانت بعض الجماعات العقلية الاخرى اكثر جدية . لقد سبوت غور المبدأ ؛ لقد كلّفت بالحق . لقد تاقت الى المطلق ، ولحت وميضاً من الثمرات اللانهائية . إن المطلق ، بصرامته نفسها ، ليدفع بالعقول نحو الافق البعيد ، ويجعلها تطفو في اللا محدود . فليس شيء كالحلم خالفاً للمستقبل . اليوم مدينة فاضلة ، وغداً لحم ودم .

وكان للآراء التقدمية اساس مزدوج . فقد هدّد بروز السرّ الحفيّ و نظام الاشياء الموطّد ، ، الذي كان مريباً مرثياً - وهي امارة ثورية الى ابعد الحدود . إن مواربة السلطان لتلقي بمواربة الشعب في الحادق . وحضانة العصيان تقدّم الجواب على تبييت الانقلابات .

وفي ذلك الحين لم تكن قد نشأت بعد في فرنسة ايّ من تلك المنظمات السرية التي تشبه منظمة « توجيندبوندي » الالمانية ومنظمة ال « كاربوناري » الايطالية . ولكن بعض « الحفريات » الفامضة كانت قد بدأت تتشعب . كانت جماعة ال « كوغورد » تتكوّن في إيكس ، وكانت في باريس - الى جانب جماعات اخرى من هذا الضرب - جمعية اصدقاء الالقاء .

من كان اصدقاء الالقاء هؤلاء ؟ كانوا جماعةً هدفها في الظاهر تعليم الاطفال ، وهدفها في الواقع تقويم الرجال . لقد أعلنوا انفسهم اصدقاء الالقاء A. B. C. وكان ال « abaissé »

(المحفوضون) هم أفراد الشعب . * كانوا يريدون ان يرتفعوا بهم . وهو تلاعب لفظي ينبغي أن لا نسخر منه . فالتلاعب اللفظي كثيراً ما يكون ذا خطر في عالم السياسة . إعتبر " *Castratus ad Castra* " التي جعلت نارسيس * قائداً جيش . واعتبر : *Barbari et Barberini* واعتبر *Fueros y Fuegos*

واعتر *Tu es Petrus et super hanc petram* الخ . الخ . ***

ولم تكن جماعة اصدقاء الالقاء كثيرة الاعضاء . كانت جمعية مرية في المرحلة الجنينية . بل لقد كدنا ان نقول « عصابة متأمرين » لو أن عصابات المتأمرين تخلق ابطالاً . وكان افرادها يجتمعون بباريس ، في مكانين ، قرب ال « هال » ، في شمارة تدعى « كورنت » سوف يشار إليها فيما بعد ، وقرب ال « بانتيون » ، في مقهى صغير في ساحة « سان ميشيل » يدعى مقهى الموزين ، ولم يعد اليوم قائماً . كان اول موطن من موطني اللقاء هذين قريباً من العمال ، وكان ثانيها قريباً من الطلاب .

وكانت اجتماعات « اصدقاء الالقاء » العادية تعقد في غرفة خلفية من مقهى الموزين .

هذه الغرفة ، النائية بعض الشيء عن المقهى والمتصلة به بمجاز طويل جداً ، كان لها نافذتان ومنفذ بواسطة سلم خفية الى شارع دو غري الصغير . كانوا يدخلون هناك ، ويجتسون الحجر ، ويقامرون ، ويضحكون . كانوا يتحدثون عن كل شيء تقريباً في صوت مرتفع جداً ، وفي همس عن شيء آخر . وكانت قد علقت على الجدار خريطة قديمة لفرنسة في عهد الجمهورية ، وهي اشارة كافية لاث تثير ظنون رجل من رجال الشرطة .

* والمجاورة اللفظية واضحة بين *A. B. C.* (الالقاء) والـ *abaissé* (المظلومون أو المحفوضون) .

** احد قواد الامبراطور يوستنيانوس ، واكرخوس ايطالية (٤٩٢ - ٥٦٨)
*** وكلاهما من باب الجنس كما هو واضح .

ومعظم « اصدقاء الالفياء » كانوا طلاباً على تحالف ودي مع بعض العمال . ودونك اسماء المقدمين فيهم ، وهي ملك التاريخ الى حد ما : آنجولراس ؛ كومبوفير ؛ جان بروفير ؛ فويي ؛ كورفيراك ؛ باهوريل ؛ ليسغل او ليغل ؛ جولي ؛ غرانثير .

وكان هؤلاء الشبان يؤلفون في ما بينهم ، بقوة الصداقة ، شبه أسرة . وكانوا كلهم ، ما عدا ليغل ، من أبناء الجنوب . كانت جماعة رائعة . لقد تلاشت في الاحاق غير المنظورة التي وراءنا . وعند هذه النقطة التي بلغناها الآن من المساء لن يكون من غير المقيد ان نلقي شعاعاً من النور على هذه الرؤوس الشابة قبل ان يراها القارئ غارقة في ظلام مغامرة فاجعة .

فاما آنجولراس الذي قدمنا اسمه على غيره - وسرى في ما بعد لماذا - فكان وحيد أبويه ، وكان موسراً .

كان آنجولراس شاباً فائتاً ، قادراً على ان يصبح فظيماً . كان وسيماً على نحو ملائكي . كان اشبه بآنتينوس * شرس . وإن من يرى انعكاس نظرتيه المتفكرة خليق بان يقول إنه قد اجناز ، في وجود سابق ما ، بالرؤيا الثورية . كان عالماً بمجديتها مثل شاهد عيان . وكان يعرف جميع تفاصيل الحدث العظيم . طبيعة جبرية ومقابلة ، مستغربة في مراهق . كان احتفالياً ومناخلاً ، كان من وجهة النظر المباشرة جندياً من جنود الديوقراطية ؛ وكان ، فوق الحركة المعاصرة ، كاهناً من كهان المثل الاعلى . كان ذا حدقة ثقابة ، وجفن احمر بعض الشيء ، وشفة سفلى غليظة سريعة الى الازدراء ، وجبين عال . ان الجبين المنبسط كثيراً في وجهه ، كالسماة المنبسطة كثيراً في أفق . ومثل بعض شبان الصدر الاول من هذا القرن ونهاية القرن الماضي ، اولئك الذين تمت لهم الشهرة في سن مبكرة ، كان ذا طلعة بالغة الفتاء ، ناضرة مثل وجوه الكواكب ، برغم أنه كانت له

* Antinoüs نق من فتیان آسیة الوسطی ، وكان عبداً رقيقاً ذا جمال بالغ .

ساعات من الاصفرار والشحوب . كان قد بلغ الان مبلغ الرجال ، ولكنه ظهر وكأنه ما يزال طفلاً . لقد بدت أعوامه الاثنان والعشرون سبع عشرة سنة ليس غير . كان الجدة أغلب عليه ، ولم يبدو انه يعرف ان على ظهر الأرض كائناً يدعى المرأة . لم يكن له غير هوى واحد ، هو الحق ؛ ولم يكن له غير فكرة واحدة هي ان يذلل العقبات جميعاً . ولو قدر له ان يكون في جبل آفتين اذن لكان غراكوس * . ولو قدر له ان يكون في « المؤتمر الوطني » اذن لكان سان جوست . كان لا يرى الرياحين إلا في النادر النادر ، وكان ينكر الربيع ، ولم يكن يسمع الطيور وهي تفرد . ولقد كان نحره « إيفاديه » العاري خليقاً بأن لا يحركه اكثر مما يحركه آريستوجيتون ** . ولم يكن للزهور أبداً فائدة عنده شأنه في ذلك كشأن هارموديوس *** غير اخفاء السيف . كان زاهداً في الملذات ؛ وكان يفضّل طرفه في عفة أمام كل شيء إلا الجمهورية . كانت العاشق الرخامي للحرية . وكان حديثه ملهماً في خشونة ، وكانت فيه ارتعاشة ترتبلة من الترائيل . كان يدهشك بتحليقه . والويل للفرام الذي يغامر فيقترب منه ! ولو انّ عاملة مفنجة من عاملات ساحة كامبري او شارع سان جان دو بوفيه رأّت هذا الوجه الآبق من الكلية ، وهذه المشية الشبيهة بمشية غلام نبيل من مرافقي الامراء ، وهذه الاهداب الطويلة الشقراء ، وهاتين العينين الزرقاوين ، وذلك الشعر الذي شمّنته الريح ، وهاتين الوجنتين الورديتين ، وهاتين الشفتين الطاهرتين ، وهذه الاسنان الرائعة — تقول لو ان عاملة مفنجة من اولئك العاملات رأّت ذلك ،

* Gracchus خطيب روماني شهير دافع عن حقوق الشعب ، وحاول بالقوانين التي اقترحها ان يحد من جشع الارستوقراطية الرومانية . اما جبل آفتين فاحدى نلال رومة السبع ، وقد سبق التعريف به .

** Aristogiton أثيني تأمر مع صديقه هارموديوس ضد ولدي بيزيترات ، هيبارك وهيباس (٥١٤ ق.م.) وقد وقفا الى قتل هيبارك .

*** Harmodius راجع الهامش السابق .

وتشبهت هذا الفجر كله ، فحاولت ان تسدد سهام جمالها الى آنجولراس اذن لخدجها هو بنظرة مذهلة رهيبة تريها فجأة ايّ وادٍ سحيق يفصل ما بينه وبينها ، وتعلمها ان لا تخلط ما بين ملاك بومارشيه الغزل ، وملاك حزقيال الخفيف .

الى جانب آنجولراس الذي مثل منطق الثورة كان كومبوفير الذي مثل فلسفتها . وبين منطق الثورة وفلسفتها يقرم هذا الفارق - أن منطقها قد يؤدي الى حرب ، على حين ان فلسفتها لا تستطيع ان تنتهي إلا الى السلم . لقد أتمّ « كومبوفير » « آنجولراس » وصحّحه . كان دونه ارتفاعاً ، واكثر منه اتساعاً . وكان يرغب في ان يفرغ في جميع الحقل المباديء العريضة للفكرات العمامة . كان يقول : « الثورة ، ولكن الحضارة . » وحول الجبل الشديد الانحدار كان ينشر الاقن الازرق المترامي الاطراف . ومن هنا كان في نظرات كومبوفير كلها شيء قريب التناول ، ميسور الاجراء . كان هواء الثورة مع كومبوفير صالحاً للتنفس اكثر من هواء الثورة مع آنجولراس . لقد عبر آنجولراس عن حقها الالهي ، وعبر كومبوفير عن حقها الطبيعي . لقد ذهب الاول بعيداً حتى رويسبير ، ووقف الآخر عند كوندورسيه . وعاش كومبوفير حياة الناس العامة اكثر من آنجولراس . ولو قدر لهذين الشابين أن يبلغا التاريخ اذن لكان أحدهما الرجل المستقيم ، وثانيهما الرجل الحكيم . كان آنجولراس اكثر رجولة ، وكان كومبوفير أعظم إنسانية . إن لفظي *Homo* * و *Vir* ** تفصحان عن الفرق الدقيق بينهما حقاً . كان كومبوفير سهل الخليقة ، كما كان آنجولراس شرساً ، قاسياً ، بالنقاء الطبيعي . وكان يجب كلمة « مواطن » ، ولكنه آثر عليها كلمة « انسان » . ولقد كان خليقاً به أن

* في اللاتينية : رجل ، إنسان .

** في اللاتينية : ذكر ، فعل .

يقول مبتهجاً * *nombre* مثل الاسبان . كان قد قرأ كل شيء ، وقصد الى المآرح ، وشهد المحاكمات العامة ، وتعلم استقطاب الضوء من آراغو** ، وأغرم بمحاضرة كان جيوفروا سان هيلير قد شرح فيها المهمة المزدوجة للشريان الوداجي^١ الخارجي والشريان الوداجي الداخلي ، إذ يمدّ احدهما الوجه بالدم ، ويُمدّ الآخر^٢ الدماغ به . كان على اطلاع بماجریات العصر ، فهو يتتبع العلم خطوةً خطوةً ، ويعارض نظريات سان سيمون بنظريات فورييه ، ويفكّر رموز الاحرف الهيروغليفية ، ويكسر الحصى التي يعثر عليها ويتحدث عن علم طبقات الارض ، ويرسم فراشة القز من الذاكرة ، ويشير الى الاخطاء اللغوية التي وقعت في « معجم الاكاديمية » ، ويدرس بويسيفور*** وديلوز ، ولا يثبت شيئاً حتى المعجزات ، ولا ينكر شيئاً حتى الاشباح ، ويقلب مجموعة أعداد الـ « مونتور » ، ويفكر . كان يعلن ان المستقبل في ايدي المدرسين ، فهو شديد الانهك في مسائل التربية . لقد دعا الى أن يعمل المجتمع من غير انقطاع على رفع المستوى الفكري والاخلاقي ؛ على سكّ العلم ؛ على وضع الفكرات موضع التداول ؛ على إغناء العقل في الشباب ؛ وكان يخشى أن يؤدي فقر الطرائق الشائعة آنذاك وحقارة العالم الادبي المطوّق بقرنين او ثلاثة قرون تدعى كلاسيكية ، واعتقادية المتعالمين الرميين الاستبدادية ، والافكار السبقية الكلامية ، والروتين أو النمطية - كان يخشى ان يؤدي هذا كله الى جعل معاهدنا الثانوية وكلياتنا مواطن اصطناعية لتربية المحار أو البطليونس . كان حسن الثقافة ، مفراطاً في الحرص على صحة اللغة ، دقيقاً ، متعدد جوانب المعرفة ،

* كلمة اسبانية معناها « رجل » او « انسان » .

** Arago احد كبار العلماء في القرن التاسع عشر (١٧٨٦ - ١٨٥٣) وله

اكتشافات كثيرة في الفيزياء وعلم الفلك .

*** Puysegur مارشال فرنسة (١٦٥٦ - ١٧٤٣) وقد وضع رسالة شهيرة في

فن الحرب .

منكباً على الدرس ، متفرقاً في التأمل ، « حتى التعلق بالأوهام ، كما كان اصداقاًوه يقولون . لقد آمن بهذه الاحلام جميعاً : خطوط السكة الحديدية ؛ والقضاء على الألم في العمليات الجراحية ؛ وتركيز الصورة في الحزانة المظلمة ؛ والتلغراف الكهربائي ؛ وقيادة المناطيد . واذ كان الى ذلك قليل الذعر من المعامل التي بنتها ، في كل مكان ، لمحاربة الجنس البشري ، ضروب الحرافات ، والاستبدادات ، والافكار السبئية ، فقد كان واحداً من اولئك الذين اعتقدوا بأن العلم سوف يوفى آخر الأمر الى ان يقلب الاوضاع . كان آنجولراس زعيماً ؛ اما كومبوفير فكان هادياً . وإنه خلقت بالمرء ان يقاتل مع الاول ، وان يمشي مع الثاني . وليس معنى ذلك أن كومبوفير لم يكن قادراً على القتال ، فهو ما كان ليرفض مقارعة العقبات ، ومهاجمتها قسراً وبانفجار ؛ ولكن معناه ان إقامة التناغم التدريجي بين الجنس البشري ومصائرهم ، بتعليم الحقائق البدئية وإعلان القوانين الوضعية ، كانت أدعى الى سروره . ولو كان له ان يختار واحداً من نورين ، اذن لآثر ميله الى الاضاءة على الالهاب . إن الحريق قادر على ان يحدث فجراً من غير ريب ، ولكن لم لا ننتظر ارتفاع الضحى ؟ ان البركان ينير ، ولكن الصباح ينير على نحو افضل . ولعل كومبوفير كان يؤثر وضاعة الجميل ، على سطوع الجليل . كان الضوء الذي يكدره الدخان ، والتقدم المشتمى بالعنف لا يرضيان هذا العقل الرؤوف والجلدي غير نصف إرضاء . كان القاء شعب ما ، القاء عمودياً ، في لجة الحق ، وكان شيء من مثل عام ٩٣ ، يقذفان الرعب في فؤاده ! ومع ذلك فقد كان الركود أبغض الى نفسه ؛ كان يحس فيه تعفنًا وموتًا . وعلى الجملة ، فقد أحب الرغوة اكثر مما أحب الأبخرة الفاسدة ، وآثر السيل على المستنقع ، وسلاطات نياغارا على بحيرة مونفوكون . وفي اختصار ، فهو ما كان يجب لا الوقوف ولا العجلة . وبيننا كان اصداقاًوه الصاخبون ، الكلفون بالمطلق كلفاً فروسياً شهماً ، يهيمون بالمغامرات الثورية الباهرة ويلتمسونها ، كان

كومبوفير ينزع الى ان يدع التقدم يعمل عمله ، التقدم الصالح ، الذي قد يكون فاتراً ولكنه محض ، وقد يكون منهجياً ولكنه خلوه من كل عيب ، وقد يكون خاملاً ولكنه ثابت الجنان . ولقد كان خليقاً بكومبوفير ان يركع ويشبك يديه متمنياً ان يفد المستقبل بكامل صفاته المشرق ، وان لا يعكس شيء تطور الشعب تطوراً فاضلاً لا يعرف الحدود . كان يكرر في غير انقطاع : الخير ينبغي ان يكون بريئاً . وفي الحق ، اذا كانت عظمة الثورة في انها تحدد تحديداً موصولاً الى المثل الاعلى الذي يحسر العيون ، وان تطير اليه عبر الصواعق ، والدم والنار في برائتها ، فان جمال التقدم في انه نقي طاهر الذيل . وهناك بين واشنطون الذي يمثل احدهما ، ودانتون الذي يتجسد فيه الآخر ، ذلك الفارق الذي يفصل ما بين الملاك ذي الجناحين الشبهيين بجناحي التم ، والملاك ذي الجناحين الشبهيين بجناحي النسر .

وكان جان بروفير درجة اخرى من درجات المعنى نفسه اكثر رقة والين جانباً . كان يدعو نفسه جيهان * ، بدافع من ذلك الهوى المؤقت الذي امتزج بالحركة القوية العميقة التي انبثقت منها دراسة القرون الوسطى ، الضرورية جداً . كان جان بروفير عاشقاً ، وكان يعنى بأصيص رياحين ، ويعزف على الفلوت ، وينظم الشعر ، ويجب الشعب ، ويرثي للمرأة ، ويبكي على الطفولة ، ويخلط في الثقة نفسها ما بين المستقبل والله ، ويلوم الثورة لانها احتزت رأساً ملكياً واحداً هو رأس اندريه شينييه ** . كان صوته رقيقاً ، عادة ، ولكنه ما يلبث ان تغلب عليه

* Jeban de Paris رواية وضعها في القرن الخامس عشر مؤلف مجهول ، يسخر فيها امير فرنسي شاب من منافسه ملك انكلترا العجوز ، واذا ينثر الذهب في طريقه يستميل اليه قلب بنت من بنات ملك الاسبان .

** André Chénier شاعر فرنسي (١٧٦٢ - ١٧٩٤) شارك بادىء الامر في الحركة الثورية ، ثم احتج على العنف المفرط الذي لجأ اليه الثوريون في عهد الارهاب فأت على القصة .

الفعولة ، فبجادة . وكان حسن الثقافة حتى الموسوعية ، ومستشرقاً أو يكاد . وكان فوق ذلك كله خبيراً . وفي دنيا الشعر كان يُؤثر الباذخ الجليل ، وهو شيء طبيعي جداً عند من يعرف مقدار التجاور ما بين الطيبة والعظمة . كان يعرف الايطالية ، واللاتينية ، واليونانية ، والعبرية ، وهذا ما ساعده على ان لا يقرأ غير اربعة شعراء : دانتي ، وجوفينال ، وأشيلوس ، وأشعيا . وفي الفرنسية ، كان يفضل كورني على راسين ، وأغريبا دويينييه * على كورني . كان مولعاً بأن يهيم على وجهه في حقول الشوفان البري والترنجان ، وكان يُعنى بمتابعة السحب بقدر ما يُعنى بمتابعة الاحداث تقريباً . وكان لعقله وضمان ، احدهما في جوار الانسان ، والآخر في جوار الله . كان إما دارساً ، وإما متفكراً . وطوال النهار كان يتمتق المسائل الاجتماعية : الأجور ، ورأس المال ، والبيع على الحساب ، والزواج ، والدين ، وحرية التفكير ، وحرية الحب ، والتربية ، والعقاب ، والبؤس ، والشركة ، والملكية ، والانتاج ، والتوزيع ، والاحجية الدنيا التي تُتلقي ظللاً على قرية النمل الانسانية . وفي الليل ، كان يحدق الى النجوم ، تلك الكائنات الهائلة . ومثل آنجلوراس ، كان موسراً ، وكان وحيد أبويه . كان يتكلم في رقة ، مطأطئاً رأسه ، غاضاً من طرفه ، مبتسماً في ارتباك ، وكان سيء الهندام ، أخرق السياء ، شديد الحياء ، يشيع الدم في وجهه للاشياء . وفي ما عدا ذلك ، كان بأسلاً جريئاً .

وكان فوئي عامل مراوح ، يتيم الأب والأم ، يكسب بشتى النفس ثلاثة فرنكات في اليوم ، وليس في رأسه غير فكرة واحدة ، أن يختص العالم . وكانت له رغبة اخرى : أن يتقف نفسه ، وهو ما كان يدعوه تخليص النفس ايضاً . كان قد علم نفسه القراءة والكتابة ؛

* Agrippa d'Aubigné شاعر فرنسي (١٥٥٢ - ١٦٣٠) كان هجاء بروتستانتياً حارب الى جانب الملك هنري الرابع ، ويمتاز شعره بعنفه وكثرة استعاراته .

وكلُّ ما عرفه إنما تعلمه بنفسه . وكان فربي قلباً كريماً . كانت يعانق الكون . ذلك ان هذا اليتيم تبتى الشعوبَ جميعاً . لقد أعوزته الأم فأنشأ يفكّر في الوطن . إنه ما كان راغباً في ان يكون ثمة على ظهر الارض إنسانٌ لا وطن له . لقد حُضِنَ في ذات نفسه ، بالعرفة العميقة التي لرجل الشعب ، ما ندعوه اليوم فكرة القوميات . كان قد درس التاريخ خصيصاً لكي يقيم مسخه على اساسٍ من معرفته السبب في ذلك السخط . وفي تلك الذروة الحديثة التي ضمت اولئك المثاليين الواقعيين تفكيرهم على فرنسة ، كان يمثل الأمم الاجنبية . وكان اختصاصه يدور على محور اليونان ، وبولونيا ، وهنغارية ، ومقاطعات الدانوب ، وايطالية . كان يتلفظ بهذه الاسماء على نحو موصول ، لمناسبة ولغير مناسبة ، في إصرار الحق وعناده . وكان اعتدائه تركية على كريت وتسالية ، واعتدائه الروسية على فرسوفيا ، واعتدائه النمسا على البندقية - كانت هذه الاعتداءات كلها تثير غيظه . وكانت وسيلة العنف العظمى التي اصطنعت عام ١٧٧٢ * توغر صدره بخاصة . وليس ثمة فصاحة اعظم سلطاناً من فصاحة الحق المفرغة في قالب من السخط . وكان هو مسلحاً بسلاح هذا الضرب من الفصاحة . فهو لا يملّ الحديث عن ذلك التاريخ الشائن ، ١٧٧٢ ، وتلك الامة النبيلة الباسلة التي كحتمها الحيانة ، وتلك الجريمة الثلاثية ، وذلك الكمين الهائل ، الذي فصلت على مثاله مختلف الاعتداءات الفظيعة التي تعرضت لها الدول فأبادت عدداً من الشعوب النبيلة ، ومحت اذا جاز التعبير سجلّ ولادتها . والواقع ان جميع الهجمات التي سُنت على المجتمع ترقى الى ذلك التاريخ الذي قُسمت فيه بولونيا . إن تقسيم بولونيا مبدأ مقرر ليست الجرائم السياسية الحاضرة كلها غير نتائج له . فطوال قرن بكامله لم يُطلع التاريخ طاغية ولا خائناً إلا

* يشير المؤلف الى تقسيم بولونيا الاول ، بين روسيا وبروسية والنمسا ، الذي تمّ في ذلك العام .

ووسم ، وأيد ، وأمضى ، ووقع بالأحرف الأولى ، تقسيم بولونيا لا نستثني من ذلك احداً من الطغاة أو من الحونة . ونحن نبحت في ملف الحيوانات المعاصرة يبدو ذلك التقسيم في الطبيعة . وقد استشار مؤتمر فيينا تلك الجريمة قبل ان يُنجز جريمته . لقد نفخ عام ١٧٧٢ في الصُور محمّساً كلاب القنص ، فكان عام ١٨١٥ هو حصّة الكلاب من الصيد . ذلك كان النصّ الذي لا يبلّ فوي من إعادته كل يوم . لقد جعل ذلك العاملُ الفقير نفسهُ معلّماً للعدالة ، ولقد كاد أنه العدالة بأن جعلته عظيماً . ذلك بأن للحق أديته . ففرصوفا لا تستطيع ان تصبح تنارية اكثر بما تستطيع البندقية ان تصبح تيوتونية . والملوك يضيعون جهدهم في ذلك ، ويضيعون شرفهم ايضاً . فعاغلاً او آجلاً يطفو البلد المُغرّق على سطح الماء ويعاود الظهور . وهكذا تصبح بلاد اليونان بلاد اليونان من جديد ، وتصبح ايطالية ايطالية من جديد . إن احتجاج الحقّ على الواقع يستمر الى الابد . والجريمة المتمثلة في نهب شعب من الشعوب لا تسقط بمرور الزمان . إن هذه الاختلاسات العليا ليس لها مستقبل البتة . فليس في ميسورك ان تمحو رسم امة من الامم كما تمحو رسم منديل من المناديل .

وكان لكورفيراك أبٌ يدعى ميسو دو كورفيراك . والواقع ان من أخطاء العهد البوربوني الجديد ، في موضوع الارستوقراطية والنبالة ، إيمانه باداة الاضافة . وأداة الاضافة كما نعلم ليس لها معنى البتة . ولكن بورجوازية عصر الـ « مينيرفا » رفعت هذه الـ « دو » de المسكينة مقاماً عليّاً الى حدّ جعل الناس يعتقدون انهم مضطرون الى التخيلي عنها . وهكذا دعا ميسو دو شوفلين نفسه ميسو شوفلين ؛ ودعا ميسو دو كومارتين نفسه ميسو كومارتين ؛ ودعا ميسو دو كونستان دو رويك نفسه بنجامان كونستان ، ودعا ميسو دو لافاييت نفسه ميسو لافاييت . ولم يُردّ كورفيراك ان يتخلّف عن الركب فسَمّى نفسه ، في اختصار ،

كورفيراك .

ويكاد يكون في استطاعتنا ، ان نقف هنا ونجتزئ به بالقول ، في ما يتصل بسائرنواحي شخصية هذا الرجل : كورفيراك : انظر تولوميبس . وكان كورفيراك يتمتع ، في الواقع ، بتوقد الخيال الفني الذي نستطيع ان ندعوه جمال العقل الشيطاني . وهذا التوقد يخبو في مراحل العمر القادمة ، كما تخبو ظرافة الهريرة ، وتنتهي كل تلك الملاحظة القائمة على قدمين اثنتين ، عند البورجوازي ، وعلى برائن اربعة ، عند الهر .

وهذا الطراز من العقل ينتقل من جيل من اجيال التلاميذ الى جيل ، ويمرّ من يد الى يد بنسوة الشباب المتعاقب ، من غير ان يطرأ عليه تغيير يستحق الذكر ، بحيث أن من قد قدر له ان يسمع كورفيراك يتحدث كما اسلفنا ، عام ١٨٢٨ ، كان خليقاً بأن يحسب أنه يسمع تولوميبس عام ١٨١٧ . كل ما في الأمر أن كورفيراك كان فني شجاعاً . فورا المشابه الظاهرية في العقل الخارجي كان ثمة فرق كبير بينه وبين تولوميبس . إن الرجل الكامن في كل منهما غيره في الآخر تماماً . كان في تولوميبس محام ، وكان في كورفيراك فارس مغامر .

كان آنجولراس هو الزعيم ، وكان كومبوفير هو الهادي ، وكان كورفيراك هو المركز . كان رفيقاه يرسلان نوراً اقوى من نوره ، على حين كان يرسل هو حرارة اقوى من حرارتها . والحق انه كان يجمع صفتي المركز كليهما : الاستدارة والاشعاع .

وكان باهوريل قد شارك في شغب حزيران ١٨٢٢ الدامي بمناسبة دفن « لالمان » الفني .

وكان باهوريل مخلوقاً دمث الاخلاق ، رديء العشرة ، شجاعاً ، مبذراً ، متلافياً حتى الجلود ، ثثاراً حتى الفصاحة ، جسوراً حتى القحة . كان خبير عجيبة يمكن أن يكون منها شيطان ؛ وكان ذا صدقات مجازفة ، وآراء

قرمزية ؛ وكان صخاباً من النوع الرفيع ، يعني انه لا يجب شيئاً حبه
 للشجار اذا لم يكن ذلك الشجار شغباً ، ولا يجب شيئاً حبه للشغب اذا
 لم يكن ذلك الشغب ثورة . كان مستعداً دائماً لان يكسر احدى
 بلاطات الشارع ، ولأن مجرد الشارع بعد ذلك من بلاطه كله ، ولأن
 يقوّض الحكومة بعد هذا وذاك ، لكي يرى اثر صنيعه . تلميذ في السنة
 الحادية عشرة . لقد اتخذ هذا الشاعر : لن اكون محامياً ابداً .
 واصطنع هذا الرمز : طاولة للوازم النوم كان المرء يلج فوقها فلتسوة
 مربعة . وكان كلما مرّ بمدرسة الحقوق ، وهو امر نادر ، يزور سترته
 الطويلة - فلم يكن المعطف قد اخترع بعد - ويتخذ احتياطات صحية .
 وكان يقول عن باب المدرسة الرئيسي : يا له من عجوز جميل ! وعن عميد
 المدرسة ، مسيو ديلفينكور : يا له من أثر نفيس ! كان يرى في دروسه
 موضوعات للاغاني ، وفي اساتذته مناسبات لرسم الصور الكاربتورية .
 وكان يستهلك في القيام بلا شيء جمالة سنوية تبلغ نحواً من ثلاثة آلاف
 فرنك . وكان أبواه ريفيين وفتق الى ان يوقع في نفسها احتراماً لابنهما .
 كان يقول عنها : « انها فلاحان ، لا بورجوازيان ، وهو ما يفسر ذكاءهما . »
 وكان باهوريل - وهو رجل غريب الاطوار - موزعاً في قهوات
 عدة . كانت لسائر رفاقه عادات ، اما هو فلم يكن له شيء من ذلك .
 كان يتسكع . ان الهيام على الوجه إنساني . أما التسكع فباريسي . وكان
 في اعماقه عقلاً فافذاً ، وكان مفكراً اكثر مما يبدو لعين الناظر .
 كان أشبه بهمة وصل بين « اصدقاء الالفباء » وجماعات اخرى لما
 يكتمل تشكلها بعد ولكنها كانت في سبيلها الى ذلك .
 وفي هذا الجمع من الرؤوس الفضة كان رأس أصلع .
 روى المركيز دافاري الذي خلغ عليه لويس الثامن عشر لقب دوق
 لأنه ساعده على ركوب احدى عربات الاجرة يوم هاجر من البلاد ، ان
 رجلاً قدّم عريضة الى الملك ، عام ١٨١٤ ، فيما كان يظأ ارض كاليه

عائداً الى الوطن .

وقال الملك :

- « ماذا تريد ؟ »

- « ادارة بريد ، يا مولاي . »

- « ما اسمك ؟ »

- « ليغل » L'Aigle (النسر) .

وزوى الملك ما بين حاجبيه * ، ونظر الى التوقيع الذي مهرت به العريضة ، فرأى الاسم مرسوماً هكذا : ليغل Lesgle ففسر الملك لهذا الرسم غير البونابرتي ، وشرع يتسهم . واستأنف صاحب العريضة كلامه :

- « مولاي ، لقد كان جدي مدرّب كلاب يُلقب بـ « ليغول » Lesgueules (الاشداق) . ولقد أمسى هذا اللقب اسماً لي . فأنا ادعى ليغول ، أو ليسغل ** Lesgle عند الأديام ، وليغل L'Aigle عند التحريف . »

وهنا أنهى الملك ابتسامته . وفي ما بعد ، عثّن الرجلَ مديراً للبريد في « مو » ، إما سهواً أو قصداً .

وكان عضو الندوة الأقرع ابن ليسغل هذا ، أو ليغل ؛ وكان يوقع اسمه ليغل (دو مو) . وكان رفاقه بدعونه ، رغبةً في الایجاز ، بوسويه .

كان بوسويه فنّاً مرحاً قليل الحظ . وكان اختصاصه هو عدم النجاح في أيّ شيء . ومن ناحية ثانية ، كان يسخر من كل شيء . وفي الخامسة والعشرين أمسى أصلع . وكان ابوه قد توفي ، مختلفاً بيتاً وحققاً . ولكنه ، هو الابن ، لم يجد ما هو أكثر إلحاحاً من إضاعة

* لان « النسر » شعار نابوليون بونابرت ورمزه .

** البين هنا تُوسم ولا تلفظ .

هذا الحقل وذلك البيت في مضاربة طائشة . ولم يبقَ لديه شيء . وكان على مقدار صالح من المعرفة والذكاء ، ولكنه كان يخيب دائماً . كان كل شيء يُعوزه ، وكان كل شيء يخذعه . فما إن يقيم بناء حتى ينهار على رأسه . فاذا ما شقّ قطعة من خشب ، قطع إصبعه . واذا ما كانت له خلية ، اكتشف وشيكاً ان له صديقاً أيضاً . وكلّ لحظة كان يُلمّ به بلاء ؛ ومن هنا مرّحه . وكان يقول : « أنا أحيأ تحت سطح القرميد المتساقط . » وإذا كان يتوقع دائماً وقوع حادث ما ، فلم يكن ليدهش إلا نادراً . وكان يتقبّل الحظ السيء في طمأنينة ، ويتسم لناكذات القدر مثل رجل يسمع الدعايات والاضاحيك . كان فقيراً ، ولكن جمعته من البشاشة ودماثة الاخلاق لم تكن تنضب . كان ينتهي مريعاً الى فلسفهِ الأخير ، ولكنه ما كان ينتهي ابدأ الى ضحكته الاخيرة . وكان اذا ما وفدت المصيبة عليه سلم في تودّ على ذلك الصديق القديم . كان يربّت على ظهر الكوارث ، فقد كان يألف القدر الى حدّ جعله يناديه بلقبه ، فهو يقول : « صباح الخير ، ايها العبقري العجوز ! »

وكانت اضطهادات الحظّ هذه قد جعلته ذا موهبة اختراعية . كان كثير الموارد . لم يكن يملك شيئاً من المال ، ولكنه كان يجد الوسيلة ، حين يبدو ذلك صالحاً في نظره ، الى أن يغالي في « الأنفاق الجوح » . وذات ليلة ، ذهب الى حد انفاق مئة فرنك على عشاء مع فتاة بلهاء ثرثارة ، وهو ما أوحى اليه ، في غمرة من الافراط في الأكل والسكر ، بهذه الكلمة المأثورة : « يا ابنة الليرات الذهبية الخس ، إخلمي حذائي من قدمي ! »

واتخذ بوسوويه سبيله ، في تودّة ، نحو مهنة الحمامة ؛ فقد كان يدرس القانون على طريقة باهوريل . ولم يكن لبوسوويه بيت ، تقريباً . ولم يكن له في بعض الاحيان بيت البتة . كان يُقيم احياناً عند هذا ،

ويقيم أحياناً عند ذلك ، وغالباً ما كان يقيم عند جولي . وكان جولي هذا يدرس الطب ، وكان يَصْغُرُ بوسوويه بسنتين . وكان جولي « مريض وهم » * شاباً . لقد أفاد من الطب ما جعله مريضاً أكثر منه طبيباً . وفي الثالثة والعشرين ، حسب نفسه ، مراضاً ، وأنفق أيامه في النظر الى لسانه في المرآة . كان يعلن ان الانسان يَمْنَعُ مثل ابرة البوصلة ، وهكذا كان يجعل رأس سريره ، في حجرة نومه ، الى الجنوب وقدمه الى الشمال لكي لا يعترض تيار الكرة الارضية المغناطيسي حركة الدم ، عنده ، في اثناء الليل . وفي ايام الجوّ العاصف ، كان يحس نبضه . ومع ذلك فقد كان أشدّهم مرحاً . وانما اجتمعت هذه المتنافرات كلها - شاب ، أهوَس ، معتلّ الصحة ، مراح - وتناغمت ، لتولّد كائناً غريب الأطوار قريباً الى النفس . كان رفاقه المسرفون في اصطناع الحروف الساكنة المجنّحة يدعونه جولللي . وكان جان بروفيير يقول : « في استطاعتك ان تطير على أربع لامات » * .

وكان من عادة جولي ان يحك أنفه بطرف عصاه ، وهي أمانة على العقل الحصيف .

وكان لهؤلاء الشبان كلهم الشديدي التباين ، والذين يتعبين علينا ان لا نتكلم عنهم ، في الجملة ، إلا حديثاً جدياً - نقول كان لهؤلاء الشبان كلهم دين واحد ، هو التقدم كانوا كلهم أبناء مباشرين للثورة الفرنسية . وكان اكثرهم طيشاً يغلب عليهم الخشوع حين يُلفظ هذا التاريخ : ٨٩ . صحيح أن آباءهم ، باللحم والدم ، كانوا أو سبق أن كانوا من الدستوريين المعتدلين ، أو

* *Malade Imaginaire* ، وهي آخر مسرحيات موليير .

** *Quatre L* . واذا عرفت أن كلمة *oile* الفرنسية التي تلفظ كما يلفظ حرف *L* تماماً معناها « الجناح » ادركت التورية في كلام بروفيير ذلك .

الملكيين ، أو المتحررين المعتدلين ، ولكن ذلك ما كان ليقدّم او ليؤخر كثيراً . إن هذه النوضى السابقة لأيامهم لم يكن لها اية صلة بهم ، فقد كانوا شباباً . كان دم المبادئ الصّرف يجري في عروقهم . لقد تعلقوا ، من غير ما فارق دقيق متوسط ، بالحق الذي لا يبلى ، وبالواجب المطلق .

وإذ انضوا تحت لواء واحد وثقفوا بثقافة جمعيتهم الواحدة فقد رسموا مثلهم الأعلى ، سرّاً ، رسماً خفيفاً .

وبين هذه القلوب السريعة الانفعال كلها ، وهذه العقول المؤمنة كلها ، كانت ثمة متشكك واحد . كيف اتفق أن يُوجد هناك ؟ بحكم التجاور . وكان اسم ذلك المتشكك غرانتير ، وكان يوقع عادةً بهذا الرسم الرمزي R * . وكان غرانتير رجلاً يُعنى عنايةً شديدة بأن لا يؤمن بأي شيء . والى هذا ، فقد كان من الطلاب الذين أفادتهم فترة الدراسة في باريس علماً غزيراً : لقد تعلّم أن القهوة الفضلى كانت تقدّم في مقهى لامبلين ؛ وأن طاولة البليارد الفضلى كانت في مقهى فولتير ، وأنه كان في ميسورك ان تجد الكهك الجيد والفتيات الحسان في « الخلوة » في « جادة مين » ، والدجاج المشوي في مطعم الأم ساغيه ، والسك المطبوخ بالسمن وشيء من المعجن والحمر في باب لاكونيت ، وضرباً من الصبأ الخفيفة في باب كومبا . كان يعرف المواطن الممتازة ، التي يُلبس فيها كل شيء . والى هذا ، فقد كان يعرف الملاكمة ، والتنس ، وبعض الرقصات ، وكان الى هذا يجيد اللعب بالنبوت ، سكيراً ، ضخماً . كان قبيحاً الى حدّ مروع . والواقع ان ايما بواسي ، اجهل مضربة للاحادية العالية في ذلك العهد ، كانت قد نطقت بهذه الجملة ، وقد ثارت على قبحه : « إن غرانتير شخص ميؤوس منه » ، ولكن

* ذلك ان هذا الحرف ، مرسوماً بشكله الكبير ، يُلفظ بالفرنسية هكذا : Grand R. ومن هنا نفهم لماذا كان غرانتير يوقع اسمه بهذا الحرف R ليس غير .

اختيال غرانتير لم يعرف الحيرة والارتباك . كان ينظر ، في حناث
وفي تركيز ، الى كل امرأة ، وقد بدا كأنه يقول فيهنّ جميعاً :
لو كنتُ أَرْضَى فقط ! وكأنه يحاول ان يوقع في روع رفاقه انه مهوى
أفئدة النساء جميعاً .

هذه الكلمات كلها : حقّ الشعب ، حقوق الانسان ، المقعد الاجتماعي ،
الثورة الفرنسية ، الجمهورية ، الديمقراطية ، الانسانية ، الحضارة ،
الدين ، التقدّم ، كانت عند غرانتير اقرب شيء الى الكلام الفارغ
الذي لا يعني شيئاً البتة . كان يسخر منها . ذلك أن التشكك - هذا
التسوس الذي بصيب الفكر - لم يُبتق في عقله فكرةً كاملةً واحدة .
كان يجيا في سخر . وكانت هذه هي الحقيقة البديهية عنده : ليس هناك
غير شيء يقينيّ واحد هو كأسى المترعة . كان يهزأ بالتفاني مهما تكن
ظروفه وسواء أكان الباذلُ نفسه أماً أباً ، وبسيير الفتى ، أم
لوايزبول . كان يصيح : « لقد تعجبوا موتهم كثيراً . » وكانت يقول
عن الصليب : « تلك مشنقةٌ اقتوتت بنجاح عظيم . » وكان يثير استياء
هؤلاء المفكرين الشباب - وهو الفاسق ، المقامر ، الخالع العذار ،
الثيل في معظم الاحيان - بأنشاده على نحو موصول : « أحب اللقيات ،
وأحب الخمر المعتقة . » على نعم : « فليحيّ هنري الرابع . »

ومع ذلك ، فقد كان لهذا المتشكك عصبية . ولم تكن هذه العصبية
لا فكرةً ولا عقيدةً جوهرية ، ولا علماً من العلوم . كانت رجلاً ، هو
آنجلوراس . لقد اعجب غرانتير بآنجلوراس ، وأحبه ، وكلف به . الى
من شد هذا المتشكك الفوضويّ نفسه في هذه الكتيبة من العقول
الجازمة ؟ الى اكثرها جزءاً . وبأي وسيلة أخضعه آنجلوراس ؟ بالافكار ؟
لا . بالشخصية . ظاهرة كثيراً ما نلاحظ . متشكك يشايح مؤمناً ، ذلك
شيء سهل مثل قانون الألوان المتممة . إن ما يعوزنا يجذبنا . وليس ثمة
من يجبّ النور بقدر ما يحبه الاعمى . والقزم يعبد رئيس الطبايين . إن

ضفدع الجبل يتطلع ابدآ الى السماء . لماذا ؟ لكي يرى العصفور طائرآ .
لقد كان غرانتير ، الذي دبّ الشك في ذات نفسه ، يجب ان يرى الايمان
يخلق في ذات نفس آنجولراس . ان تلك الطبيعة العفيفة ، السليمة ، الثابتة ،
المستقيمة ، القاسية ، الساذجة قد فتنته ، من غير ان يفهم ذلك في وضوح ،
ومن غير أن يحاول شرحها لنفسه . لقد أعجب ، بحكم الغريزة بنقيضه .
لقد تعلق افكاره الرخوة ، المتذبذبة ، المتفككة ، المريضة ، المشوهة ،
بآنجولراس وكأنها تتعلق بعمود فقري . ان سلسلة ظهره الاخلاقية قد
انكأت على تلك الصلابة الراسخة . وفي جوار آنجولراس ، أمسى غرانتير
شخصاً ما ، من جديد . وكان هو نفسه ، الى ذلك ، مؤلفاً من عنصرين
متنافرين ظاهرياً . كان ساخرآ وودودآ . وكانت لامبالاته محبة . لقد
استغنى عقله عن الايمان ، ولكن قلبه لم يستغن عن الصداقة . تناقض
عميق ، ذلك بأن المحبة يقين . كانت طبيعته هكذا . إن ثمة رجالاً يبدون
وكانهم ولدوا لكي يكونوا الوجه المقابل ، الظهر ، القفا . انهم بولوكس*
وباتروكلوس** ونيوس*** وأوداميداس ، وإيفيستيون ، وبيشيما .
إنهم لا يجيئون إلا اذا امتدوا الى شخص آخر . وهم يُدعون ثنات ، ولا
يذكر اسم كل منهم إلا مسبقاً بواو العطف . ان وجودهم ليس ملكاً
لهم . انه الجانب الآخر من مصير ليس مصيرهم . لقد كان غرانتير واحداً
من هؤلاء الرجال . كان وجه آنجولراس الآخر .

* Castor و Pollux بطلان ميولوجيان ، كانا ولدين توأمين لجوبيتير و « ليدا »
وُجمِع ما بين هذين الاسمين عادة كرمز للمحبة .
** Patroclus بطل اغريقي ، كان صديقاً لآخيل ، وقد لحق به عند حصار طروادة
وحين رفض آخيل القتال ، لاستيائه من اغاممنون حل باتروكلوس عمله وقاتل الطرواديين
حتى قتل ، وعندئذ عاد آخيل فانضم الى صفوف الاغريق لكي يثأر له .
*** Nisus طروادي شاب تبع « إينيه » الى ايطالية ، وقد خلدت محبته لـ «أوريال »
الشاعر فيرجيل في الكتاب التاسع من الانبادة . وقد اصبح اسما نيسوس واوريال مثلاً
في الصداقة الخلسة حتى الموت .

ويكاد يكون في استطاعتنا ان نقول ان القرابات تبدأ باحرف
الانقباء . ففي تسلسل هذه الاحرف لا تنفصل الـ o عن الـ p البتة . وفي
ميسورك ، اذا احببت ، ان تلفظ o و p ، أو « أوربست »
و « بيلاديس » * .

وعاش غرانتير ، وكان قمرأ دائراً في فلك آنجولراس حقاً ، في هذه
الحلقة من الفتيان . لقد سكن هناك ، ولم يكن ليجد المتعة إلا هناك .
كان يتبع هؤلاء الفتيان حينما ذهبوا ، وكان قوام بهجته ان يرى هذه
الاشكال المظلمة تروح وتجيء من خلال أثر الحجر في رأسه . وكانوا
يحتملونه لبشاشته ودماثة خلقه

واذ كان آنجولراس مؤمناً ، فقد ازدرى هذا المتشكك ، واذا كان
زاهداً في الشراب ، فقد احنقر هذا الكبير . لقد جاد عليه بشفقة يسيرة
متشاحمة . كان غرانتير شبه بيلاديس غير مقبول البتة . كانت يلقى من
آنجولراس معاملة قاسية دائماً ، وكان يُصد في خشونة ، وكانت يُبعد ثم
لا يلبث ان يعود ، وكان يرغم ذلك يقول عن آنجولراس : « يا له من
تمثال رائع ! » .

* Oreste ابن اغاممنون وكليتمنيستر ، ولا تزال صداقته مع بيلاديس Pylades
البطل الفوسيدي (نسبة الى فوسيديا وهي مقاطعة في بلاد اليونان القديمة) «ضرب
الامثال .

و ذات أصل كان له ، كما سنرى ، بعض الموافقة الزمنية للاحداث التي رويها آنفاً ، أسند ليغل دو مو ، ظهره في تكاسل الى مدخل مقهى الموزين . كانت تبدو عليه سجا « كارباتيد » * في إجازة . إنه ما كان يُقلّ شيئاً غير هواجسه وأحلامه . كان ينظر الى ساحة سانت ميشيل . والواقع أن إسناد الظهر الى باب او جدار ضرب من الاضطجاع الواقف لا يكرهه الحالمون البتة . وإنما كان ليغل دو مو يفكر ، في غير كتابة ، بمصيبة صغيرة ألمت به أمس الأول في مدرسة الحقوق ، وعدلت خطط مستقبله الشخصية ، وهي خطط كانت ، في الأصل ، غير محددة ولا واضحة .

والاستغراق في التفكير لا يمنع عُجْبِيَّة من المرور ، ولا يحول بين الحالم وبين رؤية العجيلة . وهكذا لاحظ ليغل دو مو التائه العيين في ضرب من التسكع المُسَهَّب -- لاحظ من خلال تلك التبدلة ** - عُجْبِيَّة ذات دولابين تنعطف نحو الساحة ، وتمضي في مثل سرعة الخطو وكأنها مترودة متحيرة . ما الذي كانت تريد تلك العجيلة ؟ لم كانت تمشي في مثل سرعة الخطو ؟ ونظر ليغل اليها . كان في داخلها ، الى جانب السائق ، شاب ، وكان أمام الشاب كيس أمتعة ضخم . وكان ذلك الكيس يُبدي لأعين عابري السبيل هذا الاسم : مارويوس بوغيرمي مكتوباً بأحرف سوداء على بطاقة مخططة فوق القماش .

* الكارباتيد cariatides تماثل على هيئة امرأة او رجل كان الاغريق يتخذون منها دعائم للافاريز في مبانيهم وهياكلهم .
** التبدلة : المتى اثناء النوم ، وهو ما يعرف في اللغات الاجنبية بـ Somnambulisme

وغتير هذا الاسم وضع ليغل . لقد تصدّر وألقى بهذا السؤال
المفاجيء في وجه الشاب الذي في العجيلة :

- « مسيو ماريوس بونغيرسي ؟ »

ووقفت العجيلة التي ووجه إليها السؤال .

ورفع الشاب ، الذي بدا مستغرباً في التفكير أيضاً ، عينيه وقال :

- « نعم ؟ »

- « ألت مسيو ماريوس بونغيرسي ؟ »

- « من غير شك . »

وأضاف ليغل دو مو :

- « كنتُ ابحثُ عنك . »

- « كيف هذا ؟ » كذلك تساءل ماريوس ، إذ كان هو في

الواقع قد فارق منزل جده ، وكان أمامه وجه رآه للمرة الأولى .

« انا لا أعرفك . »

فاجابه ليغل :

- « وانا أيضاً لست أعرفك . »

وحسب ماريوس انه قد التقى بماجن مزاج ، وان تلك بداية مخاتلة

ساخرة على قارعة الطريق . ولم يكن على مزاج رائق في تلك اللحظة

عينها . فزوى ما بين حاجبيه .

وتابع ليغل دو مو رابطاً الجأش :

- « أنت لم تكن في المدرسة امس الأول ؟ »

- « ذلك جائز . »

- « هذا مؤكد . »

فسأله ماريوس :

- « هل أنت تلميذ ؟ »

-- « نعم ، ياسيدي . مثلك . امس الأول ، اتفق ان ذهبتُ

الى المدرسة . تدري ، إن مثل هذه الافكار تراود المرء في بعض الاحيان . وكان الاستاذ على وشك ان يدعو كل طالب باسمه . وانت لا تجهل انهم يكونون مضحكين جداً في تلك اللحظة . فاذا لم تلب النداء في المرة الثالثة حذفوا اسمك . ستون فرنكاً تذهب مع الريح . ، وبدأ ماريوس يصفي . وتابع ليغل كلامه :

- وكان بلوندو يتلو الاسماء . انت تعرف بلوندو . إن له أنفأ محدداً جداً ، خبيثاً جداً ؛ وإنه ليبتهج حين يشم رائحة الفالين من الطلاب . لقد بدأ ، في مداراة ، بالحرف ط . ولم أكن أصفي ، لانني ما كنت لأعنى بذلك الحرف . وسارت عملية المناذاة سيراً حسناً . ولم يُنحَ أيما اسم . كان للكون كله حاضراً ، وكان بلوندو محزوناً ، وقلت في ذات نفسي : بلوندو ، يا حبيبي ، إنك لن توفتني إلى اصدار أصغر حكم من أحكام الاعدام اليوم . وفجأةً ، نادى بلوندو : ماريوس بوغيسي ؟ ولم يُجِبْ أحد . وغمز الأمل قلب بلوندو فكرو في صوت أقوى : ماريوس بوغيسي . وأمسك بريشته . سيدي ، إن فؤادي عامر بالحب . وسرعان ما قلت في نفسي : هو ذا فتى شجاع سوف يُبقي اسمه . إنته . انه شاب مرحٌ حقاً لا يعرف الدقة في المواعيد . إنه ليس غلاماً صالحاً . إنه ليس سوسة كتب ؛ تلميذاً يدرس ؛ مدعياً غرّاً من مدعي العلم الاغرار ؛ قوياً في العلوم ، والآداب ، واللاهوت ، والحكمة ؛ واحداً من تلك الجماجم البلهاء الشديدة التأثق حتى لكأنها مشدودة بأربعة دبابيس ؛ لكل مقدوة دبوس . كان كسولاً شريفاً يتسكع ؛ يجب ان يصطاف ؛ يواظب على معاشره العاملات ذوات الفنج والدلال ؛ يتزلف إلى الحسان ؛ ولعله ان يكون في هذه اللحظة ذاتها عند خليلتي . فلتنقذه . الموت لبلوندو ! وفي تلك اللحظة غمس بلوندو ريشته ، السوداء من أثر المحو ، في الحبر ، وأجال حدقته الصهباء في القاعة ، وكرّر للمرة الثالثة : ماريوس بوغيسي ! واجبت : حاضوا ! وهكذا لم يُنحَ اسمك . ،

فقال ماريوس :

- « سيدي ! ... »

واضاف ليغل دو مو :

- « وُحَيَّ اسمي أنا . »

فقال ماريوس :

- « أنا لا أفهمك . »

واستأنف ليغل كلامه :

- « ليس ما هو اسهل من ذلك . لقد كنتُ قريباً من الكرسي ، لكي أجيب ، وقريباً من الباب لكي أفرّ . كان الاستاذ ينظر الي في شيء من التركيز . وفجأة وثب بلوندو - الذي ينبغي ان يكون الأتفّ الماكر الذي تحدث عنه برالو - الى الحرف z . والحرف z هو حرفي . أنا من « مو » واسمي هو ليسغل . »

فقاطعه ماريوس :

- « ليغل ! ياله من اسم جميل ! »

- « سيدي ، لقد وصل بلوندو الى هذا الاسم الجميل وصاح :

« ليغل ! » فأجبت : حاضر ! وعندئذ نظر بلوندو اليّ في وقة النمر ،

وابتسم ، وقال : « اذا كنتَ بونغيرمي ، فلستَ ليغل . » وهي عبارة

قد لا تسرك ، ولكنها لم تكن مأثمةً إلا بالنسبة اليّ . فما إن قال

ذلك حتى سما اسمي . »

فهتف ماريوس :

- « سيدي ، لقد أحزنتني ... »

فقاطعه ليغل :

- « قبل كل شيء ، ألتمس أن احتط بلوندو بيبضع كلمات من

الرتاء الصادق القوي . أنا أحسبه ميتاً . ولن يكون ثمة كثيرٌ مما ينبغي

أن يُغيّر في نحوه ، وشعوبه ، وبرودنه ، وتوتره ، ورائحته . وأنا

أقول *Erudimini qui iudicatis terram* هنا يرقد بلوندو ، بلوندو الأنف ، بلوندو نازيكا * ، ثور النظام ، *bos disciplinae* ، كلب الاوامر الحارس ، ملاك المنادة على اسماء الطلاب ، الذي كان مستقيماً ، مرتباً ، دقيقاً ، قاسياً ، أميناً ، سمجاً . لقد مجاه الله كما محاني .

وأردف ماريوس :

- « أنا آسف جداً ... »

فقال ليغل دو مو :

- « أيها الفتى ، ليكن ذلك درساً لك . في المستقبل ، كن دقيقاً

في مواعيدك . »

- « الحقّ ان عليّ ان أقدم اليك ألف عذر . »

- « حذار ان تعرض نفسك لأن تكون سبباً في محو اسم جارك ،

مرةً اخرى . »

- « أنا آسف جداً . »

وانفجر ليغل ضاحكاً .

- « وأنا في طربٍ بالغ . لقد كانت قدمي على وشك أن تزلّ في

منحدر الحمامة . فجاه هذا الشطب فأنقذني . إني اتخلى عن انتصارات

الحمامة . أنا لن ادافع عن الارملة ، ولن اهاجم اليتيم . لا «روب»

بعد اليوم ، ولا فترة تدرّج . ها قد تمّ شطب اسمي . وإني لمدين

لك بذلك ، يا مسيو بونغيرمي . أنا اعتزم أن ازورك ، في كثير

من الوقار ، وارفع اليك آيات شكري . ابن تسكن ؟ »

فقال ماريوس :

- « في هذه العجيلة . »

فأجاب ليغل في هدوء :

- « ذلك دليل سعة وثروة . اهنتك . إن عندك هناك بيتاً تبلغ

* من كلمة *nasus* اللاتينية ، وتعني الأنف .

أجرته تسعة آلاف فرنك سنوياً . «
وفي تلك اللحظة خرج كورفيراك من المقهى .
وابتسم ماريوس في كآبة .
- « كنت في ذلك البيت منذ ساعتين ، وإني لأتمنى ان أعادره .
ولكنها القصة المعتادة ، أنا لا أدري الى أين أذهب . »
فقال كورفيراك :
- « ايها السيد ، تعال الى منزلي . »
فلاحظ ليغل :
- « كان ينبغي ان يكون لي حق الاولوية ، ولكنني لا منزل لي . »
فأجاب كورفيراك :
- « اسكت ، يا بوسوويه ! »
فقال ماريوس :
- « بوسوويه ، ولكنني ظننت انك تدعو نفسك ليغل . »
فأجاب ليغل :
« ليغل دو مو . وفي المجاز ، بوسوويه . »
ودخل كورفيراك العجيلة .
وقال :
- « الى اوتيل دو لا بورت سان جاك ، ايها السائق . »
وفي ذلك المساء نزل ماريوس في غرفة من غرف اوتيل دو لا بورت
سان جاك ، جنباً الى جنب مع كورفيراك .

٣

دهش ماريوس

ولم تنقض بضعة ايام حتى امسى ماريوس صديق كورفيراك .

فالشباب هو موسم الامزجة * اللاحمة ، والالتامات السريعة . وتنفس ماريوس ، وهو في جوار كورفيراك ، في حرية - وهو شيء جديد بالنسبة اليه . ولم يوجه كورفيراك اليه أيما سؤال . بل إنه لم يفكر في ذلك البتة . ففي تلك المرحلة من العمر يُفصح المحيّا عن كل شيء في الحال . إن الكلام لا غناء فيه . وهناك بعض الشباب الذين نستطيع ان نقول ان وجوههم ثرثرة . ينظر احدهم الى الآخر ، فيمرف احدهم الآخر .

ومع ذلك فقد وجه اليه كورفيراك هذا السؤال ، ذات صباح ، على نحو مفاجيء :

- « بالمناسبة ، هل لك رأي سياسي ؟ »

فقال ماريوس وقد غاظه السؤال أو كاد :

- « ماذا تعني ؟ »

- « ما أنت ؟ »

- « ديموقراطي بونابرتي . »

فقال كورفيراك :

- « ظلُّ أشهب للون فأرة مطشنة . »

وفي اليوم التالي قدّم كورفيراك ماريوس الى مقهى الموزين . ثم هس في أذنه مبتسماً : « يجب ان افتح لك باب الثورة . » وقاده الى حجرة « أصدقاء الالفباء » ، حيث قدّمه الى سائر الاعضاء قائلًا في صوت كالمس هذه الكلمة البسيطة التي لم يفهمها ماريوس : « تلميذ . » كان ماريوس قد وقع في وكرٍ عقليّ . ومع انه كان صموتاً آخذاً بأسباب الجدّ ، فإنه لم يكن اوهمهم جناحاً ولا أقلّهم سلاحاً .

وإذ كان ماريوس ، حتى ذلك الحين ، متوحّداً نزوعاً الى مناجاة النفس

* الامزجة ، هنا ، جمع مزاج ، وهو ما يُمزَج به .

وتوجيه الخطاب الى الذات بسائق العادة والذوق ، فقد اخذه شيء من
الذهول لدن رؤيته هذه الجماعة من الشبان حوله . لقد هاجته هذه
المبادرات المختلفة ، في آن معاً ، وأربكته . إن الحركة الدائمة الصاخبة
التي تكشفت عنها هذه العقول المتحررة العاملة قد أثارت افكاره وعصفت
بها . وفي غمرة من الاختلاط ، بعض الاحيان ، كانت تلك الأفكار
تنأى عنه الى حد يجعل من المسير عليه ان يعثر عليها ككرة اخرى .
كان يسمع أحاديث في الفلسفة ، والادب ، والفن ، والتاريخ ،
والدين ، في اسلوب غير منتظر . لقد لمح مظاهر غريبة ؛ وإذ لم يكن
يتوقعها فيما كان واثقاً من ان ما يراه ليس مجرد تشوش . لقد ظن ،
حين تخلى عن معتقدات جده ليعتنق معتقدات أبيه أنه قد نعم
بالاستقرار . ولكنه حسب الآن ، في قلق ، ومن غير ان يعترف
بهذا أمام نفسه ، أنه لم يكن كذلك . كانت الزوايا ، التي يرى جميع
الاشياء منها ، قد شرعت تتغير ككرة ثانية . لقد أثارت ذبذبة ما آفاق
دماغه كلها . بلبلة باطنية غريبة . وآذاه ذلك أو كاد .

لقد بدا وكأن هؤلاء الفتيات لم يكن لديهم « أشياء مقدسة . »
ففي كل موضوع من الموضوعات ، سمع ماريوس لغة فريدة مزعجة لعقله
الذي ما يزال هيباً .

وبرز امامهم إعلان من اعلانات المسرح مزدان بعنوان تراجيديا من
القائمة القديمة المسماة كلاسيكية . فصاح باهوريل : « فلننسط التراجيديا
العزيزة على قلب البورجوازي ! ، وسمع ماريوس كومبوفير يجيب :
- « انت مخطيء ، يا باهوريل . ان البورجوازية تحب التراجيديا ،
وفي هذه النقطة يجب ان ندع البورجوازية وشأنها . إن للتراجيديا ذات
اللمة المستعارة مبرر وجودها ، وأنا لست واحداً من اولئك الذين
ينكرون عليها ، باسم أشيلوس ، الحق في الحياة . إن في الطبيعة
رسوماً أولية . وإن في البرايا تحريفات جاهزة . منقار ليس من المناقير

في شيء ، اجنحة ليست من الاجنحة في شيء ، زعانف ليست من الزعانف في شيء ، مخالب ليست من المخالب في شيء ، وصيعة فاجعة تغرينا بالضحك - تلك هي البطة . والآن ، ما دام الطائر الداخن يحيا جنياً الى جنب مع العصفور ، فلست ارى لماذا لا ينبغي للتراجيديا الكلاسيكية ان توجد في وجه التراجيديا العتيقة . »

وفي مرة اخرى اتفق ان كان ماريوس يجتاز شارع جان جاك روسو بين آنجولراس وكورفيراك .
وامسك كورفيراك بذراعه :

- « انتبه . هذا شارع بلاتريير ، المسمى اليوم شارع جان جاك روسو بسبب من أسرة غريبة عاشت فيه لستين عاماً خلت . كانت مؤلفة من جان جاك وتيريز . وبين الفينة والفينة كانت كائنات صغيرة تولد هناك . كانت تيريز تجيء بهم ، وكان جان جاك يُعدهم . »
فأجابه آنجولراس في قسوة :

- « لزم الصمت أمام جان جاك ! أنا عظيم الاعجاب بذلك الرجل . لقد أنكر أولاده ؛ حسنٌ جداً ، ولكنه نبئى الشعب . »
ولم ينطق اىّ من اولئك الفتيان بهذه اللفظة : الامبراطور . كان جان بروفير وحده يقول في بعض الاحيان : نابوليون . أما سائر الجماعة فكانوا يقولون : بونابرت . وكان آنجولراس يلفظها هكذا : بونونابرت .

ودهش ماريوس والتبس عليه الامر . * *Initium Sapientiae*

* في اللاتينية ، ومعناها : اول الحكمة : او رأس الحكمة .

الحجرة الخلفية في مقهى الموزين

ومن بين الاحاديث التي دارت بين هؤلاء الفتيان ، على مسمع من ماريوس ، والتي شارك هو فيها بعض الاحيان ، حديثٌ أصابه بهزة عنيفة .

دار ذلك الحديث في الحجرة الخلفية من مقهى الموزين . وكانت و اصدقاء الالفباء ، كلهم مجتمعين ذلك المساء . وأضيء المصباح الكبير في احتفال . وتحدثوا في موضوعات مختلفات ، من غير ما انفعال ، وفي ضجة . وباستثناء آنجولراس وماريوس ، اللذين لزموا الصمت ، ألقى كل منهم ، كيفما اتفق ، خطاباً صغيراً . ان محاورات الرفاق تُنتج في بعض الاحيان هذا الصخب الدمث . كان لعباً وفوضى بقدر ما كان حديثاً . وكان الواحد منهم يقذف بكلماتٍ ما يلبث الآخر ان يتلقفها . لقد تحدثوا في كل من الزوايا الاربع .

ولم يكن يجاز لأي من النساء ان تدخل الى هذه الحجرة الخلفية ، ما خلا لوزون غاسلة الاطباق في المقهى ، التي كانت تجتازها بين الفينة والفينة لكي تمضي من المفصل الى « الختبر » .

وكان غرانتير ، وقد تمتعه السكر ، يُصمّ الزاوية التي بسط سلطانه عليها . كان يتحدث بأعلى صوته حديثاً بعضه معقول وبعضه هراء . لقد صاح :

« انا ظمىء . ايها الفانون ، لقد حلت حلاً : أن دنّ هايدلبرغ قد أصيب بالسكتة ، واني دزينة العلاقات التي اصطنعت في علاجه . أنا ابتغي الشراب ، انا اريد ان انسى الحياة . ان الحياة اختراع بشع لست ادري

صاحبه . إنها لا تدوم ، وهي لا تساوي شيئاً . وكل منا يدق عنقه لكي يعيش . الحياة مشهد تمثيلي ليس فيه غير قليل من محتمل الوقوع . والسعادة إطار عتيق دهن من جانب واحد . يقول « سفر الجامعة » : كل شيء باطل . انا اتفق مع هذا الرجل الصالح الجائز ان لا يكون قد وُجد قطّ . إن الصفر ، وقد رغب عن العري الكامل ، قد ألبس نفسه رداء الباطل . اوه ، ايا الباطل ! ترقيق كل شيء بالكلمات الضميمة ! المطبخ مختبر ، والراقص استاذ ، والمشعوذ محترف رياضة بدنية ، والملاكم ملاكم ، والصيدلي كيميائي ، والحلاق فنان ، والمتوكل معمار ، وفارس السباق رياضي ، وقتل الحشْب ظفر غصنيّ . والباطل له قفا وله وجه ، فالوجه أحق ، إنه الزنجي مجرّمه . والتقا أبه ! إنه الفيلسوف بأسماله البالية . انا أرثي لأحدهما . وأضحك من الآخر . وما يدعونه المراتب والمناصب ، وحتى العزّة والعظمة هي عادةٌ ذهب زائف . إن الملوك يتخذون من الكبرياء الانسانية لعبة يعيشون بها . فـ « فليقولا » * عيّن أحد الجياد قنصلاً . وشارل الثاني جعل قطعة من لحم صلب البقر فارساً . فسيروا في نظام عسكري بين القنصل إينسيتاتوس ، والبارونة شرمجة لحم البقر . أما قبة الناس الذاتية فلم تعد بعد موضع الاحترام . اسمعوا الى المدائح التي يتبادلها الجيوان . إن البياض قاسر على البياض . ولو كان للزنبقة ان تكلم عن الحمامة إذن لسلفتها بألسنة حداد ! إن المرأة المتطرفة في الورع ، التي تطلق القيل والقال عن امرأة تقية ، هي اشدّ سماً من الصلّ والافعى الزرقاء . من المؤسف اني جاهل ، اذ كان يجدر بي ان اقدم اليكم كثيراً من الشواهد ، ولكني لا أعرف شيئاً . لقد كنت ، مثلاً ، متوقد الذكاء دائماً . فعين كنت تلميذاً عند « غرو » ، كان من

* Caligula امبراطور روماني تولى العرش ما بين عامي ٣٧ و ٤١م وقد بلغ من احتقاره للشعب ان عيّن فرسه ، إينسيتاتوس ، قنصلاً . ولقد قال ذات يوم في كلام له عن رعاياه : « فليعضوني ، ولكن فليهابوني ! » *Oderint dum metuant*

دأبى أن أنفق الوقت في مرقعة التفاح بدلاً من انفاقه في خربشة الصور .
 ولا غرابة ، فالتميز في التصوير (rapin) هو مذكر الاغتصاب (rapine) *
 وفي هذا المقدار من الكلام عن نفسي كفاية . أما أنتم فلا تقولون عني
 شيئاً . إني اهزأ من كالاتكم ، وفضائلكم ، وسجاياكم . فكل سجية
 تنقلب الى نقيضة . المقتصد مجاذي البخيل ، والكرم يتاخم المبتذر ،
 والشجاع يسير جنباً الى جنب مع المتظاهر بالشجاعة ، ومن يقول :
 ووع جداً ، يقول : متكلف في التقوى . إن في الفضيلة من الرذائل
 مثل ما في رداء ذبوجين من الثقوب . بمن تعجبون : بالقتيل ام بالقاتل ،
 بقصر ام ببروتوس ؟ إن الناس على العموم يصفقون للقاتل . مرحى
 لبروتوس ! لقد قتل . تلك هي الفضيلة . فضيلة ؟ لا بأس ، ولكنها
 حماقة ايضاً . إن على هؤلاء الرجال العظام لطخاتٍ عجيبة . قال «بروتوس»
 الذي قتل قيصر كان مغرمًا بتمثال صبي صغير . وكان ذلك التمثال من
 صنع النحات الاغريقي سترونجيليون ، الذي صنع ايضاً تمثال تلك الفارسة
 الباسلة المسماة ذات الساق الجميلة ، Eucnemos ، الذي كان نيرون
 يصطحبه في رحلاته . ولم يختلف سترونجيليون هذا غير تمثالين أقاما
 التناغم ما بين بروتوس ونيرون . كان بروتوس يحب واحداً منها ،
 وكان نيرون يحب الآخر . وما التاريخ كله غير تكرار طويل . إن
 كل قرن من الزمان ينتحل كلام قرن آخر . لقد حدثت معركة مارانغو
 حذو معركة « بيدنا » * . إن توليباك *** كلوفيس وأوستولتيز

* يقصد ان التصوير والاغتصاب من جذر لغوي واحد ، وان في الامكان
 ان يجلّ احدهما محل الآخر . وفي هذا الكلام تلاعب لفظي واضح .

** Pydna احدي مدن مقدونية حيث غلب بولس اميل القائد الروماني ، بيرسيه
 آخر ملوك مقدونية عام ١٦٨ ق . م

*** Tolpiac مدينة في غالة (فرنسا) القديمة حيث انتصر كلوفيس الاول - ملك
 الفرنجة - على اتحاد القبائل الجرمانية المعروف بال « آلمان » Alamans عام

٤٩٦ م .

نابوليون تتشابهان مثل قطرتين من دم . انا لا أقيم كبير وزن للنصر .
فليس شيء أشد حماقة من الفتح والغلبة . المجد الحقيقي هو الاقناع .
ولكن حاولوا الان ان تقيموا الدليل على شيء ! انتم تقنعون بالنجاح
ويا لها من حقارة ! وبالغلبة والنصر ، ويا له من سُقاء ! وأسفاه ،
عبث وجبن في كل مكان . كل شيء يخضع للنجاح ، حتى النحو
* *Si volet usus* ، كذلك يقول هوراس . انا أحتقر ، اذث ، الجنس
البشري . أتريدون ان نهبط من الكلّ الى الجزء ؟ أتريدون ان اشرع
في الاعجاب بالشعوب ؟ ايّ شعب ، من فضلكم ؟ اليونان ؟ إن الاثينيين ،
باريسي العصور القديمة ، قتلوا فوسيون ** ، كما لو قلنا كوليني *** مثلاً ،
وتملقت الطغاة الى درجة جعلت آتاسيفوراس يقول عن بيزيستراتوس **** :
إن بوله يجذب النحل . وطوال خمسين عاماً كان أقدر رجل في بلاد
الاغريق هو النحوي فيلوتاس الذي كان ضئيل الجسم مهزولاً الى حد
اضطره الى ان يدعّم حذاه بالرصاص لكي لا تذرّوه الرياح . ولقد
كان في ساحة كورنث الكبيرة تمثال فحته سيلانيوس ، وقيدته بليني *****
في جداوله . وكان هذا التمثال تمثال أيبستات . وما الذي فعله أيبستات ؟
لقد اخترع الشّغزية ***** . هذه خلاصة لبلاد الاغريق وللمجد . ولننتقل

* في اللاتينية ، ومعناها : لان الاستعمال يريد .

** Phocion جنرال وخطيب اثيني (حوالي ٤٠٠ - ٣١٧ ق م) اشتهر
ببناهته ، ولقد حكم عليه ظلاً بأن يشرب الشوكران السام ، بسد ان اتم
بالحيانة .

*** Coligny كان احد زعماء البروتستانت اثناء الحروب الدينية ولقد مات
مسموماً بتعريض من كاترين دو مديشي . (١٥٣١ - ١٥٦٩)

**** Pisistrate طاغية أثيني معاصر لصولون ، وقد تولى عام ٥٢٧ ق.م .

***** Plinio او Pliny ، المؤلف الروماني الشهير (حوالي ٦٢ م - ١٢٠ م)

***** الشغزية والشخيرية اعتقال المصارع رجله برجل مصارعه وصرعه اياه بهذه الحيلة

وهو ما يعرف في الفرنسية بـ *Croc - en - jambe*

الى موطن آخر . أعجب بانكلترة ؟ أعجب بفرنسة ؟ فرنسة ؟ لماذا ؟
من اجل باريس ؟ لقد أبدت اللحظة رأبي في ائتنا . انكلترة ؟ لماذا ؟
من اجل لندن ؟ انا اكره قرطاجة . ثم ان لندن ، عاصمة الترف ، هي
حاضرة البؤس . ففي ابرشية « تشيرنغ كروس » وحدها يموت مئة انسان
جوعاً ، كل عام . تلك هي آليون * . وأضيف كنتكمة ، اني رأيت
في يوم من الايام فتاة انكليزية ترقص وعلى رأسها تاج من الزهور ،
وعلى عينيها نظارتان زرقاوان . فلننتحب اذن على انكلترة .
أنا لا أعجب بـ « جون بول » ** فهل ينبغي لي ان أعجب بالاخ
جوناتان *** اذن ؟ أنا لا أستسبح هذا الشعب ذا العميد الارقاء إلا
قليلاً . ضموا « الوقت من ذهب » جانباً فإذا يبقى من انكلترة ؟
ضموا « القطن ملك » جانباً فإذا يبقى من اميركة ؟ إن المانية هي
السائل اللسفاوي . **** وإن ايطالية هي الصفراء التي تفرزها
الكبد . ***** هل نسمح للوجود بأن يستبد بنا إكباراً للروسيا ؟
لقد أعجب فولتير بها . ولقد أعجب بالصين ايضاً . انا أقر بان للروسيا
جمالها ، ومن بين تلك الجمالات حكم استبدادي قوي . ولكني أرتي
للمستبدين . إن لهم صحةً وقيمةً جداً . لقد قطع رأس ألكسيوس ،
وطعن بطرس بخنجر ، وخنق بولس ، وسحق بولس آخر بضرباتٍ

* Albion هو الاسم الذي اطلقه القدماء على انكلترة ، ولمل مرد ذلك الى
بياض صخورها العالية المشرفة على شاطئ البحر (من كلمة *albus* في اللاتينية وتعني الابيض)
** John Bull (أو حنا الثور) لقب يطلق على الشعب الانكليزي لإظهاراً لدم
أناقته ولتأده .

*** Jonathan لقب يطلق على شعب الولايات المتحدة . ويقال انه دعي كذلك على
اسم جوناتان ترومبول Trumbull حاكم كونكتيكوت ، وكان صديقاً ومشاراً
لواشنطن .

**** يقصد أنها تمثل المزاج الكسول في التفكير والعمل على اعتبار ان القدماء
كانوا يرجعون ذلك الى وجود هذا السائل بكثرة في الدم .
***** يقصد انها تمثل المزاج النكد المتبرم .

بعقب حذاء عالي الساق ، وُذبح عدد من حملوا اسم ايفان ، وُسِّم كثير من حملوا اسم نيقولا وباسيل ، وكل هذا يدلّ على أن قصر أباطرة روسيا هو في حال من الوبال فظيمة . إن جميع الشعوب المتمدنة تقدّم إلى إعجاب المفكر هذه الواقعة : الحرب . ولكن الحرب ، الحرب المتمدنة ، تستنفد وتختصر كل شكل من اشكال اللصوصية ، ابتداء من قطع الطريق الذي قام به الـ « تراوكير » في شعاب جبل جاكسا الى سلب الجنود الذي قام به الـ « كومانش » الهنود في « مجاز الشك » . آه ، سوف تقولون لي ان اوروبة هي برغم ذلك أفضل من آسية ؟ أنا اعترف بأن آسية مضحكة ؛ ولكني لا أرى جيداً بأي حقّ تضعكون على « اللاما الكبير » * ، انتم يا شعوب الغرب الذين ضمتم الى أزيائكم وأناقاتكم جميع اوساخ العظمة المعقدة ، من قبص الملكة ايزابيلا القدر ، الى كرسيّ وليّ عهد فرنسة المثقوب ** . ايها السادة الانسانيون ، اني اقول لكم : خاب ظنكم ! ففي بروكل لا في غيرها يُستهلك أعظم قدر من الجعة ، وفي ستوكهولم لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من العرق ، وفي مدريد لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من الشوكولا ، وفي أمستردام لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من شراب الـ « جن » ، أو رُبّ العرعر ، وفي لندن لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من الخمر ، وفي القسطنطينية لا في غيرها يستهلك اعظم قدر من القهوة ، وفي باريس لا في غيرها يُستهلك اعظم قدر من الأفسنتين *** . تلك هي جميع المعلومات المفيدة . وباريس

* Grand Lama الرئيس الاعلى للديانة البوذية ، ويتقدّم اتباعه أن بوذا متجسد فيه .

** الكرسي المثقوب ، chaise percée ، كرسي مثقوب يستخدمه المريض لبول او التبوّط .

*** absinthe مسكر قويّ ، مرير ، اخضر اللون ينطوي على ٦٨ بالمئة من الكحول ، يصنع من الافستين وغيره من الاعشاب .

تنتزع قصب السُّبُّق من منافساتها كلها . ففي باريس نجد ان ملتقطي الحِرِّق انفسهم شهبانيون . ولو قد نُخِّير دويجين اذن لآثر ان يكون ملتقط حِرِّق في ساحة موبير لا فيلسوفاً في بيروس . تعلموا هذا ايضاً : إن سخارات ملتقطي الحرق تدعى *bibines* ، وإن اعظمها شهرة تدعى « القِدْر ذات المقبض » ، و « المسلخ » . وإذن ، فيما ايتها الحارات ، والمطاعم ، والحانات ، والبارات ، والمسارح الوضيعة ، ومحال بيع الحمر بالجملة ، والمراقص ، والمواخير ، وسخارات ملتقطي الحرق ، وخنانات القوافل الشرقية ، أنا أشهدك على اني خليع شهباني . اني اتناول الطعام عند « ريشار » بأربعين سو للشخص الواحد ، واني محتاج الى سجاد فارس لكي ادحرج كليوباترة عارية . أين كليوباترة ؟ آه ! إنها انتِ ، يا لويزون . صباح الخير !

وهكذا أفاض غرانتير ، وكان أكثر من ثمل ، في الحديث ، متعلقاً بفاسلة الاطباق وهي تمر به ، في الزاوية التي احتلها من حجرة مقهى الموزين الخلفية .

وبسط بوسويوه ذراعه نحوه محاولاً ان يفرض عليه الصمت ، فاستأنف غرانتير حديثه على نحوٍ أروع :

- « فلنسقط برائتك ، يا ايغل * دو مو ! انت لا تأثير لك في بايامتك هذه التي تشبه ايماءة أبقراط وهو يأبى عقايره على أرتحشتنا ** . وإنني أعفك من تهدئي . والى هذا ، فأنا حزين . أي شيء تريدون ان اقول لكم ؟ الانسان شرير ؛ الانسان قبيح . لقد انتصرت الفراشة ، وكبا زئدُ الانسان . لقد خان الربُّ هذا الحيوان . والحشود لا تقدم اليك إلا بشاعات مختارة . وأول شخص تقع عليه عينك مافلٌ وغد . إن « المرأة » (*femme*) تتناغم تناغمً القافية مع « الفاضح »

* واضح ان لفظ *aigle* وهو اسم « ليغل » مجرداً من لام التعريف يعني النسر .
** احد ملوك الفرس القدماء .

او « المرذول » (*infâme*) . أجل ، إني أعاني السأم ، مضافةً اليه
الكتابة ، مع الحنين الى الوطن الأول ، الى جانب السوداء * . إني
لأغتاظ ، إني لأثور ، إني لانتاب ، إني لأنبرم ، وإني لمرهق ،
وإني لشديد الضجر ! ليذهب الربُّ الى الشيطان ! ،

– « اسكت ايها الرءاء الكبيرة ! » * * كذلك صاح بوسوويه من
جديد وكان يناقش نقطة قانونية على حدة ، وكان غارقاً الى أبعد من
خصره في سلسلة من عبارات اللغة القضائية ، هذه خاتمها :

« ... أما أنا ، فبرغم اني لا أكاد أعدّ فقيهاً الا بشقّ النفس ،
وبرغم اني في أحسن احوالي محامٍ هارٍ ، فأقرر ما يلي : انه بموجب
أحكام العرف السائد في نورمانديا ، في عيد القديس ميشيل ، ومرةً
كل عام ، يجب ان يدفع كل منهم ضريبة الى السيد الاقطاعي – مع
الاحتفاظ بمقوق الآخرين – يتنون في ذلك جميعاً ، سواء أكانوا
اصحاب أملاك أم مَدِينِي ميرات ، وهذا في جميع عقود الايجار البعيدة
الأجل ، صكوك الكراء ، والاراضي الحرة ، وعقود الاملاك الخاصة
والعامّة ، والمرتمنّ عنده ، والراهن ... »
فدندنَ غرانتير :

– « أصداء ، ابتها العرائس الناشطات ! »

وعلى مقربة دانية من غرانتير ، وعلى مائدة تكاد تكون صامتة ،
أعلنت ورقةً ، ومحبوبةً ، وريشة انتصبت بين قدحي خمر أن الخطوط
الكبرى لرواية صغيرة ملحنّة كانت قيّدَ الوضع . وكان القارئ
بهذه المهمة الضخمة يتحدثان في صوت خفيض ، وقد تأسّ وأسامها اثناء

* hypocondric *

** « R majuscule » يعصد غرانتير ، على اعتبار المجاورة اللفظية بين اسم Grantaire
وبين Grand R كما رأينا من قبل .

العمل :

« فلنبدأ بالبحث عن الاسماء . اذ ما نكاد نعثر على الاسماء حتى نعثر على الموضوع . »

« هذا صحيح . أملر عليّ . سوف اكتب . »

« مسيو دوريمون . »

« غنيّ ؟ »

« من غير شك . »

« ابنته سيليستين . »

« ... تين . ثم ماذا ؟ »

« الكولونيل سينفال . »

« سينفال اسم مبتذل . أفضل فالسين . »

والى جانب هذين المسرحيين الناشئين ، كانت حلقة اخرى استفادت هي ايضاً من القوضى فراحت تتحدث في همس ، وتناقش في مبارزة من المبارزات . كان شيخ - في الثلاثين من العمر - ينصح شاباً - في الثامنة عشرة - ويصور له حقيقة الحصم الذي سينازله :

« يا للشيطان ! 'خذْ حذرك . إنه سيف جميل . إن لعبه نظيف . إنه يهجم في غير مداراة ، وإن له معصماً رشيقياً ، ونفساً محتدمة ، وبرقاً خاطفاً ، وخطوةً دقيقة ، وضربات لا تخطيء . يا سلام ! وهو اعسر ايضاً ! »

وفي الزاوية المقابلة لغرانتير كان جولي وياهوويل يلعبان الدومينو ، ويتحدثان عن الحب .

قال جولي :

« إنك محظوظ . إن لك خلية لا تكفّ عن الضحك . »

فأجاب باهوريل :

« هذا خطأ تركبته هي . إن خلية المرء تخطيء إذ تضحك . »

ذلك أن الضحك يشجعك على خداعها . فمجرد رؤيتك إياها مبتهجة يضع حداً لوخز الضمير . أما إذا رأيتها محزونة فعندئذ يقلقك ضميرك .

- « يا لك من فاكِر للجَميل ! المرأة الضاحكة شيء حسن ! أنت لن تتشاجر معها أبداً ! »

- « ذلك جزء من المعاهدة التي وقّعناها . فحين عقدنا « حلفنا المقدس » الصغير عيّنّا لكل واحد منا حدوده التي لا يحقّ له تخطّيها البتة . فما هو واقعُ الى الشمالِ ملكٌ لـ « فود » ، وما هو واقع الى الجنوبِ ملكٌ لـ « جيكس » . ومن هنا السلام الذي ننعّم به . »

- « وأنت ، يا جولللي ، الى اين وصلت في خصامك مع الآنسة ... انت تعرف من اعني ؟ »

- « إنها تبرّم مني في صبر وحشي . »

- « وهكذا فانت عاشقٌ يُبلن القلوب بهزّاله . »

- « وأسفاه ! »

- « لو كنتُ مكانك لتخلصتُ منها . »

- « هذا شيء يسهل قوله . »

- « وعملُهُ . أليست نسمي نفسها موميشيتا ؟ »

- « نعم . آه ، يا باهوريل المسكين ، إنها فتاة بالغة الجمال ، ذات

زعة أدبية ، ورجلين صغيرتين ، ويدين صغيرتين ، حسنة البزّة ، بيضاء ، بدينة ، ولها عينان مثل عيني قارئة البخت . انا مجنون بها . »

- « اذن فيجب أن تُرضيها ، يا صديقي العزيز . كن أنيقاً .

عرضُ ساقينك للابصار . اِشترِ من محلّ « ستوب » بنطلوناً من جلد الظبية . إن ذلك يساعد . »

فصاح غرانتير :

- « بكم يباع ؟ »

وكانت الزاوية الثالثة مستغرقة في مناقشة شعرية . كانت الميثولوجيا الوثنية تتصارع مع الميثولوجيا المسيحية . وكان الموضوع هو الأولومب الذي أيده جان بروفير بروح هي الرومانسية نفسها . إن بروفير لم يكن حياً إلا في فترات السكينة فما إن يُستثار حتى يتفجّر . كان ضرب من البهجة يميز حماسه ، وكان ضاحكاً وغنائياً في وقت معاً .

وقال :

- « لا تُهينوا الآلهة . فلعل الآلهة لم تقارقنا . إني لا أرى أمارات الموت على وجه جوبيتير . الآلهة اضغات أحلام . هكذا تقولون . حسناً ؛ ولكن حتى في الطبيعة - كما هي الآن ، بعد انقضاء تلك الأحلام - نجد جميع الأساطير الوثنية القديمة الرفيعة الذرى . فهذا الجبل ، ذو الصورة الجانبية الشبيهة بمحصن ، ولتقل إنه ال « فينجال » * مثلاً ، لا يزال في نظري غطاءً لرأس سيبييل ** . ولم يبق الدليل بعد على ان « بان » *** لا يَفِدُ ليلًا لينفخ في جذوع الصفصاف الجوفاء ساداً ثقوبها باصابعه ، ثقباً بعد آخر . ولقد اعتقدت ، وما أزال ، ان « ايبو » **** لها علاقة ما بشلال بيسفاس . »

وفي الزاوية الاخيرة ، كانت السياسة موضوع الحديث . كانوا يطعنون على دستور لويس الثامن عشر . ودافع كومبوفير عنه في فتور .

* Vignemale جبل من جبال الپيرينه (البرانس) يبلغ ارتفاعه ٣٢٩٨ متراً .

** Cybèle ابنة السماء ، والاهة الارض والزراعة ، زوجة ساتورن ، وأم

جوبيتير ونبتون وبلوتون الخ .

*** Pan ابن هرمس ، وكان له قرنان كقرني التنيس ورجلان مثل رجليه

ايضاً ، وكان يروّع الناس بظهوره المفاجيء أمامهم ، وقد اخترع قيثارة كان يعزف بها لعرائس الغابات الراقصات .

**** Io ابنة ايناخوس ، وقد أحبا زيوس ومسخها هيرا النبور الى حجة

وجعلتها تحت حراسة آرغوس ، العملاق ذي الائة عين .

وشنّ كورفيراك عليه هجوماً لا هوادة فيه . وكانت على المائدة نسخة
سيئة الحظ من دستور توكيه الشهير . وأمسك كورفيراك به وهزّه ،
مازحاً ارتعاش تلك الورقة بحُججه .

— واولاً ، أنا لا أريد أيما ملك . لا أريد ، ولو من وجهة
النظر الاقتصادية فحسب . الملوك متطفلون ونحن لا نفوز بهم مجاناً . اسمع
الى هذا : غلاء الملوك . عند وفاة فرنيس الاول كان دين فرنسا
العام ثلاثين الف ليرة سنوياً . وعند وفاة لويس الرابع عشر كان الدين
وستمئة مليون ليرة وكان المارك * يعدلُ ثمانى وعشرين ليرة ، وهو
مبلغ كان يساوي عام ١٧٦٠ ، وفقاً لرأى دوماربه ** ، اربعة
آلاف وخمسة مليون ليرة ، ويساوي اليوم اثني عشر الف مليون
ليرة . ثانياً : وارجو ان لا يثير ذلك غضب كومبوفير ، ان الدستور
الذي يُمنحُ منحاً وسيلةً رديئةً من وسائل الحضارة . فاجتنب الطفرة ،
وتهميد السبيل ، والتخفيف من حدة الصدمة ، والانتقال بالامة وريداً
وريداً من الملكية الى الديمقراطية بممارسة الاوهام الدستورية - هذه
كلها صحيح بغية . لا ! لا ! إياك وأن تقدم الى الشعب نوراً زائفاً .
إن المباديء لتدوى وتشعب في كهفك الدستوري . لا انصاف
حلول ؛ لا تسويات ؛ لا منحة من الملك الى الشعب . ففي جميع هذه
المنح توجد المادة ١٤ . والى جانب اليد التي تعطي نجد البرثن الذي
يستردّ . أنا ارفض دستورك رفضاً صريحاً . الدستور الممنوح هو قناع ؛
ان الكذب يكمن وراءه . والشعب الذي يقبل دستوراً ممنوحاً يتنازل
عن سيادته . والحق لا يكون حقاً إلا اذا كان كلاً غير متجزى .

* المارك هنا عملة فضية او ذهبية قديمة كانت تستعمل في بلدان مختلفة من اوروبة ،
ويقوم متفاوتة .

** Desmarets مراتب المالية العام من سنة ١٧٠٨ الى سنة ١٧١٥ وقد اخترع
ضريبة العُشر لكي يتجنب افلاس الدولة .

لا ! لا دستور ! »

كان الفصل شتاء . وكانت قطعتان من الحطب كبيرتان تشتعلان في الموقد . وكان ذلك مغريباً ، ولم يستطع كورفيراك ان يقاوم . فسحقَ دستور توكيه المسكين بيده ، وألقاه في النار . والتهمت الورقة . ونظر كومبوفير ، على نحو فلسفي ، الى رائحة لويس الثامن عشر تحترق ، فاكتفى بالقول :

— « هو ذا الدستور يتحوّل ، باللهب ، الى خلفة اخرى . »

ولم يكن من السخریات ، والنكات ، والجناسات المستبحة ، وهذا الشيء الفرنسي الذي ندعوه الحيوية المبتهجة ، وهذا الشيء الانكليزي الذي ندعوه الظرف ، والذوق السليم والذوق الفاسد ، والحجج القوية والحجج الضعيفة ، وجميع حماقات الحوار المختلطة — لم يكن من هذه كلها إلا ان برزت دفعة واحدة منطلقةً من أطراف القاعة جميعاً ، لتحدث فوق الرؤوس ضرباً من القصف المدفعي المرح .

٥

توسيع الافق

إن لتصادم العقول الشابة هذه الحاصة الرائعة وهي ان المرء لا يستطيع أن يتكهن بالشرر او يتنبأ بالبرق . اي شيء يمكن ان ينبثق في تلك اللحظة ؟ لا أحد يدري . إن موجة من الضحك تتبع مشهداً من الرقة والخنو . وفي اللحظة المازلة ، 'يطلع' الجِدُّ رأسه . والحوافز رهنٌ بكلمة عابرة . وقرينة كل امريء مطلقة السلطان . ونكتة واحدة كافية لأن تفتح الباب لغير المتوقع . ولقد كانت اجتماعاتهم ذوات منعطفات حادة تتغير فيها أبعاد المنظر على نحو مفاجيء . ان المصادفة

هي التي تدبر هذه الاحاديث .

وفجأة انبثقت من حليل بعض الكلمات ، وعلى نحوٍ غريب ، فكرة صارمة ، واجتازت فوضى الكلام التي تصارع في غمرتها غرائس ، وباهوريل ، وبروفير ، وبوسوبه ، وكومبوفير ، وكورفيراك تصارعاً مشوشاً .

كيف تتخذ عبارة " ما سبيلها الى حوار ما ؟ ما الذي يجعلها تفرض نفسها ، 'فجأة' ، على انتباه اولئك الذين يسمعونها ؟ لقد قلنا منذ لحظة : لا أحد يدري . ففي غمرة الاصوات الصاخبة ختم بوسوبه ، على نحو مفاجيء ، كلاماً كان يوجهه الى كومبوفير ، بالتاريخ التالي :

- « ١٨ حزيران ، ١٨١٥ : واترلو . »

ولم يكده ماريوس - الذي كان متكئاً على احدى الطاولات ، قرب كأس ماء - يسمع هذا الاسم ، واترلو ، حتى نزع معصمه من تحت ذقنه ، وأنشأ يحدق الى الجماعة تحديقاً موصولاً .

وصاح كورفيراك :

- « وحق الاله *pardieu* (كانت *parbleu* * قد بدأت تبطل في ذلك العهد) إن هذا الرقم ، ١٨ ، لغريب ، وإنه ليذهلني . إنه رقم نابوليون المشؤوم . ضع « لويس » في المقدمة ، و « برومير » في المؤخرة تقع على قدر الانسان كله ، مع هذه الخاصة المعبرة ، وهي أن النهاية تطارد البداية مطاردة عنيفة . »

وهنا قطع آنجولراس حبل الصمت ، وكان أبكم حتى ذلك الحين ، وخاطب كورفيراك قائلاً :

- « تريد ان تقول إن التكفير يطارد الجريمة . »

وتجاوزت هذه الكلمة ، الجرمية ، حدود احتمال ماريوس ، وكان قد استشير بتلك الاشارة المفاجئة الى واترلو .

* وهي تعريف لـ *pardieu* .

ونفض ، ومشى في تودة نحو خريطة فرنسا المنشورة على الجدار ، وكانت تبدو في أدها جزيرة طوّقت باطار منغلز . ووضع اصبعه على هذا الاطار وقال :

« كورسيكا . جزيرة صغيرة جعلت فرنسا دولة عظيمة حقاً . »
كانت تلك هبة من هواء مثلوج . وكانوا كلهم صامتين . واستشعروا ان شيئاً ما ، على وشك ان يبدأ .

وكان باهوريل - الرادّ على بوسوييه في صرعة وحدة - على أهبة اتخاذ وضع كوضع التايل النصفية كان يحرس عليه . ولكنه تحلى عن ذلك لكي يصغي .

ولم يكن من آنجولراس - الذي كانت عينه السوداء غير مركزة على احد ، والذي بدا وكأنه يتأمل الفراغ - إلا ان أجاب من غير ان ينظر الى ماريوس :

« ان فرنسا لا تحتاج الى شيء مثل كورسيكا لكي تكون عظيمة . إن فرنسا عظيمة لانها فرنسا . * *Quia nominor leo* »
ولم يستشعر ماريوس ايجارغبة في النكوص . لقد التفت الى آنجولراس ، وجلجل صوته في ارتجاج ناشيء عن ارتعاش اعصابه :

« لست انتقص من قدر فرنسا ، لا سمح الله ! ولكن إدغام نابوليون بها لا ينتقص من ذلك القدر ، البتة . تعال ، دعنا نتحدث اذن . أنا وافد جديد عليكم ، ولكنني اعترف انكم توقعون الدهش في نفسي . اين نحن ؟ من نحن ؟ فلنوضح آراءنا في الامبراطور . اني اسمعكم تقولون بُوونابرت مشددين على الواو مثل الملكيين . وفي استطاعتي ان اقول لكم ان جدي يفوقكم في ذلك ايضاً ؛ إنه يلفظها بُوونابرتة .

« في اللاتينية ، ومعناها : « لاني ادعى الأسد » . وهي كلمة منزعجة من أحد امثال الشاعر اللاتيني « فيدر » حيث يقدم الاسد هذه الحجة على حقه في الفوز بالقسم الاعظم من الغنيمة ...

لقد حسبتُ انكم شباب . اين حماستكم اذن ، وما الذي تفعلونه بها ؟
 بم 'تعجبون' ، اذا كنتم لا 'تعجبون' بالامبراطور ؟ وهل تطمعون في
 اكثر من ذلك ؟ واذا لم تتمنوا مثل هذا الرجل العظيم فأني رجل
 تتمنون ؟ كان كل شيء . كان كاملاً . كان في دماغه مكتب
 الكفايات الانسانية . لقد وضع القوانين مثل جوستينيانوس ؛ وأملى
 ارادته مثل بوليوس قيصر ؛ وجمعت احاديثه برقّ باسكال الى رعد
 تاسيتوس ؛ لقد صنع التاريخ وكتبه ؛ إن بياناته الرسمية هي الياذات ؛
 لقد مزج ارقام نيوتن باستعارات محمد وبجازاته ؛ وخلف وراءه في
 المشرق اقوالاً عظيمة كالاهرام . في نيلسيت علم الاباطرة الجلال ؛
 وفي اكاديمية العلوم ردت على لابلاس * ؛ وفي مجلس الدولة قاوم
 ميرلين ** ؛ لقد اضفى روحاً على هندسة هؤلاء وبمحكات اولئك ؛
 كان فقيهاً مع رجال القانون وعالمياً بالنجوم مع رجال الفلك . ومثل
 كرومويل الذي كان يطفىء شمعة حين تضاء اثنتان ، كان يذهب الى
 « تأمل » لياسوم البائع في ثمن شرابة من شراريب السجف ؛ لقد رأى
 كل شيء ؛ لقد عرف كل شيء ؛ وهو ما لم يمنعه من ان يضحك
 ضحكة رجل ساذج أمام مهد طفله الصغير . وفجأة ، أصغت اوروبه
 المشدوهة ، وزحفت جيوش ، ودارت حظائر المدافع ، وامتدت جسور
 من المراكب فوق الأنهار ، وانطلقت سحائب من الحياة وسط
 الأعصار ، وضج الكون بالصيحات ، والأبواق ، وارتجافات العروش ،
 وتذبذبت تخوم الممالك على الحارطة ، وسمع صليل حسام سوبرماني ينبثق
 من الكور ، ورآه الناس ، وأوه هو ، ينتصب واقفاً عند الاق ، وفي
 يديه برق ، وفي عينيه ضياء ، ناشرآ في الرعد جناحيه الاتنين ، الجيش
 العظيم والحرس القديم ، وكأنه ملك الحرب الأكبر .

* Laplace رياضي وملكى فرنسي شهير . (١٧٤٩ - ١٨٢٧)

** Merlin سياسي فرنسي (١٧٥٤ - ١٨٣٨) شارك في اسلاط روبسيير .

واعتصم الجمع كلهم بالصمت ، وخفض آنجلولاس رأسه . وللصمت دائماً شيء ، من وقّع القبول ، او وقّع ضرب من الدفع الى الجدار . ومن غير ان يأخذ نفساً ، تقريباً ، تابع ماريوس كلامه في فضل حماسة :

- « لنتكن عادلين ، ايها الاصدقاء . ايُّ قدرٍ هيّ ذلك الذي يجعل الأمة امبراطورية لمثل هذا الامبراطور ، حين تكون تلك الأمة هي فرنسا ، وحين تضيف عبقريتها الى عبقرية رجل كهذا ! فلأن تبرز وتلي العرش ؛ ولأن تزحف وتنتصر ؛ ولأن تتخذ من كل عاصمة من العواصم محطة لك ؛ ولأن تختار رماة قنابلك وتجعل منهم ملوكاً ؛ ولأن تصدر امرك بأسقاط السلالات المالكة ؛ ولأن تسو بأوروبا في مثل سرعة الزحف العسكري بحيث يشعر الناس ، حين تهدد ، انك تضع يدك على قائم سيف الله ؛ ولأن تتبع - في رجل واحد - هنيئلاً ويوليوس قيصر وشارلمان ؛ ولأن تكون شعباً انسان يمزج بكل صباح من أصباحك ايذاناً مجيداً بأن معركة قد كُسيبت ؛ ولأن توقظ مع الفجر بمدافع الانفاليد ؛ ولأن تقذف في لجج من النور كلمات جبارة تلتهب الى الابد : مارانغو ، آر كولا ، اوسترلنتز ، بينا ، واغرام ! ولأن 'تطلع كل' لحظة في سمّت القرون ابراجاً من الانتصارات ، ولأن تجعل الامبراطورية الفرنسية خليفة الامبراطورية الرومانية ؛ ولأن تكون الشعب العظيم وتنشئ الجيش العظيم ؛ ولأن تحمل فرقك على الطيران فوق الارض برمتها كما يبعث الجبل بنسوره الى كل ناحية ؛ ولأن تقهر ، وتحكم ، وتُنزل الصواعق ، وتكون في اوروبه ضرباً من الشعب المذهب بتواتر المجد وتعاضله ؛ ولأن تبوق من خلال التاريخ بألحان الجبارة ؛ ولأن تفتح العالم مرتين ، بالفتح العسكري وبالبحر * إن ذلك شيء جليل ، واي شيء يمكن ان يكون اعظم

* جبروت العين جبراً : لم يُبصر في الشمس .

من هذا ؟ »

فقال كومبوفير :

« أن نكون أحراراً . »

وخفض ماريوس ، بدوره ، رأسه . كانت هذه الكلمات الباردة البسيطة قد شقت تدفقه الملحمي مثل شفرة من فولاذ ، فاستشعر ان هذا التدفق قد نلاشى في قرارة نفسه . وحين رفع عينيه ، لم يكن كومبوفير هناك . ولعله ان يكون قد أحسّ بالارتياح لردّه على ذلك التأليه ، ففادر المكان وتبعه الجمع كلهم ما عدا آنجولراس . كانت الحجره خالية . وانشأ آنجولراس ينظر الى ماريوس في جدّ بعد أن لم يبق غيرهما في تلك الحجره . وفي غضون ذلك كان ماريوس قد لمّ شتات افكاره فهو لا يعتبر نفسه مهزوماً . كان فيه بقية من ثورة كانت ، من غير شك ، على وشك أن تجد تعبيرها في أقيسة منطقية موجهة ضد آنجولراس عندها معها ، فجأة ، شخصاً يفني فيما هو يهبط السلم . كان ذلك الشخص هو كومبوفير ، وكان ينشد الابيات التالية :

« اذا منحني قيصر ،

المجد والحرب ،

واذا تعين علي ان اتخلى

عن حب أمي ،

فمنذئذ اقول للقيصر العظيم ،

استرجع صولجانك ومركتك الحربية

انا افضل أمي ،

انا افضل أمي ا »

وكان في النبوة العذبة الضاربة التي اصطنعها كومبوفير في انشاده ما خلع على هذه المقطوعة عظمة غريبة . وعلى نحو آليّ كرر ماريوس ، وقد استغرق في التفكير ، وسدد بصره الى السقف : « امي ؟ »

وفي تلك اللحظة أحسّ بيد آنجولراس على كتفه .
وقال آنجولراس له :

- « ايها المواطن ، إن امي هي الجمهورية . »

٦

موارد مهزولة

قضى ماريوس تلك الليلة في احتياج عميق ، وفي قتام نفسي كئيب .
كان يعاني ما قد تعانيه الارض لحظة نشقها بالحديد لكي تودعها حبة
القمح . إنها لا تستشعر غير ألم الجرح . أما اختلاجة البذرة ، وابتهاج
الشرة فلن يُلمتا بها إلا في ما بعد .

كان ماريوس مغموماً . لقد اعتنق - وما كاد - عقيدة جديدة .
فهل يستطيع ان يطرحها بمثل هذه السرعة ؟ وفي ما بينه وبين نفسه
قرّر أنه لا يستطيع . لقد أعلن لنفسه انه لن يشك ، ولكنه شرع
يشك بالرغم منه . ولأن يكون المرء بين دينين لمّا يهجر بعد أحدهما ولمّا
يتبنّ بعد الآخر ، شيء لا يطاق ؛ والفَسق ليس يحلو إلا للنفوس الحفافية شية .
كان ماريوس عيناً مفتوحة وكان في حاجة الى النور الحقيقي . اما غسق
الشك فكان يؤذيه . وعلى الرغم من رغبته القوية في ان يقف حيث هو
وان يصمد هناك ، فقد اضطر ، على نحو لا يقاوم ، الى أن يستمر ، ويتقدم ،
ويدرس ، ويفكر ، ويمضي الى أمام . الى ابن سيقوده ذلك ؟ لقد خشي ،
بعد ان خطا هذه الخطوات كلها ، التي قرّبت به الى أبيه ، ان يقوم الان
بأي خطوة تبعده عنه . وكان ضيقه النفسي يتعاظم مع كل فكرة تخطر
له . وارتفعت من حوله صغور سامقة شديدة التحدر . لأنه لم يكن على
وثام لا مع جده ، ولا مع اصدقائه . كان متهوراً مع الاول ، وكان

متخلفاً عن الآخرين . ولقد استشعر انه يجيئاً في عزلة مضاعفة ، عن
الشيخوخة من ناحية ، وعن الشباب من ناحية ثانية ، ولم يعاود الذهاب
الى مقهى الموزين .

وفي غمرة من هذا القلق الذي ألمّ به لم يفكر ببعض وجوه الوجود
الجديّة إلا قليلاً . إن حقائق الحياة لا تسمح لنفسها بأن تُنسى .
وفجأة ، وفدت عليه وراحت تنكز ذاكرته بمرفقها .

وذات صباح ، دخل مدير الخدم غرفة ماريوس ، وقال له :

- « إن مسيو كورفيراك قد تعهد بأن يدفع دينك . »

- « نعم . »

- « ولكنني في حاجة الى المال . »

فقال ماريوس :

- « سلّ كورفيراك ان يأتي ويتحدث معي . »

وأقبل كورفيراك . وفارقها مدير النزل . وقصّ عليه ماريوس ما لم

يفكر في أن يرويه له من قبل ، وهو انه - اذا جاز التعبير - كان

وحيداً في هذا العالم ، وأن ليس له أنساب البتة .

فقال كورفيراك :

- « ما الذي سيحلّ بك ؟ »

فأجاب ماريوس :

- « لست ادري شيئاً من ذلك . »

- « ما الذي سوف تعمله ؟ »

- « لست ادري شيئاً من ذلك . »

- « هل عندك مال ؟ »

- « خمسة عشر فرنكاً . »

- « اتريد ان اقروضك شيئاً من المال ؟ »

- « لا ، مطلقاً . »

- « هل عندك ثياب ؟ »
- « عندي هذه . »
- « هل عندك حلية ما ؟ »
- « عندي ساعة . »
- « ساعة فضية ؟ »
- « ذهبية . ها هي ذبي . »
- « انا اعرف متاجراً بالملابس مستعداً لأن يأخذ ستوتك الطويلة وبنطلوناً واحداً . »
- « وأحذيتي . »
- « ماذا ؟ انك لن تمشي حافياً ؟ يا لها من رفاهة ! »
- « هذا سوف يكفيني . »
- « وأنا اعرف ساعاتياً مستعداً لأن يشتري ساعتك . »
- « ذلك حسن . »
- « لا . إنه غير حسن . ما الذي ستفعله في ما بعد ؟ »
- « كل ما يتعين عليّ . أيما عمل شريف على الاقل . »
- « أتعرف الانكليزية ؟ »
- « لا . »
- « هذا مؤسف . »
- « لماذا »
- « لأن لي صديقاً ، صاحب مكتبة ، يُعِدُّ ضرباً من الموسوعة . ولقد كان في امكانك ان تترجم له بعض المقالات الالمانية او الانكليزية لو كنتَ تعرف احدي هاتين اللغتين . إنه يدفع تعويضاً ضئيلاً جداً ، ولكنه يُقيم الأود . »
- « سوف اتعلم الانكليزية والالمانية . »
- « وفي انتظار ذلك ؟ »

- « في انتظار ذلك سوف آكل ملابسى وساعتي . »
وأرسل في طلب تاجر الملابس ، فاشترى الثياب البالية بعشرين فرنكاً .
وقصدا الى الساعتي ، فاشترى الساعة بخمسة واربعين فرنكاً .
وقال ماريوس لكورفيراك وهما عائدان الى الفندق :

- « هذا مبلغ لا بأس به . واذا اضفت اليه الخمسة عشر فرنكاً
التي معي يصبح المجموع ثمانين فرنكاً . »
فلاحظ كورفيراك :

- « وفاتورة الفندق ؟ »

فقال ماريوس :

- « اوه ، لقد نسيتها . »

فقال كورفيراك :

- « يا للشيطان ! سوف يكون عندك خمسة فرنكات لتأكل بها بينا
تتعلم الانكليزية ، وخمسة فرنكات بينا تتعلم الالمانية . ومعنى ذلك ابتلاع
لغفة في مرعة بالغة ، او ابتلاع قطعة نقدية من ذات المئة « سو » في
بطء بالغ . »

وفي غضون ذلك كانت الحالة جيلندورمان ، ذات الجوهر الكريم
حقاً في الظروف العصيبة ، قد انتهت الى اكتشاف المكان الذي أوى
اليه ماريوس .

وذات صباح ، فيما كان ماريوس عائداً من المدرسة ، وجد رسالة
من خالته و « الستين بيستولاً » ، يعني ستمئة فرنك ذهبي ، في علبة
مخنومة .

واعاد ماريوس الليرات الذهبية الثلاثين الى خالته مع رسالة موقرة
أعلن فيها ان لديه بعض اسباب الرزق ، فهو قادرٌ منذ اليوم على أن
يسد حاجاته جميعاً . ولم يكن قد بقي لديه ، في تلك اللحظة ، غير
ثلاثة فرنكات .

ولم تُعلم الحالة جدًّا ماريوس بهذا الرفض خشية أن تشير سخطه .
ومن ناحية ثانية ، لم يكن قد قال لها : « حذارِ ان مجدثني احدٌ بعد
اليوم عن شارب الدماء هذا ! »
وغادر ماريوس اوتيل دو لا بورت سان جاك ، غيرَ راغب في أن
يحمل نفسه ايّ دَين .

الكتاب الخامس

فضل الشقاء

ماريوس مُعندماً

وغدت الحياة قاسية على ماريوس . إن أكله ملبسةً وساعته لم يكن شيئاً . فقد مضى ذلك الشيء الذي يمتنع على التعبير والذي ندعوه « جرة * المرارة » . شيء رهيبٌ يشمل أياماً من غير خبز ، وليالي من غير نوم ، وأماسي من غير شمع ، وموقداً من غير نار ، واساييع من غير عمل ، ومستقبلاً من غير أمل ، وسترة مثقوبة عند المرفقين ، وقبعة عتيقة تفري الفتيات الصغيرات بالضحك ، والباب الذي

* الجرة ، بكرم الجيم ، ما تعيد مضمه الحيوانات المحترمة .

يوجد في وجهك ليلاً لأنك لم تدفع قيمة الايجار المستحقة ، وغطرسة
 البواب وصاحب الفندق ، وسخريات الجيران ، وضروب الاهدانات ،
 والكرامة مكبوحه الجراح ، والرضا بالكدرح في اعمال حقيرة ، والتقزز ،
 والغم ، والضي . لقد تعلمت ماريوس كيف يبتلع المرء كل ذلك ،
 وكيف تكون هذه الاشياء ، في كثير من الاحيان ، كل ما تقدمه
 الايام الى افواه الناس . وفي تلك المرحلة من الحياة ، حين يحتاج المرء
 الى الصلف لأنه في حاجة الى الحب ، استشعر أنه موضع الهزء لأنه كان
 رث الثياب ، وموضع السخرية لأنه كان فقيراً . وفي ذلك العمر ،
 حين يُفعم الصبا قلب المرء بخيلاء قصيرة ، خفض بصره ، غير مرة ، الى
 حذائه البالي فعرف خجل الشقاء الجائر وما يشيعه في الوجه من حمرة
 ممضة . تجربة رائعة وفضيلة يخرج منها الضعفاء مردولين مهتوكي الستر ،
 ويخرج منها الاقوياء أجلة عظاماً . بوتقة يقذف القدر فيها برجل من
 الرجال كلما رغب في ان يضع جرواً او نصف الة .

ذلك بأن معارك الحياة الصغيرة طافحة بالاعمال الجيدة . ان ثمة
 شجاعة عنيدة ، وان تكن غير ملحوظة ، تدافع عن نفسها وويداً
 في الظلام ، ضد الغزوات المهلكة التي تشنها ضرورات الحياة وخباثتها .
 انتصارات نبيلة خفية لا تراها عين ، ولا تكافئها شهرة ، ولا تحييها
 ابواق النصر . ان الحياة ، والتعاسة ، والتوحد ، والتخلي ، والفقر ساحات
 قتال لها أبطال مغرورون هم في بعض الاحيان اعظم عظمة من
 الابطال المشاهير .

وهكذا تخلق طبائع وطيدة ونادرة . إن الشقاء ، وهو دائماً تقريباً
 امرأة اب ، قد يكون في بعض الاحيان أمماً . فالحرمان يولد رة نفس
 والعقل . والشدة مرضعة احترام الذات . والشقاء لبن صالح لانشاء
 النفوس العظيمة .

وانقضت فترة في حياة ماريوس كنس فيها غرفته بنفسه ، واشترى

من بائعة الحُضْر والثَّار ما ثمنه فلس واحد من جن « بُري » ، وانتظر فيها هبوط الليل ليتخذ سبيله الى الحُجاز فيشتري رغيفاً يحمله خلسة الى عليته وكأنه قد سرقه . وفي بعض الاحيان ، كان القوم يرون فتى ينسلّ - وسط الطاهيات الساخرات اللواتي كنّ يدفعنه بمرافقهن - الى دكان الجزار الذي في الزاوية ، فتى مرتبكاً متأبطاً بعض الكتب وقد بدت على وجهه صيا حية مروّعة يدخل الى ذلك الدكان ، وينزع قبعته عن جبينه الناضح منه العرق ، وينحني انحناءة يسيرو للجزار الدهش ، وانحناءة اخرى لصبي الجزار ، ويسأل عن قطعة من ضلع الضأن ، ويدفع ستة « سو » او سبعة « سو » ثمناً لها ، ويلقها في ورقة ، ويضعها تحت ذراعه بين كتابين ، ويمضي لسبيله . كان ذلك الفتى هو ماريوس . وعبلى تلك القطعة من ضلع الضأن ، التي كان يطبخها بنفسه ، كان يجيا ثلاثة أيام .

ففي اليوم الاول كان يأكل اللحم ، وفي اليوم الثاني كان يأكل الدهن ، وفي اليوم الثالث كان يقرض العظم .

وفي مناسبات عديدة كانت الحالة جيلنورمان تقوم ببعض المحاولات فتبعث اليه بالستين بيستولاً . ولكن ماريوس كان يردّها اليها دائماً قائلاً انه في غير ما حاجة الى شيء .

وكان لا يزال في حداد على أبيه عندما اندلعت تلك الثورة في تحدّثنا عنها وعصفت بعقله . ومن ذلك الحين لم يفارق الملابس السوداء قط . بيد ان ملابسه فارقتة . فقد أطلّ عليه ، آخر الأمر ، يوم لم يبق لديه فيه ثوب ما . وبليّ بنظولونه ايضاً . فما الذي يستطيع ان يعمل ؟ وأعطاه كورفيراك ، وكان قد أسدى هو بدوره بعض الخدمات اليه ، بذلة عتيقة . ودفع ماريوس تلك البذلة الى احد البوابين ، فأعادها اليه جديدة مقابل ثلاثين « سو » . ولكن تلك البذلة كانت خضراء . وعندئذ لم يعد ماريوس يغادر مأواه الا بعد ان يهبط الليل . فكان ذلك يجعل بذلته سوداء . واذ كان يرغب دائماً في أن لا ينزع ثوب الحداد ، فقد خلع على جسده قطعة

من الليل .

ومن خلال هذا كله شق سبيله الى صفوف المحامين . وكان الناس يحسبون انه يقطن غرفة كورفيراك النظيفة ، حيث كانت بضعة من كتب الحقوق ، تردفها وتتمها بضعة اخرى من الروايات الفريدة تؤلف المكتبة التي تقتضيها الانظمة . وكان يطلب الى الناس ان يوجهوا اليه رسائلهم على عنوان كورفيراك .

وحين أمسى ماريوس محامياً اعلم جده بذلك في رسالة باردة ولكنها حافلة بالخضوع والاحترام . وتلقى مسيو جيلنورمان تلك الرسالة بيدين راجفتين ، وقرأها ، وطرحها بمزقة إرباً في سلة المهملات . وبعد يومين او ثلاثة ايام سمعت الانسة جيلنورمان أباه ، الذي كان خالياً الى نفسه في غرفته ، يتحدث في صوت عال . وأنصتت . كان الرجل المعجوز يقول : « لو لم تكن أبله ، لعرفت ان المرء لا يستطيع ان يكون باروناً ومحامياً في آن معاً . »

٢

ماريوس فقيراً

والبؤسُ شأنه كشأن كل شيء آخر . إنه يمسي ، تدريجياً ، شيئاً محتملاً . إنه ينتهي الى ان يتخذ شكلاً ثابتاً . ان المرء ليحيا حياة بائسة مغمورة ، يعني انك تنمو على نحوٍ مهزول ما ، ولكنه كافٍ للحياة . وهذا هو النحو الذي جرت عليه حياة ماريوس بوغيرمي :

كان قد غادر الموطن الاضيق . لقد اتسعت الثغرة ، أمامه ، بعض الشيء . وبقوة الكدح ، والشجاعة ، والمثابرة ، والارادة وفتق الى ان يكسب من عمله نحو سبعة فرنك كل عام . كان قد تعلمت الالمانية

والانكليزية . وبفضل كورفيراك الذي قدمه الى صديقه الكشي ،
نهض ماريوس ، في الدائرة الأدبية من تلك المكتبة ، بدور صفاو
الممثلين المفيد . كان يُعدّ مراجعاتٍ للكُتب ، ويترجم مقالات من
الصحف ، ويعلق الحواشي على الطبقات الجديدة ، ويجمع سير الأعلام
التي . نتاجٌ صافٍ ثابت يبلغ ، سواء أخصّب العام أم أحل ، سبعة
فرنك . لقد عاش على ذلك . لا بأس . كيف ؟ سوف نفصل القول
في هذا .

لقد احتلّ ماريوس ، لقاء أجر سنوي مقداره ثلاثون فرنكاً ، غرفة
حقيرة صغيرة من غير موقد ، غرفة يدعونها حُجيرة ، لم يكن فيها
من الاثاث غير الضروري الذي لا يتغنى عنه . وكان ذلك الاثاث
ملكاً له . ولقد أعطى ثلاثة فرنكات شهرياً الى امرأة عجوز كانت
تتولى امر العناية بالبناء لكي تكنس غرفته ، وتحمل اليه كل صباح
قليلاً من الماء الحار وبيضة طازجة ورغيفاً من فليس واحد . وعلى هذا
الرغيف وهذه البيضة كان يُفطر . وكانت نفقات فطوره تراوح ما بين
فلسين واربعة فلوس تبعاً لرخص البيض أو غلائه . وفي الساعة السادسة
مساء كان يخط الى شارع سان جاك لكي يتعشى في مطعم روسو ،
تجاه محلّ « باسيه » ، تاجر الصور المطبوعة على الخشب ، عند زاوية
شارع الماتورين . ولم يكن يطعمُ حياه ما ، مجتزئاً بطبق من اللحم
بسة فلوس ، ونصف طبق من الحُضر بثلاثة فلوس ، وطبق من الفاكهة
او الحلوى بثلاثة فلوس . وكان يقدم اليه ، بثلاثة فلوس ، اي مقدار
من الحبز يشاء . اما خمره فكانت الماء . حتى اذا نهض ليسدد حسابه
عند المنضدة ، حيث تجلس مدام روسو في عظمة ، وكانت ما تزال في
تلك الحقة بمدينة ناضرة البشرية ، أعطى النادل فلساً ، واعطته مدام
روسو ابتسامة . لقد فاز ، مقابل ستة عشر فلساً بابتسامة وعشاء .

أما مطعم روسو هذا - حيث يُفرغ قليل من القناني وكثير من

الاباريق - فكان مُسَكَّنًا اكثر منه مطعماً . إنه لم يعد قائماً ، اليوم .
وكان لصاحبه لقب بديع ؛ كانوا يدعونه ووسو المائي .

وهكذا : فطور باربعة فلوس ، وعشاء بستة عشر فلساً . كان
طعامه يكلفه عشرين فلساً في اليوم ، يعني ثلاثئة وخمة ستين فرنكاً
في العام . أضف الى هذا ، الثلاثين فرنكاً وهي اجرة غرفته ، والستة
والثلاثين فرنكاً وهي أجر المرأة المعجوز ، وبعض النفقات الاخرى
الضئيلة نجد ان ماريوس كان يأكل ويبيت ويُخدم لقاء اربعمئة وخسين
فرنكاً . وكلفته بذلته مئة فرنك ، وملابسه الداخلية خمين فرنكاً ،
وغسلُ تلك الملابس خمين . وكذلك لم تتجاوز نفقاته كلها ستمئة
وخمين فرنكاً . وهذا ما ابقى له خمين فرنكاً . كان غنياً . وبين
الفينة والفينة كان يُعير صديقاً من أصدقائه عشرة فرنكات . وذات
مرة استعار كورفيراك ستين فرنكاً منه . أما التدفئة - ولم يكن في
غرفته موقد - فكان ماريوس قد « بسَّطها » .

وكانت عند ماريوس دائماً بذلتان كاملتان ، احدهما عتيقة « للايام
جميعاً » ، والاخرى بالغة الجِدَّة ، للناسبات الخاصة . وكانت كلتاهما
سوداء . ولم يكن عنده غير ثلاثة قمصان ، احدها على بدنه ، والاخر
في الدرج ، والثالث عند الغسالة . وكان يجدهما كلهما بليت . وكانت
رثةً في الاغلب ، وهكذا جرت عادته بأن يزور سترته حتى الذقن .
ولم يبلغ ماريوس هذه الحالة الزاهرة إلا بعد صبر دام سنوات طويلة .
سنوات شاقة ، عسيرة ؛ بعضها لكي يشق طريقه ، وبعضها لكي يصعد
في جدّ . ولم يعرف ماريوس اليأس يوماً واحداً . لقد تحمل كل شيء
في مجال الحرمان . ولقد حمل كل شيء ما خلا التردّي في الدين . لقد
تدسَّح بهذه المأثرة ، وهي أنه لم يكن في يوم من الايام مديناً لأحد
بفلس واحد . فقد كان الدين ، في اعتقاده ، اول العبودية . بل لقد
استشعر ان الدائن شرٌّ من السيد . ذلك بأن السيد لا يملك إلا

شخصك ، أما الدائن فيملك كرامتك ، وفي استطاعته أن يصفعها .
وبدلاً من أن يستدين ، كان يمتنع عن الطعام . لقد عرف أيام صوم
كثيرة . واذا أحسّ بأن جميع الأطراف القسوى تلتقي ، واننا اذا لم
تتخذ حذرنا فن الجائز ان يؤدي انخفاض الحظ الى انحطاط النفس ،
فقد سهر في كثير من الغيرة على شهامته . كانت هذه العادة او تلك
المشية وغيرهما (مما بدا له في جميع الاحوال الاخرى فاضحاً بالاحترام)
تبدو له راسحةً بالاحتقار ، فهو ينأى بنفسه عنها . إنه لم يخاطر بشيء اذ
كان غير راغب في النكوص على عقبيه . كان يعلو وجهه ضرب صارم
من حمرة الحجل . فقد كان حياً حتى الفظاظة .

وفي جميع محنه استشعر ان قوة خفية باطنية تشجعه بل وتحرضه
في بعض الاحيان . إن النفس تمين الجسد ، وفي بعض الاحيان ترفعه .
لإنها الطائر الوحيد الذي يحمل قفصه .

والى جانب اسم ابيه كان اسم آخر منقوشاً على قلب ماريوس ،
هو اسم تيناردييه . كان ماريوس ، بطبيعته الحماسية والجدية ، قد
طوّق بضرب من الهالة ذلك الرجل الذي كان مديناً له - كما توهم -
بحياة والده ، ذلك الرقيب الذي انقذ الكولونيل وسط قذائف واترلو
وقنابلها . إنه لم يفصل في يوم من الايام ذكرى هذا الرجل عن ذكرى
أبيه ، ولقد كان يجمع ما بينهما في إجلاله . كان ذلك الاجلال ضرباً
من العبادة على درجتين ، فالمدبح الكبير للكولونيل ، والمدبح الصغير
لتيناردييه . وكان مما كثف عرفانه للجميل إدراكه أن تيناردييه قد
سقط في مهاوي الفاقة فكادت تبتلعه . فقد علم ماريوس من ابنائه
مونفيرماي بأفلاس الفنديّ التعس . ومنذ ذلك الحين وهو يبذل جهوداً
لم يُسمع بمثلها لكي يتعقب أثره ، ويجاول العثور عليه في هوة البؤس
المظلمة التي اختفى فيها . وكان ماريوس قد جاب البلاد كلها من أجل
ذلك . لقد شخص الى شيل ، الى بوندي ، الى غورنابي ، الى نوجان ،

الى لانبي . وطوال ثلاث سنوات وقف نفسه لهذا الغرض ، منفقاً في تنقيباته هذه كل ما وفره من مال ضئيل . بيد أنه لم يجد من يزوده بأيما نأ عن تيناردييه . لقد اعتقد القوم بأنه هاجر الى بلد أجنبي . وكان دائئوه قد مجشوا عنه ايضاً ، في حبّ أقل من حبّ ماريوس ، ولكنّ في عناد مثل عناده ، فلم يوقفوا الى وضع يدهم عليه . ولام ماريوس نفسه ، بل لقد كاد يبغضها ، لاختفائه في مباحثه . كان ذلك هو الدين الأوحيد الذي تركه الكولونيل له ، وأتقد حسب ماريوس أن في دفعه شرفاً له وكرامة . وفكر في ما بينه وبين نفسه : « عجيب ! عندما كان والدي يلفظ أنفاسه الاخيرة في ساحة القتال عرف تيناردييه كيف يجده وسط الدخان وقذائف المدافع ويرجع به وقد حمله على منكبيه ، ومع ذلك فلم يكن مديناً له بشيء . في حين اني انا ، المدين لتيناردييه بشيء كثير ، أعجزُ عن الوصول اليه في تلك الظلمة التي يعاني وسطها سكرات الموت ، وأعيده بدوري من الموت الى الحياة ! اوه ! سوف أجده ! ، والواقع ان ماريوس كان مستعداً لأن يقدم لإحدى ذراعيه ثمناً للعثور على تيناردييه ، وأن يبذل دمه كله ثمناً لانقاذه من الشقاء . فلأن يرى تيناردييه ، ولأن يسدي خدمة ما الى تيناردييه ، ولأن يقول له : « انت لا تعرفني ، ولكنني اعرفك . ها أنا ذا ! اني تحت تصرفك ! » - ذلك كان اعذب أحلام ماريوس وأبهاها .

٣

ماريوس رجلاً

كان ماريوس قد بلغ ، في تلك الفترة ، العشرين من عمره . لقد انقضت ثلاث سنوات على فراقه جدّه . وكان كل منهما قد لزم موقفه ،

فلم يحاول إصلاح ذات البين ولم يسميا الى اللقاء . وما جدوى اللقاء ،
في الواقع ؟ ألكي يتصادما ؟ ومن الذي سوف يستخلص حقه من
الآخر ؟ لقد كان ماريوس زهرية من نحاس أصفر ، ولكن مسيو
جيلنورمان كان إناءً من حديد .

ولنقل هنا إن ماريوس أخطأ في فهمه لقلب جدته . لقد تخيل أن
مسيو جيلنورمان لم يحبه في يوم من الايام ، وأن هذا الرجل العجوز
الجاف القاسي الضاحك الذي كان يجدف ، ويصبح ، ويعصف ، ويرفع
عصاه لم يكن يستشعر نحوه على التكثير غير تلك المودة الحقة الصارمة
معاً ، التي يتكشف عنها عجائز الكوميديا . لقد خدع ماريوس . إن
تمة آباءه لا يحبون اولادهم . ولكن ليس تمة جدته لا يهيم بحفيده . والحق
انا قلنا من قبل إن مسيو جيلنورمان كان يعبد ماريوس . لقد عبده
بطريقته الخاصة ، على انغام الكلام اللاذع ، بل على انغام الصفعات .
ولكن ما إن ذهب الفلام حتى احس "بفراغ أسود في فؤاده . لقد
أصدر أمره بأن لا يجده احدٌ حديثه منذ اليوم ، آسفاً في ما بينه
وبين نفسه لأن يكون أمره قد أطبع على هذا النحو الدقيق . وفي
هادي الأمر ، كان يرجو أن ينكص هذا البؤس طبرتي ، هذا العقوبي ،
هذا الارهابي ، هذا الأيلوبي * ، على عقبه . ولكن الاسابيع انقضت ،
والاشهر تصرمت ، والسنين حالت ، من غير ان يعود شارب الدماء -
وبا لباس مسيو جيلنورمان ! - الى الحظيرة . « ولكني ما كنت
قادراً على أن أفعل شيئاً غير طرده . » كذلك قال الجد بينه وبين
نفسه ، ثم تساءل : « لو ان ذلك الحادث قد تكرر فهل أعاود الاقدام
على ما أقدمت عليه ؟ » وعلى الفور ، أجابت كبرياؤه أن نعم ، ولكن
رأسه العجوز الذي هزه في صمت اجاب في حزن ان لا . كانت له

* الابلوليون Septembriscaurs م الذين شاركوا في المذبحة التي ذهب ضحيتها
المعتقلون السياسيون في سجون باريس من ٢ - ٦ ايلول عام ١٧٩٢ .

ساعات خَوْرِهِ . وافتقد ماريوس . فالعجائز يحتاجون الى المودات حاجتهم الى أشعة الشمس . إنها دفء . وبرغم الصلابة التي تميزت بها طبيعته ، كان غياب ماريوس قد غير شيئاً في ذات نفسه . وما كان خليقاً به ان يخطو خطوة واحدة نحو « الوغد الصغير » بأي ثمن ؛ ولكنه تألم . ولم يستطلع نبأه قط ، ولكنه فكر فيه تفكيراً موصولاً . كان يسكن ، معتزلاً المجتمع اكثر فأكثر ، في الد « ماريه » . وكان لا يزال ، شأنه من قبل ، مرحاً عفيفاً ، ولكن مرحة كانت يتسّم بقساوة متشعبة فكأنها تنطوي على وجع وغضب ، وانفجارات عنفه كانت تنتهي دائماً بضرب من الضنى العذب القائم . كان يقول في بعض الاحيان : « أوه ، اي صفة سوف أصفه لو قدّر له ان يعود ! » اما الحالة فكان تفكيرها أندر من ان يجعلها تحب حباً جماً . إن ماريوس لم يعد عندها غير ضرب من الصورة المظلمة أسود غامض ؛ ولقد انتهت آخر الأمر الى ان تشغل نفسها به اقل بكثير مما شغلتها بالهرة أو بالبيغاء التي كانت عندها في اغلب الظن .

وكان بما ضاعف الآلام الخفية التي عاناها جيلنورمان الأب أنه احتبس تلك الآلام في ذات نفسه ولم يدع ابنته تشعر بشيء من ذلك . كان فمه مثل تلك الافران المتحرّعة حديثاً والتي تُحرق دخانها نفسه . وقد يتفق احياناً ان يحدثه بعض الاشخاص ، النزاعين الى الخير المعترضين للبلايا ، حديث ماريوس ويسأله قائلًا : « اي شيء يفعله حفيدك ؟ » ، أو « ما الذي حلّ بحفيدك ؟ » ، فيجيبه البورجوازي للعجوز ، وهو يتنهد ، اذا كان محزوناً اكثر مما ينبغي ، أو وهو يخفق بسببته الحلية التي توتّن طرف رُدن قميصه ، اذا كان يبتغي ان يبدو مبتهجاً : « إن السيد البارون بوغيرمي يترافع في بعض القضايا الحظيرة في زاوية من الزوايا . »

وفيا العجوز بأسف ، كان ماريوس يتهلل . لقد محا الشقاء ، شأنه

مع ذوي القلوب الطيبة ، كربة ومرارته . كان لا يفكر في مسير جيلنورمان إلا في دماثة ، ولكنه كان قد وطن العزم على ان لا يتلقى شيئاً اضافياً من الرجل الذي كان شديد القسوة على أبيه . كان ذلك ، الآن ، هو التعبير الملطّف لسخطه القديم . وإلى هذا ، فقد كان سعيداً بأنه قاسى الآلام ، وبأنه ما يزال يقاسيها . كان ذلك من اجل أبيه . لقد أرضته قوة الحياة ، ولقد مرتته . كان يقول لنفسه في ضرب من البهجة ان هذا أقل ما ينبغي له ، وان ذلك كان تكفيراً ، وإنه لولا هذا اذن لعوقب على نحو آخر وفي موعد آجل بسبب من لا مبالاته الملعدة بأبيه ، واميّ أب ! وانه ليس من العدل ان يكون ابوه قد قاسى تلك الآلام كلها وان لا يتحمل هو ألماً ما ، وعلى اية حال فما جهوده وما إملاقه اذا قيسا بحياة الكولونيل البطولية ؟ وإن وسيلته الوحيدة للاقتراب من والده والتشبّه به هي ان يكون بأسلاً في وجه العوز كما كان هو شجاعاً في وجه العدو ؛ وإن ذلك كان ما عناه الكولونيل ، من غير شك ، بقوله : « ولسوف يكون جديراً به » . كلمات كان ماريوس ما يفناً يحملها ، لا فوق صدره ، بعد ان اختفت وصية الكولونيل ، ولكن في فؤاده .

وفوق هذا ، فقد كان مجرد طفل حين طرده جده ، اما الآن فقد أمسى رجلاً . لقد احسّ بذلك . لقد اسدى اليه البؤس - وينبغي ان نصرّ على هذا - خدمةً صالحة . فللفاقه في الشباب - حين ينجح - هذه الحاصة الرائعة ، وهي ان تُوجّه الارادة كلها نحو العمل ، والنفس كلها نحو السموّ . إن الفقر يعرّي الحياة المادية في الحال ، ويجعلها بشعة ، ومن هنا تنشأ ضروب من التوق الى الحياة المثالية لا سبيل الى التعبير عنها . إن للغميّ مئة من التسليّات المشرقة والفظّة : سباق الحيل ، والقنص ، والكلاب ، والتبغ ، والقمار ، والمآدب ، وأضرابها ؛ شغلّ للاجزاء الدنيا من النفس على حساب الاجزاء الرفيعة الرقيقة . إن

على الشاب الفقير ان يعمل كسباً لحبزه . إنه يأكل . حتى اذا أكل لم يبقَ له غير الاستغراق في التفكير الحالم . إنه يشهد ، بالبحان ، المسرحية التي يقدمها الله . إنه يتأمل السماء ، والمدى ، والنجوم ، والازهار ، والاطفال ، والانسانية التي يتألم فيها ، والحليقة التي يتألق فيها . إنه يسرف في النظر الى الانسانية حتى ليرى الروح ، وإنه يسرف في النظر الى الحليقة حتى ليرى الله . هو يحلم ؛ هو يشعر بأنه عظيم ؛ وهو يحلم كرة اخرى ؛ وهو يشعر بأنه رقيق القلب . ومن أنانية الرجل الذي يتألم ، ينتقل الى حنات الرجل الذي يتأمل . إن عاطفة رائعة لتتفجرُ في ذات نفسه : نسيان النفس ، والرحمة للجميع . إنه اذ يفكر في المسمّات غير المعدودة التي تقدمها الطبيعة وتمنعها وتسخرها للنفوس المنفتحة وتأبأها على النفوس المغلقة ينتهي - هو ، مليونير الذكاء - الى ان يرثي للمليونيرى المال . ويفارق البفضُ كله فؤاده بقدر ما يتسرّب النور كله الى عقله . وبعدُ ، أهو تمس ؟ لا . إن بؤس شابٍ من الشبان ليس بانساً ابدآ . إن اول فتىٍ تقع عليه عينك ، مهما يكن فقيراً ، خليق بأن يثير - بصحته ، وقوته ، وخطوته الرشيقة ، وعينه اللامعتين ، ودمه الذي يجري حاراً ، وغداؤه السوداء ، ووجنيه النضرتين ، وشفته الورديتين ، واسنانه البيضاء ، ونفسه الطاهر - حسدَ الاباطرة العجايز دائماً . ثم إنه ينطلق كل صباح سعياً وراء الحُبز ؛ وفيما تكسب يدها الرغيف يكسب عموده الفقري شهامةً ، ويكسب دماغه افكاراً . حتى اذا أتم عمله ، انقلب الى النشوات الروحية التي تمتنع على التصوير ، الى التأمل ، الى الجذل . إنه يرى قدميه في المصاعب ، في العقبات ، على بلاط الشارع ، في العُلّيق ، وأحياناً في الوحل ؛ ويرى رأسه في النور . إنه مكينٌ ، بشوش ، رقيق الحاشية ، سهل الحليقة ، يقظٌ ، رصين ، يقنع بالقليل ، عاصر القلب بالعطف . وهو يحمد الله لأنه منعه هذين الكنزين اللذين يُغوزان كثيراً

من الاغنياء : العمل ، الذي يُسبغ عليه الحرية ؛ والفكر ، الذي يُلبسه رداء النبل .

ذلك ما جرى في ذات نفس ماريوس . بل لقد ذهب - اذا اردنا ان نقول كل شيء - الى أبعد ، قليلاً ، بما ينبغي ، في حقل التأمل . فما إن بلغ المرحلة التي اطمأن فيها ، او كاد ، الى كسب رزقه ، حتى وقف هناك ، مُؤثراً ان يكون فقيراً ، مقتصدآ في العمل لكي ينصرف الى التفكير . يعني أنه كان يفتق احياناً اباماً بكاملها في التفكير ، غارقاً مثل اصحاب الرؤى والاحلام في المباحج الحرساء التي تتيحها النشوة الروحية والسنى الباطني . كان قد طرح مشكلة حياته على هذا النحو : أن يعمل أقلّ قدرٍ مستطاع في ميدان العمل الملموس ، ليعمل اكبر قدر مستطاع في ميدان العمل غير الملموس . وبكلمة اخرى أن يعطي الحياة الواقعية بضع ساعات ويقذف بسايرها الى اللانهاية . إنه لم يفتن - وقد حسبَ أن شيئاً ما لا يعوزه - الى أن التأمل الذي يفهم المرء على هذا النحو ينتهي الى ان يصبح شكلاً من أشكال الكسل ، ولم يدرك انه كان قانماً بقهر ضرورات الحياة الأولية ، وأنه كان يستريح بأبكر مما ينبغي .

° كان واضحاً ان هذا لا يمكن ان يكون - بالنسبة الى طبيعته الهامة النجيبة - غير حالة عابرة ، وان ماريوس سوف يستيقظ عند أول اصطدام بتعقيدات القدر التي لا مفرّ منها .

وفي غضون ذلك ، وبرغم كونه محامياً ، وآياً ما كانت الافكار التي راودت جيلنورمان الجدة ، فانه لم يكن يتأفف ، بل لم يكن يتولى الدفاع في بعض القضايا الحفيرة . كان الاستغراق في التأمل قد صرفه عن القانون . كان الاختلاط بالمحامين ، والتردد الى قصر العدل ، وتصيد القضايا ، شيئاً يبعث على الضجر . وما حاجته الى ذلك ؟ إنه لم يرَ سبباً يدعو الى تغيير مرتزقه . فقد قدّمت اليه تجارة

الكتب هذه ، الرخيصة ' الحاملة ' ، عملاً أكيداً ، عملاً لا يقتضيه غير قليل من الجهد كان يكفيه ، كما شرحنا من قبل .

وكان احد الكتبيين الذين عمل في خدمتهم ، وهو مسيو ماجيميل في ما أعتقد ، قد عرض عليه ان يُنزله في بيته ، ويقدم اليه غرفة جيدة ، ويزوّده بعمل نظامي ، ويدفع اليه الفأ وخمسة فرنك كل عام . أن تكون له غرفة جيدة ؟ ألف وخمسة فرنك ! حسن جداً ! ولكن أبتخلي عن حريته ؟ أصبح شبه موظف يعمل من اجل الراتب ؟ ضرباً من الأديب المستخدم في مكتب ؟ كانت قبول ذلك ، في نظر ماريوس ، يحسن وضعه ويجعله اسوأ في آن معاً . كان خليقاً بأن يُكسبه شيئاً من الرفاهية ، وبأن يُفقد شيئاً من الكرامة . لقد كان يقتضيه ان يتخلى عن شقاء كامل عذب في سبيل عُسرٍ بشعٍ مضحك . إنه شيء أشبه بالأعمى يفوز بعين واحدة . ورفض .

وعاش ماريوس في عزلة . وكان قد قرّر ان لا يدخل الجماعة التي يرئسها آنجولراس ، وذلك بسبب من نزعه الى الابتعاد عن كل شيء ، وبسبب من غلو تلك الجماعة وتطرفها . لقد ظلّ صديقين مخلصين . وكانا مستعدين لأن يساعد احدهما الآخر ، اذا قضت الحاجة ، بمختلف الطرق الممكنة ، ولكن ليس أكثر من ذلك . كان لماريوس صديقان ، شاب هو كورفيراك ، وعجوز هو مسيو مابوف ، وكان أميل الى الصديق العجوز . كان قبل كل شيء مديناً له بالثورة التي اندلعت في نفسه ؛ كان مديناً له بمعرفته أباه وحبّه له . وكان يقول : « لقد أجورى لي جواحة ظلام العدسة البلورية . »

حقاً ، لقد كان وكيل الكنيسة هذا حامماً .

بيد ان مسيو مابوف لم يكن في تلك المناسبة شيئاً أكثر من رسول هادي ، مطواع من رسل العناية الالهية . كان قد نورّ ماريوس مصادفةً ومن غير ان يكون له بذلك علم ، كما تفعل شمعة يحملها شخص

ما . لقد كان هو تلك الشعلة لا ذلك الشخص .
 أما ثورة ماريوس السياسية الباطنية فقد كان مسيو مابوف عاجزاً كل
 العجز عن فهمها ، أو الرغبة فيها ، أو توجيهها .
 واذ كنا سنلتقي مسيو مابوف في ما بعد ، فإن من المفيد ان نقول
 بضع كلمات فيه .

٤

مسيو مابوف

يومَ قال مسيو مابوف لماريوس : « أنا اقروا اعتناق الآراء السياسية
 من غير شك » كان يعبر عن وضعه الفكري الحقيقي . كانت جميع
 الآراء السياسية سواءً عنده ، وكان يقرها جميعاً من غير تمييز ، شرط ان
 لا تعكر عليه هدوءه ، كما كان الاغريق يدعون آلهة الجحيم « الحسان ،
 الحيرات ، الفاتنات » ، * Les Euménides . كان رأي مسيو مابوف السياسي
 يتلخص بالهيام بالنباتات ، وبالهيام على نحو أخص بالكتب . كان له شأنٌ
 سائر الناس ياه نسبتِه الدالة على المذهبية ، والتي ما كان في ميسور أحد
 ان يجيا بدونها في تلك الايام . ولكنه لم يكن لا ملكياً ، ولا بوناوتياً ،
 ولا دستورياً ، ولا اورليانياً ** ولا فوضوياً . كان كتيباً متاجراً
 بالكتب القديمة .

انه لم يفهم كيف يشغل الناس انفسهم بالتباغض من اجل اشياء باطلة
 مثل الدستور ، والديموقراطية ، والشرعية ، والملكية ، والجمهورية الخ . في

* وتعني المطوفات اللطافات ، وهو اسم الثيمن الذي كان الاغريق يخلعونه على آلهة
 الجحيم (Erinnyes او Furies)

** نبة ال دوق اورليان (١٨١٠ - ١٨٤٢) ابن لويس فيليب .

حين يجفل هذا العالم بمختلف ضروب الطحالب ، والاعشاب ، والشجيرات التي يستطيعون النظر اليها ، ويرواها من الكتب من قطع نصف الطلحة بل ومن قطع واحد على اثنين وثلاثين من الطلحة يستطيعون تصفُّحها . ولقد بذل عناية كبيرة لكي لا يكون قليل الغناء . إن امتلاكه الكتب لم يمنعه من المطالعة ، وان كونه عالماً بالنبات لم يمنعه من ان يكون بستانياً . وحين عرف بونيرسي ، نشأت بينه وبين الكولونيل من هذه المشاركة الوجدانية وهي ان ما فعله الكولونيل من اجل الازهار ، فعله هو من أجل الازهار . وكان مسيو مابوف قد وُفق الى إنتاج اجاص يُزرع بذراً لا يقل نكهة عن اجاص سان جيرمان . وانما ندين لأحدى تركيباته ، في ما يظهر ، بنجوخ او كتوبر الصغير الاصفر ، الذي أمسى اليوم شهيراً ، والذي لا يقل عطرية عن نظيره من خوخ الصيف . وكان يشهد القداس بدافع من الدماعة اكثر مما كان يشهد بدافع من العبادة ، ولأنه كان يحب محبة الرجال ولكنه يكره صخبهم ، وما كان ليخدم مجتمعين صامتين الا في الكنيسة . واذ كان يشعر أن عليه أن يكون شيئاً في الدولة فقد اختار وظيفة وكيل كنيسة . وأخيراً فإنه لم يوفق قط الى ان يحب أيما امرأة حبه لبصلة من بصلات الحزامي ، أو ايما رجل حبه لكتاب من مطبوعات أسرة « ايلزيفير » . * وكان قد تجاوز سنه الستين منذ فترة غير قصيرة عندما سأله شخص ما ، ذات يوم : « ألم تتزوج قط ؟ » فأجابته : « لقد نسيت ! » وحين يتفق له في بعض الاحيان - ومن ذا الذي لا يتفق له ذلك ؟ - أن يقول : « اوه ، لو كنت غنياً ! » فإنه ما كان ليقولها وهو ينظر من طرف خفي الى فتاة حسناء ، مثل مسيو

* Elzévir أسرة شهيرة من الطابعين امت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في لايدن ، ولاهاي ، واورتخت ، وأمستردام . وكان اقدام المرادها لويس ايلزيفير . وكانت مطبوعاتها تتميز بأحرفها النحيلة .

جيانورمان ، ولكنّ لدن رؤيته كتاباً قديماً . لقد عاش وحده ، مع مربية عجوز . كان مصاباً بنقرس الايدي بعض الشيء ، حتى اذا نام تشبّثت اصابعه الهرمة ، المتصلبة بالروماتزم ، بنبتات الشرسف . وكان قد ألف ونشر « نباتات ضواحي كوتيريتز » المزين بالرسوم الملونة ، وهو مصنف جليل كان يحتفظ بالواحه النحاسية ، وكان يبيعه بنفسه . وكان الناس يقبلون مرتين أو ثلاث مرات في اليوم فيقرعون جرسه ، في شارع ميزيير ، التماساً لذلك الكتاب . وكان يجني من ورائه الفي فرنك كاملة كل عام ، وكان ذلك كل دخله تقريباً . وبرغم فقره ، وفق الى ان يلمّ - بالصبر ، والحلمان ، والوقت - شتات مجموعة نفيسة من النسخ النادرة ، في كل موضوع . انه لم يغادر منزله قطّ ، يوماً ، إلا وهو متأبط كتاباً ، وكثيراً ما كان ينقلب اليه حاملاً كتابين . وكان الزخرف الوحيد الذي يزين غرف الدور الارضي ذات الحديقة الصغيرة التي تؤلف بيته ، بعض مجموعات النباتات المؤطرة * المحفوظة للدرس ، وبعض النقوش من عمل الفنانين القدماء . كان مشهد سيف ما ، او بندقية ما ، يوقع الشعريرة في جسده . فطوال حياته ، لم يقف قرب مدفع ما ، حتى في الانقلابيد . كان له معدة لا بأس بها ، وأخ كاهن ، وشعره اشيب كلّه ، ولم يكن قد بقي من اسنانه شيء ، لا في فمه ولا في عقله ؛ وكانت له ارتعاشة تلفّ جسده كله ، ولهجة بيكاردية ، وضحكة طفلية ، وأعصاب واهنة ، وسياء خروف عجوز . ومع هذا كله ، لم يكن له اي صديق أو صاحب حميم بين الأحياء غير كتيّ عجوز في شارع « دو لا بورت سان جاك » ، يدعى رويول . كان حلم حياته أن يجعل العِظْلِمِ ** نباتاً وطنياً في فرنسا .

* الحاطة بأطر .

** العظلم : نبات « النيل » الذي يتخرج منه الصبغ الازرق المعروف بهذا الاسم .

وكانت خادمتها هي الاخرى ، ضرباً مخصوصاً من البراعة . كانت تلك المعجوز الفقيرة الصالحة عذراء . وكان هرثا ، «سلطان» ، الذي كان قادراً على ان يموء بزمور آليغري * في كنيسة سيستين ، قد ملأ فؤادها وسدّ حاجة ذلك القدر الذي كانت تملكه من العاطفة . إن اياً من أحلامها لم يذهب بها الى تخوم رجل ما . وهي لم تجتز في يوم من الايام حدود هرثا ذلك . لقد كان لها ، مثله ، شاربان . وكان مجدها في قلائسها ، الناصعة البياض دائماً . وكانت تنفق وقتها يوم الاحد بعد القداس ، في عدّ ملابسها الداخلية في صندوق امتعتها ، وفي نشر فساتينها التي ما تزال قطع قماش ، تلك الفساتين التي اشترتها ولكنها لم تخطها قط . كانت تعرف القراءة . وكان مسيو مابوف قد اطلق عليها امم الأم بلوتارك **

ووقع ماريوس موقعاً حسناً عند مسيو مابوف ، لأن ماريوس ، الغضب الاهاب العذب الروح ، أسغ الدفء على شيخوخته من غير أن 'يجفّل خوفه . إن الشباب ، مصحوباً بالعدوبة ، ليختلف في نفوس الشيوخ مثل أثر اشعة الشمس من غير رباح . وحين أشبع ماريوس بالجد العسكري ، بالبارود ، وبزحف الجيوش ، وبزحفها في اتجاه معاكس لاتجاهها السابق ، وبجميع تلك المعارك الأعجوبية التي أعطى فيها أبوه وتلقى ضربات سيف ضخمة جداً ، ذهب ليرى مسيو مابوف ، فعدته مسيو مابوف عن البطل من وجهة النظر الرياحينية .

وحوالى عام ١٨٣٠ ، توفي اخوه الكاهن . وبعد ذلك مباشرة تقريباً ، كالذي يقع عندما يهبط الليل ، أظلم أفق مسيو مابوف كله . لقد خسر ، بأفلاس كاتب من الكتاب العدول ، عشرة آلاف فرنك

* Allegri مؤلف موسيقي ايطالي (١٥٨٢ - ١٦٥٢) وضع لحناً مزموياً شهيراً .

** بلوتارك هو المؤرخ الاغريقي الكبير صاحب كتاب « سير مشاهير اليونان ورومة » .

كانت كل ما يملكه من مال باسم اخيه وباسمه . وأدت ثورة تموز * الى أزمة في بيع الكتب . ففي أيام الحرج يصيب الكساد ، اول ما يصيب ، الكتب الخاصة بنباتات بلد من البلدان . وتوقف رواج « نباتات ضواحي كوتيرتيز » فجأة . فتصرمت أسابيع من غير أن يفدَ من يشتريه . وفي بعض الاحيان كان مسيو مابوف يشب طرباً عند سماعه رنين الجرس ، فتقول له الأم بلوتارك ، محزونةً : « إنسه السقاء . » وبالاختصار ، فقد غادر مسيو مابوف شارع ميزيير ذات يوم ، وتخلّى عن مهامّ وكيل الكنيسة ، وهجر سان سوليس ، وباع جزءاً - لا من كتبه ، ولكن من صورهِ المطبوعة على الخشب ، وكان اقلّ تعلقاً بها منه بمجموعة كتبه - وأقام في بيت صغير بمجاعة مونبارناس ، حيث استقرت ثلاثة اشهر ليس غير ، لسببين اثنين : أولهما أن الدور الارضي والحديقة كلفاه ثلاثة فرنك وما كان يجرؤ على ان يدفع اكثر من مثلي فرنك أجراً لمنزله . وثانيهما أنه ، وقد نزل على مقربة من مرمى النار المعروف بمرسى « فاتو » ، كان يسع طوال النهار طلقات المسدّسات ، وهو امرٌ لم يكن في وسعه ان يحتسبه .

وحمل مصنفه النباتي ، والواحه النحاسية ، ومجموعاته النباتية المحفوظة للدرس ، ومحافظه ، وكتبه ، واستقرت قرب ال « سالييتريو » في شبه كوخ بقرية اوسترليتز حيث استأجر ثلاث غرف ، وحديقة مطوقة بسياج من النبات الشائك ، وبترآ ، لقاء خمسين ريالاً في العام . ولقد أفاد من هذه النقلة فباع اثائه كله تقريباً . ويوم دخل الى هذا المأوى الجديد استشعر ابتهاجاً بالغاً ، وراح يدق المسامير بنفسه ليعلق عليها النقوش والمجموعات النباتية المحفوظة . وأنفق بقية النهار في حفر حديقته ، حتى اذا هبط الليل ورأى انطباعة قائمة متفكرة ترينُ على وجه الأم بلوتارك ، ربت على

** هي الثورة التي أطاحت بشارل العاشر (تموز ١٨٣٠) ورفعت لويس فيليب الى عرش فرنسا .

كتفها وقال وهو يتسم : « آه ، إن عندنا نبات النيل ! »
كان زائران اثنان ليس غير ، كشيء⁴ « لا بورت سان جاك » وماريوس ،
يُستقبلان في كورخه بأوسترلنيز ، وهو اسم صاحب⁵ كان - إذا اردنا ان
نقول الحقيقة - بغيضاً جداً الى نفسه .

بيد ان العقول المستفرقة في الحكمة ، او في الحماقة ، أو في الحكمة
والحماقة في آن معاً كما يتفق في كثير من الاحيان ، لا تنفذ اليها شؤون
الحياة ، كما اشترنا من قبل ، الا نفاذاً بطيئاً . ان قدرها بعيد عنها . وانما
ينشأ عن هذا التركيز العقلي انفعالية خليقة بها ، اذا كانت قياسية ، ان
تشبه الفللفة . إننا ننعرف ، إننا نهبط ، إننا نسقط ، بل اننا ننهار ، ولا
نلاحظ ذلك الا بشق النفس . صحيح ان هذا ينتهي دائماً ، بيقظة ،
ولكنها يقظة متأخرة . وفي غضون ذلك يبدو وكأننا نقف موقفاً عادياً
من تلك المباراة الجارية ما بين سعادتنا وشقائنا . ان مصيرنا نحن لمرهون⁶
بتلك المعركة ، ومع ذلك فنحن نتابع وقائعها في لا مبالاة .

وهكذا احتفظ مسيو مابوف بطلاقة وجهه ، على نحو طفلي⁷ بعض
الشيء ، ولكن في كثير من النفاذ ، وسط هذه الظلمة التي كانت تتجمع
حوله ، وقد انطأت آماله أملاً بعد أمل . لقد عرفت عاداته العقلية مثل
ذبذبة رقاص الساعة ، الدائمة . انه وقد عُيىء بالوم مرة ظل⁸ منطلقاً فترة
طويلة حتى بعد ان زابله ذلك الوم . فالساعة لا تقف فجأة لحظة
نضيع المفتاح .

وكانت لمسيو مابوف بعض المباهج البريئة . وكانت تلك المباهج رخيصة
وغير مرتقبة ، اذ كانت اقل⁹ المصادفات تتيحها له . فذات يوم ، كانت الأم
بلوتارك تقرأ رواية في زاوية الغرفة ، وكانت تقرأ بصوت مرتفع واجدة¹⁰
ان ذلك يساعدها على حسن الفهم . إن قراءة المرء بصوت مرتفع تؤكد
له ما يقرأه . وثمة أناس يقرأون بصوت مرتفع جداً ، وقد بدت على
بحيام سببا من يقسم لنفسه بين الشرف على صحة ما يقرأه .

بمثل تلك الطاقة كانت الأم بلوتارك تقرأ الرواية التي امكت بها
بيدها . وسمع مسيو مابوف ، ولكنه لم يصغ .
وفيا هي تقرأ انتهت الأم بلوتارك الى هذه العبارة . كانت تتحدث
عن ضابط في سلاح التناين وإحدى الحسان :
- « إن الحساء قد أبدت استياءها *bouda* وإن التنين ... »
وكفت هنا عن التلاوة لكي تمسح نظارتها .
فقال مسيو مابوف في صوت كالمس :
- « بوذا (*Bouddha*) والثنين . اجل ، هذا صحيح . لقد كانت
هناك تنين أطلق شدقه اللهب ، من اعماق غاره ، فأضرم النار في السماء .
ولقد احترقت عدة نجوم ، بسبب من هذا الوحش الذي كانت له برائن
نمير ايضاً . فما كان من بوذا إلا ان مضى الى الغار ، ووفتق الى هداية
الثنين . إن هذا الكتاب الذي تقرأينه ، ايها الأم بلوتارك ، كتاب جيد .
ليس ثمة اسطورة اجل من هذه الاسطورة . »
وامتفرق مسيو مابوف في تفكير حالم عذب .

٥

الفقر ، جار طيب للشقاء

ومالت نفس ماريوس الى هذا العجوز الابيض القلب ، الذي راي
الى العوز يستبد به شيئاً بعد شيء ، والذي انتهى الى ان يأخذه
الدهش لذلك شيئاً بعد شيء ، ولكن من غير ان يلمّ به الحزن على
الاطلاق . وكان ماريوس يلتقي كورفيراك ويمضيان لزيارة مسيو مابوف .
بيد أن هذه الزيارات كانت نادرة جداً . مرة او مرتين ، كل شهر ،
على الأكثر .

وكان يبهج قلب ماريوس ان يتمشى وحده مسافات طويلة ، في الجادات الخارجية ، او في الـ « شان دو مارس » ، أو في مبرات اللوكسومبورغ الضيقة التي كان الناس قليلاً ما يسلكونها . وكان ينفق ، في بعض الاحيان ، نصف نهار ناظراً الى بستان خضّر ، والى المربعات المزروعة بالنباتات التي تُعمل منها السَّلطة ، والى الدجاج فوق المزابل ، والى الحصان يدير دولاب الناعورة . وكان عابرو السبيل ينظرون اليه في دهش ؛ وظن بعضهم أن له مظهرأ مريباً وسياء مشؤومة . إنه لم يكن غير شاب فقير ، يحلم من غير ما مأرب .

وفي احدى تزهاته هذه ، اكتشف بيت غوربو العتيق . وإذ جذبته انغزال ذلك البيت ورخصه ، فقد استأجر غرفةً من غرفه . وعرفه القوم هناك باسم مسيو ماريوس ليس غير .

ودعا بعض الجنرالات المتقاعدين وبعض رفاق ابيه القدماء ، حين عرفوه ، الى زيارتهم . ولم يرفض ماريوس الدعوة قط . كانت تلك مناسباتٍ للكلام عن ابيه . وهكذا كان يزور بين الفينة والفينة الكونت باجول ، والجنرال بيلافين ، والجنرال فريريون في الأنفاليـد . وهناك كانوا يعزفون الموسيقى ، وهناك كانوا يرقصون . وفي تلك الامسيات كان ماريوس يرتدي بذلته الجديدة . ولكنه ما كان يقصد لا الى تلك السهرات ولا الى تلك الحفلات الراقصة إلا حين بصيب الارض صقيع شديد ، اذ لم يكن قادراً على ان يدفع أجر عربة ما ، وكان عظيم الرغبة في ان يصل وحدائه لامع كالمرآة .

وكان يقول في بعض الاحيان ، ولكن من غير اكتئاب :

— « لقد رُكِّب الرجال على نحو يميز لهم ان يكونوا في صالون من الصالونات ، ملوثين بالطين كل التلوّث ، ولكن لا يميز لاحذيتهم ان تكون ملوثة . انهم لا يسألونك هناك ، لكي يحسنوا استقبالك ، غير شيء واحد ينبغي ان يكون خلواً من العيب . أهو الضمير ؟ لا . الحذاء ! »

وجميع الاهواء ، ما عدا هوى الفؤاد ، تنقش في التفكير الحالم . لقد انحصرت محميات ماريوس السياسية . وكان في ثورة ١٨٣٠ التي أرضتها وهدأتها ما ساعد على ذلك . لقد ظل هو هو ، باستثناء اندفاعه وانفعاليته ؛ وظلت آراؤه هي هي ، ولكنها كانت قد لطّفت . وبكلمة اذق ، انه لم يعد صاحب آراء ؛ لقد أمسى صاحب مشاركات وجدانية . الى أي حزب كان ينتمي ؟ الى حزب الانسانية . ومن بين الانسانية اختار فرنسة ، ومن بين الدولة اختار الشعب ، ومن بين الشعب اختار المرأة . فأليها قبل كل شيء انصرفت شففته . لقد غدا الان ، يؤثر الفكرة على الواقعة ؛ والشاعر على البطّل ؛ وأعجب بكتاب مثل سفر ايوب اكثر من اعجابه بمحدث مثل مارانغو . وفوق هذا ، فعين كان يرجع مساءً - بعد يوم من التأمل - مجتازاً الجادات ، ويرى من خلال اغصان الاشجار المدى الذي لا يُسبر غوره ، والانوار التي لا اسم لها ، والاهماق ، والظلمات ، وامرار الكون ، كان كل ما هو بشريّ يبدو صغيراً جداً في عينه .

وظنّ ماريوس انه وصل - ولعله ان يكرن قد وصل فعلاً - الى جوهر الحياة والفلسفة الانسانية . وانتهى آخر الامر الى ان لا ينظر بعد ، الا نادراً ، الى غير السماء ، وهي الشيء الوحيد الذي تستطيع الحقيقة ان تراه من اعماق بئرها .

ولم يمنعه ذلك من مضاعفة الخطط ، والتدابير ، والاستعدادات ، والتصاميم الموضوعية للمستقبل . ولو ان عيناً استطاعت ان تنظر ، في هذه الحالة من التفكير الحالم ، الى مريوة ماريوس اذن لبهرها صفاء تلك النفس . والواقع انه لو قدر لاعيننا التي من لحم ودم ان تنفذ الى ضمائر الناس لكان في ميسورنا ان نحكم على المرء من خلال ما يجلم به بأوثق جداً بما نحكم عليه من خلال ما يفكر فيه . ان في الفكرة ارادة ، اما في الحلم فليس من ارادة البتة . والحلم الذي هو تلقائيّ كلفه ، يتخذ ويحفظ - حتى في العظيم والمثل الاعلى - صورة عقلنا . ان شيئاً ما ، لا ينبثق من اعماق

نفوسنا على نحو اكثر مباشرة وأشدّ اخلاصاً ، من اشواقنا التي لم نفكر بها والتي لا حد لها الى أنجاد القدر . في هذه الاشواق نستطيع ان نجد شخصية الانسان - كل انسان - الحقيقية اكثر جداً مما نجدها في الافكار المركّبة ، القياسية ، المتسقة . ان أوها مناهي اكثر الاشياء شهاً بنا . وكل امريء يحلم بالمجهول وبالمستحيل وفقاً لطبيعته .

وحوالى منتصف تلك السنة ، ١٨٣١ ، علم ماريوس من المعجوز التي نخدمه أن جيرانه ، أمرة جوندريت البائسة ، سوف يقذف بهم الى الشارع . والحق ان ماريوس ، الذي قضى ايامه كلها تقريباً خارج غرفته ، لم يكن يدري ، أو لم يكده ، أن له جيراناً .

وقال :

- « ولماذا يخرجونهم من بينهم ؟ »

- « لأنهم لا يدفعون الأجرة . لقد تأخروا عن دفع قسطين

اثنين . »

- « وما مبلغ ذلك ؟ »

فقال المعجوز :

- « عشرون فرنكاً . »

وكان ماريوس يحتفظ بثلاثين فرنكاً في احد الادراج .

وقال للمعجوز :

- « خذي . هذه خمسة وعشرون فرنكاً . ادفعي الاجرة عن هذه

الامرة البائسة ، وقدمي اليها خمسة فرنكات ، ولا تقولي ان هذا

المبلغ مني . »

٦ البدل

واففق ان الكتيبة التي كان الملازم الأول تيبودول منضوياً تحت
لوائها عسكرت في باريس . وكانت هذه مناسبةً خطيرةً فيها للخالة
جيلنورمان فكرة جديدة . لقد فكرت ، في المرة الاولى ، ان تخضع
ماريوس لرقابة تيبودول . أما الآن فقد ائتمرت لكي تجعل تيبودول
يخلف ماريوس .

وأياً ما كان ، وفي حال شعور الجد بحاجة غامضة الى وجهٍ فنيّ
في المنزل - ذلك أن اشعة الفجر هذه لتبهج الحرائب أحياناً - فقد
كان من الملائم ان يُبحث عن ماريوس آخر . وفكرت : « أجل ، إنها
مجرد غلظة مطبعية كالتي اراها في الكتب ؛ إقرأ تيبودول بدلاً من
ماريوس . »

ان ابنَ ابنِ الأخ هو حفيدٌ او يكاد . وعندما لا يجد المرء محامياً
يستعيز عنه برمّاح .

وذات صباح ، فيما كان مسيو جيلنورمان يقرأ شيئاً مثل صحيفة
« لا كوتيديين » ، دخلت ابنته عليه ، وقالت بصوتها الأكثر رقة ،
اذ كانت المسألة تتصل بالشخص الأثير لديها :

- « ابي ، تيبودول سوف يأتي هذا الصباح ليقدم اليك احترامه . »

- « من هذا ، تيبودول ؟ »

- « ابنُ ابنِ اخيك . »

فقال الجد :

- « آه ! »

ثم استأنف قراءته ، ولم يفكر بعدُ بابنِ ابنِ اخيه الذي ما كان

غير تيبودول * ما ؛ ومرعان ما غلب عليه الاحتياج ، شأنه كلما طالع شيئاً ، تقريباً . لقد اعلنت الصحيفة التي يقرأها - وكانت ملكية الهوى حقاً ، فهذه مسألة غنية عن البيان - وكان إعلانها ذاك خلواً من كل تلطيف ، أن يوم غد سيشهد أحد أحداث باريس اليومية الصغرى آنذاك ؛ أعني أن طلاب مدرستي الحقوق والطب سوف يجتمعون في البانتيون ظهراً ، للتداول والمذاكرة . وكان الموضوع يدور حول قضية من قضايا الساعة : مدفعية الحرس الوطني ، والخلاف بين وزارة الحرب و « ميليشيا المواطنين » حول مسألة المدافع المنصوبة في ساحة اللوفر . كان الطلاب يعتمون « المذاكرة » في أمر ذلك . وكان هذا كافياً ، وحده ، لاثارة مسيو جيلنورمان .

وفكر في ماريوس الذي كان طالباً ، والذي كان من الراجح ان يذهب ، مثل غيره ، « للمذاكرة ، ظهراً ، في ساحة البانتيون . » وفيما هو مستغرق في هذا التفكير الأليم دخل الملازم الأول تيبودول ، مرتدياً ملابسه المدنية - وكان ذلك بارعاً - فقدمته الآنسة جيلنورمان في حذر . وقال الرماح في ما بينه وبين نفسه : « إن الكاهن الغالي العجوز لم يضع كل شيء وضماً نهائياً ، مدى الحياة . وهذا الأمر يستأهل أن يقنع المرء نفسه ، بين الفينة والفينة ، بنسيج حريري موسى . » وفي صوت مرتفع ، قالت الآنسة جيلنورمان لأبيها :

- « تيبودول ، ابن ابن أخيك . »

وفي همس ، قالت للملازم الأول :

- « أقر كل شيء . »

وانسحبت .

ولم يكن الملازم الأول متعوداً هذه اللقاءات الموقرة جداً ، فتلجلج

* التنوين هنا تنوين التكبير ، اي أنه كان مثل اي رجل آخر يحمل اسم تيبودول .

في شيء من الحياء : « صباح الخير ، يا عماء ! » وانحنى انحناءة مختلطة ، تتألف من الخطوط الكبرى للتحية العسكرية ، الارادية الميكانيكية ، 'منجزة' بتحية مدنية .

فقال الرجل العجوز :

« آه ! هذا انت ! حسن جداً . اجلس ! »

وبعد ذلك ، نسي الرمّاح نياناً كاملاً .

وجلس فيودول ، ونهض مسيو جيلنومان .

وشرع مسيو جيلنورمان بذرع العرفة جيئة وذهاياً ، واضعا يديه في جيبيه ، متحدناً بصوت مرتفع ، فاركاً بأصابعه العصبية الهرمة الساعتين اللتين كان يحملها في جيبي صدرته .

« هذه الكومة من الغلمان الاغرار ! إنهم يجتمعون في ساحة

البانتيون ! وحقّ عاهرتي ! صبيان كانوا أمس في سنّ الرضاع ! ولو

أنّ أمراً عصراً انوفهم ، اذن جرى اللبن منها ! ولسوف يتذاكرون

مُظهر غد ! الى اين نحن صائرون ؟ الى اين نحن صائرون ؟ واضح انا

صائرون الى الهاوية ! فالى هناك تسوقنا جماعة اللاقمعان ! مدفعية المواطنين !

يتذاكرون في امر مدفعية المواطنين ! يخرجون ويثرثرون في الهواء الطلق

عن ضراط الحرس الوطني المتواصل ! ومع من سوف يجدون انفسهم

هناك ؟ انظر قليلاً الى اين تقودنا اليقويية . إني اراهن على ما نشاء ،

على مليون مقابل قشّة ، أنه لن يجتمع هناك غير سجناء سابقين وأشغالين

مطلقى السراح . إن الجمهوريين والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة لينسجمون

مثل انفٍ ومنديل . قال كارنو * : « الى اين تريد ان اذهب ، ايها

الحائن ؟ » فأجابهُ فوشيه ** : « حيث تريد ، ايها الأبله ! » هؤلاء

* Carnot سياسي وعالم رياضي فرنسي (١٧٥٣ - ١٨٢٣) كان عضواً في

لجنة السلامة الوطنية ، وانشأ جيش الجمهورية الرابع عشر ، فلقب بـ « منظم النصر . »

فلما رجع آل بوربون الى العرش نفى من البلاد .

** Fouché سياسي فرنسي (١٧٥٩ - ١٨٢٠) عمل في خدمة نابليون ،

ثم نقل عنده بعد « الايام المثة » واحتفظ بمنصبه الوزاري في العهد البوربوني الجديد .

م الجمهوريون . »

فقال تيبودول :

- « هذا صحيح . »

والتفت مسيو جيلنورمان نصف التفاتة ، فرأى تيبودول ، وازداد :
-- « حسبك ان تفكر ان هذا الحقير كان شريراً الى درجة جعلته
يصبح كاربونارياً * . لماذا تركت بيتي ؟ لكي تذهب وتعتنق المذهب
الجمهوري ! بش ! قبل كل شيء ، الناس لا يريدون جمهوريتك ؛
انهم لا يريدونها ؛ انهم عاقلون . انهم يعرفون جيداً انه كان ثمة ملوك
دائماً وانه سوف يكون ثمة ملوك دائماً ؛ وهم يعرفون جيداً ان الشعب
على اية حال هو الشعب ، انهم يسخرون من جمهوريتك ، اسمع
انت ، ايها المعتوه ؟ اليس هذا الهوى فظيماً ؟ لقد أُغرموا بالاب
دوشين ، وسددوا نظرات وهى الى المقصلة ، وانشدوا الاغاني المؤثرة ،
وعزفوا « الفيتار » تحت شرفة عام ٩٣ ؛ يجب ان نبصق على
هؤلاء الشباب كلهم ، فما اشد حماقتهم ! انهم جميعاً في كومة واحدة .
وليس ثمة واحدٌ خارجها . يكفي ان يتنفسوا الهواء الذي يهب في الشارع
حتى يصابوا بالحبل . القرن التاسع عشر سم . ان اي داعر منهم يرسل
لحيته التيسية ، ويحسب نفسه بالغ البراعة ، ويتخلى عن انسابه العجائز .
ذلك جمهوري ! ذلك رومانتيكي ! ما المقصود بالرومانتيكي ؟ تلتطف
واخبرني ما معنى ذلك . جميع الحماقات الممكنة . منذ عام ، ذهبت
لتشهد هيرناني ** . اريد ان اعرف ، هيرناني ! تناقضات ! خبائث لم
تكتب حتى باللغة الفرنسية . وبعد ذلك يريدون ان ينصبوا المدافع في فناء

* نسبة الى الجمعية السرية الايطالية المعروفة بالكاربوناري . وقد انشئت في ايطاليا ،
مطلع القرن التاسع عشر ، وامتدت الى فرنسا بعد عودة آل بوربون الى العرش .
وكان هدفها الرئيسي إشاعة الامكار التحررية ، ونوحيد ايطاليا .

** Hernani مسرحية فيكتور هيجو الشهيرة التي مثلت اول مرة عام ١٨٣٠
فأضفت على مؤلفها شهرة عريضة وجعلته زعيماً للدرسة الرومانتيكية .

الوفور . تلك هي لصوينة هذا العصر المسلحة .

فقال تيبودول :

- « انت على صواب ، يا عمّاه . »

واستأنف مسيو جيلنورمان كلامه :

- « مدافع في فناء المتحف ! لماذا ؟ ايها المدفع ، اي شيء تريد ؟
أتريد ان تصرع أبولو بيلفيدير * ؟ وأي شيء شأن لقتائف المدفع بفينوس
آل مديتشي ** ؟ أوه ، إن شباب هذا الجيل كلهم لصوص مسلحون !
وما أحقر شأن صاحبهم بنجامان كونستان ! وغير المجرمين منهم
حمقى معتوهون ! إنهم يبذلون غاية جهدهم لكي يكونوا بشعيين . إنهم
يرتدون ثياباً رثة . إنهم يخافون النساء . إن لهم حول صاحبات اللتانير
سبا شعاذين تُعزري خادمت الفنادق الشرسات ، بعض الشيء ، بأن
ينفجرون بالضحك . وأقسم بشرقي إن المرء خليق به أن يقول إن الفتيان
المساكين مَجْعولون من الحب . إنهم بشعون ، وهم يُكلمون انفسهم
بالبلاهة . إنهم يكرّرون نكات « تيرسيلين » و « بونيه » الجناسية . وإن
لهم سترات قصيرة فضفاضة ، وصدرات كصدرات « سواس الحيل » وقصاناً
من قطن غليظ ، وبنطلونات من جورخ غليظ ، واحذية طويلة من جلد غليظ .
إن الرسوم المشجرة التي تزين ملابسهم تشبه ريشهم . وفي استطاعة المرء ان
يُفيد من رطانتهم فيجدد بها نعال احذيتهم العتيقة . وجميع هؤلاء الصبية
الحقى آراء سياسية . إنهم ينشئون الانظمة ؛ إنهم يصلحون المجتمع ؛ إنهم
يقوّضون الملكية ؛ إنهم يُبطلون جميع القوانين ؛ إنهم يضعون العلية
محلّ القبو ، وبواب بيتي محلّ الملك ؛ إنهم يقلبون اوروبة رأساً على
عقب ؛ إنهم يُعيدون بناء العالم ، وما حظوتهم غير النظر من طرف

* أبولو بيلفيدير من اروع التماثيل لأبولو ، الاله الشمس عند الاغريق . و بيلفيدير
متحف روما الشهير ، في الفاتيكان .

** اشهر تماثيل من تماثيل فينوس ، وهو محفوظ بمتحف فلورنسة .

خفيّ الى سيقان الفسّالات وهن يصعدن الى عرباتهم ! آه ! ماريوس !
 آه ! ايها الشحاذ ! انت ذاهب لتصبح في ساحة عامة ! لتناقش ،
 وتجادل ، وتتخذ إجراءات ! إنهم يدعون ذلك اجراءات ، أيتها الآلهة
 العادلة ! إن البلبلة لتتكش وتصبح حقاً . لقد رأيت الفوضى ، وإني
 لأرى التشوّش . طلاب يتذاكرون في موضوع الحرس الوطني - هذا
 ما لا تقع عليه عند الأوجيوس * أو عند الكادوداش ** ! إن
 المتوحشين الذين يمشون عراةً تماماً ، وقد بدت رؤوسهم الضخمة مثل
 الفلبينة المرائنة التي يلعب بها الاولاد ، وشكّكت دبابيس في أرجلهم ،
 هم أقلّ توحشاً من حملة البكالوريا هؤلاء ! قرودٌ لا تساوي أكثر من
 اربعة فلوس ! قرود بحسبها الناس مثقفين وأكفاء ! إنهم يتداولون
 ويعملون الفكر إعمالاً سيئاً ! تلك هي نهاية العالم ! ومن الواضح أنها
 نهاية هذه الكثرة البائسة المؤلف نصفها من اليابسة ونصفها من الماء .
 كانت في حاجة الى شهقة اخيرة ، وها هي فرسة تطلق تلك الشهقة .
 تناولوا ، ايها الاوغاد ! مثل هذه الاشياء سوف تحدث ما داموا
 يقرأون الصحف تحت أقواس الأوديون *** . ان ذلك يكلفهم فلساً واحداً ،
 وحصافتهم ، وذكاهم ، وقلوبهم ، ونفوسهم ، وعقولهم . انهم يرجعون من
 هناك حاملين الحرب الى أسرهم . كل هذه الصحف طواعين . كلها ، حتى
 « الراية البيضاء » ! إن مارتينفيل **** كان في اعماقه يعقوبياً . أوه ، يا

* Ogtbewas قبيلة كبيرة من هنود اميركة الشمالية وهي موزعة بين كندا
 والولايات المتحدة .

** Cadodaches من القبائل الهندية في اميركة الشمالية أيضاً .

*** Odéon اثر أثيني مشهور كانت تجري فيه مباريات في الموسيقى والشعر . وقد خلع
 هذا الاسم على « المسرح الفرنسي الثاني » في باريس ، وقد اسس عام ١٧٩٧

**** Martainville صحفي وكاتب مسرحي فرنسي (١٧٧٦ - ١٨٣٠) . كان ملكياً
 متحمساً ، وقد انشأ عام ١٨١٨ صحيفة « الراية البيضاء » Drapeau Blanc

للساء ! في استطاعتك ان تفخر بأنك ادخلت اليأس على قلب جدك ،
اجل في استطاعتك ! ،

فقال تيودول :

.. « هذا واضح . »

وافاد الرماح من تمهل مسيو جيلنورمان وأخذِهِ نَقاً فأضاف في

نبرة جازمة :

– « يجب ان لا يكون ثمة غير صحيفة واحدة هي الـ « مونتور » ،

وغير كتاب واحد هو « الحولية العسكرية » *Annuaire Militaire* .

وتابع مسيو جيلنورمان حديثه :

– « انه مثل سييس * قاتلُ ملكٍ ينتهي الى ان يصبح عضواً في

مجلس الشيوخ ! تلك هي الطريق التي ينتهون اليها دائماً . انهم يجلدون

أنفسهم بضير المفرد وبلفظة « مواطن » لكي يصلوا آخر الامر الى ان

يدعوم الناس السيد الكونت ، السيد الكونت بطول ذراعي !

يا لسقاحي ايلول هؤلاء ! الفيلسوف سييس ! انا سعيد بأن اقول اني

لم اكون في يوم من الايام لفلسفات هؤلاء الفلاسفة جميعاً اكثر مما

اكونت لنظارتني مهترج التريفولي . لقد رأيت أعضاء مجلس الشيوخ

يجتازون ذات يوم الـ « كي مالاكيه » وقد ارتدوا معاطف من مخمل

بنفسجي مذرور بالنحل واعتمروا بقبعات من طراز هـنوي الرابع .

كانوا فظيعين . ولقد كان في استطاعة المرء ان يقول انهم قروء بلاط

النمر . ايها المواطنين ، اني اقول لكم ان تقدمكم جنون ، وان

* Sieyès راهب وسياسي فرنسي (١٧٤٨ - ١٨٣٦) كان مؤسس « نادي

العاقة » ، وقد لعب دوراً بارزاً في السياسة الفرنسية ، فكان عضواً في « الجمعية

التأسيسية » ، ثم في « المؤتمر الوطني » ، ثم في « مجلس الخمسة » ، ثم وزيراً في حكومة

الادارة ، ثم قنصلاً .

انسانيتكم حلم ، وان ثورتكم جريمة ، وان جمهوريتكم هولة * ، وان
فرنساكم الفتاة منبتقة من الماخور ! اني اؤكد ذلك لكم جميعاً ، سواء
أكنتم صحافيين ، أم علماء اقتصاد ، أم فقهاء ، أم كنتم جهابذة في
الحرية والمساواة ، والاخاء ، اكثر من ساطور المقصلة ! اقول لكم
ذلك ، ايها الرجال الطيبون !

فصاح الملازم الاول :

- « وحق الالهة ! هذا صحيح على نحو رائع . »

وعدل مسيو جيلنورمان عن ايماءة كان قد بدأ بها ، واستدار ،
وحدق الى ما بين عيني تيودول الرماح ، وقال :

- « انت معنوه ! »

* الهولة : الشيء الغريب البشع الخيف في آن مما . وقد عبرنا بها عن كلمة
monstre في اللدسية والانكليزية .

الكتاب السادس

اللقاء ونجسين

١

اللقب : كيف تنشأ أسماء الاسر

في تلك الحقبة ، كان ماريوس شاباً جميلاً ، ربعةً ، ذا شعر كثيف فاحم ، وجبين عالٍ ذكيّ ، ومنخرين واسعين حميين ، وسياء مغلصة هادئة ، وكان يطفو على بحياه كله شيء لا سبيل الى وصفه ، شيء شاهع ، متفكر ، بريء . كانت صورته الجانيية - ذات الخطوط المدورة ولكن من غير ان تفقد صلابتها - تتمتع بتلك العذوبة الجرمانية التي اتخذت سبيلها الى السحنة الفرنسية من خلال الالزاس واللورين ، وبانعدام الزوايا ذاك الذي جعل من اليسير جداً على المرء ان

يعرف السيكامبريين * بين الرومان ، والذي يميز العرق الأسيدي عن العرق الذري . كان في تلك السن التي تكون فيها عقول المفكرين من الناس مؤلفة ، بنسبة متساوية تقريباً ، من العمق والسذاجة . إنه قد يتكشّف ، في بعض مواقف الحرج ، عن جميع مقومات الحماقة . ولكن أدر اللولب دورة اخرى يصبح عظيماً جليلاً . كان متحفظاً ، بارداً ، مصقول الحاشية ، قليل المصارحة . ولكن لما كان فمه فاتناً ، وكانت شفتاه امتد الشفاه احمراراً واسنانه أنصع الاسنان بياضاً ، فقد صححت ابتسامته صرامة سياه . وفي بعض اللحظات ، كان ثمة تغاير غريب بين هذا الجين العنيف وهذه الابتسامة الشهوية . كانت عيناه صغيرتين ، وكانت نظرتة عظيمة .

وفي الفترات التي انتهت فيها الى الذك الأسفل من الفقر لاحظ ان الفتيات كنّ يُشعن عنه بوجوهن حين يمرّ ، فكان يفرّ أو يجتنبه . وفي صدره شعورٌ قاتل . كان يحسب أنهن ينظرن اليه بسبب من ملابسه البالية ، وأنهن كنّ يسخرن منه . والواقع انهن نظرن اليه بسبب من ملاحظته ، وأنهن استهين .

وكان سوء التفاهم الأبهك هذا ، بينه وبين عابوات السبيل المليحات ، قد أورثه نفرةً من المجتمع . إنه لم يختر أياً منهن ، لسبب وجيه هو أنه كان يفرّ من وجوهن جميعاً . وهكذا عاش من غير هدف - على نحو هيبسي ، كما قال كوزفيراك . وقال له كوزفيراك أيضاً :

- د لا تطمع الى ان تكون حكيماً (كانا يتخاطبان بصير المفرد . والاتزلاق الى ضمير المفرد من خصائص الصداقات الشابة) . يا صديقي العزيز ، دونك هذه النصيحة . لا تقرأ كثيراً في الكتب ،

* Sicambres احد شعوب بلاد الجرمان القديمة ، وقد فهم دروسوس فاختلفوا بالفرجة .

وانظر اكثر قليلاً الى بنات الهوى . إن في الساقطات خيراً لك ،
يا ماريوس ! فبالفرار الموصول ، واحمرار الوجه دائماً ، سوف
تصاب بالحبل .

وفي مناسبة اخرى لقيه كورفيراك فقال له :

- « مرحباً ، ايها السيد الراهب . »

وكان ماريوس - كلما سمع ملاحظة مثل هذه من كورفيراك ،
يفالي في اجتناب النسوة ، طوال اسبوع ، سواء اكنّ شابات أو
عجائز ، ويمتنب بخاصة أشباح كورفيراك .

بيد أنه كانت نمة من بين خلق الله جميعاً ، امرأتان لم يفرّ ماريوس
منها قط ، ولم يمتنّبها على الاطلاق . والحق انه كان جديراً بأن يغلب
عليه الدهش لو ان احداً قال له انها امرأتان . فأما اولاهما فالعجوز
ذات اللحية التي كانت تكنس غرفته وتحمل كورفيراك على القبول :
« لما كانت خادمة ماريوس تطلق لحيتها فإنه لا يطلق لحينه . »
وأما الاخرى فكانت فتاة صغيرة كان كثيراً ما يراها ولكنه لم ينظر
اليها قط .

فمنذ اكثر من عام ، لاحظ ماريوس في مجاز منعزل من حديقة
اللوكسومبوغ ، المجاز الذي مجاذي حاجز ال « بيينيير » ، رجلاً وفتاةً
صغيرة جداً كانا يجلسان جنباً الى جنب ، دائماً تقريباً ، على المقعد نفسه
في طرف المجاز الاقصى ، قرب « شارع الغرب » . وكلما قادت
المصادقة التي تسيطر على نزوات اولئك القوم المتلفتة اعينهم الى الداخل -
نقول كلما قادت تلك المصادقة ماريوس الى هذا المجاز ، وكان ذلك كل
يوم تقريباً ، وجد هذين الخلوقين هناك . كان الرجل في نحو الستين ،
وكان يبدو محزوناً رصيناً . وكان شخصه كله يذكر المرء بالسياء
الشديدة ولكن المهجدة التي تطفو على وجوه الجنود المسرحين من الخدمة
العسكرية . ولو قد كان يزين صدره بوسام ما ، اذن لقال ماريوس :

« انه ضابط قديم » . كانت ملامح وجهه تؤذن بالطَّيبة ، ولكنها غير مغربة بالاقتراب منه ؛ وما كان يدع عينه تقع على عين امريء ما . كان يرتدي بنطلوناً ازرق ، وسترة طويلة زرقاء ، وقبعة عريضة الحاشية بدت جديدةً دائماً ، وعقدة عنق سوداء ، وقميصاً من قمصان الاصحاب الكويكرين * ، يعني قميصاً ابيضَ ناصعاً ولكنه مخطط من قماش غليظ . ولقد مرت به ، ذات يوم ، عاملة مغناجة فقالت : « هوذا أورمل ممتاز . ، كان شعره أشيب كله .

وأول مرة جلست فيها الفتاة الصغيرة التي رافقته على المقعد الذي بدا وكأنها قد تبنَّياه ظهرت احبه بفتاة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، مهزولة حتى البشاعة تقريباً ، خرقاء ، لا شأن لها ، ومع ذلك فقد كانت تُعَدُّ في اغلب الظن بأن تنعم في المستقبل بعينين ساحرتين . ولكن عينها هاتين كانتا تنظران حولها ، دائماً ، في طابئنة بغيضة . كانت ترتدي ثوباً عجائزياً وأطفالياً في آن معاً ، كذلك الذي تلبسه الفتيات في مدرسة الدير ، ثوباً رديء التفصيل مصنوعاً من صوف الضأن المريني** الأسود الغليظ . كانت تبدو عليها سياه أب وابنته .

وطوال يومين او ثلاثة ايام ، تأمل ماربوس هذا الرجل العجوز الذي لم يصبح بعدُ هرمأ ، وهذه الفتاة الصغيرة التي لم تبلغ بعدُ مبلغ المرأة ، ثم لم يلتق اليها بالأ بعد ذلك قط . أما هما فقد بدا وكأنهما لم يراه ولو مجرد رؤية . كانا يتساران في وداعة ولا مبالاة . وكانت الطفلة تؤثر في غير انقطاع ، وفي ابتهاج ، أما الرجل العجوز فكان يتكلم قليلاً ، ويتطلع اليها بين الفينة والفينة بعينين مغممتين بأبوة لا سبيل الى وصفها :

* وهم طائفة الفرندز (الاصحاب او الاصدقاء) البروتانتية المعروفين بتقواهم وزهدهم في الدنيا وزخارفها . وانما عرفوا بالكويكرز ، اي المرتشين ، لان مؤسس الفرقة قال لاتباعه : « ارتمشوا امام سيف الرب . »

** mérinos نسبة الى ضأن بني مرين في الاندلس .

وكان ماريوس قد اكتسب ضرباً من عادة ميكانيكية نحمله على
التزوه في ذلك المجال . وكان يجدهما دائماً هناك .
ودونك كيف كان ذلك :

كان من دأب ماريوس ان يُقبل من طرف المجال الذي يواجهه
مقدمهما ، فيتمشى على طول ذلك المجال ، ماراً امامهما ، ثم يرتد
الى الطرف الاقصى الذي اقبل منه ، وهكذا . كان يقوم بحركة الذهاب
والاياب هذه خمس مرات او ست مرات في كل نزهة من نزهاته ،
وكان يقوم بكل نزهة من نزهاته تلك خمس مرات او ست مرات في
الاسبوع ولكن من غير ان يتبادل ، هو وهذين الخلوقين ، نحية ما .
وكان طبيعياً - برغم ما بدا من ان هذا الرجل وتلك الفتاة الصغيرة
كانا يجتنبان النظرات ، ولربما بسبب من ذلك نفسه - ان يثيرا انتباه
اولئك الطلاب الخمسة أو الستة الذين كانوا يتزهون بين الفينة والفينة في
محاذاة الـ « بيبيير » ، فاما المجتهدون منهم فتحصيلاً لدروسهم ، وأما
الآخرون فالتاساً للبيارد يتنافسون في لعبه . ولاحظها كورفيراك -
وكان من الطائفة الثانية - في وقت ما ، ولكنه سارع الى اجتنابها ،
في كثير من العناية ، بعد أن وجد الفتاة قبيحة . لقد فرّ مثل رجل
من البارثيين * راشقاً اياهما بقلب . واذا بدّه ، في المحل الاول ، ثوب
الفتاة الصغيرة وشعر الرجل العجوز فقد سمى البنت مدموزيل لونوار
(السوداء) وسمى الأب ميسو لوبلان (الابيض) . وهكذا - ولما
كان ابيّ منهم لا يعرفها باسم آخر ، لعدم وجود ذلك الامم - فقد
فرض هذا اللقب نفسه وكأنه القانون . وقال الطلاب : « آه ، ميسو

* كان البارثيون القدماء - الذين انشأوا عام ٢٥٠ ق . م مملكة في ايران -
يجون على صعوات الحبل دائماً . واذا كانوا يتظاهرون بالفرار فقد كانوا يسددون
السهم ، من تحت اكتافهم ، الى من يتعقبهم . وقد ادت هذه الحيلة الفائلة الى نشوء المثل :
رشقه بسم من سهام البارثيين ، يعني سدّد اليه وهو ينسحب سهاً او كلمة جارحة .

لوبلان جالس على مقعده ! « ووجد ماريوس - شأن زملائه - أن من الملائم ان يدعو هذا الرجل المجهول مسيو لوبلان .
ولسوف نفعل مثلما فعلوا فنقول مسيو لوبلان حرصاً على السهولة في هذه القصة .

وهكذا رأهما ماريوس ، كل يوم تقريباً ، وفي الساعة نفسها ، خلال العام الأول . لقد وقع الرجل في نفسه موقعاً حسناً ، ولكنه وجد الفتاة بغيضة بعض الشيء .

٢

« وكان نور »

وفي السنة الثانية ، عند مطلع هذا التاريخ الذي بلغه القاري تماماً ، اتفق أن أقنع ماريوس عما ألفه من عادة الذهاب الى حديقة اللوكسمبورغ ، من غير أن يدري هو نفسه سبباً لذلك ، فانقضت ستة أشهر تقريباً لم تطأ قدماه في خلالها مجازه ذاك . وأخيراً انقلب الى هناك ، ذات يوم ، كرة اخرى . وانما كان ذلك في صباح يوم صاح من أيام الصيف ، وكان ماريوس فبتهج النفس شأن المرء حين يكون الجوّ رائقاً . لقد بدا له وكان في قلبه جميع أناشيد الطيور التي سمعها ، وجميع أفلاذ السماء الزرقاء التي رآها من خلال الاشجار .

ومضى الى « مجازه » مباشرة . ولم يكسب يبلغه حتى رأى ، على المقعد نفسه أيضاً ، هذين المخلوقين المعروفين . حتى اذا اقترب منها وجد أن الرجل كان هو نفسه من غير شك ، على حين بدا له ان الفتاة لم تعد تلك التي كانت تصحبه من قبل . كانت الفتاة التي رآها الآن مخلوقة كريمة جميلة تستع بجميع ملامح المرأة الاكثر فتنة ، في تلك اللحظة

التي تكون فيها هذه الملامح متصلة ، ما تزال ، بكامل جمال الطفل ، - تلك اللحظة العابرة الطاهرة التي لا تُترجم إلا بهذه الكلمات : الخامسة عشرة من العمر . شعرٌ كسنتاني جميل تظله عروقٌ من الذهب ، وجبين بدا وكأنه منحوت من رخام ، ووجنتان بدتا وكأنهما مصنوعتان من ورد ، ولون ارجواني شاحب ، وبياض مُشرب بالاحمرار ، وفم رائع تنبثق منه ابتسامة كالضياء ، وصوت كالموسيقى ، ورأس كان خليقاً برفايل أن يقدمه الى مريم على جيدٍ كان خليقاً بجان غوجون * أن يقدمه الى فينوس . واخيراً لكي لا يُعوز شيء هذا الوجه الفاتن فإن الانف لم يكن جميلاً ولكنه كان مليحاً . إنه لم يكن مستقيماً ، ولم يكن معقوفاً ؛ لم يكن ايطالياً ولم يكن اغريقياً ؛ كان انفاً باريسياً ، يعني شيئاً بهيجاً ، لطيفاً ، شاذاً ، صافياً ، شيئاً يُؤنس الرسامين ، ويقنع الشعراء .

وحين مرّ ماريوس على مقربة منها ، لم يستطع ان يرى عينها اللتين كانتا مطرقتين دائماً . انه لم ير غير اهدابها الكستنائية الطويلة الراشحة بالظلال والحياء .

ولكن ذلك لم يمنع الطفلة الجميلة من الابتسام فيما أصغت الى الرجل الاشيب الذي كان يتحدث اليها . ولم يكن ثمة شيء أشد سحراً من هذه الابتسامة الطريئة بعينين مطرقتين .

وحسبها ماريوس ، للوهلة الاولى ، بنناً ثانية للرجل نفسه ، اختاً لا ريب فيها للفتاة التي رآها من قبل . ولكن حين قادته نزواته المعتادة تي لا تتغير الى قريب من مقعدها ، مرة ثانية ، ونظر اليها في انتباه ، أدرك انها تلك الفتاة عينها . ففي مدى ستة اشهر امست الفتاة الصغيرة شابة

* Goujon مثال فرنسي شهير (حوالى ١٥١٠ - حوالى ١٥٦٨) تحت « حوض الابرياء » في باريس وشارك في زخرفة اللوفر .

فتية ؛ ذلك كل ما هنالك . وليس شيء اكثر شيوعاً من هذه الظاهرة .
فئة لحظة تتفتح فيها اكمام الفتيات في طرفة عين ويصبحن وروداً على
نحو مفاجيء . لقد تركناهن أمس اطفالاً ، وإنا لنجدهن اليوم شاغلاتٍ لبال .
ولم تكن تلك الفتاة قد كبرت فحسب ؛ كانت قد غدت مثالية
ايضاً . وكما ان ثلاثة أيام من نيسان كافية لأن تلبس بعض الاشجار حلة
من الازهار فكذلك كانت ستة اشهر كافية لأن ترتدي تلك الفتاة رداء
من الجمال . كان نيسانها قد اقبل .

اننا نرى في بعض الاحيان اناساً ، فقراء حقيرين ، يبدون وكأنهم
يستيقظون ، وينتقلون فجأة من العوز الى الترف ، وينفقون الاموال ذات
اليين وذات الشمال ، ويصبحون بفترةٍ لامين ، مبذرين ، ذوي أبهة . وانما
ينشأ ذلك عن دخلٍ تلقَّوه ؛ كان أمس يوم الدفع . لقد قبضت الفتاة
الشابة راتبها نصف السنوي .

ثم انها لم تعد تلك الطالبة الداخلية بقبعتها المصنوعة من نسيج ذي
وبر ، وثوب المحيط من صوف الضأن المربني ، وحذاءها الثلدي ، وبديها
الحرابون . كان الذوق قد وفد عليها مع الجمال . وكانت قد أمست فتاة
حسنة البزة تربتها اناقة بسيطة غزيرة ، خلوة من التكلف . كانت ترتدي
ثوباً من دمس أسود ، وصدرة من النسيج نفسه ، وقبعة من « كريب »
أبيض . وكان قفازاها الابيضان يكشفان عن نعومة يدها العابثة بمقبض
مظلتها المصنوع من العاج الصيني ، وكان حذاؤها الحريري العالي ينم عن
صغر قدمها ، وكانت زينتها كلها تنفخ بأريج الشباب النافذ ، كلما مرَّ
المرء على مقربة منها .

اما الرجل فكان هو هو لم يتغير البتة .

وحين انتهى ماريوس الى قريب منها ، للمرة الثانية ، رفعت الفتاة
الشابة جفنيها . كانت عيناها ذواتسي زرقه سماوية عميقة ، ولكن لم يكن
في ذلك اللزورد المحجَّب غير نظرة طفل . لقد نظرت الى ماريوس في

لا مبالاة كما كان خليقاً بها ان تنظر الى القرّيد الذي يعدو تحت
شجرات الجيز، او الى الزهرية الرخامية التي تلقي ظلها على المقعد .
وواصل ماريوس ، بدّوره ، تزهته وهو يفكر في شيء آخر .
ومرّ اربع مرات أو خمس مرات اخرى على مقربة من المقعد الذي
جلست عليه الفتاة الشابة ، ولكن من غير ان يدبر عينه نحوه مجرد
إدارة .

وفي الايام التالية وقد كعادته على حديقة اللوكسومبورغ ، فوجد
فيها كعادته ايضاً « الاب والبنات » ولكنه لم يلق اليها بالآ . انه لم
يعد يفكر في هذه الفتاة وقد امتت جميلة بأكثر مما سبق له ان فكر
فيها يوم كانت قبيحة . كان يمر دائماً بجذاه مقعدها لأن عادته جرت
بذلك .

٣

أثرُ الربيع

وذات يوم ، كان الهواء معتدلاً ، وكانت حديقة اللوكسومبورغ
مغمورة بأشعة الشمس وبالظلال ، وكانت السماء صافية وكان الملائكة
قد غلستها في الصباح ، وغردت عصفير الدوري في اوراق شجرات
الكستناء ، وكان ماريوس قد فتح روحه كلها للطبيعة ، ولم يعد يفكر
في شيء . لقد عاش وتنفس ، ولقد مرّ بجذاه ذلك المقعد ، فرفعت
الفتاة الشابة عينها نحوه ، فالتقى نظراهما .

ولكن ايّ شيء كان في نظرة الفتاة الشابة ؟ لقد عجز ماريوس عن
الاجابة . لم يكن ثمة شيء ، وكان ثمة كل شيء . لقد كان ذلك ضياء
غريباً .

وغضت من بصرها ، وواصل هو سبيله .
إن ما رآه لم يكن عين طفل ساذجة سليمة الطوية . كان هاوية
محاطة بالاسرار ، هاوية فتحت فهاها نصف فتحة تم اغلقته فجأة .
فثمة فترة تنظر فيها كل فتاة شابة مثل هذه النظرة . والويل
لمن يتفق ان يكون هناك !

إن تلك النظرة الاولى التي تددها نفس لما تعرف بعد ذاتها
أشبه بارتقاع الضمى في السماء . إنها يقظة شيء مشع مجهول . وليس
هناك ما يستطيع التعبير عن الفتنة الخطرة الكامنة في هذا الوميض غير
المرتبب الذي يُنير فجأة ، وعلى نحو غامض ، ظلمات حبيبة ، والذي
يتألف من براءة الحاضر كلها ، واهواء المستقبل كلها . انها ضرب من
الحنان الحائر الذي تم المصادفة عنه ، والذي ينتظر . انها شرك تنصبه
البرائة من غير وعي ، وتتصيد به القلوب من غير ان تقصد الى ذلك ،
ومن غير ان تدري ذلك . انها عذراء تنظر كما تنظر المرأة .

ومن النادر أن لا ينشأ عن هذه النظرة ، حينما وقعت ، استغراق
في تفكير حالم عميق . ان كل ما هو طاهر وكل ما هو متوهج ليتركزان
في هذه النظرة السماوية القاتلة التي تتميز بقدرتها السحرية - اكثر من
غمزات الفتيات المغناجات الأشد إحكاماً - على ان تفتح فجأة ، في
اعماق القلب ، تلك الزهرة القاتلة ، المفعمة بالاطياب والسوم ، والتي
ندعوها الحب .

وفي المساء ، عندما رجع ماريوس الى عليته ، القى نظرة على
ملابسه . ولأول مرة ادرك بأية قذارة ، وقلة لياقة ، وبلاهة لم يُسمع
بمثلها ، كان يتنزه في حديقة اللوكسومبورغ مرتدياً « بذلته اليومية »
تلك ، وقبعة محطّسة قرب العروة ، وحذاء غليظاً من احذية سائقي
العربات ، وبنطلوناً اسود تلتسع ركبتاه ، وسترة سوداء سُحبت
خيوط مرفقيها .

بدء اعتلال عظيم

وفي اليوم التالي ، في الساعة المعتادة ، أخرج ماريوس من خزائنه ستورته الجديدة ، وبطلونه الجديد ، وقبعته الجديدة ، وحذاءه الجديد ، وتسلح بهذه المجموعة الكاملة من الملابس ، ولبس قفازيه - ترف - مسرف - ومضى الى حديقة اللوكسومبورغ .

وفيا هو في بعض الطريقي ، التقى بكورفيراك وتظاهر بأنه لم يره . حتى اذا انقلب كورفيراك الى غرفته قال لاصدقائه :

« لقد التقيت اللحظة بقبعة ماريوس الجديدة وستورته الجديدة ، وماريوس في داخلهما . وليس من شك في انه كان ذاهباً الى امتحان . لقد بدت على وجهه سياء بلاهة كاملة . »

حتى اذا وصل الى حديقة اللوكسومبورغ دار دورة حول الحوض ونظر الى الأوزت السابح فيه . ثم لبث فترة طويلة مستغرقاً في التأمل أمام تمثال أسود من العفن تعوزه احدى وركبته . وعلى مقربة من الحوض ، كان بورجوازي في الاربعين ضخم الكرش يمسك بيد صبي صغير في الحامسة ويقول له : « حذار من التطرف . ابتعد عن الاستبداد ابتعادك عن الفوضوية . » واصفى ماريوس الى هذا البورجوازي الطيب . ثم دار دورة اخرى حول الحوض . واخيراً مضى الى «مجازه» ، في أناة ، وكأنما يمضي اليه في أسف . ولقد كان خليقاً بالناظر اليه ان يقول إنه كان مكرهاً على المضي وبمنوعاً عن المضي في آن معاً . كان لا يعي شيئاً من ذلك كله ، ولقد حسب أنه يسلك مسلكه اليومي عينه .

حتى اذا انتهى الى المجاز رأى مسيو لوبلان والفتاة الشابة جالسين ،

في الطرف الآخر ، « على مقعدهما » . وزرر سترته ، وشدها الى
أدنى لكي يزيل ما قد يشينها من تفضن ، وتأمل في شيء من العُجب
رونق بنظونه وبهاه ، وزحف الى المقعد . كان في ذلك التقدم شيء
من المجوم ، وكان فيه من غير شك رغبة في الفتح . إني اقول اذن :
« وزحف الى المقعد » ، كما اقول : « زحف هنيئيل الى رومة . »
وفي ما عدا هذا لم يكن ثمة شيء غير ميكانيكي في حركاته جميعاً ، ولم
يعترض بأية حال شواغل عقله وعمله المعتادة . كان يفكر في تلك اللحظة
في ان « المختصر في البكالوريا » كتاب أبه ، وانه لا شك من عمل
معتوهين يعز نظيرهم ، وإلا فكيف يقدم عند تحليله لروائع العقل البشري
ثلاثاً من مآسي راسين وواحدة ليس غير من ملاهي مولير ؟! وأحس
بشبه صغير حاد في أذنه . وفيما هو يتقدم الى المقعد ملئ تفضنات سترته
وامتقرت عيناه على الطفلة الشابة . لقد بدت ، في نظره ، وكأنها تملأ
جانب الجواز كله بضياء ازرق شاحب .

وكلما ازداد من المقعد قريباً ازدادت خطوته تباطؤاً . حتى اذا انتهى
الى مسافة ما من المقعد ، وقبل ان يصل الى اقصى الجواز بكثير ، كف عن
المسير ، ونكص على عقبيه من غير ان يدري هو نفسه كيف اتفق له
ذلك . بل انه لم يقل لنفسه إنه لن يذهب الى نهاية الجواز . وليس من
ريب في انه كان من العسير على الفتاة الشابة ان تلمحه من بعيد وترى
هيئته البديعة في سترته الجديدة . وياً ما كان ، فقد وقف منتصب القامة
لكي يبدو حسن السميت اذا ما اتفق لأحدٍ خلقه ان يرى اليه .

وبلغ الطرف المقابل ثم رجع . وهذه المرة اقترب ، اكثر بعض الشيء ،
من مقعدها . بل لقد انتهى الى نقطة تقع على مسافة ثلاث شجرات منه ،
ولكنه استشعر هناك بعمجز عن مواصلة التقدم لا سبيل الى وصفه ، فتردد .
لقد خيل اليه ان وجه الفتاة الشابة انحنى نحوه . ومع ذلك فقد بذل
جهداً رجولياً عظيماً ، ففهر تردده ، وواصل تقدمه . وبعد بضع ثوان مرّ

أمام المقعد ، مستقيماً راسخ القدم ، عمره الوجه حتى الاذنين ، من غير ان يجرؤ على ان يلقي نظرة ما الى اليمين او الى الشمال ، واضعاً يده في سترته مثل رجل من رجال الدولة . ولحظة مر - تحت مدافع القلعة - خفق قلبه خفقاناً مروّعاً . وكانت ترتدي - شأنها في اليوم السابق - ثوبها الدمقسي وقبعتها المصنوعة من الكريب . وسمع صوتاً يمتنع على الوصف كان « صوتها » من غير ريب . كانت تتحدث في سكينة . وكانت بارعة الجمال . لقد استشعر ذلك ، برغم انه لم يحاول ان يراها . وقال في ذات نفسه : « انها لا تستطيع ، على اية حال ، إلا أن تكن لي اجلاً واحتراماً اذا ما عرفت اني المؤلف الحقيقي للدراسة الموضوعية عن ماركو اوبريفون دو لا روندا التي قدم بها مسيو فرانسوا دو نوفشاتو ، وكأنها من قلمه ، لطبعته الخاصة لرواية « جيل بلا » * .

واجتاز بالمقعد ، ومضى الى اقصى الجواز الذي كان بالغ القرب ، ثم استدار ومرّ كرة اخرى امام الفتاة الجميلة . وهذه المرة كان شديد الشحوب . والواقع انه لم يكن يستشعر شيئاً ليس ببنغيض جداً . فابتعد عن المقعد وعن الفتاة الشابة . وبرغم انه أولاً ظهره فقد تخيل انها كانت تنظر اليه ، وهذا ما جعل الارتباك يغلب عليه .

ولم يقم بأيما محاولة جديدة للاقتراب من المقعد ؛ لقد وقف عند منتصف الجواز تقريباً ، وجلس هناك - وهو شيء لم يفعله قط من قبل - ملقياً كثيراً من النظرات الجانبية ، ومفكراً في اعماق عقله الاكثر ضابطة ان من العسير على اية حال ان تكون الفتاة ذات القبة البيضاء والثوب الاسود - تلك الفتاة التي أعجب بها - خالية الذهن على نحو كلي من بنطلونه الثقيل وسترته الجديدة .

وبعد ربع ساعة ، نهض وكأنما يريد ان يستأنف سيره نحو ذلك

* Gil Blas de Santillane احدى روايات الكاب الفرنسي لوساج Lesage (١٦٦٨ -

١٧٤٧) الشهيرة .

المقعد المطوق بهالة . بيد أنه ظل واقفاً لا يتحرك . وللمرة الاولى منذ خمسة عشر شهراً ، قال في ذات نفسه ان هذا السيد المتعود ان يجلس هناك مع ابنته كل يوم قد لاحظته ، هو ايضاً ، من غير شك ، ولعله قد وجد في مواظبته شيئاً غريباً .

وللمرة الاولى ايضاً استشعر بعض الأزرار في الاشارة الى هذا الرجل المجهول ، ولو في سريره ، بذلك اللقب الذي خلع عليه : مسيو لوبلان .

وظل هكذا بضع دقائق مطرق الرأس ، راسماً بعض الاشكال على التراب ، بواسطة عصا صغيرة كانت في يده . ثم انه استدار فجأة واعرض بجانبه عن المقعد مبتعداً عن مسيو لوبلان ، وعن ابنته ، وانقلب الى غرفته .

وذلك اليوم نسي ان يتناول عشاءه . وفي الساعة الثامنة مساءً ، اكتشف هذه الواقعة . واذ كان أوان الذهاب الى شارع سانت جاك قد فات ، فقد قال في ذات نفسه : « لا بأس ! » وأكل قطعة من خبز .

ولم يأوِ الى فراشه الا بعد ان فرشى ستروته جيداً وطواها في عناية .

٥

صواعق شتى تنقض

على رأس « مام بوغون »

وفي اليوم التالي لاحظت « مام بوغون » * - هكذا سمي

* اي مدام بوغون ، أو السيدة الكثرية التذمر والدمدمة .

كورفيراك العجوزَ البوابة الموكول إليها أمر العناية ببيت غوربو العتيق ، وكان اسمها في الحقيقة مدام بورغون كما ذكرنا من قبل ، ولكن كورفيراك الفطيع هذا لم يكن يحترم شيئاً - نقول لاحظت «مام بوغون» ، في انشدها ، أن ميو ماريوس غادر غرفته كرةً اخرى وهو لابسُ بذلته الجديدة .

لقد مضى كرةً ثانية الى حديقة اللوكسومبورغ ، ولكنه لم يذهب الى أبعد من مقعده القائم عند منتصف المجاز . وجلس هناك ، كما جلس أمس ، منعماً النظر من بعيد ، لاجأً على نحو واضح القبعة البيضاء ، والثوب الاسود ، وبخاصة الضياء الازرق . ولم يتحرك من مجلسه ذلك ، ولم ينقلب الى غرفته الا بعد أن أوصدت ابواب اللوكسومبورغ . إنه لم يَرَ ميو لوبلان وابنته ينصرفان . فاستنتج من هنا انها غادرا الحديقة من الباب المؤدي الى « شارع الغرب » . وبعد بضعة اسابيع ، عندما فكّر في ذلك ، لم يستطع ان يتذكر أين تناول طعام العشاء تلك الليلة .

وفي اليوم التالي ، وكان ذلك للمرة الثالثة ، صعدت « مام بوغون » ايضاً . لقد خرج ماريوس وهو لابسُ بذلته الجديدة . وصاحت :
- « ثلاثة ايام على التعاقب ! »

وحاولت أن تلتحق به ، ولكن ماريوس مشى برشاقة وفي خطى واسعة جداً . كانت اشبه بفرس الماء يحاول أن يطارد شجوة* . وماهما الا دقيقتان حتى اقلت من نظرها ، فارتدت لاهته ، ساخطة ، يكاد الربو أن يخنقها . ودمدمت :

- « لست ادرى ، ما اذا كان من الحكمة ان يرتدي ملبسه الجديدة كل يوم ويحمل الناس على أن يجروا خلفه على هذه الصورة ! »
كان ماريوس قد ذهب الى حديقة اللوكسومبورغ .

* الشجوة chamois ضرب من الغزلان .

وكانت الفتاة الشابة هناك مع مسيو لوبلان . واقتراب ماريوس ما استطاع الى الاقتراب سيّلاً ، وقد بدا وكأنه يقرأ كتاباً ، ولكنه ظلّ بعيداً جداً ؛ ثمّ إنه رجع وجلس على مقعده حيث انفق اربع ساعات وهو يراقب عصافير الدوري الصغيرة البيضاء الفؤاد فيما هي تثب في المجالز . لقد بدت تلك العصافير وهي تسخر منه .

وانقضى اسبوعان على هذا النحو . ولم يعد ماريوس يقصد الى اللوكسومبورغ ابتغاء النزهة ، ولكن ليجلس في المكان نفسه دائماً ، ومن غير أن يدري لماذا . فما ان يصل الى هناك حتى يمتنع عن الحركة . وكان يرتدي بذلة الجديدة كل صباح ، لكي لا يلفت الانظار ، ثم يستأنف ذلك في اليوم التالي .

كانت على جمال باهر حقاً . والملاحظة الوحيدة التي كان في ميسور المرء ان يبديها ، والتي تشبه النقد ، هي أن ذلك التناقض بين نظرتها ، وهي نظرة محزونة ، وبين بسمتها ، وهي مبتهجة ، أضفى على عيّاها مسحةً شاردةً بعض الشيء . مما جعل هذا الهيا العذب يبدو غريباً ، في بعض الاحيان ، ولكن من غير ان يفقد شيئاً من قنته .

٦

في قبضة الاسر

وفي اواخر الاسبوع الثاني ، كان ماريوس جالساً كالعادة على مقعده ، مسكاً بيده كتاباً لم يقلب صفحة من صفحاته منذ ساعتين . وفجأة ، سرت في اوصاله رعدة . كان حدث خطير قد وقع في أقصى المجالز . لقد غادر مسيو لوبلان وابنته مقعدهما ، بعد أن اخذت البنت بذراع

الاب ، ومضيا في أناة نحو منتصف الهجاز حيث جلس ماريوس . واغلق ماريوس كتابه ، ثم أعاد فتحه ، ثم حاول ان يقرأ . وارتعد . كانت الهالة تتقدم نحوه مباشرة . وقال في ذات نفسه : « آه يا السهي ! لن يكون لديّ متسع من الوقت لكي أتخذ موقفاً » . وفي غضون ذلك كان الرجل الأشيب والفتاة الشابة يتقدّمان . لقد بدا له أن هذا سوف يستمرّ قرناً من الزمان وان هذا لم يكن غير ثانية واحدة . وسأل نفسه : « ما الذي حملها على الهجيء الى هنا ؟ كيف ؟ إنها سوف تمرّ من هنا . إن قدمها سوف تطآن هذا التراب ، في هذا الهجاز ، على بُعد خطوتين مني ليس غير ! » واضطرب اضطراباً شديداً ، وعنى لو كان وسيماً جداً ، ولو كان يحمل صليب جوقة الشرف . لقد سمع وقع خطواتها الرفيقة الموزونة يقترب . لقد تخيل ان مسيو لوبلان يقذفه بنظرات غصبي . وقال في ذات نفسه : « أيعتزم هذا السيد ان يتحدث اليّ ؟ » وحنى رأسه . وحين رفعه كفا على مقربة دانية منه . ومرت الفتاة الشابة ، ونظرت اليه فيما هي تمرّ . لقد نظرت اليه نظراً موصولاً ، وفي عذوبة متفكرة جعلت ماريوس يرتجف من قمة رأسه الى اخص قدميه . لقد بدا له وكأنها تؤنّب لتخلّفه هذه المدة كلها عن الهجيء اليها وأنها قالت : « اني انا القادمة . » وظل ماريوس مشدوهاً بهاتين العينين الحافلتين بالاشعة والضحج .

واستشمر وكان دماغه يغلي على نار . كانت قد اقبلت نحوه . يا للسعادة ! وبعده ، فما كان أروعَ نظرتها اليه ! لقد بدت أجمل بما بدت في ايما وقت من الاوقات ، وكان جمالها من ذلك الضرب الانثوي الملائكي في آن معاً ، والجدير بان يغري بتوارك بالغناء ، ودانتي بالركوع . واستشمر وكأنما كان يسبح في سماء عميقة زرقاء . وفي الوقت نفسه ، غلب عليه اسنياء مروّع لأن بعض الغبار كانت يعملو حذاه .

لقد اعتقد اعتقاداً جازماً بأنها رأيت حذاءه أيضاً .

وأتبعها بصره حتى غابت عن النظر ، ثم شرع يمشي في حديقة اللوكسومبورغ مثل رجلٍ معتوه . واغلب الظن أنه أنشأ بضحك في بعض الاحيان ، متوحداً ، ويتحدث في صوت مرتفع . وكان موزع الفكر ، أمام جماعة من مربيات الاطفال ، الى درجة جعلت كلاً منهنّ تعتقد أنه متممٌ بها .

وغادر الحديقة ليجث عنها في شارع من الشوارع .

والتقى بكورفيراك تحت قناطر الأوديون وقال له : « هيا نتناول العشاء معاً . » ومضيا الى مطعم روسو ، وأنفقا ستة فرنكات . لقد أكل ماريوس مثل غول . وأعطى النادل ستة فلوس . وحين جيء بالحلوى قال لكورفيراك : « هل قرأت الجريدة ؟ أيّ خطاب رائع ألقاه آندري دو بورافرو ! »

لقد نبهه العشق .

وبعد العشاء قال لكورفيراك : « سوف ادفع عنك رسم الدخول الى المسرح . » ومضيا الى « بورت سان مارتان » ليريا فريدريك في مسرحية « فندق آدربه » . وُسّر ماريوس بالرواية سروراً عظيماً . وفي الوقت نفسه ، أمسى أكثر غرابيةً وتوحشاً . فحين غادرا المسرح رفض ان ينظر الى رباط ساق احدى صانعات القبعات النائبة وهي تخطو فوق ساقية . وحين قال كورفيراك : « لا مانع عندي في أن أضع هذه المرأة في مجموعتي ! » استبدّ به الذعر او كاد .

ودعا كورفيراك الى تناول طعام الفطور معه في اليوم التالي في مقهى فولتير . وذهب ماريوس وأكل في شهوة دونها شهوته في الليلة الباوحة نفسها . كان مستغرقاً في التفكير ، كثير الابتهاج . ولقد كان في ميسور المرء ان يقول إنه عمد الى تصيد جميع المناسبات الممكنة لينفجر بالضحك . لقد عانق في حنانٍ كل من قدّم اليه من ابناء

الريف ، كائناً من كان . وكانت حلقة من الطلاب قد تشكلت حول
احدى الموائد ، ودارت حديث عن ثروات تنفق عليها الدولة وتجدها
سوقاً رائجة في السوربون ؛ ثم تطرق الحديث الى الاخطاء والفجوات
التي تحفل بها معاجم كويشيرا * وكتبه العروضية . واعترض ماريوس
المناقشة صائحاً : « على اية حال ، فإن من المستحب ان يفوز المرء
بالوسام ! »

فهمس كورفيراك في اذن جان بروفير :

— « هو ذا شيء مضحك ! »

فأجابه جان بروفير :

-- « لا . إنه شيء جدّي . »

وكان ذلك جدياً في الحق . فقد كان ماريوس يجتاز تلك اللحظات
العنيفة الفاتنة ، الأولى ، التي تنصدّر ضروب الهيام العظيم .
كانت نظرة واحدة قد فعلت ذلك كله .

فحين يكون الظم مشحوناً ، ويكون عود الثقاب مستعداً ، فلن
تقع على ما هو ايسر واسهل . إن النظرة شرارة .
وقضي الأمر . لقد احب ماريوس امرأة . كان قدره يتخذ سبيله
نحو المجهول .

إن نظرات النساء اشبه شيء ببعض الماكينات الوديمة في ظاهرها ،
الرهيبة في حقيقتها . انك تمرّ بها كل يوم مرّاً هادئاً لا ينطوي على
ضرب ما ، ولا يدعو الى ريبة ما . وتعبّر بك لحظة تنسى فيها مجرد
وجود تلك الاشياء هناك . لانك لتروح ، وانك لتجيه . انك لتعلم ،
وانك لتتكلم ، وانك لتضحك . وفجأة تحسّ بأنك وقعت في الأسر
انتهى كل شيء . لقد امسكت الدواليب بك ، لقد امرتك النظرة .

* Quicherat لغوي فرنسي (١٧٩٩ - ١٨٨٤) وضع معجماً لائياً فرنسياً
مروفاً ، وكتابين في العروض الفرنسي والعروض اللاتيني .

استولت عليك - ولا تسلّ أين وكيف - بجزء ما من اجزاء تفكيرك
 كان يجرّ نفسه متباطئاً ، بذهول كان مستحوذاً عليك . ويُلمّ بك
 الهلاك . وتُسحبُ الى هناك بكاملك . إن سلسلة من القوى العجيبة
 لتستحوذ عليك . وتناضل على غير طائل . وليس ثمة سبيلٌ الى نجدة
 بشرية ما . انك سوف تتدحرج من دولاب الى دولاب ، من ألم نفسي
 مرير الى ألم نفسي مرير ، من نكال الى نكال ؛ أنت ، وعقلك ،
 وقدرك ، ومستقبلك ، وروحك . ولن تخرج من بين براثن تلك الآلة
 الفظيعة إلا بعد أن يشوّك العار أو يخلفك الحب خلقاً أسمى - تبعاً
 لشخصية من تقع تحت سلطانه ، وما اذا كان مخلوقاً شريراً او قلباً
 نبيلاً .

٧

مغامرات الحرف u وقد أسلم

الى الحدس والظن

كانت العزلة ، والانفصال عن كل شيء ، والعُجب ، والاستقلال ،
 وحب الطبيعة ، وفقدان النشاط اليومي والمادي ، والانطواء على النفس ،
 ونضالات العفة الحقة ، والنشوة الروحية الحيرة تجاه الكون كله -
 كانت هذه جميعاً قد أعدت ماريوس لذلك المسّ الذي ندعوه العشق .
 كان تقديسه لأبيه قد أمسى ديناً أو يكاد ، وكان قد ارتدّ شأن كل
 دين الى أعماق القلب . لقد احتاج الى شيء فوق ذلك . وهنا أقبل
 الحب .

وتصرّم شهرٌ كامل قصد ماريوس ، خلاله ، الى حديقة

الوكسومبورغ كل يوم . فما إن تحين تلك الساعة حتى يعجز كل شيء
عن إبقائه بعيداً عن ذلك المكان . وكان كورفيراك يقول : « لقد آن
وقت خدمته العسكرية » . وكان ماريوس يجأ في جذل . ومن الثابت
أن الفتاة الشابة قد نظرت إليه .

وكان قد أمسى أكثر جراءة ، فهو يقترب من المقعد أكثر من
ذي قبل . بيد أنه لم يمرّ بذلك المقعد بعد ، على الإطلاق ، مطيحاً
في آنٍ معاً غريزة الخوف وغريزة الفطنة اللتين يتميَّز بها العشاق . لقد
قدّر أن من الخير له أن لا يلفت « انتباه الأب » . لقد نظّم
محطّاته خلف الأشجار وقواعد التنايل في ميكافيلية عميقة بحيث
تستطيع الفتاة الشابة أن تراه أكثر ما يكون ، وبحيث يستطيع الرجل
المعجوز أن يراه أقل ما يكون . وفي بعض الأحيان ، كان يقف
جامداً ، طوال نصف ساعة ، خلف تمثال ل « ليونيداس » * أو
ل « سبارتاكوس » ** أو غيرها ، وفي يده كتاب كانت عيناه
ترتفعان من فوقه على مهل ، وتبحثان عن الفتاة الجميلة ، فيما كانت هي
بدورها تدير نحوه جانباً من وجهها الفاتن ، في ابتسامة غامضة . وفيما
هي تتحدث بأكثر ما يكون من الطبعية والسكينة مع الرجل ذي
الشعر الأشيب ، سدّدت إلى ماريوس عيناً عذراء مفرمة مستترقة في
الاحلام . وإذ إنه لفنّ عتيق سابق كلّ تاريخ - فنّ عرفته حواء منذ
اليوم الأول من أيام العالم ، وتعرفه كل امرأة منذ اليوم الأول من
حياتها ! كان لسانها يجيب أحدهما ، وكانت عينها تجيب الآخر .
ويجب أن نفترض ، مع ذلك ، أن ميو لوبلان أدرك شيئاً من

* Léonidas الأول ، ملك اسبارطة من عام ٤٩٠ الى عام ٤٨٠ قبل المسيح ،
وقد قضى في ميدان المركة ، مع ثلاثة من الاسبارطيين ، وهو يقاوم الجيوش الفارسية .
** Spartacus هو زعيم العبيد الثائرين في وجه القوات الرومانية ، وقد قتل عام
٧١ بعد أن صمد في وجه الرومان سنتين . وبلغ عدد المنضوين له لواله في وقت
من الاوقات سبعين الف رجل .

هذا آخر الامر ، اذ كان ينهض في كثير من الاحيان ويتمشى حالماً
بجيه ماريوس . كان قد ترك مكانها المألوف ، واتخذ المقعد القائم عند
الطرف الآخر من المجاز ، قرب تمثال « المقاتل » ، وكأننا كان يريد ان
يرى آيتبعه ماريوس أم لا . ولم يفهم ماريوس شيئاً من هذا ،
وارتكب تلك الغلطة . وأمسى « الاب » ، اقل محافظة على المواعيد ،
ولم يعد يصطحب « ابنته » كل يوم . كان يفد في بعض الاحيات
وحده . وفي مثل هذه الحال ، كان ماريوس يسارع الى مغادرة
الحديقة . غلطة اخرى .

ولم يجترس ماريوس من هذه الاعراض قط . كان قد انتقل من
مرحلة الخوف - وهو تقدم طبيعى - محتوم - الى مرحلة العسى . كان
حبه قد نما . لقد امسى يراها كل يوم في ما يرى النائم . والى ذلك ،
فقد آلت به سعادة غير مرتقبة ، فكان هذا اشبه بالزيت 'صب' على
النار ، ومن ثم ضربت على بصره غشاوة مزدوجة . فذات مساء ،
عند الفسق ، وجد على المقعد الذي فارقه « ميرو لوبلان وابنته » ،
منذ لحظة ، منديلاً - منديلاً بسيطاً غير مطرز ، ولكنه ابيض ،
رقيق ، بدا لماريوس وكأنه يتنفس بأطياب تمتنع عن الوصف . وأمسك به
في تهليل . وكان ذلك المنديل مُعلماً بحرفي U.F ؛ ولم يكن ماريوس يعرف
شيئاً عن هذه الطفلة الجميلة ، لم يكن يعرف اسرتها ، او اسمها ، او بيتها .
كان هذان الحرفان اول شيء عثر عليه ماريوس منها ، وكانا حرفين
أوليين من اسم معبود ، شرع يشيد فوقهما قصره . كان واضحاً ان اسمها
الصغير يبدأ ب U . وقال في ذات نفسه : « أورشول » ، ياله من
اسم حلو ! « وقبل المنديل ، وشم اريجيه ، ووضعه فوق قلبه ، وعلى
جسده في ساعات النهار ، وكان لا ينام ليلاً الا وقد وضعه على سفتيه .
وصاح :

- « إني أستشعر روحها كلها فيه ! »

وكان ذلك المنديل للرجل المعجوز الذي تركه يسقط ، بكل بساطة ،
من جيبه .

وفي الايام التي عقت عشوره على هذه التقيّة لم يظهر في اللوكسمبورغ
قط إلا مقبلاً هذا المنديل ، واضعاً اياه على فؤاده . ولم تفهم الطلقة
الجيئة شيئاً من هذا ، وأعلمته بذلك بايماءاتٍ لم يرها .
وقال ماريوس :

- « يا للحياء ! »

٨

حتى مشوهو الحرب يمكن ان يكونوا محظوظين

وما دنا قد لفظنا كلمة « حياء » ، وما دنا لا نخفي شيئاً ،
فيتعيّن علينا أن نقول إن « أورشول » تلك ، قد انزات به ذات
يوم - من خلال نشوته الروحية كلها - اذىً خطيراً . وكان ذلك يوم
حلت مسيو لوبلان على مفادرة المقعد والقيام بنزهة في مجاز الخديقة .
وهبت ربيع شمالية عنيفة وتحت أعالي شجرات الدلب . وكان الاب
وابنته قد اجتازا ، منذ لحظة ، بقعد ماريوس . فما كان منه إلا أن
نهض خلفهما ، وأتبعهما بصرة ، وهو امرٌ طبيعي في مثل هذه الحال
من الوله والهيام .

وضبأة هبت من جانب المغرس ربيعاً اشدّ بأساً من سابقتها
- ولعلها كانت مكلفة القيام بمهام الربيع الصغرى - واندفعت نحو
المجاز فطوّقت الفتاة الشابة بارتماشة فاتنة جديرة بعرائس الماء عند

فرجيل ، وآلهات الاحراج عند تيوقريط * ، ورفعت تنويرتها ، تلك التنورة المقدسة اكثر من تنورة إيزيس ، الى مستوى رباط الساق تقريباً . لقد كشفت تلك الربيع عن ساق ذات قالب رائع . ولقد رأى ماريوس تلك الساق ، فاستبدّ به الحنق والسخط .

وكانت الفتاة الشابة قد سارعت الى خفّض التنورة في حركة مجفلة على نحو رائع ، ولكن ذلك لم يخفّف من سخطه البتة . لقد كان وحده في ذلك المجالز ، هذا صحيح . ولكن كان من الجائز ان يكون هناك شخص ما . ولو قد كان شخص ما هناك ! أيستطيع المرء ان يفهم شيئاً مثل هذا ؟ إنه لفظيح هذا الذي اقدمت عليه ! وأسفاه ! إن الطفلة المسكينة تفعل شيئاً . فلم يكن ثمة غير مذنب واحد : الربيع . ومع ذلك ، فإن ماريوس - الذي ارتجف في ذات نفسه ، على نحو مبهم ، بارتولو * * * ذاك الذي يمكن أن ينطوي عليه ملاك من الملائكة الكرويين - كان مصمماً على أن يكون ساخطاً ، وكان غيوراً من خياله . ذلك بأنه على هذه الصورة تستيقظ غيرة الجسد المريرة والعجيبة ، في القلب البشري وتفرض نفسها على الانسان ، ولو من غير حق . والى هذا ، وبصرف النظر عن هذه الغيرة ، فانه لم يجد شيئاً مستحياً في مشهد تلك الساق الجميلة ؛ كان الجورب الابيض الذي تلبسه ابناً امرأة اخرى خليقاً بأن يوقع في فؤاده سروراً أعظم .

وحين رجعت « أرسول » - هي ومسيو لوبلان ، بعد أن بلغت أقصى المجالز - ومرت بالمقعد الذي عاود ماريوس الجلوس عليه ،

* Théocrite شاعر إغريقي (ولد حوالي ٣١٠ أو ٣٠٠ قبل الميلاد) وكان يمتاز بشدة حساسيته ، وبعد خياله ، وقوة ملاحظته الواقعية . ويعتبر مخترع الشعر الذي يصف حياة الرعاة .

* Bartholo احدى شخصيات « حلاق اشيلية » لبومارشيه ، وهو لا يزال الى اليوم نموذجاً للوصي القبور الكثير الشكوك .

رسقها ماريوس بنظرة فظة ضارية . وتصدّرت الفتاة الشابة ، بعض الشيء ، ورفعت اجفانها على ذلك النحو الذي يقول : « حسن ، ما الذي أصابه ؟ »

كان ذلك هو « خصامها الأول » .

ولم يكد ماريوس ينتهي من ذلك التوبيخ الذي وجهه اليها بعينه حتى عبرَ الجاز شخص ما . وكان ذلك الشخص مشوّهاً من مشوهي الحرب ، محدودب الظهر احددياباً كاملاً ، مفضّن البشرة شديد الشعوب الى حد بعيد . وكان يرتدي بذلة عسكرية من طراز لويس الخامس عشر ، ويضع على صدره تلك الرقعة البيضاء المصنوعة من جوخ احمر والمرسوم عليها سيفان متقاطعان ، وسام القديس لويس الخاص بالجند . وكان ذلك المشوّه يزدان ايضاً برُذُنٍ سترّةٍ ليس في داخلها ذراع ، وبذقن فضية ، وساق خشبية . وحسب ماريوس أنه رأى سبياً من الارتياح البالغ تطفو على وجه ذلك المخلوق . بل لقد بدا له ان ذلك المعجوز الوقح وجهه اليه فيما هو يعرج على مقربة منه عرجاً خفيفاً ، غمزةً أخويةً جدّاً ، مبتهجةً جدّاً ، وكأنها تواطأ بمصادفة ما ، على أمر ، واستنمعا معاً بسعادة غير مرتقبة . أي شيء رآه فضلة « مارس » * هذا حتى يغلب عليه السرور ؟ ما الذي جرى بين هذه الساق الخشبية وبين تلك الساق ؟ لقد عصفت بماريوس عاصفة من الغيرة . وقال في ذات نفسه : « لعله كان على مقربة منها ! لعله قد رآها ! » وتمنى لو يستطيع أن يُبيد ذلك المشوّه .

وبمعونة الزمن ، يتثلّم كل حدّ قاطع . وهكذا فان غضب ماريوس على أورشول ، مهما يكن عادلاً ومشروعاً ، لم يلبث ان زال . وغفر لها آخر الأمر ، ولكن ذلك اقتضاه جهداً كبيراً . لقد أظهر لها استيائه ثلاثة أيام .

* الة الحرب . وهو يقصد بـ « فضلة مارس » مشوّه الحرب ذاك .

وفي غضون ذلك ، وبرغم هذا كله ، بل بسبب من هذا كله ، كان هيامه بتعاطف ، ويفدو مجنوناً .

٩

خسوف

لقد رأينا كيف اكتشف ماريوس ، او اعتقد انه اكتشف ، ان اسمها كان أورشول .

ان الجوع يشي مع الحب جنباً الى جنب . لقد كانت معرفته لاسمها شيئاً ذا شأن ، ولكنها لم تكن كافية . ففي مدى ثلاثة اسابيع او اربعة اسابيع ، التهم ماريوس هذه السعادة . ومن ثم كان في حاجة الى سعادة اخرى . لقد اراد ان يعرف أين تسكن .

كان قد ارتكب خطيئة الوقوع في شرك المقعد المجاور لتشال « المقاتل » . وكان قد ارتكب خطأ آخر عندما احجم عن البقاء في حديقة اللوكسومبورغ كلما أقبل مسيو لوبلان وحده اليها . ولقد ارتكب الآن خطأ ثالثاً ، خطأ هائلاً : لقد سار على آثار أورشول .

كانت تسكن في « شارع الغرب » ، بل في جزئه الأشد انغزالاً ، في منزل جديد متواضع المظهر مؤلف من ثلاثة ادوار .

ومن ذلك الحين اضاف ماريوس الى سعادته برؤيتها في حديقة اللوكسومبورغ سعادة السير خلفها حتى منزلها .

وتعاطف جوعه . لقد عرف اسمها ، اسمها الاول على الاقل ، ذلك الاسم الفاتن ، ذلك الاسم الانثوي الحقيقي . ولقد عرف ابن تسكن . فهو يريد الآن ان يعرف من هي .

وذات ليلة ، بعد ان تبعها حتى المنزل ، وراهما يتواريان خلف باب

العربات ، دخل على آثارهما وسأل البواب في شجاعة :

« ايكون هذا السيد الذي دخل اللحظة هو سيد الدور الأول ؟ »

فأجابه البواب :

« لا . إنه سيد الدور الثالث . »

وكانت تلك خطوةً اخرى مشاها في طريق المعرفة . وضاعف هذا النجاح جرأة ماريوس .

وسأل البواب :

« من الجهة الامامية ؟ »

فأجابه :

« يا للساء ! إن البيت ليس مبنياً إلا على الشارع . »

-- « ومن هو هذا السيد ؟ »

« إنه صاحب دخل . رجل طيب جداً كثير الاحسان الى الفقراء على الرغم من انه ليس غنياً . »

فأردف ماريوس :

« وما اسمه ؟ »

فرفع البواب رأسه ، وقال :

« ايكون سيدي رجلاً من رجال المباحث ؟ »

وانصرف ماريوس ، وقد غلب عليه الحجل ، ولكنه ما يزال في نشوة عارمة . وتقدم ، وهو يقول في ما بينه وبين نفسه :

« حسن . انا اعرف أن اسمها اورسول ، وانها ابنة رجل ذي دخل ، وانها تسكن هناك ، في شارع الغرب ، وفي الدور الثالث . »

وفي اليوم التالي لم يقض مسيو لوبلان وابنته في حديقة اللوكسومبورغ غير برهة قصيرة . لقد انصرفا في وضح النهار . وتبعها ماريوس الى « شارع الغرب » جرياً على عادته . حتى اذا انتهيا الى باب العربات ، ادخل مسيو لوبلان ابنته امامه ، ثم توقف قبل ان يجتاز العتبة ، واستدار وحدق

الى ماريوس تحديقاً موصولاً

وفي اليوم الذي تلا، لم يذهب الى حديقة اللوكسومبورغ . لقد انتظره ماريوس هناك طوال النهار ، ولكن من غير طائل . حتى اذا هبط الليل شخص الى شارع الغرب ، فرأى نوراً ينبعث من نوافذ الدور الثالث . وتمشى تحت هذه النوافذ حتى أطفئ النور . وفي اليوم التالي لم يجيء احد الى اللوكسومبورغ . لقد انتظر ماريوس طوال النهار ، ثم مضى ليقوم بواجبه الليلي تحت النوافذ . ولقد شغله ذلك حتى الساعة العاشرة مساء . ولم يتناول طعام العشاء . إن الحمى تقيت المحنوم ، وكذلك بقيت الحبُّ الحبُّ .

وسلخ اسبوعاً على هذا النحو . ولم يعاود مسيو لوبلان وابنته الظهور في حديقة اللوكسومبورغ . وراودت ماريوس ظنون كثيفة . ولم يجرؤ على مراقبة باب العربات في اثناء النهار . فاجتزأ بالذهاب ليلاً ليتأمل ضوء زجاج النوافذ الضارب الى الحمرة . وبين الفينة والفينة ، كان يرى ظلالاً تروح ونجيه ، فيخفق فؤاده خفقاناً شديداً .

وفي اليوم الثامن لم يجد ، حين وصل الى المنزل ، ايما ضوء منبعث من النوافذ . وقال :

- « ماذا ؟ المصباح لما يُشعلُ بعد . ومع ذلك فالدنيا ليل ، أم انها قد خرجا الى مكان ما ؟ »

وانتظر . انتظر حتى الساعة العاشرة . حتى منتصف الليل . حتى الواحدة صباحاً . ولكن ضوءاً ما ، لم ينبعث من نوافذ الدور الثالث . ولكن شخصاً ما ، لم يدخل الى المنزل . وانصرف متجهماً كاسف البال . وفي غدٍ - إذ انتهى الى ان يعيش من غد الى غد ؛ فلم يعد ثمة لديه اذا جاز التعبير ، شيء اسمه « اليوم » - لم يجد احداً في حديقة اللوكسومبورغ . وانتظر . حتى اذا هبط الليل مضى الى المنزل . لم يكن ثمة نور منبعث من النوافذ ، وكانت المصاريع الخارجية موصدة .

كان الدور الثالث مظلماً بالكلية .

وقرع ماريوس باب العربات ، ودخل وقال للبواب :

– « السيد النازل في الدور الثالث ؟ »

فأجاب البواب :

– « لقد انتقل . »

وترنح ماريوس ، وقال في وهن :

– « متى ؟ »

– « أمس . »

– « ابن يسكن الآن ؟ »

– « لست ادري شيئاً من ذلك . »

– « اذن ، فهو لم يترك عنوانه الجديد ؟ »

– « لا . »

ورفع البواب أنفه ، فعرف ماريوس .

وقال :

– « ماذا ؟ هذا انت ! ولكنك من غير شك مفوض شرطة

اذن ! »

الكتاب السابع

المعالم مبنية

الالغام واللاغمون

إن للمجتمعات الانسانية كلها ما ندعوه في المسارح « الدور التحقيّ الثالث » . والتربة الاجتماعية مزروعة بالالغام في كل مكان ، ابتغاء الحير حيناً ، وابتغاء الشر حيناً . وهذه الالغام طبقات بعضها فوق بعض . فهناك الالغام العليا ، والالغام السفلى . وهناك قمة وقعر في هذه الطبقة تحت الارضية ، المظلمة ، التي تتلّف تحت المدينة ، والتي تطأها لامبالاتنا وإهمالنا بأقدامهما . فالانسكلوبيديا ، في القرن الماضي ، كانت لغماً مزروعاً على سطح الارض ، أو يكاد . والكهوف المظلمة ،

تلك الحاضنات الكالجات الوجوه التي حمت النصرانية البدائية ، كانت تنتظر اول فرصة لكي تنفجر تحت القياصرة ، وتُفرق الجنس البشري بالضياء . ذلك بأن في هذه الدياجير المقدسة نوراً كامناً . فالبراكين ملأى بظلمة قادرة على السطوع والالتماع . وجميع اللحم تبدأ في التكون ليلاً . إن الدياميس * ، التي تُتلي فيها القداس الأول ، لم تكن غارَ رومة فعسب ، بل كانت كهف العالم .

إن تحت البنية الاجتماعية - هذه الآية المعقدة يتكشف عنها بيت عتيق - لِحراً من كل نوع . فهناك اللغم الديني ، وهناك اللغم الفلسفي ، وهناك اللغم السياسي ، وهناك اللغم الاقتصادي ، وهناك اللغم الثوري . فهذا معولٌ مع فكرة ، وذاك معولٌ مع رقم ، وذلك معولٌ مع انتقام . إنها تتداعى وتتجاوب من كهف الى كهف . وإن المدت الفاضلة تتقدم وتبدأ ، تحت الارض ، في تلك المسالك . إنها تتشعب في كل اتجاه . وهي تلتقي هناك في بعض الاحيان وتتأخى . فجان جاك يعير ديوجين معوله ، وديوجين يعير جان جاك مصباحه . وهي تتقاتل في بعض الاحيان . فكالفين * يأخذ بشعر سوسينيوس ** . ولكن شيئاً لا يوقف او يعترض سعي هذه الطاقات كلها نحو غايتها ، والنشاط الضخم المصاحب الذي يروح ويحيى ، ويصعد ، ويهبط ، ويعاود الصعود في هذه الارزاء المظلمة ، والذي يسمو بالاعلى بواسطة الادنى ، والخارجي بواسطة الباطني . تجمهرُ هائل مجهول . والمجتمع لا يكاد يرتاب بعملية

* الدياميس ، جمع ديماس ، وهي الكهوف التي كان قدماء المسيحين يختلفون اليها للتعبد سرّاً ، ولدفن موتاهم .

* Calvin المصلح البروتستانتي المشهور الذي نادى بفكرته الاصلاحية في فرنسة وسويسرة ، والذي انشأ جمهورية بروتستانتية في جنيف (١٥٠٩ - ١٥٦٤)

* Socin بروتستانتى ايطالى اسس مذهباً خاصاً يُنب اليه عرف بالمذهب السوسينيوسى (١٥٢٥ - ١٥٦٢)

النفس هذه التي تغير جوهره من غير ان تمس سطحه . أدوار دهليزية كثيرة جداً ، واعمال متفاوتة كثيرة جداً ، وحفر شتى كثيرة جداً . فما الذي ينبثق من هذه التجاويف العميقة كلها ؟ المستقبل . وكلها امعنا في الفوص وجدنا القائمين بالعمل هناك اكثر خفاء وغموضاً . فحتى درجةٍ تستطيع الفلسفة الاجتماعية ان تعترف بها ، يكون العمل صالحاً . فاذا تعدت تلك الدرجة أمسى مريباً مشوباً . اما بعد ذلك فيغدو فظيماً . وعند عمقٍ بعينه تصبح الحُفر كتموماً لا تنفذ اليها روح الحضارة ، ويُخطئ مجال الانسان التنفسي . عندئذ يصح وجود الهول مكنأ .

والسلم الهابطة غريبة حقاً . إن كلاً من درجاتها توافق موطناً تستطيع الفلسفة أن تضع قدمها عليه ، موطناً نعثر فيه على احد هؤلاء العمال ، الالهيين حيناً ، البشعيين حيناً آخر . فتحت جان هس * نجد لوثر ؛ وتحت لوثر نجد ديكارت ؛ وتحت ديكارت نجد فولتير ؛ وتحت فولتير ؛ نجد كوندورسيه ؛ وتحت كوندورسيه نجد روبسيير ؛ وتحت روبسيير نجد مارا ؛ وتحت مارا نجد بابوف ** . وهكذا دواليك . فاذا عُصنا الى أبعد من ذلك ، وسط الاختلاط والتشوش ، وبلغنا الحد الفاصل ما بين غير الواضح وغير المنظور ، لمنا في الظلمة رجالاً آخرين ، لعله لم يبق لهم اليوم وجود . إن رجال أمس أسباب . وإن رجال الغد يرقانات . إن عمل المستقبل الجينيّ إحدى رؤى الفيلسوف .

عالم جنينيّ في السدّم . أية صورة مظلمة رائعة !

* Huso مصلى ديني تشيكي حكم عليه بالموت حرقاً (١٣٦٩ - ١٤١٥)
 ** Babeuf ثوري فرنسي (١٧٦٠ - ١٧٩٧) تأمر ضد حكومة الادارة ، واتحر طاعناً نفسه بالخبز قبل أن يصمد الى المشقة . ويعرف مذهبه ، الذي كان ضرباً من الشيوعية ، بالبابوفية . Babouvisme

وسان سيون ، وأووين ، وفورييه هم هناك أيضاً ، في حُفَرٍ جانبية .

وعلى الرغم من أن سلسلة السَّهْمِ غير منظورة تربط هؤلاء الرواد الدهليزيين الذين يعتقدون دائماً تقريباً أنهم منعزلون ومع هذا فهم ليسوا كذلك ، فإن ألوان نشاطهم تختلف جداً ، وإن ضياء بعضهم ليتغير مع لهيب بعضهم الآخر . بعضهم فردوسيون ، وبعضهم مأساتيون . ومع ذلك ، وأياً ما كان التغير الذي بينهم ، فإن قاسماً مشتركاً يجمع ما بين هؤلاء العاملين جميعاً ، من أسماهم الى أقتهم ، ومن أكثرهم حكمة الى أشدهم حماقة ، وهو النزاهة . إن مارا ، مثل يسوع ، لينسى نفسه . لأنها يطرحان نفسيهما جانباً ؛ إنها يُغفلان نفسيهما ؛ إنما لا يفكران بنفسيهما البتة . إنها يريان شيئاً آخر غير نفسيهما . إن في اعينها نوراً ، وهذا النور يبعث ابدأً عن المطلق . أما الأول فالسما كلها منظوية في عينه . وأما الآخر فيبدو تحت حاجبيه ، برغم لُغزِيَّتِه كلها ، ضياء اللانهاية الشاحب . فلنقدِّس كل من يحمل هذه العلامة ، « الحدقة النجم » ، كأنثاً من كان . إن « الحدقة الظلمة » هي العلامة الاخرى .

بها يبدأ الشر . وأمام من لا نور في عينه يتعين عليك ان تفكر وترتجف . إنَّ للنظام الاجتماعي لاجميه السود .

هناك نقطة ينتهي زرع الالغام فيها الى ان يصبح دفناً ، وينطفئ . عندها الضياء .

وتحت جميع هذه الالغام التي اشرنا اليها ، تحت جميع هذه الدهاليز ، تحت مجموعة العروق الهائلة المحجوبة ، عروق التقدم والمدينة الفاضلة ، وعند نقطة أعمق في باطن الارض ، في موقع ادنى من موقع مارا ، وادنى من موقع بابوف ، اجل ادنى ، أدنى بكثير ، ومن غير ان تكون بينها وبين الدهاليز العليا صلة ما ، تقع الحفرة الاخيرة . مكانٌ رهيب . ذلك ما دعونا « الدور التحفي » الثالث . إنه قبر الظلمات .

إنه كهف العيان . *Inferi* *
وهو متصل بالهوى . **

٢

الدرك الأسفل

هناك تتلاشى النزاهة . إن الشيطان ليرتسم على نحوٍ غامض ؛ وكل
يعمل من أجل ذاته . إن « أنا » العياء تعوي ، وتبحث ، وتتحمس
طريقها في الظلام ، وتقرض . إن « اوغولينو » *** الاجتماعى لفي
هذه الهوة .

إن الصور الشرسة المظلمة التي تطوّف في هذا القبر ، شبيهةً بالبهائم
شبيهةً بالأطياف ، لا تُعنى بالتقدم الكليّ . إنها تُنكر الفكرة والكلمة ؛
وليس لها من همٍّ غير إرواء غليلها الفرديّ . إنها تكاد أن تكون
لاواعية ، وإن فيها لضرباً من الاندثار الرهيب . إن لها أميين ، كلتاهما
امرأة أب ، الجهل والبؤس . وإن لها هادياً هو الحاجة . والشكل
الأوحد الذي تعرفه ، من اشكال الارتياح ، هو الشهوة الى الطعام .
إنها نهمةٌ على نحوٍ بهيميّ ، يعني أنها ضارية ، لا على طريقة الطاغية
ولكن على طريقة التبر . ومن المحنة تنتقل هذه البرقانات الى الجريمة .
بُنوة محتومة . تناسلٌ يوقع الدوار في الرأس ، منطلق الظلام . إن
ذلك الذي يدبّ في « الدور التحتيّ الثالث » هذا ، لم يعد البحث

* باللاتينية ، وتعني جحيم او الجحيم .
** الهوى : جمع هوة .

*** Ugolin Della Cherardesca طاغية يبزا الرهيب وند حبه اعداؤه في احد
الابراج ليموت جوعاً (القرن الثالث عشر للبلاد) .

المكظوم عن المطلق ؛ إنه احتجاج المادة . إن الانسان هناك ليصح
تنبأ . والجوع والظأ هما نقطة الانطلاق . والشيطان هو نقطة
الوصول . من هذا الكهف ينبثق لاسينير * .

لقد رأينا في الكتاب الرابع ، منذ لحظة ، احدى طبقات اللغم
الاعلى : اللغم السيامي ، الثوري ، الفلسفي الكبير . هناك ، كما قلنا ،
كل شيء نبيل ، طاهر ، جليل ، فاضل . صحيح أن المرء ، هناك ، قد
يُخدع ، وانه ليُخدع ، ولكن الخطأ هناك مدعاة للاحترام لما ينطوي
عليه من بطولة بالغة . وليس لجماع العمل الذي يتم هناك غير اسم
واحد ، هو التقدم .

ولقد آن لنا ان نلقي نظرة على أعماق أخرى ، أعماق الرعب .
ان تحت المجتمع - ونحن نصرّ على ذلك ، كهفاً ضخماً هو كهف
الشر ، ولسوف يظلّ هذا الكهف قائماً تحت المجتمع الى يوم يزول
الجهل .

وانما يقع هذا الكهف تحت ذلك كله ، وانه لعدوّ ذلك كله . انه
البغض الذي لا يقبده استثناء . وهذا الكهف لا يعرف فلاسفة البتة .
ان مديته لم تبرّ يراعة ما ، في يوم من الأيام . فليس لسواده ايما
صلة بسراد المحبرة السنّي . ان اصابع الليل المتشنجة تحت هذا السقف
الخائقي لم يُقدّر لها ان قلبت صفحات كتاب ، او بسطت جريدة قط .
ان بابوف محتمل في نظر كارتوش ، وان مارا اريستوقراطي في نظر
شيندرهان . ان لذلك الكهف هدفاً ، هو انهيار كل شيء .

اجل كل شيء . حتى الألقام العليا التي يُبغضها . إنه لا ينسف ،
في ديبه الخيف ، نظام العصر الاجتماعي فحسب ، بل إنه ينسف الفلسفة ،
إنه ينسف العلم ، إنه ينسف القانون ، انه ينسف الفكر الانساني ،
انه ينسف الحضارة ، انه ينسف الثورة ، انه ينسف التقدم

* Lacenaire مجرم سفاح أعدم في باريس (١٨٠٠ - ١٨٣٦)

ايضاً . وهو يسمّى ، بكل بساطة ، اللصوصية ، والبغاء ، والقتل ، والاعتقال . انه مظلم ، وهو محبّ الفوضى . ان قنطرتة مصنوعة من الجهل .

والطبقات الأخرى التي تعلوه ليس لها كلها غير غرض واحد : أن تقضي عليه . ومن اجل هذا الغرض تعمل الفلسفة والتقدم بوسائلها جميعاً في آنٍ معاً ، باصلاح الواقع وإنعام النظر الى المطلق على حدّ سواء . دمّروا الكهف المسمّى الجهل ، تقتلوا الخُلد المسمى الجريمة . وسوف نكتفّ في بضع كلمات جزءاً بما قلناه اللحظة . ان الخطر الاجتماعي الأوحده هو الظلام .

الانسانية هي وحدة الذات . فالتناس كلهم يجبولون من طين واحد . لا فرق ، هنا في هذا العالم على الاقل ، في القضاء والقدر . الظلمة نفسها قبل الحياة ، والجد نفسه في اثنائها ، والرفات نفسه بعدها . ولكن الجهل ، متمزجاً بالجلبة الانسانية ، يسودها . وهذا السواد الذي لا يُبره منه يستحوذ على قلب الانسان ، ويتحوّل هناك الى الشرّ .

٣

بايه ، غولوميه ، كلاكسو ، ومونبارناس

كان رباعيّ من قطاع الطرق - كلاكسو ، غولوميه ، بايه ، ومونبارناس - يهيمن على دور باريس التحتيّ الثالث من عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٣٥ .

كان غولوميه جباراً مُبعداً عن ميدانه الطبيعيّ . وكان جُحره بالوعة « آرش ماريون » . كان طوله يبلغ ستة اقدام ، وكان ذا صدر وخاميّ ، وعضلات نحاسية ، ورثتين كهفتين ، وجذع تمثال فائق

الضخامة ، وجبهة عصفور . ويحتمل اليك اذ تراه انك ترى الى فارنيز * الجبار لابساً بنظولاً من نسيج كتاني مشدود ، وصدره من نخل قطني . وكان في استطاعة غولوميه ، وقد انشبه على هذا النحو النقشي ، أن يقهر الموكل ، ولكنه وجد أن من الأيسر عليه أن يصبح هو واحداً منهم . جبين منخفض ، وصدغان عريضان ، وسنّ دون الاربعين ، وقدم اوزة ، وشعر قصير خشن ، وخذّ سائب ، ولحية خنزيرية برية ، ومن خلال هذا كنت ترى الرجل . كانت عضلاته تلمس العمل ، ولكن حماقته لم تكن راغبة في شيء من ذلك . كان قوة هائلة كسولاً . كان مفتاحاً بالتناقل والتواني . ولقد كان الناس يحسبونه من مواليد المستعمرات . واغلب الظن انه كان في بُرديه شيء من المارشال برون ** ، اذ كان بواباً في آفينيون عام ١٨١٥ . ومنذ تلك الفترة امسى قاطع طريق .

وكانت شفافية « بايه » تتغير تغيراً واضحاً مع لمانية غولوميه . كان بايه نحيلاً حاذقاً . وكان شفافاً . ولكنه مُغلق لا ينفذ المرء الى سريره . كان في ميسورك ان ترى النور من خلال عظامه ، ولكن لم يكن في ميسورك ان ترى شيئاً من خلال عينيه . كان يدعي انه كيميائي . ولقد عمل مشعوذاً عند بويش ، ومهرجاً عند بويينو . وكان قد مثل بعض ادوار الفودفيل في سان ميييل . كان رجلاً متكافئاً ، ومحدثاً بارعاً ، يضع خطأً تحت ابتساماته ويقيد ايماءاته بمزدوجين . كانت تجارته بيع رسوم « رئيس الدولة » وتماثيله النصفية المصنوعة من الجبس ، في الشوارع . وفق هذا ، فقد مارس خلع الاضراس . كان

* Farnèse رجل حرب وسياسة (١٥٤٥ - ١٥٩٢) ولد في رومة وتولى الحكم في « الاراضي المنخفضة » ، وقد وجهه فيليب الثاني الى فرنسا لخدمة الكاثوليك .
 ** Brune مارشال فرنسا (١٧٦٣ - ١٨١٥) وقد لمع نجمه خلال حملتي هولندا واطالية ، ولقى حتفه في آفينيون خلال الارهاب الابيض (١٨١٥) .

قد عرض بعض الغرائب في الاسواق الموسمية ، وكان له دكان خشبي ذو بوق وهذه الالفة : « بابيه ، فتان في طب الاسنان ، عضو في المجمع العلمية ، يجري تجارب فيزيائية على المعادن واشباه المعادن ، يقتلع الاسنان ، ويستأصل جذورها المكسورة التي خلفها اطباء الاسنان الآخرون . التعرقة : سنّ واحدة ، فرنك وخمسون سنتياً . ستان ، فرنكان . ثلاث اسنان ، فرنكان وخمسون سنتياً . اغتموا الفرصة ، (وكانت عبارته « اغتموا الفرصة » هذه تعني اقلعوا اكبر عدد ممكن من اسنانكم .) وكان قد تزوج ، وكان قد انجب اولاداً . اما ما حلّ بزوجه واولاده فذلك شيء لم يكن يدريه . لقد اضاعهم كما يضع المرء منديله . وكان بابيه يقرأ الصحف ، وهي ظاهرة فريدة في العالم المظلم الذي ينتمي اليه . وذات يوم ، حين كانت امرته معه في دكانه النقتال ، قرأ في جريدة « الرسول » ان امرأة وضعت طفلاً تبدو عليه قابلية الحياة ذا وجه كوجه العجل ، فصاح : « هذا حظ عظيم ! إن زوجتي ليس عندها من الذوق ما يحملها على ان تلد لي طفلاً كهذا . » ومن ذلك الحين ترك كل شيء لكي « يهيم على باريس » ، كما عبّر هو نفسه .

اي شيء كان كلاكو ؟ كان الليل . فقبل ان يبرز للناس كان ينتظر حتى تتسبخ السماء بالسواد . وعند المساء ، كان يخرج من جُحره ليعاود دخوله قبل ان يرتفع الضحى . اين كان ذلك الحجر ؟ ان احداً لم يعرف ذلك . وفي الظلمة الأشدّ حلكته ، لم يكن يخاطب شركاهه في الجريمة الا مولتياً ايام ظهره . أكان اسمه كلاكو ؟ لا . كان يقول : اسمي « لا شيء على الاطلاق » . وكان اذا ما جيء بشمعة لبس قناعاً . وكان يتكلم وكان صوته يخرج من بطنه . واقدم قال بابيه : « كلاكو طائر ليبي ذو صوتين . » كان كلاكو قلقاً ، تائهاً ، فظيماً . وليس من الراهن أنه كان له اسم ، فكلاكو ليس

غير لقب . وليس من الراهن أنه كان له صوت ، اذ كان بطنه هو الذي يتكلم في أغلب الاحيان لا فيه . وليس من الراهن انه كان له وجه ، اذ لم يقدر لأحد ان يرى شيئاً قط غير قناعه . كان يجتفي وكأنه قد تلاشى . وكان ظهوره انبثاقاً من الارض .

أما مونبارناس فكان مخلوقاً فاجعاً . كان مونبارناس طفلاً ، فهو لما يبلغ العشرين بعد ، وكان وسيماً ذا شفتين اشبه شيء بجستي الكرز ، وغداثر فاتنة سوداء ، يلتصع في عينيه ضياء الربيع . لقد جمع الرذائل كلها ، وطمح الى الجرائم كلها . فقد كان هضم الرديء يحرك شهوته الى ما هو اردأ . كان هو المتشرد متحولاً الى زقافيّ داعر ، ولقد أمسى الزقافيّ سفاحاً . كان لطيفاً ، مخنثاً ، أنيقاً ، قوياً ، رخصاً ، ضارباً . وكان يعتمر بقبعته مائلة الى اليسار لكي يفسح المجال لحصاة الشعر وفقاً لزيّ عام ١٨٢٩ . لقد عاش باللوصية . وكانت ستوته مفصلة على أجل موضة ، ولكنها رثة متقطعة الجيوب . والحق ان مونبارناس كان رجلاً مثالي الاناقة يحيا في بؤس ، ويرتكب جرائم القتل . وكان السبب الذي من اجله ارتكب هذا المراهق تلك الجرائم كلها رغبته في ان يكون حسن البزة . كانت اول عاملة مغناجة قالت له : « أنت جميل ، قد ألت أدران الظلمة في فؤاده ، وجعلت من « هابيل ، هذا « قاييناً » * آخر . واذ خيل اليه أنه جميل المحيّا ، فقد أراد ان يكون أنيقاً . واول الاناقة البطالة ، وبطالة الفقير هي الجريمة . ان قليلاً من المطوفين في الليل التماساً للفريسة كانوا مرهوبي الجانب مثل مونبارناس . كان قد خلف وواءه ، وهو بعد في الثامنة عشرة ، عدداً وافراً من الجثث . وكان اكثر من عابر سبيل واحد يرقد ، في ظلمة هذا البائس ، مبسوط الذراعين ، غارقاً وجهه في بركة من الدم . فتيّ

* واضح ان التنوين هنا هو تنوين التنكير ، والمقصود رجلاً قاتلاً مثل قايين الوارد ذكره في الكتب المقدسة .

جعد الشعر ، مطيب براهم الرأس الخاصة ، ذو جذع كجذع ضابط
بروسي ، تحيط به وشوشات الاعجاب الصادرة عن فتيات الجادة ، وقد
عقد رباط عنقه في دراية بالغة ، ووضع في جيبه عصا قصيرة رصاصية
الطرف ، وعلقت في عروته زهرة - كذلك كان فني القبور ذلك ،
المعجب بنفسه .

٤

تكوّن الشرذمة

وشكّل قطاع الطرق الاربعة هؤلاء شبه « بروتيه » * فهم ياقون
من حول الشرطة ، ويجاولون اجتناب نظرات « فيدوك » ** الفضولية
تحت اشكال مختلفة : « شجرة ، او شعلة ، او ينبوع » ، ويستعير بعضهم
اسماء بعض وحياتهم ، متوارين في ظلالهم ، ويجعل كل منهم نفسه مخبأ
وملجأ للآخرين ، مطّرحين شخصياتهم كما ينزع المرء انفه الزائف في حفلة
رقص مقنعة ، مبسطين أنفسهم في بعض الاحيان حتى ليصبحوا شخصاً
واحداً ليس غير ، مضاعفين انفسهم في بعضها الآخر حتى ليحسبهم « كوكو
لاكور » نفسه حشداً غفيراً .

وهؤلاء الرجال الاربعة لم يكونوا رجالاً اربعة . كانوا ضرباً من
لص عجيب ذي اربعة رؤوس يعيث فساداً ، على نطاق واسع ، في

* Protée في الميثولوجيا ، الاله مجري منحه أبوه ، نبون ، القدرة على
التنبؤ ، ولكنه كان يرفض الكلام في كثير من الاحيان ، فكان يغير شكله حيناً
بعد حين تخاصاً من الخاح السائلين .

** Vidocq مغامر فرنسي (١٧٧٥ - ١٨٥٧) شغل مديرية الشرطة بعد ان
كان شريراً محكوماً عليه بالاشغال الشاقة .

باريس . كانوا أخطبوط الشر المروع ، ساكناً في مرداب المجتمع .
وبفضل فروعهم المتشعبة وشبكة صلاتهم الخفية ، سيطر بايه ، وغولومه ،
وكلاكسو ، ومونبارناس على صناعة المكائيد العمامة في مديرية الين .
كان مبتدعو الافكار في هذا الحقل ، وهم رجال " اصحاب خيال ظلامي " ،
يفدون اليهم الناساً للتنفيذ . كانوا يزودون الاوغاد الاربعة بالخطة المفردة
فينهضون بعبد ، إخراجها الفني . كانوا يعملون على أساس تصميم موضوع ،
وكانوا دائماً على استعداد لأن يقدموا جماعة تتناسب مع ايما محاولة للاغتيال
تحتاج الى مساعدة ، وتنطوي على كسب . إنهم يقدمون الى كل جريمة
يعوزها العزل من يشارك فيها . ان عندهم شرذمة من ممثلي الظلمة تحت
تصرف كل مأساة من مآسي المغاور .

وكانوا يجتمعون عادة حين يهبط الليل ، وهي ساعة استيقاظهم ،
في الارض البور المجاورة ا « لاساليتريير » . هناك كانوا يتذاكرون .
كانت الاثنتا عشرة الساعة المظلمة امامهم ، فهم يوزعون العمل وينظّمونه .
المعلم مينيت - ذلك هو الاسم الذي أطلق في المجتمع تحت الأرضي
على هؤلاء الرجال الاربعة مجتمعين . وفي اللغة الشعبية الغريبة العتيقة ،
التي تندثر يوماً بعد يوم ، يفيد قولهم « المعلم مينيت » الصباح ، كما يعني
قولهم « بين الكلب والذئب » المساء . وأغلب الظن أن هذا اللقب ،
المعلم مينيت ، ناشيء عن الساعة التي ينتهي بها عملهم ، اذ كان الفجر هو
ميعاد اختفاء الاشباح وتفرّق اللصوص . لقد عرف هؤلاء الاربعة بهذا
اللقب . وحين زار رئيس محكمة الجنايات السفايح لاسينير في سجنه
استجوبه عن جريمة انكرها لاسينير ، فسأله : « من الذي ارتكبها ؟ »
فاجابه لاسينير بهذا الجواب الذي كان ملفزاً عند القاضي ، ولكنه واضح
عند الشرطة : « لعله المعلم مينيت » .

إن في استطاعة المرء ، احياناً ، ان يتخيل المسرحية من مجرد
الاطلاع على اسماء أبطالها . وكذلك نستطيع ايضاً ان ندرك على نحو

تقريباً ماهية عصابة ما من مجرد الاطلاع على لائحة لوصفها المسلحين .
وها نحن نقدم ههنا الألقاب التي كان مساعدو المعلم مينيت الرئيسيون
يستجيبون لها ، فهذه الاسماء محفوظة في الوثائق :

بانشو ، المسمى بـ « برينتانيه » وبـ « بيغروناي » .
بروجون . (كان ثمة سلالة من الـ « بروجون » سنتحدث عنها في
ما بعد .)

بولاتروويل ، معبد الطرق الذي سبقت الإشارة اليه .
لافوف .

فينستير .

هومير هورغو ، وهو زنجي .

مارديسوار .

دييش .

فونتوروا ، المسمى بوكوتير .

غاوريو ، وهو أشغاليّ مطلق السراح .

باركاروس ، المسمى ميو دوبون .

ليبلاناد دو سود .

بوساغريف .

كارمانبوليه .

كرويدونيه ، المسمى بـ « بيزارو » .

مانجودانتيل .

ليبيه آن لير .

دومي ليار ، المسمى دو مييار .

النخ .

ولقد ضربنا صفحاً عن بعضها ، وليس ذلك الذي أهملناه بالأسوأ .
ولهذه الاسماء وجوه . إنها لا تعتبر عن كائنات فحسب ، بل عن انواعٍ

من الكائنات . إن كلاً من هذه الاسماء يطابق فئة من فئات الفطر
الشائبة تلك ، النامية في سراديب الحضارة .

وتلك الكائنات ، التي لا تسخو بوجودها الا قليلاً ، لم تكن من
تلك التي نمر بها في الشوارع . ففي النهار ، بعد ان تكون لياليها
الضارية قد أنصبتها ، تستسلم الرقاد ، في افران الجبس حيناً ، وفي مقالع
مونغارتر او موزوج المهجورة حيناً ، وفي البواليع حيناً . إنهم يختبئون
في اجحار .

ما الذي حلّ هؤلاء الرجال ؟ إنهم لا يزالون على قيد الحياة .
ولقد كانوا دائماً على قيد الحياة . ان هوراس قد قال فيهم
Ambubaiarum collegia, pharmacopola, mendici, mimae وما دام المجتمع كما هو ،
فلسوف يظنون كما هم . فتحت سقف كهفهم المظلم ، ما يفتأ هؤلاء
القوم ينشأون من جديد نتيجة للارتشاح الاجتماعي . انهم يعاودون الظهور
اسباحاً ، شأنهم دائماً . ولكنهم لا يحملون الاسماء نفسها . لقد خلعوا
جلدهم القديم ، وبرزوا بجلد جديد .

الافراد قد أيدوا ، ولكن القبيلة ما تزال باقية .

ان لهم مواهبهم نفسها دائماً . ومن الشحاذ الى المتلصص في جوف
الليل يحتفظ العيرق ببقاء دمه . انهم يتكهنون بمحافظات النقود في
الجيوب ، ويستروحون الساعات في جيببات الصدّرات . ان للذهب
والفضة رائحة في انوفهم . وهناك بورجوازيون سُذج يستطيع المرء ان
يقول ان على وجوههم سيبا تؤذن بأن في الامكان سرقتهم . ان
اولئك الرجال يتعقبون هؤلاء البورجوازيين في أناة . فما ان يمرّ على
مقربة منهم غريب عن البلد او وافد من الريف حتى تعثرهم ارتعاشة
كارتعاشة العنكبوت .

ومثل هؤلاء القوم يوقعون الرعب في الفؤاد حين يلتقيهم المرء او
يلحهم من بعيد - حوالى منتصف الليل - في جادة مقفرة .

إنهم لا يبدوون رجالاً ، ولكن اشكلاً صنعت من الظلمة الحية . في استطاعتك ان تقول إنهم على العموم جزء لا يتجزأ من الظلمة ؛ إنهم لا يختلفون عنها ، إنهم لا روح لهم غير الدجّة ، وإنهم لا ينسلخون عن الليل إلا آتياً ولكي يجيوا بضع دقائق حياة مضادة للطبيعة .
إلام نحتاج لكي نجعل اليرقانات تسقط مفضياً عليها ؟ الى النور .
الى فيض من النور . فليس من خفاش يستطيع ان يقاوم الفجر .
أنبروا أعماق المجتمع السفلى .

الكتاب الثامن

الفقير الشريف

ماريوس ، الباحث عن فتاة ذات قبعة
يلتقي برجل ذي قلنسوة

وانقضى الصيف ، ثم انقضى الخريف ، وأقبل الشتاء . ولم يظأ لا
مسيو لوبلان ولا الفتاة الشابة ارض اللوكومبورغ . وسيطرت على
ماريوس فكرة واحدة ليس غير : ان يرى ذلك المحيّا الحلو المعبود ،
مرةً اخرى . وبجث على نحو موصول ، وبجث في كل مكان ، فلم يجد
شيئاً . إنه لم يعد ماريوس الحالم المتحمّس ، والرجل الحازم ، المتقد

الرصين ، ومتحدتي القدر الجريء ، والعقل الذي يصمم ويبنى مستقبلاً فوق مستقبل ، والقلب الرخص المليء بالخطط ، والمشاريع ، والحيلاء ، والافكار ، والارادات . كان كلباً ضائعاً . لقد سقط في لجة كآبة سوداء . وقضى الامر . امسى العمل ينغصه ، والسير يتعبه ، والوحدة تضجره ، وأمت الطبيعة الواسعة - التي كانت من قبل حافلة بالاشكال ، والأضواء ، والأصوات ، والآراء ، والمناظر ، والآفاق ، والدروس - خاوية أمامه . لقد بدا له أن كل شيء قد اختفى .

كان لا يزال مفعماً بالافكار ، إذ لم يكن في ميسوره ان يكون غير ذلك ؛ ولكنه ما عاد يجد متعةً في افكاره . وجواباً على كل ما عرضته عليه في صمت وفي إلحاح كان يقول : « وما الفائدة ؟ »

وعنف نفسه مئة مرة . لماذا تبعتها ؟ لقد كنت سعيداً جداً بمجرد رزيتها ! ولقد نظرت اليّ ، ألم يكن ذلك شيئاً عظيماً ؟ كان عيّاها يؤذن بأنها تحبني ، ألم يكن ذلك كل شيء ؟ ايّ شيء كنت أطمع في ان أنال ؟ ليس ثمة شيء وراء ذلك . لقد كنت احمق ، إنما غلطني ، الخ . الخ . والحق ان كورفيراك الذي لم يُفَضَّر ماريوس اليه بشيء - فقد كانت هذه هي طبيعته - والذي حزر برغم ذلك كل شيء تقريباً - فقد كانت تلك هي طبيعته أيضاً - نقول : الحق ان كورفيراك كان قد بدأ حينه بالحب الذي استبدّ به ، ويعجب مع هذا لذلك . حتى اذا رأى ماريوس يتودى في تلك الكآبة ، انتهى آخر الأمر الى ان يقول له : « ارى انك لم تكن إلا حيواناً . هيا ، تعال الى الكوخ ! »

وذات يوم ، وقد ركن الى شمس ايلول الجميلة ، ارتضى أن يأخذه كورفيراك ، وبوسوويه ، وغرانثير ، الى « مرقص سو » راجياً ، وبأله حلم ! ان يجدها هناك . ولسنا في حاجة الى القول إنه لم يجد هناك الفتاة التي التمسها . « ومع هذا ، فهبنا يستطيع المرء ان يعثر على جميع النسوة الضائعات » ، كذلك غمغم غرانثير . وترك ماريوس اصدقاءه في المرقص ،

وانقلب ماشياً وحده ، على القدمين ، مجهداً ، محمواً ، قلق العينين محزونهما في الظلام ، دهشاً بضجة العربات المرحة وبغبارها ، تلك العربات الحافلة بالجماعات المنشدة الراجعة من العيد ، فيما كان يتنشق ، مخيَّبَ الأمل ، روائح شجرات الجوز الحريفة القائمة على جانبي الطريق لكي يعيد الى رأسه الصفاء .

واستغرق من جديد ، وعلى نحوٍ متعاطف ، في العيش المتوحد ، التائه ، المثقل ، فهو يتجرع آلامه الباطنية المريرة ، وهو يروح ويحيى ، متحملاً وجعه مثل ذئب في قفص ، باحثاً عن ضالته ، في كل مكان ، محبلاً بالحب .

وفي مناسبة اخرى ، تركت احدى المصادفات أثراً فريداً في نفسه . ففي احد الشوارع الصغيرة المحاررة اذ جادة الانفاليد ، التقى رجلاً مرتدياً ثياب العمل ، ومعتماً بقلنسوة ذات حافة عريضة كانت تبدي بضع ذوائب من شعر ناصع البياض . وتأثر ماريوس بجمال هذا الشعر الاشيب ، وتأمل هذا الرجل الذي كان يمشي في خطى وثيدة ، وكأنه مستغرق في تفكير موجه . ومن عجب ان قد بدا له أنه تبين في ذلك الرجل مسيو لوبلان . كان الشعر شعره ، والصورة الجانبية صورته - بقدر ما ساعدته القلنسوة على الرؤية - والمشية مشيته ولكنها أفضل بالحزن . ولكن لم يرتدي ثياب العمال هذه ؟ ما معنى ذلك ؟ علام يدل هذا التفتع ؟ وغلب الانشدها على ماريوس ، حتى اذا تاب الى نفسه كان اول ما فعله ان لحق بذلك الرجل . فمن يدري ، لعله اهتدى آخر الامر الى الاثر الذي يبحث عنه ؟ وعلى اية حال ، فينبغي ان يرى الرجل كرة اخرى ، عن كسب ، وبجل تلك الاحجية . ولكن هذه الفكرة لم تخطر له إلا بعد فوات الاوان ؛ كان الرجل قد مضى الان لسبيله . كان قد سلك زقاقاً جانبياً ما ، فلم يعثر له ماريوس على اثر . وشغلت هذه المصادفة تفكيره بضعة أيام ، ثم تَدَثُرَتْ . وقال في ذات نفسه :

— « لعله ، على اية حال ، مجرد شبه ليس غير . »

٢

لقية

كان ماريوس لا يزال يسكن في بيت غوربو العتيق . ولم يلقِ بالآ الى احد هناك .

والواقع أنه لم يكن قد بقي ، في تلك الفترة ، احدٌ من سكان ذلك البيت غيره وغير اسرة جوندرت التي دفع عنها ، ذات مرة ، اجرة السكنى ، من غير ان يتحدث في يوم من الايام الى الأب ، او الى الأم ، أو الى ابيّ من البنين . كان المستأجرون الآخرون قد انتقلوا أو ماتوا ، أو أخرجوا لتختلفهم عن دفع الاجرة .

وذات يوم ، من ايام ذلك الشتاء ، تجلّت الشمس قليلاً ، عند الاصيل ، ولكنه كان اليوم الثاني من شباط ، عيداً تقديماً يسوع في الهيكل ، ذلك العيد القديم الذي اوحى شمه الغادرة ، المبشرة بسمّة اسابيع من البرد ، الى ماثيو لينزبيرغ هذين البيتين اللذين أمسيا ، بحق ، من الادب الكلاسيكي :

« دعها تطع أو ترسل أشمة واهنة

إن الدبّ يرجع الى وجاره . »

وكان ماريوس قد غادر وجاره منذ لحظة . كان الليل قد هبط . وكانت الساعة ساعة عشائه ، ذ كان لا يزال مضطراً الى ان يمضي لتناول عشائه ، وأسفاه ! آه ، يا لعجز العشق المثالي !

وكان قد اجتاز ، وما كاد ، عتبة بابه التي كانت « مام بوغون »
تكنسها في تلك اللحظة مدممةً في الوقت نفسه بهذه المناجاة الخالدة :
- « وما الشيء الرخيص اليوم ؟ كل شيء غال . ليس من شيء
رخيص غير آلام الناس . إن آلام الناس مجانية ! »
وصعد ماريوس في الجادة ، بخطى وثيدة ، متجهاً نحو باب المدينة
لسي ينتهي الى شارع سان جاك . كان يمشي شارد البال ، مطرفاً
برأسه الى الارض .

وفجأة ، أحسّ بمن يدفعه بمرفقه ، في الغسق . والتفت ، فرأى
فتاتين سابيتين في اسمال بالية - الأولى طويلة مهزولة ، والاخرى أقصر منها
بقليل - تمرّان به على عجل ، لاهتتين ، مروّعتين ، وقد بدت على
وجهيهما سببا للفرار . لقد التقتا به من غير أن تراه ، ولقد صدمتا في
اندفاعهما . وتبين ماريوس ، في الغسق ، وجهيهما البالي الشحوب ،
وغداثرهما المنفوشة المتظاهرة ، وقبعتيهما الرهيبتين ، وتنورتيهما الممزقتين ،
وأقدامهما الخافية . كانتا تتبادلان الحديث وهما راكضتان . وقالت
أطولهما قامةً ، في صوت خفيض جداً :

- « لقد اقبل رجال الشرطة . ولقد اخطأوا الامساك بي عند
منتصف الدائرة . »

فأجابت الاخرى :

- « لقد رأيتهم . ولقد ركضت ، وركضت ، وركضت ! »
وفهم ماريوس ، من خلال هذه اللهجة العامية المشوومة ، ان الدرك
او شرطة المدينة ، لم يوفقوا الى القاء القبض على هاتين الطفلتين ، وان
الطفلتين قد ولتا فراراً .

واندفعتا تحت اشجار الجادة من خلفه ، فأحدثتا في الظلمة ضرباً من
البياض القاتم ، ما لبث ان تلاشى بعد بضع ثوان .
ووقف ماريوس لحظة .

وكان على وشك ان يستأنف سيره حين لمح رزمة صغيرة ضارباً لونها الى الرماديّ ملقاةً عند قدميه . وانحنى والتقطها . كانت شبه ظرف بدا وكأنه يحتوي بعض الاوراق .

وقال :

- « حسن . لا شك في ان هذه قد سقطت من هاتين الخلوقتين

البائستين » !

وارتدّ على آثاره ، وناداهما ، فلم يهتدي اليهما . واستنتج من هذا أنهما قد انتهتا الى مكان بعيد ، فوضع الرزمة في جيبه ، ومضى لتناول طعام العشاء .

وفي بعض الطريق رأى في زقاق من شارع موفتارد تابوت طفل مغطى بقطعة من الجوخ الأسود وقد وُضع على ثلاثة كراسي وأُضيء بشعّة . وهنا تذكر فتاتي العسق .

وفكّر :

- « يا للامهات البائسات ! ان شيئاً واحداً هو ادعى الى حزنهن من رؤية اولادهن يموتون . وما ذلك غير رؤيتهم يجيئون حياة الشر . » ثم إن هذه الظلال التي ادخلت على حزنه عنصراً جديداً ما لبثت ان فارقت تفكيره ، فاستغرق في تأملاته المعتادة . لقد شرع يفكر في أشهر الحب الستة التي نعيمَ بها ، والسعادة التي تمت له في الهواء الطلق وفي وضع النهار ، تحت شجرات اللوكومبورغ الجميلة .

وقال في ذات نفسه :

- « كم قد أصبحت حياتي مظلمة ! إن الفتيات الشابات لا يزلن يبرزن أمامي . مع فارق واحد ، هو أنهم كنّ من قبل ملائكة ، أما اليوم فهنّ غيلان . »

أنصاب ذات أربعة وجوه

وفي الماء ، فيما كان ينزع ملابسه ليأوي الى الفراش ، وقعت يده في جيب سترته على الرزمة التي التقطها في الطريق . كان قد نسيها . وخطر له ان من المفيد ان يفضها ، وان تلك الرزمة قد تحتوي على عنوان تبنك الفتاين الشابتين ، اذا كانت رزمتها حقاً . وياً ما كانت ، فقد تحتوي على المعلومات الضرورية لاعادتها الى من فقدها .
وفتح الظرف .

كان غير مختوم . وكان يحتوي على أربع رسائل غير مختومة أيضاً . كانت العناوين مدونة عليها .

وفاحت منها جميعاً رائحة تبغ فظيغ .

وكانت الرسالة الاولى معنونة هكذا : الى سيدتي ، السيدة المركيزة

دو غروشيبراي ، الساحة المقابلة لمجلس النواب ، رقم

وقال ماريوس في ذات نفسه إنه سوف يجد . - على الأرجح - في هذه

الرسالة ، المعلومات التي كان يبحث عنها . وفوق ذلك ، فما دامت الرسالة

غير مختومة فأغلب الظن ان لا يكون في قراءتها بأس .

كانت تنطوي على هذه الكلمات :

« سيدتي المركيزة :

« إن فضيلة الحنان والشفقة هي التي توحد المجتمع اكثر ما يكون

التوحيد . ايقظي عاطفتك المسيحية ، وألقي نظرة رافة الى هذا

الاسباني البائس الذي ذهب ضحية * الولاء والتعلق بقضية « الشرعية » المقدسة التي بذل من أجلها دمه ، ووقف في سبيلها ثروته كلها ، والذي يجد نفسه اليوم في أسمى حالات الفاقة والعوز . وهو لا يشك في ان نفسك النبيلة سوف 'تمده' بالعون لكي يحتفظ بوجوده بالغ الأيلام الجنديّ ذو * ثقافة وشرف ، مفعّم بالجراح ، جنديّ يعتمد مقدّمأ على الانسانية التي تعمر فؤادك وعلى الاهتمام الذي تبديه سيدتي المرمكة نحو أمة بائسة الى هذا الحد . إن صلّاتهم لن تذهب سدى وان ذاكرتهم سوف تحتفظ بذكراها الفاتنة .

« واقبلي عواطف إجلالي التي اتشرف معها ان اكون ،

« سيدتي ،

« دون آلفاريز ، كايستين اسباني في سلاح الفرسان ، ملكي لاجيء في فرنسة ، يجد نفسه مسافراً من اجل وطنه ، ولكن موارده لا تمكنه من مواصلة رحلاته .

ولم 'يُضَفَ' ايما عنوان الى الامضاء . ورجا ماريوس أن يجد العنوان في الرسالة الثانية المكتوب على ظاهرها : الى سيدتي ، السيدة الكونتيس دو مونفيرنيه ، شارع كاسيت ، رقم ٩ . وقرأ ماريوس ما يلي :

« سيدتي الكونتيس ،

« هذه أمّ بائسة لأسرة مؤلفة من ستة أطفال آخرهم لا يزيد عمره * وردت في هذه الرسائل كما أثبتنا الاصل الفرنسي عدة اخطاء املائية ونحوية قصد المؤلف من ورائها ال اظهار جهالة كاتبها . وقد حاولنا أن نحافظ على هذا النرض فرسمنا بعض الكلمات على غير صورها الصحيحة وعدلنا بعضها عن حكمها الاعرائي كما يلاحظ القاري .

على ثنائي * اشهر . انا مريضة منذ أن وضعتُ ولدي الأخير ، هجري زوجي منذ خمسة اشهر ، وليس لي أية * مورد في العالم ، فأنا أعاني اسدّ الفقر .

« وعلى املها بالسيدة الكونتيس ، يشرفها ان تكون ، يا سيدي ، في احترام صيق ،

« الأم باليزارد »

وانتقل ماريوس الى الرسالة الثالثة ، التي كانت ، مثل الرسالتين السابقتين ، عريضة تستدرّ العطف . وقد جاء فيها :

« مسيو بابورجو ، ناخب ، تاجر قبعات بالجملة ، شارع سان دونيس ، عند زاوية « رو أو فير . »

« إني اسمح لنفسي بأن اوجه اليك هذه الرسالة لأرجوك ان تسبغ عطفك الثمين وأثير اهتمامك في رجل من رجال الادب رسل ، منذ لحظة ، مسرحية الى « المسرح الفرنسي » . إن الموضوع تاريخي ، والحوادث تجري في اوفيرنشي في عهد الامبراطوريت * . والاسلوب ، على ما أعتقد ، طبيعي ، مختصر ، ولعله يفوز ببعض الاعتبار . إن فيها ابياتاً من الشعر يجب ان تنشد في اربع * مواضع . إن المضحك ، والجدّي ، وغير المتوقع ، تتزج كلها مع شخصيات الرواية المتنوعة ، وبمسحة من الرومانس ، تنتشر في رقة فوق كامل العقدة الروائية التي تتقدّم في شكل خفي ، وبتحوّلات مؤثرة ، الى الحلّ وسط مجموعة

* راجع الحاشية السابقة .

من المفاجآت المسرحية الرائعة .

« إن غابتي الرئيسية هي إشباع الرغبة التي تسيطر شيئاً فشيئاً على الرجل في عصرنا هذا ، أعني « الموضة » ، أو دوارة الهواء ، الغريبة الكثيرة التقلب ، التي تتغير مع كل ربح تقريباً .

« وعلى الرغم من هذه المزايأ فأنا عندي سببٌ * يجعلني أخاف أن يؤدي حد المؤلفين المتمسعين بالخطوة وأنايتهم إلى ابعادي عن المسرح ، ذلك لأنني لا أجعل التقزز الذي يتجرعون به الوافدين الجدد .

« سيدي بابورجو ، إن شهرتك الحقة كحامٍ مستنير لأهل الأدب تشجعني على أن ابعث إليك بابنتي ، التي ستشرح لك مبلغ فقرنا ، وحاجتنا إلى الخبز والنار في موسم الشتاء * هذا . وأنا أقول لك اني ارجوك أن توافق على ما ارجب فيه من رفع هذه الرواية وجميع الرواية * التي سوف أألفها * إليك ، وذلك لكي ابرهن لك عن مدى أهلي في التشرف بأن اضع نفسي تحت رعايتك ، وان أزين كتاباتي باسمك . فاذا تنازلت وشرفتنني بهذه التقدمة الأشد تواضعاً ، فسوف انصرف في الحال إلى عمل مقطوعة من الشعر تكون عربوناً على اعترافي بجميلك . وهذه المقطوعة التي سأحاول أن اجعلها كاملةً جهد الامكان ، سوف ترسل إليك قبل أن تُدرجَ في مقدمة الرواية وتلقى على المسرح .

« وإلى سيدي ،

« ومدام بابورجو ،

« تحياتي المثقلة بالاحترام

« جينفلو ، رجل أدب .

* راجع الحاشية السابقة .

« حاشية . ولو لم تكن غير أربعين سو .

« اعذرنى لارسالي ابنتي اليك وعدم ذهابي بنفسي ، ولكن دوافع
حزينة تتعلق بالملايس تمنعني ، وأسفاه ! ، من الخروج »

وفتح ماريوس ، آخر الامر ، الرسالة الرابعة . كانت مكتوباً على
ظاهرها : « الى سيدي الخيّر رجل كنيسة سان جاك دو هو با » .
وكانت تنطوي على هذه الاسطر القليلة :

« أيها الرجل الخيّر

« اذا تنازلت ، ورافقت ابنتي ، فسوف ترى بليّة قاسمة * للظهر ،
وسوف أريك شهاداتي .

« وحين ترى هذه الكتابات فإن نفسك السخية سوف تتحرك بعاطفة
حيّة من حب الاحسان ، ذلك لان الفلاسفة الحقيقيين يحسّون دائماً
بانفعالات عنيفة .

« إعرّف* ، أيها الرجل الرؤوف ، أن على الرجل ان يتحمل اقسى
الفقر ، وهو شيء مؤلم جداً ، لكي يحصل على الاسعاف ، وان يحمل
السلطة على ان تشهد أنه فقير ، كأننا لسنا احراراً في ان نتألم ، ونغوت
جوعاً ريثما يأتي من ينقذنا من شقاؤنا * . إن الاقدار قاسية اكثر بما
يجب على بعض الناس ، مدارية اكثر بما يجب لبعضهم الآخر مبذرة
مهم .

« اني انتظر حضورك ، او تقدمتك ، اذا تنازلت ووافقت على
ذلك ، واني اتوسل اليك أن تتكرم فتقبل عواظمي الموقرة التي اعترت

* راجع الحاشية السابقة .

معها بأن اكون ،

- » أيها الرجل الشهم حقاً ،
- » خادمك الاكثر حقارة ،
- » والاكثر انقياداً ،

ب . فابانتو ، فنان مسرحي . .

ولم ينتشر ماريوس ، بعد قراءة هذه الرسائل الأربع ، أنه
ازداد علماً .

إن أياً من موقعي تلك الرسائل لم يذكر عنوانه .

ثم إنها بدت وكأنها صادرة عن اربعة افراد مختلفين :
دون ألفاريز ؛ الأم باليزارد ؛ الشاعر جينفلو ؛ الفئات المسرحي
فابانتو . ولكن العجيب في الأمر ان هذه الرسائل كلها كانت مكتوبة
بخط يدٍ واحدة .

فما الذي يُستنتج من هذا غير أنها صادرة عن شخص واحد ؟

وفوق ذلك ، وهذا ما جعل الحدس اقرب الى الاحتمال ، فان
الورق الذي نُحطَّت عليه الرسائل - وهو خشنٌ أصفر - كان واحداً
في الرسائل الاربع ، ورائحة التبغ كانت هي هي ؛ وعلى الرغم من
انه كانت ثمة محاولة واضحة لتغيير الاسلوب فان الاخطاء الاملائية نفسها
تكررت في هدوء عميق ، فلم يكن جينفلو ، الكاتب الاديب ، اقل
تردياً في مهاوينا من الكابيتين الاسباني .

وكانت كل محاولة للكشف عن سرّ هذه المسألة عملاً لا طائل تحته .
ولو لم تكن لقيةً ، اذن لبدت وكأنها مخاتلة ساخرة . وكان ماريوس
من الحزن بحيث لا يتقبل المزاح ، حتى ولو كان صادراً عن المصادفة ،

بقبول حسن ، او يرتضي اللعبة التي بدا وكأن حصباء الطريق رغبت في ان تلعبها معه . لقد تراءى له انه اشبه برجل معصوب العينين بين هذه الرسائل الاربعة ، التي كانت تهزأ به .

وعلى اية حال ، فلم يكن ثمة ما يؤذن بان هذه الرسائل قد سقطت من الفتاتين اللتين لقيهما ماريوس في الجادة . وهكذا فأنها كانت مجرد اوراق ليس لها ايما فائدة او قيمة .

وأعادها ماريوس الى الظرف ، وقذف بها الى احدى الزوايا ، وأوى الى مضجعه .

وحوالى الساعة السابعة صباحاً ، كان قد نهض من فراشه وتناول طعام الفطور ، وشرع في العمل عندما قُرع باب غرفته قرعاً رقيقاً . واذا لم يكن يملك شيئاً ، فانه ما كان ليفلق باب غرفته ، الا في بعض الاحيان - وهي نادرة جداً - حين يكون منصرفاً الى عمل مُلحّ . والواقع انه كان ، حتى في الاحوال التي يغادر فيها غرفته ، يترك مفتاحها في القفل . وقالت له مام بوغون ذات مرة : « سوف يسرقك اللصوص . فأجابها : « وهل عندي ما يُسرق ؟ » ومع ذلك ، فقد سرق احدهم حذاءً عتيقاً عالي الساق ، من غرفته ، فكان ذلك نصراً مؤزراً لـ « مام بوغون » .

وقُرع الباب ككرة ثانية ، وفي رفق بالغ ، كالمرّة الأولى .

فقال ماريوس :

« أدخلي ! »

وُفتح الباب .

« ماذا تريدن ، يا « مام بوغون ؟ » كذلك تسأل ماريوس

من غير ان يرفع عينيه عن الكتب والاوراق التي كانت على طاولته .

واجابه صوت ، لم يكن صوت « مام بوغون » :

– « أَلْتَمَسُ عَفْوَك ، يَا سَيِّدِي . . . »
كان صوتاً غائراً ، مرتعشاً ، مختنقاً ، مبهوحاً ؛ صوت رجل عجزوز
أصداته الخمر والعرق .
واستدار ماريوس في سرعة ، فرأى فتاة شابة .

وردة في الشقاء

كانت فتاة في ريعان الصبا واقفةً بالباب نصف المفتوح . وكانت الكوة التي ينفذ النور من خلالها الى العلية قائمةً تجاه الباب تماماً ، فانارت هذا الوجه بضوء باهت . كانت مخلوقةً شاحبةً ، ضعيفة البنية ، شديدة الهزال ؛ ليس يستر عريها المرتجف المتلوج غير قميص وتنورة . خيط من القنب يطوق الحصر ، وخيط آخر يصفف الشعر ، وكتفان محدتان ناتئتان من القميص ، وشحوب أشقر لبفاوي ، وترقوتات وسختان ، وبدان حراوان ، وفم فاغر غائر ، وبضع اسنان مفقودة ، وعينان خامدتان وقحتان ، ذابلتان ، وشكل كشكل فتاة شابة غير ناضجة ، ونظرة كمنظرة عجوز فاجرة . خمسون عاماً بمتزجة بخمسة عشر عاماً . احدى تلك المخلوقات الضعيفة الخيفة في آن معاً ، والتي توقع الرعدة في اوصال من لا تسيل الدمع من أعينهم .

ونمض ماريوس ، وحدق في ضرب من الدهش الى هذه المخلوقة الشبيهة ، تقريباً ، بتلك الأشكال الشبحية التي تتبدى لنا في المنام . وأوجع ما في الأمر ان هذه الفتاة لم تجيء الى هذا العالم لتكون بشعة . بل إن الذي يبدو أنها كانت في طفولتها الأولى جميلة . كان جمال صباها لا يزال يصارع الشيخوخة القبيحة التي عجلت بها الدعارة والفقر . وكانت بقية من جمال تموت على هذا الوجه ذي الستة عشر ربيعاً مثل شمس شاحبة تخمدها سحب مروعة فجر يوم من ايام الشتاء .

ولم يكن الوجه مجهولاً عند ماريوس بالمرّة . لقد بدا له أنه وآه في مكان ما .

وسألها :

- « ماذا تريدن ، ابنتها الآنسة ؟ »

فأجابته الفتاة الشابة بصوتها الذي يشبه صوت عبد ثملٍ من عبيد الأشغال الشاقة :

- « هذه رسالة اليك ، يا مسيو ماريوس . »

لقد نادت ماريوس باسمه . فلم يكن في وسعه ان يرتاب في أنها تعنيه . ولكن من هذه الفتاة ؟ كيف عرفت اسمه ؟

ودخلت من غير ان تنتظر دعوة . دخلت في جسارة ، ناظرة الى الغرفة كلها والى السرير المهطم في ضرب من الثقة توقع الشعريرة في القلب . كانت حافية القدمين . وكانت ثقوب واسعة في تنورتها تكشف عن ساقها الطويلتين ، وركبتيها المهزولتين . لقد ارتجفت .

وكانت تمسك بيدها ، في الحق ، رسالة قدّمتها الى ماريوس .

واذّ فضّ ماريوس هذه الرسالة لاحظ أن برشامة الحتم الكبيرة الى حدّ هائل كانت لا تزال رطبة . ومن هنا ادرك ان الرسالة لم تأت من مكان بعيد .
وقرأ :

« جاري المحبوب ، أيها الرجل الشاب !

« لقد عرفتُ بما أظهرته نحوي من كرم نفس ، وانك دفعت عني اجرة الغرفة منذ ستة اشهر . ذني اباركك ، أيها الشاب . إن ابنتي الكبيرة سوف تخبرك أنه ليس عندنا منذ يومين كسرة خبز : اربعة اشخاص ، وزوجتي طريح الفراش . واذا لم يكذبني الظن فأظن أن في استطاعتي ان ارجو ان يرق قلبك الكريم لهذا الشرح ، فتسارع الى

الاحسان اليّ بأن تنازل وتنفخني بمطيّة خفيفة .
« إني بالاحترام العظيم الذي يستحقه محسنو الانسانية ،

« جوندريت .

حاشية : إبنتي تنتظر اوامرك ، أيا السيد ماريوس العزيز . .

وهذه الرسالة ، في غمرة الحادثة الغامضة التي شغلت ذهن ماريوس منذ الليلة البارحة ، كانت اشبه بشمعة في كهف . لقد أمسى كل شيء واضحا على نحو مفاجئ .

لقد صدرت تلك الرسالة من حيث صدرت الرسائل الاربعة الاخرى . كان خط هذه هو خط تلك ، واسلوب هذه هو اسلوب تلك ، واخطاء هذه هي اخطاء تلك ، وورق هذه هو ورق تلك ، ورائحة التبغ المنبعثة من هذه هي رائحة التبغ المنبعثة من تلك .

كانت ثمة خمس رسائل ، وخمس قصص ، وخمسة اسماء ، وخمسة توقعات ، وموقع واحد . كان الكابيتين الاسباني دون آلفاريز ، والأم باليزارد المسكينة ، والشاعر المسرحي جينفلو ، ومؤلف التمثيليات العجوز فابانتو - كانت هذه الاربعة كلها تدعى جوندريت ، هذا اذا كان اسم جوندريت نفسه هو جوندريت حقاً .

فخلال الفترة الطويلة التي قدّر لماريوس ان يقطن في اثناها ذلك المنزل العتيق لم تسبح ، كما قلنا من قبل ، غير فرص قليلة مكنته من ان يرى ، بل مكنته من ان يلمح جيرانه المدمين . كان عقله في مكان آخر ، وحيث يكون العقل تتجه العينان . ولا ريب في انه قد لالتقى افراداً من اسرة جوندريت في الرواق أو على السلم ، ولكنهم لم يكونوا عنده غير ظلال قائمة . كان قليل الالتفات اليهم الى درجة جعلته يصطدم البارحة ، بابنتي جوندريت في الجادة من غير ان يعرفها ؟

ذلك بأنهما كانتا بنتي جوندريت من غير ريب ؛ وفي كثير من العسر كانت هذه الفتاة التي دخلت اللحظة الى غرفته قد ايقظت في ذات نفسه ، من خلال الاشمزاز والشفقة ، ذكرى غامضة بأن قد سبق له ان التقاها في مكان آخر .

لقد رأى الآن كل شيء ، في وضوح . لقد فهم ان صناعة جاره جوندريت ، في محنته تلك ، هي استدرار عطف المحسنين ؛ وانه قد حصل على عناوينهم ؛ وانه كان يحرّر ، باسماء مصطنعة ، رسائل يوجهها الى أولئك الناس الذين قدّر انهم اغنياء تعمر الرأفة قلوبهم ، فتحملها بنتاه اليهم معروضتين نفسيهما للمخاطر ؛ ذلك ان هذا الاب لم يكن ليتورع عن المغامرة بينتيه ؛ كان يقامر مع القدر ، ولقد قامر عليهما . ورجّح ماريوس - على اساس من فرارهما في موهن من الليل ، ولهاثها ، وذعرهما ، والكلمات العامية التي طرقت اذنه - ان هاتين البائستين كانتا تمارسان ايضاً بعض صناعات الظلام السرية ، وانه قد نشأ عن هذا كله ، وسط المجتمع الانساني في حالته الحاضرة ، مخلوقتان تعسنان لم تكونا لا طفلتين ولا فتاتين ولا امرأتين ، ولكن شبه هولتين غير طاهرتين ، وإن كانتا بريئتين ، من عمل الشقاء .

كائنتان كئيبتان من غير اسم ، ومن غير عمر ، ومن غير جنس* ، كائنتان لم يعد اي من الخير أو الشر ممكناً عندهما ، ولم يبق لديهما في هذا العالم - وقد فارقتا الطفولة - اي شيء على الاطلاق ، لا حرية ، ولا فضيلة ، ولا مسؤولية . أنفسان تفتحتا امس ، وذبلتا اليوم ، مثل تلك الرياحين التي تسقط في الشارع فيدبها الوحل ريثما يسحقها دولا ب من الدواليب .

وفي غضون ذلك ، وفيما كان ماريوس يسمّر عليها نظرة دهبية متألّمة ، انشأت الفتاة تدرع العلية جيئة وذهاباً ، في وقاحة شبح .

* المقصود هنا بالجنس sexe اي الذكورة او الانوثة .

كانت تروح وتجيء من غير ان تفكّر في عريها . وفي بعض الاحيان ، كان قميصها الممزق ، غير المشدود يسقط حتى خصرها . لقد نقلت الكرامبي ، من مكان الى مكان ، وبعثرت ادوات الزينة الموضوعة على الخزانة ذات الادراج ، وجست ملابس ماريوس ، وفتشت ما كان في الزوايا .

وقالت :

-- « آه ! عندك مرآة ! »

وهممت ، وكأنها كانت منفردة ، بمقطعات من بعض الروايات الملحّنة ، ربلازمات غنائية مرحة كان صوتها الحلقيّ الاجشّ يجعلها مأتمية . وتحت هذه الوقاحة كان في ميسور المرء ان يلحظ شيئاً من القسّس ، والقلق ، والضراعة لا سبيل الى وصفه . إن القمحة عار . ولم يكن ثمة ما هو أدعى الى الحزن من رؤيتها تلهو ، واذا جاز التعبير ، ترفرف حول الغرفة بمثل حركات عصفور ذهب النور بصوابه ، او عصفور كسير واحد من جناحيه . ولقد كان في ميسور الناظر اليها آنذاك ان يدرك ان مسلك هذه الفتاة الشابة ، المرح الحرّ ، كان خليقاً بأن يكون شيئاً عذباً وفاتناً لو كتبت لها ان تنشأ في ظروف من التربية مختلفة ، وفي ظلّ قدر غير قدرها ذلك . والحق أن الكاش الذي ولد ليكون حمامة لا يمكن ان يتحوّل بحالٍ من الاحوال الى عقاب بحرية ، في عالم الحيوان . ذلك شيء لا يقع إلا في عالم الانسان .

وفكّر ماريوس ، وتركها تسترسل في عيبتها .
ومضت الى الطاولة .

وقالت :

-- « آه ! كُتِبَ ! »

واخترق شعاع عينيها شبه الزجاجية . واردفت ، وقد افصحت

لهبتها عن تلك السعادة التي نستشعرها ونحن نقباهى بشيء ما ، والتي تتساوى فيها جميعاً من غير استثناء .

« انا استطيع أن اقرأ . انا استطيع . »

وفي نشاط ، أمسكت بالكتاب المفتوح على الطاولة ، وقرأت بكثير من الطلاقة :

« ... وتلقى الجنرال بودوين الأمر بأن يقود خمسة افواج من لوائه ويستولي على قلعة هوغومونت القائمة وسط سهل واترلو »
وكفت عن القراءة ، قائلة :

« آه ، واترلو ! أنا أعرفها . إنها معركة وقعت في العصور القديمة . كان ابي هناك . لقد خدم ابي في الجيوش . نحن بونابرتيون الى حد بعيد ، في بيتنا . واترلو تعني ضد الانكليز . »

ووضعت الكتاب على الطاولة ، وأمسكت بريشة ، وصاحت :

« وانا اعرف الكتابة ايضاً ! »

وغمت الريشة في الحبر ، والتفتت نحو ماريوس قائلة :

« هل تحب ان ترى ؟ انظر ، سوف اكتب كلمة لأثبت لك ذلك . »

وقبل ان يجد متسماً من الوقت للاجابة ، كتبت على ورقة بيضاء كانت في منتصف الطاولة :

« لقد اقبلت الشرطة . »

ثم طرحت الريشة ، وقالت :

« ليس هناك اخطاء املائية . في استطاعتك ان ترى . لقد تلقينا مقداراً من الثقافة ، اختي وانا . انا لم نكن دائماً كما نحن اليوم . انا لم نخلق »

وهنا صمتت ، وسددت عينها الباهتة الى ماريوس ، وانفجرت بالضحك ، قائلةً في نبرة انطوت على ألم نفسي مرير كامل ، تخنقه

وقاحة كاملة :

« باه ! »

وشرعت تدندن بهذه الكلمات ، في نغمة مرحة :

« أنا جائعة ، يا أبي
لا لحم مقلياً عندي .
أنا مفرورة ، يا أمي
لا نسيج مروداً على جسدي .
النج . النج . »

ولم تكذب تمّ هذه المقطوعة حتى صاحت :

« هل تذهب في بعض الاحيان الى المسرح ، يا مسيو ماريوس ؟
أنا اذهب . إن لي اخاً صغيراً تربطه ببعض الفنانين صداقة ، فهو
يعطيني بطاقات احبائاً . فمثلاً ، انا لا احب مقاعد الشرفة . ان
المشاهدين يزدحمون هناك ، وانك لا تعرف معنى الراحة . وقد يكون
هناك قوم أجلاف في بعض الاحيان . وهناك اقوام تفوح منهم روائح
كريمة . »

ثم نظرت الى ماريوس ، وغلبت على وجهها سماء غربية ،
وقالت له :

« اندري ، يا مسيو ماريوس ، انك فتى جميل جداً ؟
وخطرت فكرة واحدة لكلٍ منها ، في آنٍ معاً - فكرة جعلتها
تبسم . وجعلته يحمرّ خجلاً .

وتقدّمت نحوه ، ووضعت يدها على كتفه وقالت :

« انت لا تلتفت اليّ ، ولكنني أعرفك ، يا مسيو ماريوس .
انا ألتقي بك هنا على السلم ، ثم أراك تزور في بعض الاحيان وجلاً
يدعى الاب مابوف يقطن في اوسترلينز ، حين يتفق لي ان أتزّه في تلك

الناحية . إن شعرك المنفوش هذا يناسبك تماماً . «
لقد حاول صوتها ان يكون رقيقاً جداً ، ولكنه وُفِّتَ الى ان
يكون منخفضاً جداً ، ليس غير . وضاعت بعض كلماتها في طريقها من
الحنجرة الى الشفتين وكأنما انطلقت من لوحة بيان تعوزها بعض العلامات
الموسيقية .

وكان ماريوس قد ارتدَّ الى الوراء في هدوء .
وقال في رصانة باردة :

— « ايتها الآنسة ، عندي هنا رزمة اظنها لكِ . فاسمعي لي بأن
اعيدها اليك . »

وقدّم اليها الظرف ، الذي كان ينطوي على الرسائل الاربع .
وشبكت يديها وصاحت :

— « لقد بحثنا عنه في كل مكان ! »

ثم اخنطفت الرزمة ، وفتحت الظرف قائلة :

— « يا السّهي ! يا السّهي ! كم بحثنا أنا وأختي عنه ! ثم كنت
أنت الذي وجدته ! في الجادة ، اليس كذلك ؟ لا بدّ انك وجدته في
الجادة ؟ ترى ، ان هذه الرزمة سقطت منا ونحن نركض . إن أختي
الطفلة هي التي ارتكبت هذه الحماقة . وحين رجعنا الى البيت لم نوفّق
الى العثور عليه . وإذا لم نكن راغبتيّن في ان نُضرب ، ما دام ذلك
غير مفيد ، غير مفيد بالمرّة ، غير مفيد على الاطلاق ، فقد قلنا لأهلنا
إننا أوصلنا الرسائل الى اصحابها ، وإنهم أجابونا : على الله ! والآن ،
ها هي ذي ، تلك الرسائل المسكينة . ولكن كيف عرفت أنّها لنا ؟
آه ، نعم : من الخطّ ! واذن ، فقد كنت أنت الذي اصطدمنا به
البارحة . نحن لم نرك ، حقاً . ولقد قلت لأختي : « أهذا سيد ؟ »
فقلت أختي : « أظن انه سيد ! »

وكانت قد نشرت ، في غضون ذلك ، الرسالة المعنونة : « الى سيدي

الخبير ، رجل كنيسة سان جان دو هو با .
وقالت :

- « هاها . هذه هي الرسالة الخاصة بذلك الرجل العجوز الذي
يذهب الى القديس . وفي الحق ، لقد حان الوقت . سوف أمضي واحملها
اليه . ولعله ان يعطينا شيئاً نأكل به طعام الصباح . »
ثم شرعت تضحك ، وأضافت :

- « أتدري ما الذي سيحصل اذا تناولنا طعام الصباح اليوم ؟
الذي سيحصل أننا سوف نتناول فطور أمس الاول ، وعشاء أمس
الأول ، وفطور أمس ، وعشاء امس - كلها سوف نتناولها دفعةً
واحدة هذا الصباح . أجل ! وحقّ الآلهة ! واذا لم تكونوا راضين ،
فانفزروا ايها الكلاب ! »

وكان في هذا ما ذكره ماريوس بالذي من اجله اقبلت الفتاة المسكينة
الى غرفته .

وبحت في صدرته ، فلم يجد ثمة شيئاً .
وتابعت الفتاة كلامها ، وكأنها لم تعد تعي ان ماريوس كان هناك .
- « في بعض الاحيان أنطلق ليلاً . وفي بعض الاحيان لا أعود
الى الغرفة . وقبل ان نجيء الى هذا المكان ، في الشتاء الماضي ،
عشنا تحت قناطر الجسور . كان بعضنا يلتصق ببعضنا الآخر حتى لا تجمد
أطرافنا من الصقيع . وبكت اختي الصغيرة . ما أبرد الماء ! وحين
فكرتُ بأغراق نفسي ، قلت : « لا ، الماء بارد اكثر مما ينبغي . »
إني أنطلق منفردةً حين ارغب في ذلك . إني اثم في الحنادق ، في
بعض الاحيان . أتدري ؟ اني في الليل ، حين أمشي على الجادة ،
أرى الاشجار مثل المذاري ، وأرى بيوتاً سوداء ضخمة كلها مثل ابراج
نوتردام ، واتخيل ان الجدران البيض هي النهر ، فأقول لنفسي :
« هنا ! يوجد ماء ، هنا ! » والنجوم اشبه بمصابيح الاضاءة حتى ليخيل

الى المرء ان الدخان ينبعث منها وان الريح تطفئها . وبصبي الذهول ،
وكان خيلاً تنفس في أذني ؛ وعلى الرغم من هبوط الليل ، اسمع
أراغناً يدويةً صغيرة ، وماكينات الغزل ، وأشياء لا ادري ما هي .
ويتواهى لي ان شخصاً من الاشخاص يقذفني بالحجارة ، فأركض من
غير ان ادري ، وليس ذلك كله غير دوار ، أجل دوار . فحين
يكون المرء جائعاً ، يحسّ بأشياء مضحكة حقاً .
ونظرت اليه بعين شاردة .

وبعد ان كاد ماريوس يثقب جيوبه بحثاً وتنقيباً وفتق آخر الأمر
الى ان يجمع خمسة فرنكات وستة عشر « سو » . وكان ذلك كل ما
ملكه في تلك اللحظة . وقال في ذات نفسه : « هذا مبلغ يكفي
لعشائي الليلة . وغداً سنرى . » واخذ الستة عشر « سو » ، وقدم
الحمة فرنكات الى الفتاة .

وأخذت القطعة النقدية في لهفة .

وقالت :

— « حسن . هناك شيء من نور الشمس . »
وكانما حملت تلك الشمس على إذابة كتلّ اللسان العامي الثلجية ،
في ذهنها ، فتابعت :

« خمسة فرنكات ! كوكب نثير ! ملك من الملوك ! في هذا
المنزل ! انت طفل صغير طيب . انا اعطيك قلبي . مرحى ! يومان من
الخر ! سوف تأكل أكلاً ممتازاً ! وحساءً لذيذاً ! »

ورفعت تميصها الى أعلى ، فوق كتفها ، وانحنت لماريوس المنحساء
عميقة ، ثم لوّحت له بيدها ، ومضت نحو الباب قائلة :

— « طاب صباحك ، يا سيدي . كل الامور سواء . سوف اذهب
لأنجحت عن الرجل العجوز . »

وفي طريقها ، رأت على الحزانة ذات الأدواج كسرة خبز يابسة كان

العفن قد علاها وسط الغبار . فوثبت عليها ، وقضمتها متممة :
- « هذا حسن ! إنها قاسية ! إنها تحطم اسناني ! »
ثم خرجت .

٥

يوضاس * العناية الالهية

كان ماريوس قد عاش ، طوال خمس سنوات ، في الفقر ، في الحرمان ، والضيق ، ولكنه أدرك أنه لم يعرف البؤس الحقيقي في يوم من الأيام . إن البؤس الحقيقي ما قد رآه اللحظة . إنه تلك اليوقانة التي مرت تحت ناظره الآن . والحق ، ان الذي لم يرَ غير بؤس الرجل لم يرَ شيئاً ؛ يجب ان يرى بؤس المرأة . ومن لم يرَ غير بؤس المرأة لم يرَ شيئاً ؛ يجب ان يرى بؤس الطفل .

وحين ينتهي المرء الى الطرف الاقصى ينتهي ، في الوقت نفسه ، الى آخر السبل والوسائل . والويل للمخلوقات العاجزة التي تحيط به . إن العمل ، والأجر ، والخبز ، والنار ، والشجاعة ، والرغبة في الخير كلها تُعثره دفعة واحدة . وهكذا يبدو نور النهار وكأنه ينطفيء في الخارج ، ويبدو النور الاخلاقي وكأنه ينطفيء في الباطن . في هذه الدجئة يلتقي الناس صَعْفَ المرأة والطفل ، فيخضعونها عنوةً للخزي والعار . وعندئذ تصبح الأحوال كلها ممكنة . إن اليأس محاطٌ بجواجز واهنة تؤدي كلها إما الى الرذيلة وإما الى الجريمة .

فالصحة ، والشباب ، والشرف ، ولطافات الجسد الرخص المقدسة الفضة ، والقلب ، والبتولية ، والعفة ، بَشْرَةُ الروح تلك - كل هذه

* هو احد تلامذة المسيح الاثني عشر وقد خانه وأسلمه الى طالبيه .

يتخلى عنها على نحو مشؤوم ذلك التمسُّ الأعمى الذي يبحث عن العون ،
والذي يلتقي الحزبي ، والذي يقنع به . إن الآباء ، والامهات ،
والاولاد ، والاخوة ، والاخوات ، والرجال ، والنساء ، والفتيات ،
لنثبث بعضهم ببعض ، وَيَنْتُونُ معاً ، تقريباً ، مثلَ تشكُّلٍ معدني ،
في اختلاط الجنسين ، والقرباب ، والاعمار ، والفواحش ، والبراءات
اختلاطاً مظلماً . إنهم يجلسون القرفصاء ، وقد ولي بعضهم ظهره
بعضهم الآخر ، في ضرب من « القَدَر الكوخ » . إنهم يتبادلون
النظرات في كآبة . اوه ، يا لهم من مساكين ! ما أشدَّ شحوبهم !
ما أقرسَ البرد الذي يعصف بهم ! لكأنهم يعيشون على ظهر كوكب
أبعد عن الشمس من كوكبنا - أبعد بكثير .

كانت هذه الفتاة الشابة ، عند ماريوس ، رسولاً من كَدُنِ الظلمات .
لقد كشفت له عن مظهر كامل مخيف من مظاهر الليل .

وكادَ ماريوس يعثف نفسه لأن استغراقه المطلق في الاحلام والاهواء
أدى به الى ان لا يُلقى ، حتى الآن ، نظرةً واحدة الى جيرانه .
كان دفعه أجرة السكنى عنهم مجرد حركة ميكانيكية ، ولقد كان
خليقاً بأينا امريء آخر ان يقوم بتلك الحركة . ولكن كان عليه - هو
ماريوس - أن يفعل شيئاً أفضل . ماذا ؟ لقد فصله مجرد جدارٍ عن
هذه المخلوقات المهملّة التي تعيش بالانطلاق ليلاً تتحسّس سبيلها في الظلام ،
بعيداً عن سائر الأحياء ؛ لقد اصطدم بها ، وكان بمعنى من المعاني
آخر حلقة من حلقات الجنس البشري لمستها أيديها ؛ لقد سمعها تعيش بل
تنفس الى جانبه ، ولكنه لم ينتبه اليها ! وكل يوم ، وكل لحظة ،
سمعها - من خلال الجدار - تمشي وتروح ، وتجيء ، وتحدث ، ولم
يعرها أذنه ! وفي تلك الاحاديث كانت أنثى ، ولكنه لم يسمعها !
كانت افكاره في مكان آخر ، كانت مستغرقة في الأحلام ، في
الأيامضات المستحيلة ، في ضروب من الحب غير المعقول ، في الحماقات .

بينما كان نفرٌ من المخلوقات البشرية - إخوته في يسوع المسيح ، اخوته
 في الشعب - يعالجون سكرات الموت في جواره ! يعالجون سكرات
 الموت على غير طائل ! بل لقد سبب هو جزءاً من شقايمهم ، وضاعفهُ .
 إذ لو كان لهم جارٌ غيره ، جارٌ اقلّ تعلقاً بالاوهام ، واقرى ملاحظةً ،
 رجلٌ عاديّ ومحسن ، اذن للاخط فقرم ، ولرأى أمارات شقايمهم ،
 واذن لكان من الممكن أن يحظوا بالفوٹ ويتمتعوا بالنعمة منذ عهد
 بعيد ! لقد بدوا من غير ريب فاسدين جداً ، داعرين جداً ، دنشين
 جداً ، بفيضين جداً ، ولكن قليلون هم اولئك الذين يفتقرون من غير
 ان يذبلوا . والى هذا ، فهناك نقطة يلتقي عندها منكودو الخط
 ومهتوكو الستر ويخط ما بينهم بكلمة واحدة ، كلمة مشؤومة :
 اليوساء . من المسؤول عن هذه الخطيئة ؟ وفوق ذلك ، اليس صحيحاً
 انه حين يكون السقوط أعمق يتعين ان يكون الاحسان أعظم ؟
 وفيما هو يعظ نفسه على هذا النحو - إذ كانت ثمة اوقات كانت
 ماريوس فيها ، مثل جميع القلوب المخلصة ، مرشد نفسه المعتف لها
 باكثر مما تستحق - نظر الى الجدار الذي يفصله عن امرأة جوندريت ،
 وكأنما كان يستطيع ان يرسل نظرتة المفعمة بالرافة ، من خلال ذلك
 الجدار ، الى اولئك القوم التعاء . وكان الجدار طبقة رقيقة من جص
 مدعومة بألواح وعوارض خشبية كان في إمكان المرء أن يسمع من
 خلالها - كما ذكرنا من قبل - مختلف الكلمات والاصوات سماعاً واضحاً
 جداً . والواقع ان المرء ينبغي ان يكون ماريوس الحالم حتى لا ينتبه
 لهذا كله . لم يكن ثمة ورق ملصق على هذا الجدار ، لا من ناحية
 امرة جوندريت ، ولا من ناحية ماريوس ؛ فكان تكوينه الجافي عارياً
 في نظر العين . وعلى نحو غير واع تقريباً درس ماريوس هذا الجدار ؛
 فالتأمل الحالم يفحص في بعض الاحيان ويلاحظ ويتحرى ، شأن الفكر

سواء بسواء . وفجأة نهض ؛ لقد لمح في القسم الاعلى من الحجرة ،
قرب السقف ، ثقباً مستطيلاً ناشئاً عن ثلاثة الواح خشبية تركت في ما
بينها فجوة . كان الجبين الذي سدّت به تلك الفجوة في يوم من الايام
قد سقط ؛ وبامتطاء متن الحزاة ذات الادراج كان في ميسوره ان يرى
من خلل هذا الثقب ، الى عليّة جوندريت . إن للشفقة ، وينبغي ان
يكون لها ، فضولها . فقد كان هذا الثقب أشبه بيوضاس . وانه لمن
المباح ان ينظر المرء ، الى الشقاء مثل خائن من الحونة ، من أجل
العمل على التخفيف من وطأته . وفكّر ماريوس : « فلنوّ قليلاً من هم
هؤلاء القوم ، والى أين قد صاروا . »
وتسلّق الحزاة ذات الادراج ، وأدنى حدفته من الثغرة ، ونظر .

٦

الرجل الضاري في مأواه

إن للمدن ، مثلما للغابات ، اوكارها التي يجتبيء فيها كل مُرغّل في
الشرّ وفي الفظاعة . مع فارق واحد ، هو ان من يجتبيء في اوكار
المدن شرس ، قذو ، حقير ، يعني أنه بشع . في حين ان ما يجتبيء
في اوكار الغابات شرس ، وحشيّ ، وجليل ، يعني أنه جميل . اوكار
مقابل اوكار ، ولكن اوكار البهائم مفضّلة على اوكار البشر . إن
المغاور خيرٌ من اكواخ البشر القذرة .
لقد كان ما رآه ماريوس كوخاً قذراً .

كان ماريوس فقيراً ، وكان أثاث غرفته حقيراً ، ولكن كما كانت
فقره نبيلاً كانت عليّته نظيفة . أما الوكر الذي سدّد النظر اليه اللحظة
فكان زرقاً ، قذراً ، متنناً ، عفناً ، مظلماً ، دنساً . وكان كل ما

فيه من الأثاث كرسياً من قش ، وطاولة كسيحة ، وبضعة صحن
عتيقة مهشمة ، وفراشين حقيرين لا سبيل الى وصفها منطرحين في
زاويتين من زواياها . وكان النور لا يتسرب اليه إلا من نافذة ذات اربعة
ألواح زجاجية تجلها أنسجة المنكبوت . ولم يزد الضوء المنسرب من
تلك النافذة على ذلك المقدار الكافي لأن يجعل وجه الانسان يبدو وكأنه
وجه شبح . كانت ترين على الجدران سجا جذماء ، وكانت تعلوها التخاريم
والندوب مثل محيّا شوّهه مرض رهيب ما . وكانت تنضح منها رطوبة
عفنة . وكان في ميسور المرء ان يتبين على صفحتها صوراً بذيقة رُسمت
بالفحم على نحوٍ يُعوزُه الاتقان .

كانت الغرفة التي احتلها ماريوس مفروشةً بأرضية آجرية محطمة .
أما هذه فلم تكن لا مبلّطة ولا مخشّبة . كانوا يمشون مباشرة على
جصّ المنزل القديم الذي أمسى أسود تحت أقدامهم . وعلى هذه التربة
غير المستوية التي تبدئى الغبار وكأنما قد اكتسب فوقها قشرة حجرية ،
والتي لم تكن بكرراً إلا من حيث امتناعها على المكنتة ، نقول على
هذه التربة اجتمعت كيفما اتفق ابراج من الاحذية القماشية العتيقة ،
والنعال البالية ، والحرق الرهيبة . بيد ان تلك الغرفة كانت تنطوي
على موقد ، ومن أجل هذا كانت أجرتها السنوية اربعين فرنكاً . وفي
الموقد كان شيء من كل شيء : كان كانون ، ومرجل ، والواح خشبية
مهشمة ، وأسماط تتدلى من المسامير ، وقصص عصفور ، وبعض الرماد ،
بل وفنارٌ ضئيلة ايضاً . كانت جمرتان ترسلان الدخان في كآبة .

وزاد اتساع تلك العلية في مظهرها الرابع . كانت ذات نتوءات ،
وزوايا ، وحفر سوداء ، وتضاريس تحت السقف ، وخلجان صغيرة ،
وآكام مرتفعة . ووراء ذلك كانت زوايا فظيعة لا يُسبر غورها - زوايا
بدت وكأنها حافلة بالعناكب التي في حجم جمع اليد ، وأمات الاربع
والاربعمين التي في حجم القدام ، ولربما ببعض الكائنات البشرية

الرهيبة ايضاً .

كان أحد الفراشين قرب الباب ، والآخر قرب النافذة . وكان طرف كلّ منها يلامس الموقد ، ويواجه ماريوس .
وفي زاوية قريبة من الفجوة التي كان ماريوس ينظر منها كان يتدلى على الجدار ، ضمن إطار من خشب أسود ، نقشٌ ملوّن مكتوب في أدناه بأحرف ضخام : الحظّم . وكان ذلك النقش يمثل امرأة نائمة وفي حجرها طفل نائم ، ونسراً وسطَ سحابة حاملاً بمنسره تاجاً ، وقد اخذت المرأة تبعد التاج عن رأس طفلها ، ولكن من غير ان تتيقظ . وفي خلفية الرسم بدا نابوليون وسط هالة ، مستنداً الى عمود ازرق ضخم ذي تاج أصفر مزدانٍ بهذه الكلمات :

مارانفو

أوسترلنتز

بيننا

واغرام

ابلو

وتحت هذا الاطار كان ضربٌ من لوح خشبي ماطور يزيد طوله على عرضه ، وقد أوقف على ارض العلية وأسند الى الجدار مشكلاً زاوية ما . كان يبدو أشبه بلوحة فنية مقلوّبة وجهاً لظهر ، أو إطار منسخ في أغلب الظن من الناحية الثانية ، او مرآة بين نافذتين أنزلت عن الجدار ثم نسي القوم أن يعلّقوها من جديد .
والى الطاولة - التي رأى ماريوس فوقها ريشةً ، وحبراً ، وورقاً - كان يجلس رجلٌ في نحو الستين ، ضئيل الجسم ، هزيل ، شديد الشعوب ، شرس تبدو عليه سجا الدهاء ، والوحشية ، والقلق ، نذلٌ شنيع .

ولو قد 'قدّر لـ' « لافانير » ان يدرس هذا الوجه اذن لوجد فيه مزيجاً من العقاب والمهامي الصغير . وقد تتم كل من الطائر المقتوس والرجل المحتال الاخر وبشعته ، إذ جعل الرجل المحتال الطائر المقتوس خديماً ، وجعل الطائر المقتوس الرجل المحتال رهيماً .

وكانت لذلك الرجل حية طويلة شائبة . وكان يرتدي قميصاً نسائياً يكشف عن صدره الاشعث ، وذراعيه العاريتين الشائكتين بالشعر الاشيب . وتعت هذا القميص كان في ميسور المرء ان يرى بنطلوناً لونه الوحل ، وحذاءً عالي الساق برزت منه أصابع قدمي الرجل . كان واضحاً في فمه غليوناً ، وكان يدخن . لم يكن في الوكر بقية من خبز ، ولكن كان فيه بقية من التبغ .

كان يكتب ؛ وأغلب الظن ان ما كتبه كان رسائل مثل تلك التي قرأها ماريوس .

وعلى احدى زوايا الطاولة كانت مجلد عتيق فريد ضارب لونه الى الحمرة . وكان قطعه ، وهو قطع الواحد على اثني عشر من الطلحية الذي طبعت به سلاسل الكتب القديمة ، يتم عن أنه رواية . وعلى الغلاف ، كان هذا العنوان مطبوعاً بأحرف كبيرة ضخمة :

الله ، الملك ، الشرف ، والسيدات ، بقلم دو كراي دوميل ،

. ١٨١٤

وتكلم الرجل بصوت عالٍ فيما كان يكتب . وسمع ماريوس كلماته :
- « ما أصعب ان يفكر الانسان بأنه ليس ثمة مساواة حتى بعد الموت ! انظر قليلاً الى « الاب لوشيز » * ! ان الكبار ، اولئك الذين

* Lavater فيلسوف وشاعر سويسري (١٧٤١ - ١٨٠١) كانت له دراسة فائقة في علم القراءة .

* مقبرة باريس الرئيسية .

هم اغنياء ، يرقدون في الجزء الاعلى ، في مجاز الآكاسيا ، المعبد .
إن في استطاعتهم أن يذهبوا الى هناك في عربة . اما الصغار ، الفقراء ،
التمساء ، فهؤلاء يضعونهم في القسم الأدنى - حيث يرتفع الوحل حتى
الركب - في الحفّر ، في الرطوبة . إنهم يضعونهم هناك لكي تفقد
جثثهم بصورة أسرع ! انك لا تستطيع ان تذهب لتراهم من غير ان
تفوس في الأرض .

وهنا سكت ، وضرب الطاولة بجمع كفه ، ثم اضاف وهو بصرف
بأسنانه :

- « اوه ! في استطاعتي ان آكل العالم . »

وكانت امرأة ضخمة ، قد يكون عمرها اربعين وقد يكون عمرها مئة ،
جالسة القرفصاء ، قرب الموقد ، على قدميها الحافيتين .

كانت هي ايضاً لا ترتدي غير قميص وتنورة مسرودة مرقعة بقطع
من الجوخ الصتيق . وكان مئزر من قماش غليظ يغطي نصف تنورتها .
وعلى الرغم من ان تلك المرأة كانت محدودة منكمشة فقد كان في
إمكان الناظر اليها ان يلح انها فارعة الطول . كانت شبه عملاقة
الى جانب زوجها . كان لها شعر رهيب ، أحمر فاتح وخطه الشيب ،
كانت تردّه الى الوراء بين الفينة والفينة بيديها الضخمتين اللامعتين
المسطحة الاظافر .

والى جانبها كان ملقى على الارض ، مفتوحاً على مصراعيه ،
مجلد في مثل حجم المجلد الآخر ، ولعله ان يكون جزءاً من الرواية
نفسها .

وعلى إحدى الحشيتين لمح ماريوس شبه فتاة صغيرة مهزولة شديدة
الشحوب وقد جلست ، عارية تقريباً ، وتدلّت قدميها ، من غير ان
يبدو على حياها ما يؤذن بأنها تسمع ، او ترى ، او تحيا .

كانت من غير ويب الاخت الصفري لتلك الفتاة التي وفدت على

عليت .

لقد بدت وكأنها في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر . حتى
إذا أنعم النظر اليها تبين أنها في الخامسة عشرة . وليس من شك في
انها هي الطفلة التي قالت ، البارحة ، على الجادة : « لقد ركضت !
وركضت ! وركضت ! »

كانت من ذلك الضرب المعتل الصحة الذي بظلّ متخلفاً فترة
طويلة ، ثم ينطلق في سرعة وعلى نحو مفاجئ . إنما العوز هو الذي
يطلع هذه النباتات البشرية الكثيرة . فهذه الخلوقات ليس لها طفولة ولا مراهقة .
انها في الخامسة عشرة تبدو وكأنها في الثانية عشرة ، وفي السادسة عشرة
تبدو وكأنها في العشرين . وإنك لتراهنّ اليوم فتيات صغيرات ، وإنك
لتراهنّ غداً نسوةً ناضجات . وفي استطاعة المرء ان يقول انهن يتخطين
الحياة وثباً لكي يتخلصن منها في مدة أقصر .

في تلك اللحظة كانت تطفو على حيا هذه الخلوقة سيما الاطفال .
والى هذا ، فلم يكن ثمة ما يؤذن بأن عملاً من الاعمال كان يتمّ في
تلك الغرفة . فلا نول ، ولا دولاب ، ولا أداة . وكانت في احدى
الزوايا بضع قطع حديدية ذات مظهر مريب . وعلى الجملة ، فقد كان
يرينُ على العلية ذلك الكسل القائم الذي يعقب اليأس ، والذي يسبق
سكرات الموت .

ونظر ماريوس ، طوال فترة ما ، الى تلك الغرفة المائتية التي كانت
ادعى الى الذعر من جوف قبر ، إذ كانت المرء يستشعر هنا اضطراب
النفس البشرية ، وخفقان الحياة .

إن العلية ، والتقبو ، والحفرة السفلى ، حيث يدبّ بعض المعوزين
في قعر الصرح الاجتماعي . ليست القبر نفسه . إنما غرفة الانتظار المؤدية
اليه . ولكن ، كما يعرض اولئك الاغنياء اعظم ما يقدرون عليه
من أهبة عند مدخل قصرهم ، كذلك يبدو الموت ، الجائم

على مقربة دانية ، وكأنه يعرض أقصى ما عنده من تعاسة في هذا الرواق .

وصمت الرجل ؛ ولم تتكلم المرأة ؛ ولم يبدُ أن الفتاة الشابة تننفس . كان في استطاعة ماريوس أن يسمع الريشة تخدش الورق في جريها .

وغغم الرجل من غير ان يكفّ عن الكتابة :

« سافل ! سافل ! كل شيء سافل ! »

وكان في هذا التعريف لكلمة سليمان المأثورة ما انتزع زفرة من صدر المرأة .

وقالت :

« الزم الهدوء ، يا صديقي الصغير . لا تؤذِ نفسك يا عزيزي .

جميل منك جداً ان تكتب الى هؤلاء القوم كلهم ، يا صاحبي ! »
في الفقر تتلاصق الاجسام ، شأنها في البرد ، ولكن القلوب تتباعد . كانت كل المظاهر تشير الى ان هذه المرأة كانت خليقةً بأنت تحبّ زوجها بكامل ما تقدر عليه من حب . ولكن هذا الحب انتهى الى ان يخذ ، في اغلب الظن ، نتيجةً لتكرّر التويخ المتبادل الناشئ عن الشقاء المروّع الذي رزحت تحته الجماعة كلها . ومن هنا لم يبق في قلبها نحو ذلك الزوج غير رماد المحبة . ومع ذلك ، فإنّ تعابير التنصب ، وهو ما يقع دائماً ، لم تمت على لسانها . كانت تقول له :
يا عزيزي ، يا صديقي الصغير ، يا صاحبي الخ ، . بشفتيها ، على حين يظلّ قلبها صامتاً .

وعاود الرجل الكتابة .

ستراتيجية وتكتية *

وكان ماريوس على وشك ان يهبط ، موجع القلب ، من شبه المرصد ذلك الذي ارتجله ، عندما لفتت انتباهه ضجة ما ، وأغرته بالبقاء حيث هو .

وُفتح باب العلية على نحو مفاجئ .

وبرزت الفتاة الكبرى عند العتبة .

كانت تنتعل حذاءً رجالياً ضخماً يملوه الرجل المتناثر حتى كميها الأحمرين ، وكانت تتسربل برداء فضفاض عتيق لم يره ماريوس على جسدها قبل ساعة ، ولعلها ان تكون قد تركته عند بابه لتستدرّ شفقتة اقصى ما يكون الاستدرا ، ثم عاودت لبسه حين خروجها ، من غير شك . ودخلت ، ودفعت الباب خلفها ، ووقفت لكي تأخذ نفساً ، فقد كانت تلهث لهاثاً شديداً ، ثم صاحت وقد طقت على حياها سماً النصر والبهجة :

« إنه آتٍ ! »

وأدار الأب عينيه ، وأدارت المرأة رأسها ، ولم تتحرك الاخت الصغرى .

وتساءل الأب :

« من ؟ »

« الرجل ! »

« المحسن ؟ »

* تريب اصطفاة للفظه tactique في اللغات الاجنبية وتني فن الحرب وتنظيم القتالين .

- « نعم . »
 - « محسن كنيسة سان جاك ؟ »
 - « نعم . »
 - « ذلك الرجل المعجوز ؟ »
 - « نعم . »
 - « سوف يأتي ؟ »
 - « لقد مشى على اثري . »
 - « أواثقة أنتِ ؟ »
 - « انا واثقة . »
 - « ولكن ، اهو قادمٌ حقاً ؟ »
 - « إنه آتٍ في عربة اجرة . »
 - « في عربة اجرة . هذا روتشيلد ! »
- ونفض الأب .

- « كيف تقولين انك واثقة ؟ اذا كان قادمًا في عربة اجرة فكيف جاز ان تصلي قبله ؟ هل أعطيته عنوان البيت على الاقل ؟ هل قلت له جيداً : آخر باب في اقصى الرواق الى اليمين ؟ شرط ان لا يرتكب خطأ ما ! لقد وجدته في الكنيسة ، اذن ؟ هل قرأت رسالتي ، ماذا قال لك ؟ »

فقالت الفتاة :

- « تا ، تا ، تا ! كيف تعدو خبيثاً ، ايها الرجل الساذج ! سوف أقول لك : لقد ذهبتُ الى الكنيسة ؛ كان في مكانه المعتاد ؛ وحينئذ له رأسي احتراماً ؛ وقدّمت اليه الرسالة ، فقرأها وقال لي : « ابن تسكنين ، يا طفلي ؟ » فقلت : « سيدي ، سوف اقودك اليه . » فقال لي : « لا ، أعطيني عنوانك . إن ابنتي تريد ان تشتري بعض الحاجات ، وسوف آخذ عربة ، فأصل الى منزلك حالما تصلين . »

واعطينه العنوان . وحين ذكرتُ اسم البيت ، بدا وكأنه دُهن ، وتردد لحظة ، ثم قال : « سيان ، سوف اذهب . » وعندما انتهى القداس ، رأيتُه يغادر الكنيسة مع ابنته . لقد رأيتُهما يركبان العربة . ولقد قلتُ له في وضوح : آخر باب في اقصى الرواق الى اليمين . »

- « وكيف تعرفين انه سوف يأتي ؟ »
- « لقد رأيتُ العربة ، منذ لحظة ، وقد وصلتُ الى شارع بيتي بانكيبه . » وذلك ما جعلني اركض . »
- « وكيف تعرفين انها العربة نفسها ؟ »
- « لأني راقتُ رقبها . »
- « وما هو هذا الرقم ؟ »
- « اربعمئة واربعون . »
- « حسن . انت فتاة ذكية . »

ف نظرت الفتاة الى ابيها ، في جسارة ، وقالت وهي تشير الى الحذاء الذي انتعلته :

- « فتاة ذكية ، هذا جائز . ولكني اقول لك اني لن ألبس هذا الحذاء بعد اليوم ، واني لم أعد اريده ، من اجل الصحة ، اولاً ، ومن اجل النظافة ثانياً . انا لا اعرف ما هو ازعيج من النعال التي كَصِرَتْ : زيء ، زيء ، زيء ، طول الطريق . اني افضل ان امشي حافية . »

فأجابها الاب في نبرة رقيقة تغايرت تغايراً واضحاً مع خشونة الفتاة الشابة :

- « أنتِ على صواب . ولكن اذا مشيت حافية فعندئذ لا يسمحون لك بالدخول الى الكنيسة . إن على الفقراء ان يلبسوا أحذية . »

قال ذلك ، واطاف في مرارة :

- « ان الناس لا يذهبون الى بيت الله حفاة ! »

ثم رجع الى الموضوع الذي يشغل تفكيره :

- « ولكن ، هل انت واثقة من انه آتٍ ؟ »

فقلت :

- « إنه قادمٌ على اثري . »

ووثب الرجل . كان يطوفو على وجهه شبه الهام .

وصاح :

- « ايها الزوجة ! اتسمعين ؟ هوذا المحسن . اطفئي النار . »

ولم تتحرك الأم المشدوعة .

وفي رشاقة مشعوذ أمسك الأب بأناه مكسور كان على الموقد ،

وقذف الجمرات بشيء من الماء .

ثم التفت الى ابنته الكبرى وقال :

- « أنتِ ! أزيلي قش الكرسى ! »

ولم تفهمه ابنته قط .

فأمسك بالكرسي ، ورفضها رفسةً أنلقها بها . لقد نفذت ساقه من

خلالها .

وفيا هو يسحب ساقه ، سأل ابنته :

- « الجو بارد ؟ »

- « بارد جداً . الثلج ينساقط . »

وامتدار الأب نحو الفتاة الصغرى التي كانت على الحشبة القريبة من

النافذة ، وصاح في صوت راعد :

- « عجلي ! اخرجي من الفراش ، يا من لا تصلح لشيء ! ألن

تفعلي شيئاً على الاطلاق ؟ اكسري لوح زجاج ! »

ووثبت الفتاة الصغيرة من الفراش وهي ترتعد .

وقال كرهة اخرى :
- « اكسري لوحاً من ألواح الزجاج ! »
وظلت الفتاة معتصمة بالصمت .
وكرر الأب :

- « أسمعين ما أقول ؟ أقول لك اكسري لوحاً زجاجياً ! »
وفي ضرب من الخضوع المذعور ، انتصبت الطفلة على رؤوس اصابعها
وضربت احد ألواح النافذة الزجاجية بجمع كفها . وانكسر اللوح ،
وسقط محدثاً ضجة كبيرة .
فقال الأب :

- « حسن . »
كان رصيناً ورشيقاً . وفي سرعة ، طافت عينه بزوايا العلية جميعاً .
ولو قد رأيتَهُ اذن لقلت انه جنرال يتخذ الاستعدادات النهائية لحظة
اوشكت المعركة ان تنشب .

ونمضت الأم - ولم تكن قد نطقت بكلمة ما حتى الان - وسألت
في صوت بطيء مخنوق ، وقد بدت كلماتها وكأنها تنطلق متجمدة :
- « ما الذي تريد ان تصنعه ، يا عزيزي ؟ »
فأجابها الرجل :

- « عودي الى فراشك ! »
كانت لهجته حاسمة لا تحتمل جدالاً . فأذعنت الأم ، وانطرحت في
ثقل فوق احدى الحشيتين .
وفي غضون ذلك سمعت زفرة في زاوية ما .
فصاح الأب :
- « ما هذا ؟ »

ومن غير ان تخرج من الظلام الذي انكسرت فيه ، أبرزت الفتاة
الصغرى جمع كفها الدامي . لقد جرحت عند كسرها زجاج النافذة .

كانت قد ذهبت الى فراش أمها ، وكانت تبكي في صمت . وهنا جاء دور الأم في الانتصاب والصبح :

- « انت ترى جيداً ! أبة حماقات هذه التي ترتكبها ! لقد جرحت نفسها لكي تكسر لوحك الزجاجي ! »
فقال الرجل :

-- « هذا خير ! لقد كنت أعرف أنها سوف نجرح نفسها . »
فاستأنفت المرأة الكلام :

- « كيف ؟ تقول إن هذا خير ؟ »
فأجابها الأب :

- « الصمت ! إني أكبت حرية الصحافة ! »

ثم إنه مزق القميص الذي كان يرتديه ، واتخذ منه ضمادة ساروع الى رُبَط رِسع ابنته الصغرى الدامي ، بها .
حتى اذا أتم ذلك ، وقعت عيناه على القميص الممزق في ارتياح ،
وقال :

- « والقميص ايضاً . إن لهذا كاه مظهرأ حسناً . »

وصفرت ربيعٌ مثالوجة عند النافذة ، ودخلت الى الغرفة . وتسرب الضباب من الخارج ، وانتشر في جنباتها مثل قطن مندوف ضاربٍ لونه الى البياض تفرقه اصابع غير منظورة . ومن خلال اللوح الزجاجي المكسور رُئي الثلج يتساقط . كان البود المرتقب قبل يوم من عيد تقديم يسوع في الهيكل قد أقبل فعلاً .

وأجال الأب نظره في ما حوله وكأنما كان يريد أن يتأكد من أنه لم ينس شيئاً . لقد أمسك بجزء عتيقة ، ونشر الرماد فوق الجمرات المبللة على نحو يخفيها إخفاءً كاملاً .

ثم استقام وأسند ظهره الى الموقد .
وقال :

- « الان ، نستطيع أن نستقبل رَجُلَ الاحسان ! »

٨

الشعاع في البيت الحقير

ومضت الفتاة الكبرى الى أبيها ، ووضعت يدها على يده .
وقالت :

« أنظر كم أنا بردانة ! »

فأجابها الاب :

- « هه ! أنا بردان اكثر منك بكثير . »

وصاحت الأم في حدة :

- « إنك تجد كل ما عندك خيراً بما عند غيرك ، حتى الألم ! »

فقال الرجل :

- « إخفزي صوتك ! »

وبعد أن سدّد الرجل الى زوجه نظرةً خاصة ، لزمت السكوت .

وعبرت بالوكر لحظة صمت . كانت البنت الكبرى تزيل الوحل ،

في سياء لا مبالية ، عن الجزء الادنى من رداثها ، وكانت الاخت

الصغرى تواصل تنهّدها ، وقد طوّقت الأم رأسها بيديها الاثنتين

وغمرتها بالقبيلات ، قائلة لها في صوت خفيض :

- « أتوسل اليك ، يا كنزي ! إن هذا الجرح سوف يندمل في

الحال . لا تبكي . إن ذلك يفضب والدك . »

فصاح الاب :

- « لا ! على العكس ! انتحي ! انتحي ! هذا يترك أثراً دائماً . »

ثم ارتدت الى ابنته الكبرى ، وقال :

- و آه ، ولكنه لم يأتِ ! إذا كان لا يعترزم الهبيء ، فعندئذ
اكون قد اطفأت ناري ، ونزعتُ القسم الاسفل من كرميتي ، ومزقت
قميصي ، وكسرت لوح زجاجي من غير فائدة !
فدمدمت الام :

-- و جرحتُ الطفلة الصغيرة !
ثم استأنف الاب حديثه قائلاً :

- و أتعرفين أن هذه العلية الشيطانية باردة كالكلب ؟ أما اذا لم
يأتِ هذا الرجل ! أوه ! هو ذاك ! إنه يحملنا على انتظاره ! إنه
يقول في ذات نفسه : و حسناً ، إنهم ينتظرونني ! ذلك ما خلقوا من
أجله ! ، أوه ! كم أكرههم ، وما أجدرني بأن اخنقهم في تهتل ،
وبهجة ، وحماسة ، وارتياح - أولئك الاغنياء ! جميع اولئك الاغنياء !
اولئك الذين ينظاهرون بأنهم رجالٌ محسنون ، والذين هم شديدو
التقوى ، والذين يذهبون الى القداس ، والذين يصدقون رجال الدين
المرددين معاني خطبهم على نحو مضحك ، ويصدقون الكهان ، والذين
يحسبون انفسهم اسمى منا ، والذين يجيئون لكي يُبدلونا ، ويحملوا الينا
الملابس ! كما يدعونها ! خرقٌ لا تساوي اربعة فلوس ، وشيء من
الحبز ! ليس هذا ما أريده من اولئك السفلة ! انا اريد مالاً ! آه ،
ولكنهم لا يقدمون الينا مالاً البتة ! لانهم يقولون إننا نذهب ونشرب
الحمر به ، وإننا سكيرون لا نصلح لشيء ! وحضراتهم ! اي شيء هم
اذن ، واي شيء كانوا في زمانهم ؟ لصوص ! واولا ذلك لما كانت
في استطاعتهم ان يصبحوا أغنياء ! أوه ! يجب ان يُسك احدنا بالمجتمع
من زوايا السهات الأربع ويقذف به في الهواء . سوف ينكسر كل شيء ،
هذا جائز ، ولكن احداً لن يملك شيئاً على الاقل ، وهذا في ذات
نفسه ربيع ! ولكن ، ما الذي يفعله ، الان ، صاحبك المحسن الغليظ ؟
هل سيأتي ؟ لعل ذلك الحيوان قد نسي العنوان ! أراهن ان ذلك

المعتوه المعجوز ... ،

في تلك اللحظة ، 'قرع الباب قرعاً وفاقاً ؛ واندفع الرجل الى
أمام وفتحهُ هاتفاً منحنيّاً عدة مرات انحناءً خفيضاً ، ومرحلاً ابتسامات
الاعجاب والتقدير :

— « أدخل ، ياسيدي ! تنازل وادخل ، يا محسني النبيل ، وأدخِلْ
معك آنستك الفاتنة ! »

وبرز لدى باب العليّة رجلٌ كهل ، وفتاة شابة .
ولم يكن ماريوس قد فارق مكانه . لقد استشعر في تلك اللحظة ما
تعجز اللغة الانسانية عن وصفه .
كانت هي .

وكل من أحبّ ، يعرف كاملَ المعنى المشعّ الذي ينطوي عليه حرفاً
هذه الكلمة : هي .

كانت هي حقاً . وإنما نبّيتها ماريوس ، في كثير من العسر ، من
خلال البخار الساطع الذي انتشر فجأة فوق عينيه . كانت ذلك الكائن
المعذب الذاهل ، ذلك النجم الذي كان نورَه طوالَ ستة اشهر ، تلك
الحدقة ، ذلك الجبين ، ذلك الفم ، ذلك الهيّا الجميل الذي انحى ،
والذي خلف وراءه ظلاماً دامساً . كانت الرؤيا قد اعترأها الكسوف ،
وها هي ذي الآن تعاود الظهور !

لقد عاودت الظهور في هذه الظلمة ، في هذه العليّة ، في هذا
الوكر الشائه ، في هذا الهول !

وارتعد ماريوس ارتعاداً عنيفاً . ماذا ؟ إنها هي ! وكان في خفقان
قلبه ما أوقع الاضطراب في بصره . لقد استشعر ان
عينيه على وشك أن تغورقا بالدموع . ماذا ! لقد رآها من جديد ،
آخر الأمر ، بعد ان بحث عنها دهرأً طويلاً ! وبداله وكأنها كان قد
أضاع نفسه ثم اهتدى اللحظة اليها .

كانت لا تزال هي هي ، ولكنها شاحبة بعض الشيء . كان وجهها الدقيق مطروقاً بقبعة مخملية بنفسجية ، وكانت قامتها محجوبة تحت رداء حريري أسود مبطن بالفرو . ولقد لمع تحت فستانها الطويل قدّمها الصغيرة 'مقحة' في حذاء حريري عالٍ ذي رباط .
كان مسيو لوبلان لا يفارقها ، جرباً على مألوف عاداته .
كانت قد تقدمت بضع خطوات في الغرفة ، ووضعت رزمة كبيرة على الطاولة .
وكانت البنت الكبرى قد ارتدت خلف الباب وانشأت تنظر ، في حسد ، الى تلك القبعة المخملية ، وذلك الرداء الحريري ، وهذه الطلعة المتبهجة الفاتنة .

٩

جوندريت يكاد ييكي

كانت العلية من الاظلام بحيث استشعر الوافدون اليها من الخارج أنهم يلبجون كهفاً من الكهوف . وهكذا تقدم الوافدان الجديدان ، في شيء من التردد ، وهما لا يكادان يتبينان الوجوه الباهتة من حولهما ، على حين كان سكان العلية الذين تعودت أعينهم هذا الفسق يرونهما في وضوح ويدرسونها في عناية .
واقترب مسيو لوبلان ، بسجائه الكريمة الكثيبة ، وقال للأب :
- « سيدي ، سوف تجرد في هذه الصرّة بعض الملابس الجديدة ، وبعض الجوارب والبطانيات الصوفية . »
فقال جوندريت ، منحنياً حتى الارض :
- « إن محنتنا الملائكي يفرنا بنعمه . »

ثم مال على أذن ابنته الكبرى ، فيما كان الزائران يفحصان هذا
المسكن المبكي ، وأضاف في سرعة وفي صوت خفيض :
- « هه ؟ ماذا قلت لك ؟ خرقى بالية ! لا مال ! إنهم جميعاً
سواء ! أخبريني ، أي إمضاء كان يذيل الرسالة الموجهة الى هذا الأب
العجوز ؟ »

فأجابته الفتاة :

- « فابانتو . »

- « الفنان المسرحي . حسن ! »

وكان ذلك من حسن حظ جوندريت ، إذ في تلك اللحظة التفت
لوبيلان نحوه ، وقال له وقد بدت على وجهه سبياً من يحاول ان يتذكر
اسماً :

- « ارى انك تستحق الشفقة حقاً ، يا ميسو ... »

فسارع جوندريت الى القول :

« فابانتو . »

- « ميسو فابانتو . أجل ، ذلك هو . لقد تذكرت . »

- « فنان مسرحي ، يا سيدي ، وُفق في ما مضى الى نجاح

كثير . »

وهنا حسب جوندريت من غير ريب أن لحظة الاستعواذ على مشاعر
« محسنه » قد أُرقت . فهتف في جرس حافل بزهو مشعورٍ في
الاسواق الموممية ومذلة شحاذ في الطريق العام ، في آنٍ معاً :

- « تلاميذ من تلاميذ تالما * ، يا سيدي ! انا تلميذ من تلاميذ

تالما ! لقد ابتسم لي الحظ في وقت من الاوقات . وأسفاه ! الآن
جاء دور الشقاء . أنظر يا سيدي المحسن : لا خبز ، لا نار ! إن

* ممثل فرنسي شهير ، وقد سبق التعريف به .

اطفالي الصغار لا نار عندهم . أنظر الى هذا الكرسي الوحيد الذي
تقطع قشهُ ! والى هذا الزجاج المكسور ! وفي مثل هذا الجو العاصف !
إن زوجتي في الفراش ! انها مريضة ! »

فقال مسيو لوبلان :

- « مسكينة ! »

فأضاف جوندريت :

- « وابنتي جريجة ! »

وكانت الطفلة - التي أذهلها وصول الزائرين الغربيين - تحدق الى
« الآنة الصغيرة » ، وكانت قد كفت عن الانتحاب .
وقال لها جوندريت ، في همس :

- « لماذا لا تبكين ؟ لماذا لا تصرخين ؟ »

وفي الوقت نفسه قرص يدها الجريجة . كل ذلك في براعة مشعوذ
من المشعوذين .

وأطلقت الصغيرة صرخات عالية .

وسارعت نحوها الفتاة الشابة الباردة الجمال التي دعاها ماريوس في سريرة
نفسه « أورشولته » .

وقالت :

- « ايها الطفلة العزيزة ، المسكينة ! »

وتابع جوندريت حديثه :

- « انظري ، يا آنستي الجميلة ، الى رسمها الدامي ! ذلك حادث
أصابها وهي تعمل بواسطة احدى الماكينات لكي تجني ستة فلوس في
اليوم . وقد نُضطررت في المستقبل الى ان نبتو ذراعها . »

فقال السيد المعجوز مذعوراً :

- « حقاً ؟ »

وإذ أخذت الفتاة الصغيرة هذا الكلام أخذت جدياً فقد استأنفت
الانتحاب على نحو أجل .

وأجاب الأب :

- « نعم ، وأسفاه ، يا محسني ! »

كان جوندريت يتأمل « المحسن » ، منذ بضع لحظات ، تأملاً
غريباً . لقد بدا ، حتى وهو يتكلم ، وكأنما كان يفحصه فحصاً دقيقاً ،
شأن من يحاول ان يسترجع ذكرى معينة . وفجأة - وقد أفاد من
اللعظة التي انصرف فيها الزائران الى سؤال الفتاة الصغرى ، في لفظة ،
عن يدها الجريح - تقدم نحو امرأته المنطرحه في فراشها ، وقد بدت
عليها سيما الاجهاد والبلاهة ، وقال لها في سرعة وفي صوت خفيض جداً :

- « تأملي هذا الرجل ! »

ثم استدار نحو مسيو لوبلان ، وتابع شكواه الناضحة :

- « انظر يا سيدي ! كل ما على جسدي من الثياب قميص من
قمصان زوجتي ! وهو قميص ممزق تمزيقاً كاملاً ! وفي قلب الشتاء ! أنا
لا أستطيع الخروج من هذا المكان ، لاني لا أملك بذلة . ولو كان
عندي بذلة مها تكن حقيرة اذن لذهبت وزرت الآنسة مارس التي
تعرفني والتي تحبني كثيراً . إنها لا تزال تسكن في شارع « لا تور
دي دام » ، اليس كذلك ؟ أتدري ، يا سيدي ؟ لقد مثلنا معاً في
الأرياف . لقد قاسمتها اكاليل الغار التي توجت بها . إن سيلمين *
جديرة بأن تأتي الى نجدتي ، يا سيدي ! إن ايلير ** خليقة بأن تصدق

* Célimène إحدى شخصيات مولير في رواية « مبغض البشر » Misanthrope
وهي تمثل المرأة الشابة ، الجميلة ، الفناجة ، الناعمة .

** Elmire زوجة اورغون في رواية « طرطوف » لمولير ، وهي تمثل المرأة
المخلصة من غير مبالاة في تكلف العفة .

على بيليزاريوس * ! ولكن لا ، لا شيء ! ليس في منزلي فلس واحد ! إن زوجتي مريضة ، وليس من فلس ! إن ابنتي جريح على نحو خطر ، وليس من فلس ! إن زوجتي تصاب بنوبات اختناقية . فهي في سن الشيخوخة ؛ ثم إن للجهاز العصبي صلةً بذلك أيضاً . إنها في حاجة الى مساعدة ، وكذلك ابنتي ! ولكن الطبيب ! ولكن الصيدلي ! كيف أستطيع أن ادفع ما يطلبانه ؟ ليس في جيبى فلس ! اني جدير بأن أركع على ركبتي أمام فلس واحد ، يا سيدي ! أنت ترى كيف انهارت الفنون ! وهل تعرفين ! أنت يا آنستي الفاتنة ، وانت يا نصيري الكريم ، هل تعلم ، أنت الذي يعبق بالفضيلة والطيبة والذي تعطر الكنييسة التي تراك فيها ابنتي كل يوم عندما تذهب للصلاة ؟ ذلك أني أنشيت بنتي على الدين ، يا سيدي . انا لم اسمح لها ان تميلا الى المسرح . آه ، يا لعاكرتين ! لو رأيتها تولُّ بها القدم ! أنا لا أهزل ، أنا ! اني أحصتها بمواعظ عن الشرف ، عن الاخلاق ، عن الفضيلة ! إسألها ! ان عليها ان تسلكا مسلكتاً قويماً . ان لها أباً . انها ليستا من اولئك التعمسات اللواتي يبدأن بأن لا تكون لمن أسرة ، واللواتي ينتهين بالزواج من الجمهور ! ان الواحدة منهن تكون « مدموزيل لا أحد » ، ثم تصبح « مدام كل انسان » ! شكراً للسما ! ليس ثمة شيء من ذلك في أسرة فابانتو ! أنا أعترم ان اتقفها على اساس من الفضيلة ، وأن اساعدهما على ان تكونا طاهرتي الذليل ، وان تكونا لطيفتين ، وأن تؤمنا بالله ! جل اسمه ! حسناً ، يا سيدي ، يا سيدي الجليل ، هل تعلم ما الذي سيقع غداً ؟ غداً هو

* Béliatre جنرال بيزنطي (حوال ٤٩٤ - ٥٦٥) فهو ، في عهد جوستنيان ، القوات الفارسية والفندالية ، وصدت جماعات الهون . وتذهب بعض الروايات التاريخية الى أنه فقد بصره في اواخر حياته وأمسى شعاعاً . ومن هنا فقد أمسى اسم بيليزاريوس يرمز الى اللقيع الاعمى الذي تنطوي نفسه على شيء من النبيل والحلق الرقيق .

الرابع من شباط ، اليوم المشؤوم ، المهلة الأخيرة التي أعطاني اياها مؤجري . فاذا لم ادفع اليه الاجرة هذا المساء فان ابنتي الكبرى ، وأنا ، وزوجتي وحماتها ، وطفلتي وجرحها سوف تُطرَدُ غداً ، نحن الاربعة ، من هنا ، ونُطرح الى الخارج ، الى الشارع ، الى الجادة ، من غير ملجأ ، وتحت المطر ، وتحت الثلج . تلك هي المسألة ، يا سيدي . أنا مدينٌ لصاحب البيت بأربعة اقساط . بأجرة سنة ! يعني ستين فرنكاً .

لقد كذب جوندرت . إن الاقساط الاربعة لا يزيد مجموعها على اربعين فرنكاً ، ولم يكن من المعقول ان يكون مديناً بأربعة اقساط اذ لمّا تنقض ستة اشهر على دفع ماريوس قيسة فسطين عنه . واخرج مسيو لوبلان خمسة فرنكات من جيبه ، وطرحها على الطاولة . ووجد جوندرت متسماً من الوقت ليدمدم في أذن ابنته الكبرى : - « النذل ! اي شيء يريد مني ان افعله بفرنكاته الخمسة ؟ إن هذا لا يكفي لاصلاح كرسيي ونافذتي ! يجب ان استرجع نفقاتي ! » وفي غضون ذلك ، كان مسيو لوبلان قد نزع سترة طويلة واسعة سمراء ارتداها فوق سترته الطويلة الزرقاء ، وكان قد طرحها على ظهر الكرسي . وقال :

- « مسيو فابانتو ، لستُ أحمل غير خمسة فرنكات . ولكنني سوف أرجع بابنتي الى البيت ، ثم اعود هذا المساء . لست مضطراً في هذا المساء الى الدفع ؟ »

وأشرق وجه جوندرت بتعبير غريب . واجاب في سرعة :
- « نعم ، يا سيدي المحترم . في الساعة الثامنة يجب ان اكون عند صاحب البيت . »

- « سوف ارجع الى هنا في الساعة السادسة ، ولسوف احمل اليك للفرنكات الستين . »

فصاح جوندريت في انفعال شديد :

- « يا محسني ! »

واضاف في صوت كالمس :

- « تأمليه جيداً ، ايتها الزوجة ! »

وكان ميو لوبلان قد أمسك بذراع ابنته الجميلة الشابة واستدار نحو الباب .

وقال :

- « الى هذا المساء ، ايها الاصدقاء . »

فقال جوندريت :

- « الساعة السادسة ؟ »

- « الساعة السادسة على الضبط . »

وفي تلك اللحظة لفت المعطف الملقى على الكرسي نظر الفتاة الكبرى ،

فقال :

- « سيدي ، لقد نسيت سترتك الطويلة . »

وحدج جوندريت ابنته بنظرة صاعقة مصحوبة بهزة كتفين فظيعة .

والتفت ميو لوبلان ، في ابتسامة :

- « انا لم أنسها . لقد تركتها . »

فقال جوندريت :

- « اوه ، يا نصيري ! يا محسني النبيل . إن عيني تفروقان

بالدمع ! اسمح لي بأن اشيعك حتى عربتك العمومية . »

فأجابه ميو لوبلان :

- « اذا خرجت ، فالبس هذا المعطف . ان الجو جد بارد حقاً . »

ولم يضطره جوندريت الى ان يقول ذلك مرتين . لقد سارع الى ارتداء

المعطف الاسمر في خفة بالغة .

وخرجوا ثلاثهم ، وقد تقدم جوندريت الزائرين .

تعرقه عربات الاجرة ذوات الدولابين فرنكان في الساعة

لم يفت ماريوس شيء من هذا المشهد كله ، ومع ذلك فانه لم ير منه ، في الواقع ، شيئاً . كانت عيناه قد ركزتاً على الفتاة الشابة ، وكان قلبه قد أمسك بها - اذا جاز التعبير - وطوّرها تطويقاً كاملاً منذ وطئت قدمها ارض العلية . وطوال مقامها هناك غمرته تلك النشوة الروحية التي تعطل المشاعر المادية وتحمل النفس على الاستفراق في نقطة واحدة . لقد تأمل ، لا تلك الفتاة ، ولكن ذلك الضياء المشرق برداء حريري مبطن بفرور ، والمعتمر بقبعة مخملية . ولو ان الشعري دخلت الغرفة لما بهرت بصره على نحو أشد .

وفيا كانت الفتاة الشابة تفتح الصرّة ، وتشر الملبس والبطانيات ، مرتجة الاسئلة في طيبة الى الأم المريضة ، وفي حنان الى الفتاة الجريح ، راقب انفعالاتها كلها ، وحاول ان يصفي الى كلماتها . كان يعرف عينها ، وجبينها ، وجمالها ، وقامتها ، ومشيئتها ، ولكنه ما كان يعرف جرس صوتها . وحسباً انه تلقّف بضع كلمات منه ، ذات مرة في اللوكسومبورغ ، ولكنه لم يكن موقناً كل اليقين . وكان على استعداد لأن يتخلى عن عشر سنوات من حياته لكي يسمعه ، ولكي يتسكن من ان يحمل في روحه قليلاً من تلك الموسيقى . ولكن كل شيء تلاشى وسط استعراضات جوندريت الموجهة وتبويقاته الصارخة . وازاف ذلك غضباً حقيقياً الى تهلّل ماريوس . لقد حضنها بعينيه . ولم يستطع ان يتخيل ان هذه التي لها وسط هذه الكائنات الدنة في هذا

الوكر الرهيب كانت تلك المحلقة الالهية فعلاً . لقد بدا له وكأنه رأى طيراً صغيراً رقيق المنقار بين مجموعة من ضفادع الجبل .

وحين خرجت لم يخطر له غير خاطر واحد : ان يتبعها ، ان يقتفي أثرها ، ان لا يتركها من غير ان يعرف أين تكن ، وان لا يُضيعها كرةً اخرى ، على الأقل ، بعد ان وجدها على هذا النحو الاعجوبي ! ووثب عن الحزاة ذات الادراج ، وتناول قبعته . ولم يكذب يضع يده على الغفل ، ويخطو الى خارج العملة حتى اوقفته فكرة . كان الرواق طويلاً ، وكانت السلم وعرة الانحدار ، وكان جوندريت ثثاراً ؛ وليس من شك في ان مسيو لوبلان لما يدخل عربته بعد . ولو قد اتفق له ان يلتفت في المجاز ، أو على السلم ، او عند العتبة ، ويلمحه - هو ، ماريوس - في ذلك البيت ، اذن لأصابه الذعر من غير شك ، واذن لوجد وسيلة الى الفرار منه كرة ثانية ، وينتهي كل شيء من جديد . ما العمل ؟ اينظر قليلاً ؟ ولكن العربة قد تمضي لسبيلها خلال فترة الانتظار هذه . وارتبك ماريوس . واخيراً غامر ، وغادر غرفته .

لم يكن في الرواق أحد . وهرع الى السلم . ولم يكن على السلم أحد . وهبطها في سرعة ، وبلغ الجادة لحظة كانت عربة الاجرة تستدير حول زاوية شارع الـ « بيتي بانكيه » وترجع الى باريس .

واندفع ماريوس في ذلك الاتجاه . وحين انتهى الى زاوية الجادة رأى عربة الاجرة كرةً اخرى تهبط شارع موفتارد مسرعةً . كانت العربة قد اجتازت مسافة غير يسيرة ، ولم تكن ثمة وسيلة الى اللحاق بها . ما الذي يتعين عليه ان يفعله ؟ أبعده خلفها ؟ مستحيل . لأنهم سوف يلاحظون من داخل العربة - لا ريب في ذلك - رجلاً يركض لاحقاً بهم باقصى السرعة ، وعندئذ يعرفه الأب . وفي تلك اللحظة - وكانت فرصة ذهبية لم يُسمع بثملها - لمح ماريوس عربة اجرة ذات دولابين

تخطر فارغة في الجادة . ولم يكن ثمة غير سبيل واحدة : ان يمتطي مثنى هذه العربة ذات الدولابين ، ويلحق بعربة الاجرة . كان ذلك مأموناً ، ناجماً ، خلواً من الخطر .

وأشار ماريوس الى السائق ان يقف ، وصاح قائلاً له :
- « في الحال ! »

كان ماريوس من غير ربطة عنق ، وكان يرتدي بذلة عمله العتيقة التي أعوزتها بعض الازرار ، وكان قميصه ممزقاً عند إحدى ثنيات الصدر .

ووقف السائق ، وغمز بعينه ، وبسط يده اليسرى نحو ماريوس فاركاً سبابته في رفق ، بأبهامه .

فقال ماريوس :

- « ماذا ؟ »

فأجاب السائق :

- « إُدفع مقدماً . »

وتذكر ماريوس أنه ما كان يملك غير ستة عشر « سو » .
وسأله :

- « كم ؟ »

- « اربعون سو . »

- « سوف أدفع حين أعود . »

ولم يجب السائق باكثير من الترمم صافراً بلحن « لا ياليس » ، وإلهاب جواده بالسوط .

ونظر ماريوس ، شارد اللب ، الى العربة تتبعد . فمن أجل اربعة وعشرين « سو » كانت تعوزه ، أضاع بهجته ، وسعادته ، وحببه ! لقد انقلب الى الظلام . كان قد أبصر ، ثم ارتدّ أعمى ! وفكّر في مرارة ، وفي اسف عميق - وهو ما ينبغي ان نقوله - بالفرنكات

الحمة التي قدّمها ، ذلك الصباح ، الى تلك الفتاة البائسة . اذ لو كانت تلك الفرنكات الحمة في جيبه اذن لغاز بالخلاص ، ولو ولد من جديد ، ولخرج من الشك والظلام ، ولفارق عزله ، وسوداويته ، و'ثكائه' ، ولعاودَ عقْدَ خيطِ قَدْرِهِ الاسود بذلك الخيط الذهبي الجميل الذي طفا اللحظةَ أمام عينيه ثم انقطع كرةً أجرى . ورجع الى البيت العتيق يائساً .

كان في ميسوره أن يذكر أن ميسو لوبلان وعد بالعودة ذلك الماء ، وانّ ليس عليه إلا ان يبذل غاية الجهد للتحاق به عندئذ ولكنه لم يكد يفهم ، في غمرة من تأملهِ الغائم ، شيئاً من ذلك . وفيما هو يصعد السلم ، لمح على الجانب الآخر من الجادة ، الى جانب حائط شارع « لا باريير دي غوبلين » المهجور - لمح جوندرت مرتدياً معطف « المحسن » يتحدث الى احد اولئك الرجال الحطري الملامح ، الذين يُجمع الناس على تسميتهم « الحائنين ليلاً » حول ابواب المدينة ، اولئك الرجال المبهمي الوجوه ، المرابي المحاورات ، الذين تبدو عليهم أمارات النية الشريرة ، والذين ينامون في اثناء النهار عادةً ، مما يحمل على الاعتقاد بأنهم يشتغلون في موهن من الليل .

وألف هذان الرجلان المتحدثان في سكينه بينا كان الثلج يتساقط من فوقها مدوماً - ألف هذان الرجلان صورةً كان خليقاً برجل من رجال الشرطة ان يلحقها من غير ريب ؛ على حين ان ماريوس كاد ان يخطئها .

ومع ذلك ، وبرغم ما استغرق ذهنه من تفكيك فاجع فلم يتالك عن ان يقول في ذات نفسه ان ذلك « الحائنين الليلي حول ابواب المدينة » يشبه « بانشو » - المعروف بـ « برينتايني » ، وبـ « بيغروفاي » - الذي كان كورفيراك قد دلّه عليه ذات مرة ، والذي كان اهل الحيّ يعتبرونه مطوّفاً ليلياً خطراً جداً . لقد وأينا امم هذا الرجل في

الكتاب السابق . ولقد برز بانشو هذا ، المعروف بـ « برينتاويه » ،
و بـ « بيغروناي » ، بعد ذلك في عدد من المحاكمات الجنائية وامسى
منذ تلك الفترة وغداً شهيراً . اما في ذلك الحين فلم يكن غير وُغد
رديه السمعة . وهو اليوم حديثٌ يُروى في اوساط السفاحين وقطاع
الطرق . لقد تزعم مدرسةٌ ما ، في اواخر عهد الملك السابق . وعند
المساء ، لحظةً يهبط الليل في تلك الساعة التي تجتمع خلالها الحشود وتتكلم
في صوت خفيض ، كان موضوع الكلام في « لا فورس » عند « حفرة
الأسود » . وحتى في ذلك السجن ، عند النقطة التي امتدت فيها ،
تحت مجاز العَسس ، قناة المراحيض التي مكنت ثلاثين سجيناً من
الهرب في وضع النهار ، على نحو خارق ، عام ١٨٤٣ - نقول حتى في
ذلك الموضع كان في-ميسورك ان تقرأ ، فوق بلاط تلك المراحيض ،
اسمه « بانشو » وقد حفره هو نفسه ، في جسارة ، على الجدار الخارجي
في احدى المحاولات التي قام بها للهرب من السجن . كان رجال الشرطة
قد شرعوا يراقبونه ، عام ١٨٣٢ . ولكنه لم يكن قد استهل نشاطه
الخطر ، استهلاً جدياً ، بعد .

١١

عروض خدمة يقدمها البؤس

الى الأسي

ورقي ماريوس سلم البيت العتيق في خطى وثيدة . ولحظة انتهى
الى غرفته ، أو كاد ، لمح في الرواق ، خلفه ، ابنة جوندريت
الكبرى التي كانت تتبعه . كانت هذه الفتاة بغیضة في نظره ؛ فهي

التي اخذت منه فرنكاته الحمة ، ولم تبقى ثمة فائدة ترجى من مطالبتها بها ، فعربة الاجرة ذات الدولابين لم تعد هناك ، والعربة العمومية اُمت بعيدة جداً . والى هذا ، فقد كان خليقاً بها أن لا تُرجعها اليه . أما سؤالها عن عنوان الزائرين اللذين وفدا عليهم منذ برهة وجيزة ، فلم يكن ذا غناء . كان واضحاً انها لا تعرفه ، لان الرسالة المذيلة بتوقيع قابانتو كانت موجهة الى « سيدي اظيڤو ، رجل كنيسة سان جاك دو هوا با » .

ودخل ماريوس غرفته ، ودفع بابها من خلفه . ولم ينغلق . واستدار ، فرأى يداً كانت 'تقبى' الباب منفتحاً على نحو جزئي .

وسأل :

- « ما هذا ؟ من هناك ؟ »

كانت ابنة جوندرت .

وقال ماريوس في خشونة ، تقريباً :

« هذا انت ؟ انتِ دائماً ؟ ماذا تريدين مني ؟ »

لقد بدت مستغرقة في التفكير ، ولم تنظر اليه . كانت قد فقدت الثقة التي تكشفت عنها ذلك الصباح . ولم تدخل غرفته ، بل وقفت في الرواق للقيام ، حيث لمحها ماريوس من خلال الباب نصف المفتوح .

وقال ماريوس :

- « هاي ، أنت ، ألا تجيبين ؟ اي شيء تريدينه مني ؟ »

ورفعت عينيها الفاجعتين ، حيث بدا وكأن ضرباً من الضياء كان يتوهج على نحو مبهم ، وقالت له :

-- « مسيو ماريوس ، أنت تبدو حزيناً . فهل تشكو شيئاً ؟ »

فقال ماريوس :

- « انا ؟ »
 - « نعم ، أنت . »
 - « انا لا اشكو شيئاً . »
 - « بلى ! »
 - « لا . »
 - « اقول لك بلى . »
 - « دعيني وشأني . »
- ودفع ماريوس الباب ، ككرة اخرى ، ولكنها ظلت متشبثةً به .
وقالت :

- « قف ، أنت على خطأ . فعلى الرغم من انك قد لا تكون غنياً ، فقد كنت خبيراً هذا الصباح . كن هكذا الآن . لقد أعطيتني شيئاً آكل به ، فقل لي الآن ما بك . أنت محزون ، هذا واضح . أنا لا اريد ان اراك محزوناً . ما الذي يجب ان يُعمل من اجل هذا ؟ هل أستطيع ان اقدم اليك خدمة ما ؟ إستخدمني . أنا لن أسألك عن امرارك ، فلست في حاجة الى ان تبوح بها اليّ ، ولكنني قد اكون مع ذلك ذات فائدة . في استطاعتي من غير شك ، أن أساعدك ، ما دمتُ أساعد ابي . فحين يحتاج الى من يحمل الرسائل ، ويذهب الى البيوت ، ويسأل من بيت الى بيت ، ويبحث عن عنوات ، ويلحق بشخص ما ، أقوم أنا بهذه المهام . والان ، في استطاعتك من غير شك أن تقول لي ما بك . سوف اذهب واتحدث مع الناس . إنَّ التحدث الى الناس في بعض الاحيان كافٍ لان يفهم المرء الاشياء ، وعندئذ تسوى الامور . استفد مني . »

وخطرت لماريوس فكرة . وهل يزدري المرء قضياً حين يستشعر انه على وشك العرق ؟

وتقدّم نحو الفتاة ، وقال لها بضمير المفرد :

- « اسمي ! »
فقاطعته وفي عينيها وميض ابتهاج :
- « اوه ! اجل ! خاطبني بضمير المفرد ! انا احبّ هذا اكثر . »
فأردف قائلاً :
- « حسن . لقد قدّمتِ ذلك الرجل وابنته الى هنا ... »
— « نعم . »
— « اتعرفين عنوانها ؟ »
— « لا . »
— « ابجتي لي عنه . »
كانت عينا الفتاة الفاجعتان قد امتنا بهجعتين . ولكن الكآبة ما لبثت ان وابت عليها .
- وسأله :
- « اهذا هو الشيء الذي تريد ؟ »
— « نعم . »
— « هل تعرفها ؟ »
— « لا . »
فقالت في قوة :
- « يعني انك لا تعرفها ، ولكنك تريد ان تعرفها . »
وكانت « هما » هذه التي اصبحت « ها » ، تتطوي على مغزى ومرارة لا سبيل الى وصفها .
- وقال ماريوس :
- « حسن . هل تستطيعين ان تقومي بذلك ؟ »
— « تريد عنوان الانسة الجميلة ؟ »
وكان في هاتين الكلمتين ايضاً ، « الانسة الجميلة » ، معنى اقلق ماريوس .
واستأنف كلامه :

- « على كل حال ، لا فرق ! عنوان الاب والبنت . عنوانهما .
اجل ! »

وصوتت بصرها اليه على نحو موصول .

- « واي شيء سوف تعطيني ؟ »

- « كل ما تطلبين . »

- « كل ما اطلب ؟ »

- « اجل . »

- « سوف آتيك بالعنوان . »

ونخفضت رأسها ، ثم اغلقت الباب في حركة مفاجئة .

ووجد ماريوس نفسه وحيداً .

وارتمى في كرمي ، مسنداً رأسه ومرفقيه الى السرير ، مستغرقاً في افكار لم يكن قادراً على فهمها ، وكانها هو فريسة دوار . كان كل ما جرى منذ الصباح ، وظهور الملاك ، وغييبته ، وما قالته له اللمحة هذه المخلوقة ، وشعاع الأمل الطافي وسط اوقيانوس من اليأس - كان ذلك هو ما يُفعم دماغه على نحو مشوش .

وفجأة انتزع من تفكيره الخالم انتزاعاً عنيفاً .

لقد سمع صوت جوندرين المرتفع القاسي وهو يلفظ هذه الكلمات الخافتة بأغرب ما اثار اهتمامه :

- « اقول لك اني واثق من ذلك ، واني قد عرفته ! »

عن كان جوندرين يتحدث ؟ لقد عرف من ؟ مسيو لوبلان ؟ والذ
« أورشوله ، ؟ ماذا ؟ هل عرفه جوندرين ؟ أكان ماريوس على وشك
ان يفوز ، على هذه الطريقة المفاجئة غير المتوقعة ، بكل المعلومات
التي كان جهله بها قد جعل حياته قائمة في عينيه ؟ أكان على وشك ان
يعرف ، آخر الأمر ، من أحب ؟ من كانت هذه الفتاة الشابة ؟ من
كان أبوها ؟ أكانت الظلمة الكثيفة التي حجبتها عنها في سبيلها الى الانجلاء ؟

اكان اللثام في طريقه الى التمزق ؟ آه ! يا للسماه !
ووثب ، ولا نقول ارتقى ، الى الخزانة ذات الادراج ، واستعاد
موقفه قرب كوة الجدار الصغيرة .
واطلع على ما كان يجري في وكر جوندريت ، كرة اخرى .

١٢

كيف استعملت فرنكات

مسيو لوبلان الخمسة

لم يكن قد تغير شيء في مظهر الأسرة ، لولا ان الزوجة والفتاتين
كنن قد فتمن الصرّة وارندين الجوارب والصدرات الصوفية . كانت بطانيتان
جديدتان قد طرحتا على السريرين .

كان جوندريت قد رجع الى غرفته ، من غير شك . وكان لا
يزال يلهث . وكانت ابنتاه جالستين على الارض قرب الموقد ، وقد
انصرفت كبراهما الى تضييد يد الصغرى . وكانت زوجته مستلقية ،
وكانها منهوكة القوى ، على الحشية المجاورة للموقد ، وقد رانت على
حياها سياء مشدوهة . أما جوندريت فكان يذرع العلية جيئة وذهاباً ،
ونجطي واسعة . كانت نظراته خارقة للعادة .

وغامرت المرأة - التي بدت جبانة مذعورة أمام زوجها - فقالت له :

- « ماذا ، حقاً ؟ اواثق انت ؟ »

- « واثق ! لقد انقضت ثمانية أعوام ! ولكني عرفته ! آه ! لقد
عرفته ! لقد عرفته في الحال ! ماذا ؟ ألم يتضح ذلك في عينيك ؟ »

- « لا . »

- « مع اني قلت لك انتبهى جيداً ! ولكن القامة هي القامة ،
والوجه هو الوجه ، لم يكبر إلا قليلاً . إن ثمة رجالاً لا يرمون ؛
وأنا لا أدري كيف يفعلون ذلك ؛ و«جرس» صوته كذلك لم يتغير .
إنه أحسن بزةً من ذي قبل ، هذا كل ما هنالك ! آه ! ايها الشيطان
القامض العجوز ، لقد أمسكت بك ، لقد أمسكت بك ! »

وكبح جماح نفسه ، وقال لبنتيه :

- « واننا ايضاً ! أخرجنا من هنا ! من العجيب انه لم يتضح

لناظريكما . »

ونفضنا تنفيذاً لرغبته .

وقمتت الأم :

- « ويدها ما تزال تؤلمها ؟ »

فقال جوندرت :

- « الهواء سوف يفيدها . أخرجنا . »

كان واضحاً ان هذا الرجل كان من اولئك الرجال الذين لا رادّ

لمشيئتهم . وخرجت الفتاتان .

وفيا هما تجتازان الباب ، أمسك الأب بذراع البنت الكبرى وقال

في نبرة فريدة :

- « يجب ان تكونا هنا في الساعة الخامسة تماماً . انتِ وهي .

سوف أحتاج اليكما . »

وضاعف ماريوس انتباهه .

حتى اذا خلا جوندرت الى امرأته شرع يذرع الغرفة من جديد ،

فتمّ له ذلك مرتين او ثلاث مرات في صمت . ثم قضى بضع دقائق في

إقحام الجزء الأذنى من القميص النسائي الذي كان يرتديه ، في الجزء

الأعلى من بنطلونه .

وفجأة التفت الى المرأة ، وطوى ذراعيه هاتفاً :

- « وهل تريدان ان اخبرك شيئاً ؟ ان الآنسة ... »
فقالَت المرأة :

- « ثمّ ماذا ؟ الآنسة ؟ »

ولم يعد في ميسور ماريوس ان يشك ؛ فعنها هي كانت جوندريت
وزوجته يتحدّثان . وأصغى في قلقٍ محتم . كانت حياته كلها متركزة
في أذنيه .

ولكن جوندريت انحنى ، وأسرّ في اذن زوجته حديثاً . ثم
انتصب واكمل كلامه في صوت مرتفع :

- « انها هي ! »

فقالَت الزوجة :

- « تلك الفتاة ؟ »

فقال الزوج :

- « تلك الفتاة ! »

ان اياما كلام لم يكن قادراً على حمل ما انطوى عليه قول الأم « تلك
الفتاة ؟ » من معانٍ . كان في تبنك الكلمتين دهش ، وغيظ ،
وبغض ، وغضب بمترجّة ومتحدّة بنبرة صوت فظيمة . ذلك ان الكلمات
القليلة التي همس بها زوجها في اذنها ، وهي امم شخص ما من غير
سك ، كانت كافية لايقاظ هذه المرأة الضخمة الناعسة والى تحويل تقزّزها
الى هول .

وصاحت :

- « مستحيل ! حين افكر ان بنتي تمشيان حافيتين وليس لدهما
ثوب تلبسه ! كيف ! رداء حريري مبطن بالفرو ، وقبعة مخملية ،
وحذاء عالٍ ذو رباط ، وكل شيء . ملابس تساوي اكثر من منتي
فرنك ! ان المرء ليحسبها سيّدة ! لا ؛ انت محطّيء ! ولكن ، قبل
كل شيء ، كانت تلك رهيبية ، أما هذه فليست رديئة ! انها ليست

ردية حقاً ! مستحيل ان تكون ابها ! ،

- « اقول لك انها هي . سوف ترين . »

وعند هذا التوكيد الجازم ، رفعت المرأة رأسها الضخم الأحمر
الاشقر ، ونظرت الى السقف وعلى عيها انطباعة مروعة . وفي تلك
اللحظة بدت في عيني ماريوس اشدة فظاعة من زوجها . كانت خنزيرة
لها نظرات بمرّة .

واستأنفت كلامها :

- « ماذا ؟ هذه الآنة الجميلة الرهيبة التي نظرت الى بنتي وقد
غلبت عليها الشفقة ، ايكن ان تكون تلك الشحاذة ! أوه ، كم أتمنى
لو أدوس قلبها بعقب حذاء خشبي ! »

ووثبت من السرير ، وظلت واقفة لحظة ، منفوشة الشعر ، منتفخة
المنخرين ، فاغرة الفم ، متشنجة الاصابع مردودة الى وراه . ثم إنها
خرت على الفراش . وظلّ الرجل يروح ويجيء غير ملقٍ بالأى الى أنثاه .
وبعد بضع لحظات من الصمت ، اقترب من زوجته ، ووقف
أمامها ، طاوياً ذراعيه شأنه من قبل .

- « وهل تريدان أن اقول لك شيئاً آخر ؟ »

فسأته :

- « ماذا ؟ »

فأجابها في صوت سريع منخفض :

- « لقد تكوّنت ثروتي . »

وحذقت اليه المرأة بتلك النظرة التي تعني : هل أصيب الرجل الذي
يتحدث اليّ بمسّ من الجنون ؟

وتابع :

- « يا للصاعقة ! لقد انقضت فترة طويلة على انتسابي الى « ابوشية
'مت' من الجوع اذا كان عندك نار ، و'مت' من البرد اذا كان عندك

خبز ، ! لقد شبتُ بؤساً ! وأنا احمل نيري ونيرَ الآخرين ! إني لا
أزرح بعد اليوم ، إني لا أجد ذلك مضحكاً بعد اليوم ! حسي 'نكتاً'
لفظية جناسية ، ايها الرب الرحيم ! لا تمثيل هزلياً من الآن فصاعداً ،
ايها الاب الازلي ! اني اريد طعاماً اسدّ به جوعي ، وشراباً أطفئ
به ظمأي ! اريد أن ألتهم ! أن اتام ! ان لا أفعل شيئاً ! أريد ان
يجيء دوري ، أجل ان يجيء دوري ، قبل أن انفجر ! اريد أن
أكون جزءاً من مليونير ! »

وذرع العلية من اقصاها الى اقصاها وأضاف :

- « مثل غيري من الناس . »

وسأته المرأة :

- « ماذا تعني ؟ »

فهزّ رأسه ، وغمز بعينه ، ورفع صوته مثل عالم طبيعي من علماء
مفارق الطرق على وشك ان يعرض براعته .

- « ماذا أعني ؟ اسمعي ! »

فتمتت المرأة :

- « هسنت ! لا تتكلم بصوت هال الى هذا الحد ، اذا كان

الحديث متصلاً بأشياء لا ينبغي لأحد ان يسمعا ! »

- « هه ! ومن هناك حتى يسمع ؟ جارنا ؟ لقد رأيتَه يغادر الغرفة

منذ لحظة . والى هذا ، فهل يسمع ذلك الأبله الكبير شيئاً ؟ ثم إنني

قلت لك اني رأيتَه يغادر الغرفة . »

ومع ذلك ، فقد خفض جوندريت صوته ، بضرب من الغريزة ، ولكن

من غير ان يحول ذلك دون سماع ماريوس للحديث . وبما ساعد ماريوس

على الاحاطة بذلك الحديث كله ، تقريباً ، ان الثلج المتساقط خنق ضجة

العربات المنطلقة على الجادة .

وهذا ما سمعه ماريوس :

- « أصفي جيداً . لقد وقع « قارون » ذاك ! هذا شيء حسن .
ولقد تمّ ذلك . إن كل شيء قد أُعِدَّ . لقد اجتمعتُ الى الرجال .
إنه سوف يجيء هذا المساء في الساعة السادسة . لكي يجمل الينا
فرنكاته الستين ، الوغد ! رأيت كيف تقيأتُ الستين فرنكاً ، وصاحب
البيت ، والرابع من شباط ! انا لم يستحق عليّ مجرد قسط واحد
بعد ! أكان ذلك عملاً احق ! إنه سوف يأتي ، اذن ، في الساعة
السادسة . انها الساعة التي يمضي فيها جارنا لتناول طعام العشاء . والأم
بورغون تغسل الاطباق في المدينة . ليس ثمة احدٌ في المنزل . وليس من
دأب جارنا ان يرجع قبل الحادية عشرة على الاطلاق . ان البنّين
سوف تقومان بالحراسة . وانتِ سوف تساعدينا . انه سوف يجري ما
نطلبه منه . »

فسألته زوجته :

- « واذا لم يجري ما نطلبه منه ؟ »

فأوما جوندريت إيماءة كالحقة ، وقال :

- « سوف نحكم عليه بالموت ! »

وانفجر ضاحكاً .

كانت تلك أول مرة رآه ماريوس يضحك . وكانت تلك الضحكة
باردةً واهنةً ، ولقد اوقعت الرعدة في اوصاله .

وفتح جوندريت خزانة مجاورة للوقد ، وأخرج منها قلنسوة عتيقة ،
فاعتمر بها بعد ان فرّسها ببردنه .

وقال :

- « والآن ، أنا ذاهب . هناك رجال آخرون ينبغي ان أراهم .

رجالٌ طيبون . سوف ترين كيف سيتمّ كل شيء . إني سأرجع

في اسرع وقت ممكن . هذه ورقة جميلة يجب ان تلعب ! انتهي الى

البيت . »

ووقف لحظةً يفكر ، مقعماً قبضته في جيبي بنظلولونه ، ثم هتف :
- « أتعلمين ان من حسن حظنا العظيم أنه لم يعرفني ؟ ولو انه
عرفني اذن لما رجع . كان خليقاً به ان يجتنبنا ! إن لحيتي
هي التي انقذتني ! لحيتي الرومانتيكية ! لحيتي الرومانتيكية الصغيرة
الجيلة ! »

وشرع يضحك من جديد .

ومضى الى النافذة . كان الثلج ما يزال يتساقط ، وكان قد محا
السما الرمادية .

وقال :

- « أي جوّ خنزيريّ ! »

ثم تسي سترته الطويلة واطاف :

- « هذا الثوب اوسع مما ينبغي . ولكن لا بأس . لقد احسن
على نحوٍ شيطانيّ في تركه لي - الوغد ! فلولا ما كنت قادراً
على مغادرة الفرقة ، وعندئذ يفسد الأمر كله ! عجيبٌ علام تتوقف
الاشياء ؟ »

وأنزل قلعوته فوق عينيه ، وخرج .

ولم يكد بخطوبضع خطوات في الرواق ، حتى 'فتح الباب من جديد ،
وأطلّ وجهه الأشقر الداهية من شقّه .

وقال :

« لقد نسيت . سرف تتعنين بفهم يدفئك . »

وقذف في مئزر امرأته قطعة الفرنكات الخمسة التي تركها له « المحسن » .
وتساءلت المرأة :

- « فحم ؟ »

- « نعم . »

- « كم كيساً ؟ »

- « كيسان مليشان . »

- « هذان يكلفان ثلاثين سو . وبالباقى ، سوف اشترى شيئاً للعشاء . »
- « لا ، بحقّ الشيطان ! »
- « لماذا ؟ »
- « إن قطعة المئة (سو) يجب ان لا تنفق . »
- « لماذا ؟ »
- « لأنّ ثمة شيئاً ينبغي ان اشتره . »
- « ما هو ؟ »
- « شيء ما . »
- « الى كم ستحتاج ؟ »
- « هل يوجد بائع الادوات النحاسية والحديدية ، على مقربة من هنا . »
- « في شارع موفتارد . »
- « آه ، نعم . عند زاوية احد الشوارع . إني ارى الدكان . »
- « ولكن قل لي ، الآن ، الى كم ستحتاج من اجل شراء ذلك الشيء ؟ »
- « الى خمسين سو او ثلاثة فرنكات . »
- « وعندئذ لن يبقى مقدار كافٍ للعشاء . »
- « ينبغي ان لا نتكلم اليوم في امر الطعام . إن عندنا عملاً أفضل . »
- « كفى ، يا جوهرتي ! »
- وعند هذه الكلمة التي نطقت بها زوجته ، اغلق جوندريت الباب من جديد ، وسمع ماريوس خطاه تتعد في رواق البيت العتيق ، وتهبط السلم في سرعة .
- وفي تلك الساعة ذاتها اعلنت ساعة « سان ميدار » الواحدة .

«وحيد مع نفسي في مكان قصي»
فانهم لم يجدوا حافظاً للصلاة يا أبانا!

كان ماريوس برغم نزعته الى الاستغراق في التأمل ذا طبيعة حازمة تتضح بالعزم . قد تكون عادة التأمل الموحد - التي طوّرت فيه الحنان والمشاركة الوجدانية - قد قلت من إمكان غضبه ، ولكنها تركت قدرته على السخط سليمة لم تُمس . كان له عطف برهمي ، وقسوة قاضية . كان يشفق على ضفدع الجبل ، ولكنه كان يسحق الاعمى . وها هو ذا الآن ينظر الى جعر أعمى حقاً . كان امام عينيه وكر من اوكار المُوَل .

وقال :

- « يجب ان أدوس بقدمي هؤلاء الادياء . »

إن اياً من الاحاجي التي رجا ان تُحلّ لم تكن قد انجلت ؛ على العكس ، فلعلّ كلّ شيء كان قد ازداد قتاماً . إنه لم يعرف شيئاً إضافياً عن فتاة اللوكسومبورغ الجميلة وعن الرجل الذي كان يدعوه مسيو لوبلان ، باستثناء ان جوندريت كان يعرفها . ومن خلال الكلمات التي تُنطق بها ، لم يرَ على نحو واضح غير شيء واحد ، هو ان كميناً كان يُهيّأ ، كميناً غامضاً ولكنه فظيع ؛ وان خطراً عظيماً كان يحيط بكلّ منها : بها هي في اغلب الظن ، وبه هو علر وجه التحقيق ؛ وان عليه ان يُحيط مكائد جوندريت الرهيبة ويقطع نسيج هذه العناكب .

ونظر لحظة الى جوندريت الانثى . كانت قد اُخرجت كانوناً حديدياً قديماً من احدى الزوايا ، وانشأت تقلّب ضرباً من الحوادث

العنيفة .

وترجل عن الحزانة ذات الادراج بأقصى ما يستطيع من الهدوء ،
محاذراً ان يحدث ضجةً ما .

وفي غمرة من ذعره بما كان يُبَيِّت والهَوَل الذي القاه جوندرت
وزوجته في فؤاده ، استشعر ضرباً من البهجة حين فكَّر انه قد بقيض
له ان يُسدي مثل تلك الخدمة الى الفتاة التي يحب .

ولكن ما الذي يتعين عليه أن يعمل ؟ أمجدّر الشخصين المهديين
بالخطر ؟ وأين يجدهما ؟ إنه ما كان يعرف عنوانها . كانا قد عاودا
الظهور لعينه لحظةً ، ثم غاصا من جديد في اعماق باريس التي لا يُسبر
غورها . أينظر مسيو لوبلان ، لدى الباب ، في الساعة السادسة مساءً ،
لحظةً وصوله ، ومجذره من الشرك ؟ ولكن جوندرت ورجاله سوف
يرونه يترصّد ؛ والمكان منزل ؛ ولسوف يكونون اقوى منه ؛
وخليقٌ بهم ان يلتسوا وسيلةً للقبض عليه او ازاحته من الطريق ،
وعندئذ يهلك ذلك الذي اراد ماريوس ان ينقذه . لقد دقت الساعة
الواحدة منذ لحظات ، والتدبير يقضي بتنفيذ المكيدة في السادسة . كانت
امام ماريوس خمس ساعات .

لم يكن ثمة غير شيء واحد يمكن ان يعمل .
وارتدى بذلته المقبولة ، وعقد حول عنقه رباطاً ، وتناول قبعته !
وخرج غير محدث من الضجة اكثر مما كان جديراً بأن يُجدّته منها لو سار
على الطحالب حافياً .

والى هذا ، فقد كانت جوندرت المرأة ما تزال تقلّب حدائدها
العنيفة باحثة عن شيء ما .

حتى اذا غادر البيت ، شخص الى شارع الـ و بيتي بانكويه .
وكان قد انتهى ، او كاد ، الى منتصف ذلك الشارع قريباً من
جدار منخفض جداً في ميسور المرء ان يتجاوزه بخطوة واحدة في

بعض المواطنين ، جداره يؤدي الى حقل مترامي الاطراف ، وكان يشي
وثيداً ، مستغرقاً في افكاره وقد خنق الثلج صدى خطواته عندما سمع ،
فجأة ، اصواتاً تتحدث على مقربة منه . والتفت . كان الشارع مقفراً
ليس فيه احد ، وكانت الشمس في كبد السماء ، ومع ذلك فقد سمع
بعض الاصوات ساعاً واضحاً .

وخطر له ان يطلّ من أعلى هذا الجدار الذي كان يجاذبه .
كان ثمة ، في الواقع ، رجلا ن جالسا على الثلج ، وقد وليا
الجدارَ ظهرهما ، وراحا يتجاذبان اطراف الحديث في صوت خفيض .
ولم يكن يعرف هذين الرجلين . كان احدهما ملتجئاً ، يرتدي سترة
فضفاضة ، وكان الآخر طويل الشعر ، يرتدي اسهالاً بالية . كان الرجل
الملتحي يعتمد بقلنسوة إغريقية ، وكان الآخر حاسر الرأس ، وكان على
شعره ثلج .

وحين خفض ماريوس رأسه من فوقها كان في ميسوره ان يسمع .

لقد وكز ذو الشعر الطويل صاحبه برفق يده ، وقال :

« اذا تولى المعلم مينيت المسألة فلن نتحقق ابدأ . »

فقال الرجل الملتحي :

« أعتقد ذلك ؟ »

فاستأنف ذو الشعر الطويل كلامه :

« سوف ينال كل منا ورقة ألف فرنك ذات خمسة صورة .

واسوأ ما سوف يصيبنا خمس سنوات ، ست سنوات ، عشر سنوات
على الاكثر . »

فأجاب الآخر متردداً ، مرتعداً تحت قلنسوته الاغريقية :

« اجل ، هذا شيء حقيقي . نحن لا نستطيع ان نسير في اتجاه

معاكس لمثل هذه الاشياء . »

فقال ذو الشعر الطويل :

- « اقول لك ان المسألة لن تحقّق . إن « عربية » الأب فلان
سوف تُقرن بالدوابّ . »

ثمّ بدءا يتحدثان عن مأساة شعبية كانا قد شهداها الليلة البارحة ، في
مسرح « لا غيتيه » .

ومضى ماريوس لسبيله .

لقد بدا له ان الكلمات الغامضة التي فاه بها هذان الرجلان ،
المختبئان على ذلك النحو البالغ الغرابة خلف هذا الجدار والجالسان
القرفصاء في الثلج ، لا يبعد ان تكون ذات صلة ما بمشروعات
جوندريت الرهيبة . تلك من غير ريب كانت « المسألة » .

وتقدّم نحو ضاحية « سان مارسو » ، وسأل صاحب اول دكان التقاء
عن مركز للشرطة قريب .

وستوا له شارع بونتواز والرقم ١٤ .

وشخص ماريوس الى هناك .

واذ اجتاز بأحد الحبازين اشترى رغيفاً بفلسين وأكله ، بعد ان
تبدّى له انه لن يصيب عشاء ما تلك الليلة .

وفي طريقه الى مركز الشرطة رفع الى العناية الالهية حقهما من
الحد . لقد تخيّل أنه لو لم يعطِ فرنكاته الحمة الى جوندريت الفتاة
في الصباح ، اذن للعق بعربة مسيو لوبلان ، واذن للجهل من ثمّ كلّ
شيء ، وهكذا تمّ مكيدة جوندريت من غير ان يعترضها شيء ، ويهلك
مسيو لوبلان ، وتهلك ابنته معه من غير شك .

وفيه يقدم شرطي

الى احد المحامين مسدسين فولاذيين

حتى اذا انتهى الى رقم ١٤ شارع بوتواز ، رقي السلم وسأل عن مفوض الشرطة ،

فقال أحد الخدم :

- « إن مفوض الشرطة ليس هنا ، ولكن ثمة مفتشاً يقوم مقامه .
أحبب ان تتحدث اليه ؟ هل المسألة ملحة ؟ »

فقال ماريوس :

- « نعم . »

وقاده الخادم الى مكتب المفوض . كان رجلٌ فارغ الطول واقفاً هناك ، خلف حاجز مشبك ، أمام الموقد ، مشتمراً عن يديه معطفاً ضخماً مثلث التلايب . كان ذا وجه مربع ، وغمٍ رقيق حازم ، وعارضين ضارين ، أثيين ، وخطهما الشيب ، وعين خليقٍ بها ان تجعل جيوبك باطنها ظاهرها . كان في ميورك ان تقول عن هذه العين إنها تبعثر وتبحث ، لا إنها تنفذ الى الاشياء وحسب .

ولم يكن 'مظهر هذا الرجل اقل' ضراوة بكثير او اقل' هولاً بكثير ، من مظهر جوندريت . إن مواجهة الكلب ليست دون مواجهة الذئب إزعاجاً .

وقال لماريوس من غير ان 'يتبع كلامه بلفظة « سيدي » :

- « ماذا تريد ؟ »

- « السيد مفوض الشرطة ؟ »

- « إنه غائب . أنا أقوم مقامه . »

- « انها مسألة سرية جداً . »
- « تكلم ، اذن . »
- « وملحة جداً . »
- « اذن ، تكلم في سرعة . »

كان هذا الرجل ، الهادىء الغليظ ، مروءعاً ومطمئنناً في آنٍ معاً . كان يوحى بالخوف وبالثقة . وروى ماريوس القصة : - أن شخصاً لم يكن يعرفه الا بالرؤية سوف يباق ، ذلك المساء نفسه ، الى كمين أعد له ؛ وانه ، هو ماريوس بونيرمي ، المحامي ، الساكن في غرفة مجاورة لمغارة اللصوص تلك ، كان قد سمع المكيدة كلها من خلال الجدار ؛ وان الوغد الذي نصب ذلك الشرك كان يدعى جوندرت ؛ وانه كان ذا شركاء في الجريمة ، لعلمهم من « الحائنين ليلاً حول ابواب المدينة » ، وفيهم رجل اسمه بانشو ، المعروف بـ « برينتانبيه » و بـ « بيغروناي » ؛ وان ابنة جوندرت سوف تراقب المكان ؛ وانه ليس ثمة وسيلة الى انذار الرجل المهتد إذ لم يكن ليُعرف عنه شيئاً حتى اسمه ؛ واخيراً ان هذا كله سوف يتم في الساعة السادسة من ذلك المساء ، في الجزء الأشد انعزالاً من « جادة المتشفى » ، في البيت الذي يحمل الرقم ٥٠ - ٥٢ .

ولم يكدمفتش الشرطة يسمع هذا الرقم ، حتى رفع رأسه وقال في برود :

- « اذن فسيتم ذلك في الغرفة التي في اقصى الرواق ؟ »
- فقال ماريوس :
- « تماماً . »
- ثم اضاف :

- « هل تعرف ذلك البيت ؟ »

فاعتصم المفتش بالصمت لحظةً ، ثم اجاب وهو يذفيء عقب قدمه

عند باب الموقد :

- « في ما يبدو . »

وتابع ، من بين اسنانه ، متحدثاً الى رباط عنقه اكثر منه متحدثاً الى ماريوس :

- « ينبغي ان يكون ثمة شيء من « المعلم مينيت » في ذلك المكان . »

واذهلت هذه الكلمة ماريوس .

وقال :

- « المعلم مينيت . الحقّ اني سمعتُ من يلفظ هذه الكلمة . »
وروى للمفتش الحوار الذي دار بين الرجل ذي الشعر الطويل
والرجل ذي اللحية ، وسط الثلج ، وراء جدار شارع الـ « بيتي
بانكويه » .

وغنم المفتش :

- « ان صاحب الشعر الطويل هو بروجون ، من غير شك ، وان
صاحب اللحية هو دومي ليار المعروف بـ « دو ميار » من غير
شك ايضاً . »

كان قد خفض بصره ، من جديد ، وانشأ يفكر .

- « اما الأب فلان فعندي ريب في حقيقته . لقد احترقتُ معظفي
هناك . انهم يضرمون كثيراً من النار في تلك المواقد اللعينة . رقم
٥٠ - ٥٢ ؛ ملك غوربو العتيق . »

ثم نظر الى ماريوس :

- « ألم ترَ غير هذا الرجل الملتحي وذلك الرجل الطويل الشعر ؟ »
- « رأيت بانشو ايضاً . »

- « ألم ترَ ضرباً من الشابّ المفرط في الافاقة بحوم منلصّصاً
هناك ؟ »

- « لا . »

- « وهل رأيت كومةً كبيرةً ضخمةً غليظةً مثل الفيل في حديقة النبات ؟ »

- « لا . »

- « حسن . ألم ترَ ايضاً رجلاً خبيثاً يبدو وكأنه مهرج تنتهي لمتته المستعارة بذيل معصوب بشريطة حمراء ؟ »

- « لا . »

- « أما الرابع ، فانّ أحداً لا يراه ، حتى أعوانه ومستخدموه ، وعلاؤه انفسهم . فليس غريباً ان لا تقع عليه عينك .. »
فتساءل ماريوس :

- « لا . ولكن ما هي هذه المخلوقات كلها ؟ »
فأجابه المفتش :

- « ومن جهة اخرى ، فليست هذه الساعة ساعتهم . واستغرق في صمته ، كرة ثانية ، ثم اردف :

- « رقم ٥٠ - ٥٢ . أنا أعرف الكوخ . من المستحيل ان نختبئ في الداخل من غير ان يلمحنا الفنانون ، وعندئذ يغادرون المكان ويُبلغون المسرحية . إنهم حيتون الى هذا الحد ! إن الجمهور يُوبكهم . أنا لا أريد شيئاً من هذا ؛ انا لا أريد شيئاً من هذا . إنني اريد ان أسمعهم يغنون ، وأن اجعلهم يرقصون . »

حتى اذا انتهى هذا الحوار ، التفت الى ماريوس وسألهُ ناظراً اليه نظراً موصولاً :

- « هل ستخاف ؟ »

فقال ماريوس :

- « ممّ ؟ »

- « من هؤلاء الرجال ؟ »

فأجاب ماريوس :

« انا لن اخاف اكثر بما ستخاف أنت ! »
وإنما قال ذلك في قسوة ، وكان قد بدأ يلاحظ ان جاسوس الشرطة
هذا لم يوجهه اليه حتى الان لفظه « سيدي » .
وحدّق المفتش الى ماريوس تحديقاً أشدّ ، وتابع كلامه في مهابة
مُحكّمة :

« انت تتكلم الآن مثل رجل شجاع ، ومثل رجل تزيه . إن
الشجاعة لا تخشى الجريمة ، وان النزاهة لا تخاف السلطان . »
وقاطعه ماريوس قائلاً :

« هذا حسن جداً ، ولكن ما الذي سوف تعمله ؟ »
فاكتفى المفتش بمجرد القول :

« إن سكان ذلك البيت يملكون مفاتيح صومية تمكّتهم من دخوله
ليلاً . ولا ريب في ان عندك مفتاحاً من هذا النوع . »
فقال ماريوس :

« نعم . »

« أهو معك الان ؟ »

« نعم . »

فقال المفتش :

« أعطني اياه . »

وأخرج ماريوس مفتاحه من جيب صدرته ، وقدمه الى المفتش ،
مضيفاً :

« اذا كنت تثق بي ذهبت الى هناك باكمل السلاح . »

والقى المفتش على ماريوس نظرةً كمثل تلك النظرة التي يجدر بفولتير ان
يلقيها على عضو ريفي من اعضاء الاكاديمية الفرنسية اقترح عليه قافية من
القوافي . وفي حركة واحدة ، أقجم يديه الاثنتين - وكانتا هائلتين -
في جيب معطفه الواسعين الى حد بعيد ، وأخرج مسدسين فولاذيين

صغيرين من النوع المعروف باللكمة . ثم إنه قدّمهما الى ماريوس وقال في سرعة وفي إيجاز :

- « خذ هذين . إرجع الى المنزل . إختبي في غرفتك . دعهم يعتقدون انك قد خرجت . إنهما مشحونان . في كل منها رصاصتان . راقبهم جيداً . هناك ثغرة في الجدار ، كما قلت لي . إن الرجال سوف يُقبلون . دعهم يتقدمون قليلاً . وحين تقدر ان المسألة بلغت حد الخطورة ، وأن الوقت قد حان لتعطيلها ، أطلق رصاصاً . لا تتعجل كثيراً . أما البقية فعلياً . طلقة مسدس في الهواء ، نحو السقف ، في ايما جهة . ولكنني اوصيك قبل كل شيء بأن لا تتعجل . إنتظر حتى يشرعوا في الأجراء . أنت محام . وانك لتعرف معنى هذا . »

واخذ ماريوس المسدسين الصغيرين ووضعهما في جيب سترته الجانبي . فقال المفتش :

- « إنهما مُجدثان حَدَبَةٌ ، على هذا الشكل . إنهما بيدوان للعيان . ضعها في جيبي صدرتك . »

وخبأ ماريوس المسدسين الصغيرين في جيبي صدرته . واضاف المفتش :

- « والآن ، لم يعد ثمة دقيقة واحدة يمكن ان تُضَيِّع . كم الساعة ؟ الساعة الثانية والنصف . الموعد الساعة السابعة ؟ »

فقال ماريوس :

- « الساعة السادسة . »

وتابع المفتش :

- « عندي وقت كافٍ ، ولكن ليس عندي غير الكفاية . حذار ان تنسى شيئاً مما قلته لك . بئس ! طلقة مسدس . »

فأجابه ماريوس :

- « كن مطمئناً . »

وفيا كان ماريوس يضع يده على مزلاج الباب ابتغاء الخروج ، صاح به المغتش :

- « بالناسبة ، اذا احتجت اليّ بين فينة وفينة فتعال او أرسل احدآ الى هنا . وعندئذ اسأل عن المغتش جافير . »

١٥

جوندريت يتبضع

وبعد بضع لحظات ، حوالى الساعة الثالثة ، اتفق ان اجتاز كورفيراك بشارع موفتارد يصحبه بوسويه . كان الثلج قد تضايف وملاً الارحاء . وكان بوسويه على وشك ان يقول لكورفيراك :

- « إن رؤية رقاقت الثلج هذه كلها تسقط ، لتخيل' الى المرء ان ثمة أسراباً من الفراشات البيض في السماء . »

وفجأة وقعت عين بوسويه على ماريوس ، الذي كان يصعد في الشارع نحو باب المدينة ، وقد طفت على وجهه سماء غريبة .
وصاح بوسويه :

- « انظر ! ماريوس ! »

فقال كورفيراك :

- « لقد رأيتك . لا تكلمه . »

- « لماذا ؟ »

- « إنه مشغول . »

- « بماذا ؟ »

- « الا ترى كيف يبدو ؟ »

- « كيف ؟ »

- « إنه يبدو وكأنه يتبع شخصاً ما . »
فقال بوسويه :

- « هذا صحيح . »
واضاف كورفيراك :

- « وانظر ايّ نظراتٍ غرامية يرسلها ! »
- « ولكن ، يا للشيطان ، ايّ شيء يتبع ؟ »
- « إنها قبعة حبيبة ، ريفية ، منمقة ! إنه عاشق . »
ولاحظ بوسويه :

- « ولكنني لا أرى اية قبعة حبيبة ، أو ريفية ، أو منمقة ، في الشارع . ليس ثمة امرأة . »
فنظر كورفيراك وهتف :
- « إنه يتبع رجلاً ! »

وفي الحق أن رجلاً يعتبر بقبعة - رجلاً استطاعا أن يتبيننا لحيتيه
البيضاء على الرغم من أنه لم يكن يبدو منه غير ظهره - كان يسير على
مسافة عشرين خطوة ، تقريباً ، أمام ماريوس .
وكان ذلك الرجل يرتدي سترة طويلة جديدة ، فضفاضة جداً ، وبنطلوناً
رهيباً ممزقاً سوده الوحل .

وانفجر بوسويه ضاحكاً :
- « من هذا الرجل ؟ »
فاجاب كورفيراك :

- « هذا ؟ هذا شاعر . الشعراء مولعون بارتداء بنطلون تاجر من
تجار جلد الارنب ، وسترة طويلة من سترات عضو في مجلس الاعيان
الفرنسي . »

فقال بوسويه :

- « دعنا نرى الى اين يذهب ماريوس . دعنا نرى الى اين يذهب

هذا الرجل . فلتتبعهما ، هيه ؟

فصاح كورفيواك :

« بوسوويه ! إيغل دو مو ! أنت معتوه مدهش . انتبع رجلاً

يتبع رجلاً ! »

وتابعا طريقهما .

كان ماريوس قد رأى جوندرت ، حقاً ، يجتاز بشارع موفتارد ،

وكان يراقبه .

ومضى جوندرت ليليه من غير أن يرتاب في أن عيناً كانت

مركزة عليه .

وترك شارع موفتارد ، ورآه ماريوس يدخل الى احد المواطنين الاشد

إرعاباً في شارع غراسيوز . ولبت هناك نحواً من ربع ساعة ، ثم

انقلب الى شارع موفتارد . ووقف ليدخل دكاناً للادوات الحديدية

والنحاسية وغيرها كانت قائمة في تلك الايام عند زاوية شارع بيير لومبار ؛

وبعد بضع دقائق رآه ماريوس يغادر الدكان وفي يده أزميل ضخيم للعديد

البارد ذو مقبض خشبي ابيض ما لبث ان خبأه تحت ستوته الطويلة .

وعند الطرف الأعلى من شارع الـ « بيتي جانتيني » انعطف الى اليسار

ومشى مسرعاً الى شارع الـ « بيتي بانكييه » . كان الليل يهبط ،

وكان الثلج الذي كف عن السقوط لحظةً قد شرع يسقط كرة اخرى .

وكن ماريوس عند زاوية شارع الـ « بيتي بانكييه » تماماً ، تلك الزاوية

التي كانت مقفرة كشأنها دائماً ، ولم يتبع جوندرت الى أبعد من

ذلك . وكان هذا من حسن الطالع ، اذ لم يكده جوندرت يصل الى

الجدار المنخفض - حيث سبق لماريوس ان سمع الرجل ذا الشعر الطويل

والرجل ذا اللحية يتحدقان - حتى استدار ، واستيقن أن احداً لم يتبعه

ولم يره ، ثم جاوز الجدار بخطوة واسعة ، واختفى .

وكانت الارض الواسعة التي يحيط بها ذلك الجدار تتصل بالفناء الخلفي

لمؤجر عربات سابقٍ ذي شهرة رديئة ، مؤجر كان قد أفلس ، ولا تزال
تحت سقائه بضع عربات عتيقة .

وبدا لما ربوس ان من الخير أن يفيد من غيبة جونديت فينطلق الى
البيت . والى هذا ، فقد كانت العتمة تشتد ؛ فكلّ مساء ، كان من
دأب « مام بوغون » لدنّ خروجها لغسل الاطباق في المدينة ان
توصد باب البيت ، فهو مغلق دائماً عند الزوال . وكان ماربوس قد
أعطى مفتاحه الى مفتش الشرطة . واذن فقد كان من الضروريّ ان
يسرع .

كان المساء قد اقبل ، وكان الليل قد أطبق على الكون أو كاد .
ولم يبقَ في الأفق أو في السماء كلها غير نقطة واحدة مضاءة بالشمس ؛
وكانت تلك النقطة هي القمر .

كانت ترتفع حمراء خلف قبة « لا سالييتير » المنخفضة .

ورجع ماربوس الى رقم ٥٠ - ٥٢ في خطى واسعة . كان الباب
لا يزال مفتوحاً حين وصل الى البيت . وارتقى السلم على رؤوس
اصابعه وتسلل في محاذة جدار الرواق حتى غرفته . وكان هذا
الرواق ، كما نذكر ، مطوّقاً من جانبيه بالعلالي التي كانت شاغرة
كلّها ، آنذاك ، ومعدّة للتأجير . وكان من عادة « مام بوغون »
أن تترك الابواب مفتوحة . وفيما كان ماربوس يمرّ باحد هذه الابواب
خالاً انه لمح في الحُجيرة الفارغة اربعة رؤوس لا تبدي حراكاً ،
رؤوس لم تكن لتبدو على نحو باهت إلا بفضل بقية من ضوء النهار
كانت تمرّ من خلال النافذة الصغيرة . واذ كان ماربوس راغباً في ان لا
يراه أحد ، فإنه لم يحاول أن يرى . ووفّق الى دخول غرفته من غير
ان يلمحه أحد ، ومن غير أن يحدث ضجةٌ ما . كان الوقت قد حان .
وبعد لحظة سمع « مام بوغون » تخرج ، وتغلق باب البيت .

وفيه سنجد من جديد تلك الاغنية
ذات اللحن الانكليزي دارجة عام ١٨٣٢

وجلس ماريوس على سريره . لعل الساعة كانت الخامسة والنصف .
إن ثلاثين دقيقة ليس غير فصله عما سوف يحدث . وسمع شرايينه تنبض
كما يسمع المرء تهكتكة الساعة في الظلام . وفكر في ذلك الزحف
المزدوج الذي كان يجري في تلك اللحظة وسط الدجّة : الجريمة تتقدم
من ناحية ، والعدالة تتقدم من ناحية . ولم يعتره الخوف ، ولكنه لم
يستطع ان يفكر ، من غير ان تأخذه شبه رعدة ، في الاشياء التي
توشك ان تقع . لقد بدا له ، شأن جميع اولئك الذين يُلمّ بهم حادث
مفاجيء مذهل ، ان ذلك النهار كله لم يكن إلا حلماً . ولكي لا يقع
في نفسه أنه فريسة كابوس من الكوابيس ، فعين عليه ان يستشعر برودة
المسدسين الفولاذيين الصغيرين في جيبي صدره .

كان الثلج قد كف عن السقوط . وكان القمر ، وقد تعاضم
إشراقه ، ينجو بنفسه من الضباب . وامتزج ضياؤه بالاشعة البيضاء المنعكسة
عن الثلج المتراكم ، فخلع على الغرفة مظهراً غسقياً .
كان في وكر جوندريت ضوء . ورأى ماريوس الى ثغرة الجدار
تلتع بنور أحمر بدا في عينيه مضرجاً بالدماء .

وكان على مثل اليقين من ان هذا الضوء لا يمكن أن يكون منبعثاً
من شمع ما . وعلى اية حال ، فلم تكن في غرفة جوندريت وأسرتة
أيما حركة . إن احداً لم يكن يتحرك هناك ، وإن احداً لم يكن
يتكلم . لم يكن ثمة نفس . كانت السكينة مثلوجة وعميقة .
ولولا ذلك الضوء اذن لكان خليقاً به أن يعتقد أنه في جوار قبر .

ونزع ماريوس نعليه ، في رفق ، ودفعهما تحت سريره .
وانقضت بضع دقائق . وسمع ماريوس الباب الادنى يدور على
رذاته . وارتقت السلم خطىً ثقيلةً مريعةً ، واجتازت الرواق ؛
ورُفع مزلاج الرواق في صخب . كان جوندريت هو الذي دخل .
وفجأةً ، ارتفعت اصوات عديدة . كانت الاسرة كلها في العلية . بيد
أنها لُزمت الصمت في غيبة رب البيت فعلم الذؤيبات في غيبة
الذئب .

وقال :

- « هذا أنا . »

وعوّت الفتاتان :

- « ماء الخير ، يا أبانا الرائع ! »

فقال الأم :

- « والآن ؟ »

فأجاب جوندريت :

- « كل شيء يسير على نحو ساحر . ولكن قدمي باردتان مثل قدمي

كلب - حسن ، هذا هو المطلوب . لقد لبستا . يجب ان تكونا قادرتين

على إيجاء الثقة . »

- « نحن مستعدتان للخروج . »

- « حذار ان تنسيا شيئاً مما قلته لكما ! سوف تعملان كل شيء

على احسن وجه ، اليس كذلك ؟ »

- « كن مطمئناً . »

فقال جوندريت :

- « لأنه ... »

ولم يتمّ جملته .

وسمعه ماريوس يضع شيئاً ثقيلاً على الطاولة ، وامله أن يكون ذلك

الازميل الذي اشتراه .

وقال جوندريت :

« آه ، ها ! هل أكلتَ هنا ؟ »

فأجابت الأم :

« نعم . لقد أكلت ثلاث حبات كبيرة من البطاطا مع شيء من

الملح . لقد أفدتُ من وجود النار فطبختها عليها . »

فقال جوندريت :

« حسن . غداً ، سأخذك لتتناولي الطعام معي . سوف يكون

على المائدة بطة وتوابعها . وسوف تتعشين مثل شارل العاشر . أيجري

كل شيء على ما يرام ؟ »

ثم اضاف ، خافضاً صوته :

« لقد نُصِبَت مصيدة الفيران . والقطط على اتم الاستعداد . »

وخفض صوته اكثر من ذي قبل ، ايضاً ، وقال :

« ضعي هذا في النار . »

وسمع ماريوس حسيس فجم كانت يدها ما تصدمه بكلاية صغيرة او

بأداة حديدية ما . وتابع جوندريت :

« هل شحمتِ رزات الباب ، بحيث لا تحدث اي صوت ؟ »

فأجابت الأم :

« نعم . »

« كم الساعة ؟ »

« السادسة تقريباً . إن ساعة سان ميدار قد أعلنت النصف بعد

الحامسة منذ لحظة فقط . »

فقال جوندريت :

« يا للشيطان ! يجب ان تخرج الفتاتان وتقوموا بالحراسة . تقدّما

الى هنا ، ايها البنتان ، واستمعا اليّ . »

ودار همس .

وارتفع صوت جوندريت كرة اخرى ا

- « هل خرجت بورغون ؟ »

فأجابت الأم :

- « نعم . »

- « اواثقة انتِ من انه لا يوجد أحد في غرفة جارنا ؟ »

- « إنه لم يرجع ، اليوم ، بعد ، وانت تعلم ان هذا هو الموعد

الذي يتناول فيه عشاءه . »

- « اواثقة انتِ ؟ »

- « واثقة . »

فأجاب جوندريت :

- « سيان . لا ضرر في الذهاب والتثبت من وجوده في الغرفة او

عدمه . خذي الشمعة ، يا ابنتي واذهي . »

ونزل ماربوس عن الخزانة واثبأ على يديه وركبتيه ، ودبّ تحت

مريره من غير أن يحدث ضجة ما .

ولم يكذب بخشيء ، حتى لمع ضوءاً ينبعث من خلال شقوق الباب .

وصاح صوت :

- « بابا ! لقد خرج . »

وادرك ان الصوت كان صوت الفتاة الكبرى .

وسألها الأب :

- « هل دخلت الغرفة ؟ »

فأجابت الفتاة :

- « لا . ولكن لما كان مفتاحه في الباب فمن الواضح انه قد

خرج . »

فصاح الاب :

- « مهما يكن ، ادخلي الى الغرفة . »
وُفتح الباب ، ورأى ماريوس الفتاة الطويلة تدخل وفي يدها شمعة .
كان يبدو عليها ذلك المظهر الذي تبدت فيه ذلك الصباح ، وإن تكن
الآن ، وعلى ضوء هذه الشمعة ، ادعى الى المول .
وتقدمت نحو السرير مباشرة . وعبرت ماريوس لحظة من الحصر
النفسي لا سبيل الى تصويرها . ولكن كان ثمة مرآة مسمرة على الجدار ،
قرب السرير ؛ وانما كانت الفتاة تتجه نحو تلك المرآة . ورفعت نفسها
على رؤوس اصابعها ، ونظرت الى وجهها فيها . وسمع صوت حدائد
عتيقة في الغرفة المجاورة .
وملست شعرها براحة يدها ، وابذمت أمام المرآة منشدة في
خلال ذلك بصوتها القَبْرِيّ المهشم :

« إن حنا قد دام اسبوعاً ،
ولكن لحظات المادة قصيرة !
ولأن بيوم المرء حياً ثمانية ايام شيء يستحق الجهد !
ان زمان الحب ينبغي ان يستمر الى الابد !
ينبغي ان يستمر الى الابد ! ينبغي ان يستمر الى الابد . »

وفي غضون ذلك ، كان ماريوس يرتعد . لقد بدا له ان من المتعذر
ان لا تسع أنفاسه .
ومضت نحو النافذة ، ونظرت الى الخارج ، متحدثة في صوت عال
على طريقته تلك ، نصف البلاء .
وقالت :

-- « ما أشبع باريس حين ترتدي قميصاً أبيض ! »
ورجعت الى المرآة ، وعادت القيام بمحركاتها المتكلفة ، وتأملت في
طلعتها الأمامية ، ثم في طلعتها الجانبية .

وصاح الأب :

« حسنأ ، ما الذي تفعلينه الان ؟ »

فاجابت ، مواصلةً تسوية شعرها :

« إني انظر تحت السرير والأثاث . ليس هناك أحد . »

فهرأ الأب :

« ايتها البلهاء . ارجعي الى هنا في الحال ! ينبغي ان لا نضيع

دقيقة واحدة ! »

فقلت :

« آنا آتية ! انا آتية ! إن المرء لا يجد منسماً لشيء في كوخه

الحقير ! »

ومهمت :

« لقد تركني لتذهب الى المجد ،

ان قلبي الحزين لينبع خطاك حينما انجحت . »

وألفت نظرة اخيرة على المرأة ، وخرجت ، موصدةً الباب خلفها .

وبعد لحظة ، سمع ماريوس وقع اقدام الفتاتين الصغيرتين الحافيتين ،

في الرواق ، وصوت جوندريت يصيح بهما :

« انتبها جيداً ! واحدة نحو باب المدينة ، والاخرى عند زاوية

شارع ال « بيتي بانكيه » . حذار ان ترفعا عيونكما عن باب المنزل

دقيقةً واحدة . واذا رأيتا اقل شيء فسارعا الى هنا في الحال ! طيرا

الى هنا طيراناً ! إن معكما مفتاحاً يمكنكما من الدخول . »

ودمدت البنت الكبرى :

« نقوم بالحراسة واقدامنا حافية في الثلج ! »

فقال الأب :

« غداً سوف تنتملان حذاءين حريريين بلون الخنفسة ! »

وهبطنا السلم ، وبعد بضع ثوانٍ أعلن صوتُ الباب السفليّ المنغلق
أنها قد غادرتا البيت .

وهكذا لم يبق في البيت غير ماريوس وجوندريت وزوجته ؛ ولعل
الكائنات العجيبة التي لمحا ماريوس في الغسق وراء باب العلية الشاغرة
كانت هناك ايضاً .

١٧

كيف أنفقت قطعة ماريوس النقدية ذات الفرنكات الخمسة

وقدّر ماريوس أنّ قد آن له ان يستعيد موقعه القديم في مرصده .
وفي غضة عين ، وفي خفة الشباب ، كان قرب ثغرة الجدار .
ونظر .

كانت غرفة جوندريت تتكشف عن مظهر فريد ، واهتدى ماريوس
الى تفسير للضوء الغريب الذي سبق له أن لاحظه . كانت شمعة تحترق
في شمعدان زنجاريّ اللون ، ولكن لم تكن هي التي اضاءت الغرفة في
الواقع . كان الوكر كله مضاءً بالوهج المنبعث من كانون حديدي ضخم
ملقى في الموقد ، يملوء بفحم مشتعل ؛ وهو الكانون الذي أعدته
جوندريت الزوجة ذلك الصباح . كان الفحم متأجباً ، وكان الكانون
أحمر حامياً . وتراقصت شعلة زرقاء فوقه ، فساعدت على الكشف عن
شكل الازميل الذي اشتراه جوندريت من شارع « بيير لومبار » ،
والذي كان يُجمى وسط الجمرات . وفي زاوية قرب الباب كانت كومتان
بدتا وكان احدهما كومة حدائد عتيقة ، والاخرى كومة حبال ،

وقد أعدنا على ما يظهر لاستعمال مرتقب . وكان ذلك كله خليقاً بأن يحمل المرء الذي لم يطلع على شيء ، بما كان 'يهيئاً' هناك ، على ان يتردد بين فكرة مشؤومة جداً ، وفكرة بسيطة جداً . كانت الغرفة ، وقد أضيئت على هذا النحو ، أشبه بدكان حداد منها بقم الجحيم ؛ ولكن جوندريت اتخذ في ذلك الوهج مظهر الشيطان اكثر مما اتخذ مظهر الحداد .

وكانت حرارة الجمرات قوية الى حد جعل الشمعة التي على الطاولة تذوب من ناحية الكانون ، وتستهلك على نحو منحرف . وكان مصباح نحاسي عتيق مظلمٌ جديرٌ بدويجين وقد تحوّل الى كارتوش * ، بنهض فوق الموقد .

وأرسل الكانون ، الذي وُضع في الموقد نفسه ، قرب الجمرات المشوكة ان تحمد ، دخانه الى مدخنة الموقد ، ولم ينشر رائحة ما . وألقى القمر ، المضيء من خلال الواح النافذة الزجاجية الاربعة ، بياضه على العلية الارجوانية المتوهجة : وبدا ذلك لعقل ماريوس الشاعرى ، الحالم حتى في لحظة العمل ، مثل فكرة سماوية تتزج بكوابيس أرضية سائمة .

ونفذ الى الغرفة ، من خلال اللوح الزجاجي المكسور ، نسيمٌ ساعد على تبديد الرائحة وإخفاء الكانون .

كانت مغارة جوندريت ، اذا ذكر القارىء ما قلناه عن بيت غوربو العتيق ، قد اختيرت اختياراً بارعاً لتكون مسرحاً لاعمال الظلمة والعنف ، ولاخفاء جريمة من الجرائم . كانت اكثر الغرف تدهقراً في اكثر البيوت انزاعاً في اكثر شوارع باريس إقفساراً . ولو ان الكمين لم يكن معروفاً ، اذن لكان خليقاً به أن 'يخترع' هناك .

كان عمق بيت بكامله وجمهرة من الغرف غير المؤجرة تفصل هذا

* زعيم عصاة من الاوص سبق التعريف به .

الوكر عن الجادة ، وكانت نافذته الوحيدة تطلّ على اراضٍ واسعة
مهمّة مطوّقة بالاسوار والاسيجة المؤلفة من أوتاد مفروزة .

وكان جوندريت قد أشعل غليونه ، وجلس على الكرسي المتزوع
قشّها ، وأنشأ يدهنّ . كانت زوجته تتحدث اليه في صوت خفيض .

ولو كان ماريوس كورفيراك ، يعني لو كان واحداً من اولئك الذين
يضحكون لكل مناسبة من مناسبات الحياة اذن لانفجر ضاحكاً حين
وقعت عينه على هذه المرأة . كانت تعتمر بقبعة سوداء مريشة تشبه الى

حدّ ما قبعات الرسل الحاملين نبأ اعلان الحرب كما بدوا عند مسنح
الملك شارل العاشر ، وكانت قد ألفت على تنورتها المسرودة مثلاً عريضاً

جداً من نسيج صوفيّ مربع ، وانتعلت الحذاء الرجالي الذي ازدرته
ابنتها ذلك الصباح . وكانت تلك الزينة هي التي انتزعت من جوندريت

هذه الصيحة : « حسن ! انت في أكمل حلة ! لقد أحسنت صنفاً !
يجب ان تكوني قادرة على الاجماع بالثقة ! »

أما جوندريت فلم يكن قد نزع المعطف الجديد ، الواسع جداً
بالنسبة اليه ، والذي كان مسيو لوبلان قد أعطاه اياه . وظلّ زيه

يكشف عن ذلك التباين بين السترة والبنطلون الذي أُلّف في عيني
كورفيراك المثل الأعلى للشاعر .

وفجأة رفع جوندريت صوته :

- « وبالمناسبة ! أنا افكر في ذلك . ما دامت حالة الجو هكذا ،
فسوف يجيء في عربة اجرة . أضيئي المصباح ؛ خذيه ؛ واهبطي السلم .

ولسوف تبقيين هناك خلف الباب الادنى . ولحظةً تسمعين العربة تقف ،
فعندئذ تفتحين الباب في الحال ، فيصعد ، فتضيئين له السلم والرواق ،

حتى اذا دخل الى هنا ترجعين في الحال ، فتدفعين الاجرة الى السائق ،
وتسرحين العربة . »

فسأله المرأة :

- « المال ؟ » -
 فبحث جوندريت في جيوب بنطلونه ، وتأولها خمسة فرنكات .
 فصاحت :
- « ما هذا ؟ » -
 فأجابها جوندريت في وقار :
 - « إنه الملك الذي اعطانا جارنا اياه ، هذا الصباح . »
 ثم اضاف :
- « أتعرفين ؟ يجب أن نضع هنا كرسيين . »
 - « لماذا ؟ » -
 - « لكي يجلس عليهما . »
 واستشر ماريوس رعدةً تسري في أوصاله حين سمع المرأة تجيب
 بهذا الجواب الهادئ :
 - « وحق الأله ! سوف اجيء بكرسي جارنا . »
 وفي حركة سريعة ، فتحت باب الوكر ، وخرجت الى الرواق .
 وليس من ريب في أنه لم يكن لدى ماريوس متسع من الوقت للوثوب
 عن الحزاة والاختباء تحت السرير .
 وصاح جوندريت :
- « خذي الشمعة . »
 فقالت :
- « لا . ذلك يربكني . إن عليّ أن احمل كرسيين . والقمر
 بدرّ علي كل حال . »
 وسمع ماريوس يد « جوندريت الأم ، الثقيلة تتمسّس مفتاح غرفته
 في الظلام . وفتح الباب . ووقف مسرّاً في مكانه بالتوجّس والذهول .
 ودخلت المرأة .
 وأدخلت كوة العلية شعاعاً من اشعة القمر بين صفحتين صغيرتين من

الظلمة . وكانت احدى هاتين الصفحتين تحجب الجدار الذي استند اليه ماريوس حجباً كاملاً ، فاذا به - ماريوس - يخفي عن العيان . ورفعت جوندريت الأم غيبتها ، ولم ترَ ماريوس ، واخذت الكرسيين ، وكافا الكرسيين الوحيدين اللذين يملكها ماريوس ، وخرجت ، مغلقة الباب خلفها في صخب .

لقد رجعت الى الوكر :

- « ها قد جثتك بالكرسيين . »

فقال الزوج :

- « وهو ذا المصباح . إهبطي السلم في الحال . »

ونزات عند أمره لتراها ؛ وغودر جوندريت وحيداً .

ووضع كلاً من الكرسيين عند جانب من الطاولة ، وقلب الازميل في النار ، ووضع ستاراً عتيقاً أمام الموقد فحجب السكاون ، ثم مضى الى الزاوية التي نهضت فيها كومة الحبال ، وانحنى وكأنا يريد ان يفحص شيئاً . وادرك ماريوس عندئذ ان ما حسبه كومة شائبة كان في الواقع سلسماً حبالية ، متقنة الصنع ، ذات درجات خشبية ، وكلايتين ضخمتين تعلقت بهما .

هذه السلم ، وبضع آلات ضخمة - هي كتل حقيمية من الحديد مطروحة فوق ركام الحدائد العتيقة القائم خلف الباب - لم تكن في وكر جوندريت عند الصباح ، فليس من ريب في أنها حملت الى هناك بعد الظهر ، خلال غيبة ماريوس .

وقال ماريوس في ما بينه وبين نفسه :

- « هذه هي ادوات الحداد . »

ولو ان ماريوس كان على علم اوسع بهذا الضرب من المعرفة إذت لتبين في ما حسبه ادوات حداد بعض الادوات القادرة على ان تخلع قفلاً او تفتح باباً بكلاية ، وادوات اخرى قادرة على القطع والاحتزاز ،

وهما نوعا الادوات المشؤومة اللذان يدعوهما اللصوص *les fauchants* و *les cadets* كان الموقد ، والطاولة ، والكرسيان تجاه ماريوس مباشرةً . أما الكانون فكان محبوباً . وكانت الغرفة مضاءةً ، الآن ، بالشمعة ؛ فاذا بأتفه الاشياء التي على الطاولة او على الموقد يُلقى ظلًا كبيراً . كانت آنية ماء مكسورةً تقنع نصف جدار من الجدران . وكان يرين على تلك الغرفة هدوء رهيب ينذر بالخطر على نحو لا سبيل الى وصفه . لقد كان في استطاعة المرء ان يستشعر اقتراب شيء مخيف .

وكان جوندريت قد ترك غليونته ينطفئ - وتلك علامة تؤذن ، من غير شك ، باستغراقه البالغ في التفكير - وكان قد رجع وجلس . وجعلت الشعلة طرفي وجهه وزواياه الضاربة تبرز على نحو يلفت النظر . وكان ثمة تعضّن في حاجبيه وانفتاح مفاجيء في يده اليمنى ، وكأنما كان يجيب عن النصائح الاخيرة التي وجهها اليه حوار باطني كالح . وفي احدى هذه الاجابات الغامضة التي كان يردّها بها على نفسه ، سحب درج الطاولة نحوه سحباً عنيفاً ، وأخرج مديّة مطبخ طويلة كانت مخبوءة هناك ، وجربّ سفرتها على ظفّره . حتى اذا تمّ له ذلك ، أعاد المديّة الى الدرج ، وأغلقه .

أما ماريوس فأمسك بالمسدس الصغير الذي كان في جيب صدرته اليمين ، وأخرجه منه ، ووظف على نابضه استعداداً لاطلاق النار . واحداث المسدس ، عند ذلك ، صوتاً صغيراً واضعاً حادثاً . واجفل جوندريت ، ونهض عن كرسيه نصف نهضة .

وصاح :

- « من هناك ؟ »

وحبس ماريوس انفاسه . وأصغى جوندريت لحظة . ثم شرع يضحك ،

قائلاً :

- « يا لي من مجنون ! ان الجدار الحاجز هو الذي قضى على

تلك الشاكلة . »

وأبقى ماريوس المسدس الصغير في يده .

١٨

كرسيًا ماريوس يتواجهان

وفجأة ، قلقلت ذبذبة ' ناقوس قصية ' ومحزونة زجاج النوافذ . لقد
اعلنت « سان ميدار » الساعة السادسة .

وأتبع جوندريت بكل دقة من تلك الدقات بايماة من رأسه . وعند
الدقة السادسة ، اطفأ الشمعة بيديه .

ثم راح يذرع الغرفة ؛ وأصغى في الرواق ، ومشى ، ثم اصغى
من جديد .

ودمدم :

« - شرط أن يجيء ! »

ثم انقلب الى كرسيه .

ولم يكذب يعاود الجلوس حتى 'فتح الباب .

كانت جوندريت الأم قد فتحت ، ووقفت في الرواق ، متكلفة
ابتسامة توددية رهيبة أضيئت ، من ادني ، بأحد ثقوب المصباح القائم .

وقالت :

« - تفضل ، يا سيدي ! »

وكرر جوندريت ، وقد نهض في عجلة بالغة :

« - تفضل يا محسني ! »

وبرز مسيو لوبلان .

كانت تطفو على حياء طلاقة جعلته جليلاً على نحو فريد .

ووضع اربع ليوات ذهبية على الطاولة .
وقال :

- « مسيو فابانتو ، خذ هذه واستعن بها على دفع اجرة الغرفة وسدّ حاجاتك الملحة . وفي المستقبل سأحاول ان اقدم اليك مبلغاً آخر . »
- « اثابك الله ، يا محسني الكريم ! » قال جوندريت ذلك ، واقترب من امرأته في سرعة وهمس :

- « مرّحي العربية ! »

وانسلت من الغرفة ، فيما كان زوجها يُسرف في الانحناء احتراماً ، ويقدم كرسياً الى مسيو لوبلان . وبعد لحظة ، رجعت وهمست في اذنه :

- « لقد تمّ ذلك . »

كان الثلج ما انفكّ يتساقط منذ الصباح عميقاً الى درجة جعلتها لا يسمعان العربية حين وصلت ، ولا يسمعاها حين ولت .

وفي غضون ذلك كان مسيو لوبلان قد جلس على الكرسي . وكان جوندريت قد احتل الكرسي الآخر المقابل لمسيو لوبلان .

والآن ، يحسن بالقاري ، لكي يكوّن فكرة عن المشهد الذي سوف يلي ، ان يتشكّل في مخيلته ذلك الليل البارد ، وإقفاً الـ « ساليستيرير » المغطى بالثلج ، الأبيض تحت ضياء القمر ، مثل كفن هائل ، ومصاييح الشارع المضطربة الضوء ، هنا وهناك ، المحضبة هذه الجادات الفاجعة ، وصفوف الدردار الاسود الطويلة ، وقد خلا الشارع أو كاد - على مدى ميل واحد - من عابر سبيل ، وغرق بيت غوربو العتيق في أعماق ما اكتنفه من صمت وهول وظلمة ، وأضيئت عليه جوندريت الواسعة - في ذلك البيت ، ووسط هذا الاقفاً وتلك الدجّة - بشمعة ليس غير ، وجلس في ذلك الوكر رجلان اثنان الى طاولة ، مسيو لوبلان هادئاً مطمئناً ، وجوندريت مبتسماً وهيباً ،

وانزوت زوجته ، الذئبة الأمّ ، في زاوية ، وانتصب ماريوس خلف الجدار الحاجز ، محجوباً عن الانظار ، متيقظاً ، واعياً كل كلمة ، راصداً كل حركة ، ومدّاً عينيه الى الساعة ، قابضاً على المسدس الصغير يجمع كفته .

والحق ان ماريوس لم يستشعر خوفاً ما . لقد أحسّ بالغيظ ليس غير . لقد شدّ على عقب المسدس ، فاستشعر الأمن والثقة . وقال في ذات نفسه : « سوف أوقف هذا النذل ساعةً أشاء . »

وأحسّ ان البوليس كان يكمن ، غير بعيد ، في مكان ما ، في انتظار الاشارة المتفق عليها ، وأنه على اتمّ الاستعداد لأن يبسط ذراعه .

والى هذا ، فقد رجا أن يلقى هذا الاجتماع الرهيب ، بين جوندريت ومسيو لوبلان ، بعض الضوء على كل ما كان قائماً الى معرفته .

١٩

شواغل الأعماق المظلمة

لم يكد المقام يستقرّ بمسيو لوبلان حتى أدار عينيه نحو الفراشين الفارغين .

وتساءل :

« كيف حال الجريح الصغيرة البائسة ؟ »

فأجاب جوندريت في ابتسامة محزنة ولكنها معترفة بالجميل :

« سيئة . سيئة جداً ، يا سيدي الجليل . لقد اخذتها شقيقتها

الكبرى الى ال « بورب » لكي تضمدها . سوف تراهما . انها ستعودان

بعد قليل .

« إن مدام فابانتو تبدو لي أحسن جداً من ذي قبل ؟ ، كذلك استأنف مسيو لوبلان كلامه ، مسدداً بصره الى جوندريت الزوجة بزيتها المضحك ، وقد وقفت بينه وبين الباب ، وكأنما كانت نحرس المخرج ، وانشأت تحدق اليه في وضعٍ مهدد ، وضعٍ يكاد يكون متحدياً .

وقال جوندريت :

« ولها تموت . ولكنك ترى ، يا سيدي ، ان تلك المرأة ذات شجاعة عظيمة . إنها ليست امرأة ؛ انها ثور . »
واذ تأثرت المرأة بهذا الاطراء ، اعتوضته صائحةً في مثل دلال غولٍ أغدق عليه فيض من ثناء :
« وانت لطيف معي دائماً ، اكثر مما ينبغي ، يا مسيو جوندريت . »

فقال مسيو لوبلان :

« جوندريت ! لقد سمعت ان اسمك فابانتو ؟ »

فأراح الزوج الى القول :

« فابانتو أو جوندريت ! لقبُ فتان ! »

وهزّ كتفيه لامرأته هزةً لم يرها مسيو لوبلان ، ثم اضاف في جرسٍ مفنمٍ ملاطف :
« آه ! لقد عشنا عمرنا كله على وثام واطفاق ، أنا وهذه العزيزة

المسكينة ! وايّ شيء يمكن أن يبقى لنا ، اذا فقدنا هذا ايضاً ؟ نحن منكودو الحظ جداً ، يا سيدي المحترم ! إنّ عندنا أذرعاً ، ولكنّ ليس عندنا عمل ! وإنّ عندنا شجاعة ، ولكن ليس عندنا شغل ! أنا لا ادري كيف تنظم الحكومة هذا ، ولكنني أقسم بشرفي ، يا سيدي ، اني لست يعقوبياً ، يا سيدي ، ولست رجلاً محبباً للشجار . أنا لا أضمر

لهم ايّ اذى ، ولكن لو كنتُ انا الوزراء لسارت الامور ، وأقسم لك بشرفي ، سيراً مختلفاً . خذ مثلاً اني اردت ان أعلم ابنتي صناعة الصناديق الكرتونية . قد تقول لي : ماذا ؟ صناعة ؟ أجل ! صناعة ! صناعة بسيطة ! مورد رزق ! ايّ سقوط هو هذا ، يا محسني ! ايّ ذلّ ، بالنسبة الى من كان كما كنا نحن ! وأسفاه ! لم يبقَ لنا من ايام الرخاء شيء ! لم يبقَ لنا غير شيء واحد : صورة زيتية أنا شديد التعلق بها ، ومع ذلك فسوف اضطرّ الى التخلي عنها ، لأن علينا ان نعيش ! أجل ، ان علينا ان نعيش !

وفيا كان جوندريت يتحدث في اضطراب واضح لم يُنقص شيئاً من سيئاته الرصينة الذكية ، رفع ماريوس عينيه ، فلمح في مؤخرة الغرفة شخصاً لم يره من قبل . كان رجلٌ قد انسلّ الى هناك في خفة بالغة تعذر معها على ايّ من الجماعة ان يسمع الباب يدور على رزّاته . وكان هذا الرجل يرتدي صدره صوفية بنفسجية مسرودة ، صدره عتيقة ، بالية ، وسخة ، ممزقة ، فاغرة الفم عند كل ثنية من ثنياتهما ، وبنظولناً واسعاً من مخمل قطني ، وينتمل حذاء خشبياً . ولم يكن على جذعه قميص . كانت عاريّ العنق ، عاريّ الذراعين موشومهما ، وكان وجهه ملطّخاً بالسواد . وكان قد جلس في صمت ، طاوياً ذراعيه على السرير الاقرب . وإذا ظلّ خلف المرأة ، فلم يتبينه ماريوس إلا في عسر .

وكان في ذلك الضرب من الغريزة المغناطيسية الذي يجذر العين ما جعل مسيو لوبلان يلتفت لحظة التفت ماريوس تقريباً . ولم يتالك ان يُبدي حركة تتمّ عن الدهش ، لم تفتّ جوندريت .

وصاح جوندريت ، وهو يزّر سترته في لهجة ملاطفة :
.. « آه ، فهمتُ ! أنت تنظر الى معطفك . لكأنه مفصل خصيصاً لي ، أقسم لك ، لكأنه مفصل خصيصاً لي ! »

فقال مسيو لوبلان :

- « مَنْ ذلك الرجل ؟ »

فأجاب جوندرت :

- « ذلك الرجل ؟ إنه جارنا . لا 'تلقِ بالأى إليه . »

كانت لذلك الجار هيئة غريبة . وعلى أية حال ، فأت مصانع
المنتجات الكيميائية تكثر في ضاحية سان مارسو . وان كثيراً من
وجوه العمال الصناعيين لتلطخ بالسواد . وفوق ذلك ، فقد كان
شخص مسيو لوبلان كله 'يفصح عن ثقة ساذجة باسلة . واستأنف
حديثه :

- « عفواً . ماذا كنت تقول لي ، يا مسيو فابانتو ؟ »

فأجابه جوندرت ، مسنداً رفاقه الى الطاولة ، ومحدقاً الى مسيو
لوبلان بعينين ثابتتين وخصتين تشبهان عيني 'بواء * ، قائلاً :

- « كنت أقول لك ، ياسيدي ، ويا نصيري العزيز ، كنت أقول

لك ان عندي لوحة زيتية اودّ ان ابيعها . »

وسمعت لدى الباب ضجة ضئيلة . ودخل رجلٌ ثانٍ ، وجلس
على السرير قرب جوندرت المرأة . كانت عاري الذراعين ، مثل
الرجل الأول ، وكان على وجهه قناع من الجبر أو من السخام
وعلى الرغم من ان ذلك الرجل انزل ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ،
الى الفرقة انشلالاً ، فان ذلك لم يمنع مسيو لوبلان من أن يلمحه :

وقال جوندرت :

- « لا تشغل نفسك بهم . إنهم من أهل المنزل . كنتُ أقول لك ،

اذن ، انه قد بقيت عندي لوحة زيتية ذات قصة . هي ذي ، ياسيدي ،
انظر . »

ونفض ، ومضى الى الجدار الذي انتصبت في ادناه تلك اللوحة

* Boa وهي ضرب من الازاعي .

المؤطرة التي اشرنا اليها من قبل ، وادارها وجهاً لظهر ، مُبنيّاً ايهاا مستندةً الى الجدار . كانت في الواقع شيئاً يشبه لوحة فنية ، شيئاً اضاءته الشمعة على نحو باهت . ولم يستطع ماريوس ان يتبين شيئاً منها بعد ان حالت وقفة جوندرت ما بينه وبين اللوحة . غير انه لمح تصويراً غليظاً غير متقن ، وشبه شخصية رئيسية لوتت بالاسلوب الفجّ الصخّاب الذي نألفه في ستائر المسرح المتجول ، والرسوم التي تُحلّى بها الحُجُب الفاصلة (بارافان) .

وسأله مسيو لوبلان :

- « ما هذه ؟ »

فهتف جوندرت :

- « لوحة بريشة فنان كبير . صورة ذات ثمن غالٍ ، يا محسني ! أنا اتعلقتُ بها كتعلقي بابنتي ؛ إنها تذكرني بأشياء واشياء ! ولكنني قلتُ لك ، ولستُ أناقص ذلك ، إنني من البؤس بحيث اجدني مضطراً الى التخلي عنها ... »

وسواء أكان ذلك بحكم المصادفة أم بسبب من ات الارتباب بدأ يُدخاله فيما كان يدرس الصورة ، انجبه بصر مسيو لوبلان نحو مؤخرة الغرفة . كان ثمة ، الآن ، اربعة رجال : ثلاثة جالسون على السرير ، وواحد واقف قرب إطار الباب . كان كلٌ منهم عاري الذراعين ، جامداً لا يتحرك ، ملطّخ الوجه بالسواد . كان احد الذين جلسوا على السرير مستنداً الى الجدار ، مغمض العينين ، حتى ليحسب المرء أنه نائم . وكان هذا الرجل هرمياً ، وكان شعره الأشيب رهيباً فوق وجهه الاسود . أما الاثنان الآخران فقد بدت عليهما أمارات الشباب . كان احدهما ذا لحية ، وكان الآخر ذا شعر طويل . ولم يكن أيّ منهما ينتعل حذاء . إن اولئك الذين لم يكن عندهم احذية من نسيج كانوا حفاة .

ولاحظ جوندريت ان عين مسيو لوبلان كانت مركزة على اولئك الرجال ، فقال :

- « إنهم اصدقائي . وهم يسكنون في جوارنا . إنهم سود الوجوه لأنهم يعملون في الفحم . إنهم ذكّارة مداخن . لا تشغل بالك بهم ، يا محسني . واشترِ لوحتي الفنية . أسفّقْ على شقائي . انا لن ابيعك اياها بشمن غال . بكم تقدّرها ؟ »

فقال مسيو لوبلان ، محدقاً النظر الى وجه جوندريت مثل رجل يأخذ حذره :

- « ولكنّ هذه اشبه بلافتة حانة . انها تساوي ثلاثة فرنكات تقريباً . »

فاجاب جوندريت في هدوء :

- « أتحمّل حافظة نقودك ؟ إني اکتفي بألف ريال . »
فنهض مسيو لوبلان واقفاً ، واسند ظهره الى الجدار ، واجال بصره في الغرفة على نحو خاطف . كان جوندريت الى يساره ناحية النافذة ، وزوجته والرجال الاربعة الى يمينه ناحية الباب . ولم يتحرك الرجال الاربعة ، بل لم يبدُ عليهم ما يؤذّن انهم رأوه . وكان جوندريت قد عاد يتحدث في لهجة شاكية وقد عصف الاحتياج بعينيه وغلبت على صوته نبرة فاجعة الى درجة كان خليقاً بها ان تجعل مسيو لوبلان يمتقد ان هذا الذي امامه ليس غير رجل ذهب الشقاء بصوابه .

وقال جوندريت :

- « اذا لم تشتري لوحتي الفنية ، ايها المحسن العزيز ، بقيتُ من غير مورد ، ولكن يكون امامي إلا ان القي بنفسي في النهر . آه ، حين افكّر باني اردتُ ان اعلمّ بنتي صنع الورق المقوّى نصف الرقيق ، الورق المقوّى الذي تعمل منه صناديق الهدايا ! حسناً ، يجب ان تكون عندهما طاولة في ادناها لوح خشبي لكي لا يسقط الزجاج

على الارض ؛ يجب ان يكون عندهما كانون مصنوع خصيصاً لهذا
الغرض ، وقدره ذات ثلاثة اقسام لمختلف درجات القوة التي ينبغي ان
يكون الغراء عليها تبعاً لجهة استعماله : خشباً كانت أو ورقاً أو قماشاً .
وكذلك ينبغي ان يكون عندهما سكين لقطع الكرتون ، وقالب
لأحكامه ، ومطرقة لتسيير الصفائح الفولاذية ، وكلاّبات ، واشياء كثيرة
اخرى لا أعلمها وحقّ الشيطان ! وذلك كله لكي تكسبا اربعة فلوس
في اليوم ! اربعة فلوس بعد اربع عشرة ساعة من العمل ! وكل
صندوق ينبغي ان يمرّ من خلال يدي البنت ثلاث عشرة مرة ! وعليهما
فوق ذلك ان تبللا الورق ! وان لا تومّخا شيئاً ! وان تثبّيا الغراء
ساخناً ! بالشيطان ! اقول لك ! اربعة فلوس في اليوم ! كيف تريد
من المرء ان يعيش ؟ »

وفيا كان جوندريت يتكلم لم ينظر الى مسيو لوبلان الذي راح
يراقبه . كانت عين مسيو لوبلان مسمّرة على جوندريت ، وكانت عين
جوندريت مسمّرة على الباب . وكان انتباه ماريوس اللاهت ينتقل من
احدهما الى الآخر . وبدا مسيو لوبلان وكأنه يسأل نفسه : « هل هذا
الرجل معتوه ؟ » وكرّر جوندريت مرتين او ثلاثاً بمختلف ضروب
التبرات المتفاوتة في الاسلوب السقيم المتوسّل : « ليس امامي إلا ان
اقذف بنفسي في النهر ! لقد هبطت ذلك اليوم ثلاث خطوات لهذا
الغرض من ناحية جسر اوستوليتز ! »

وفجأة اضطربت عينه الباهتة بتوهج فظيع ؛ وتصدّر هذا الرجل
القميء وأمسى مروّعاً . ثم تقدّم خطوة نحو مسيو لوبلان ، وصاح في
وجهه بصوت راعد :

« ولكن هذا كله لا علاقة له بالمسألة ! هل عرفتي ؟ »

٢٠ الكمين

كان باب العمليّة قد 'فتح فجأة' ، متكشفاً عن ثلاثة رجال يوندون نيباً عمالية زرقاء ويتقنّون بأقنعة ورقية سوداء . كان أولهم مهزولاً يحمل هراوة طويلة معصوبة بالحديد . وأما ثانيهم ، وكانت ضرباً من عملاق ، فقد حمل مطرقةً كالتي يصطنعها الجزائرون لقتل الثيران ، خافضاً فأسها ، مسكاً بها من منتصف مقبضها . وأما ثالثهم ، فكان رجلاً عريض المنكبين ، ليس شديد الهزال كالأول ، وليس شديد الضخامة كالثاني ، وكان يحمل في 'جمع كفه' مفتاحاً هائلاً مسروقاً من باب سجن من السجون .

لقد بدا وكأن جوندريت إنما كان ينتظر وصول هؤلاء الرجال .
ودار حوار خاطف بينه وبين الرجل ذي الهراوة ، الرجل المهزول :

قال جوندريت :

— « كل شيء جاهز ؟ »

فأجابه الرجل المهزول :

— « نعم . »

— « اين موبارناس ، اذن ؟ »

— « لقد وقف « الفتى الأول » ليتجاذب الحديث مع ابنتك . »

— « مع ايّ منهما ؟ »

— « الكبرى . »

— « هل توجد عربة اجرة ، قرب البيت ؟ »

— « نعم . »

— « هل شدت الحيل الى العربة الصغيرة ؟ »

- « شدت . »
- « وهل هما فرسان جيدان ؟ »
- « ممتازان . »
- « أهي تنتظر حيث قلت إن عليها ان تنتظر ؟ »
- « نعم . »
- فقال جوندريت :
- « حن . »

كان مسيو لوبلان شاحباً جداً . لقد اجال طرفه في ارجاء الغرفة مثل رجل يعرف أين وقع ؛ ودار رأسه فوق عنقه ، متجهاً على التعاقب نحو جميع الرؤوس المحيطة به ، في ببطء متيقظ منشد ، ولكن لم يكن في سياه ما يشبه الخوف . كان قد جعل من الطاولة متراساً مرتجلاً ، وكان هذا الرجل الذي بدا ، قبل لحظة ، وكأنه مجرد رجل ساذج عجوز ، قد تحول فجأة الى ضرب من الجبار ، ووضع قبضة يده القوية على مؤخر كرسيه في ايماء رهيبه مذهلة .

لقد بدا هذا الرجل - الثبت الجنان الى حد بعيد ، الشجاع الى حد بعيد ، أمام خطر كهذا - وكأنه من اصحاب تلك الطبائع التي تجمع البسالة الى الطيبة ، في بساطة وطبعية . إن أبا الفتاة التي نحبها لا يمكن ان يكون غريباً بالنسبة الينا ابدآ . واستشعر ماريوس اعتراضاً بهذا الرجل المجهول .

وكان ثلاثة من الرجال الذين وصفهم جوندريت بقوله « إنهم دكاترة مداخن » قد فزعوا الى ركام الحدائد العتيقة . فأما احدهم فتناول مقصاً ضخماً من مقصات المعادن ، وأما الثاني فتناول قضيباً حديدياً من قضبان القبابين ، وأما الثالث فتناول مطرقة ، ووقفوا معترضين الباب ، من غير ان يندسوا بكلمة . كان الرجل العجوز لا يزال على السرير ، وكان قد اجتراً بفتح عينيه . وكانت جوندريت المرأة قاعدة الى جانبه .

وخطر لما ربوس أن لحظة التدخل سوف تحين بعد ثوانٍ ، فرفع يده اليمنى نحو السقف ، في اتجاه الرواق ، فهو على استعداد لاطلاق النار .
واذ أمّ جوندريت محادثته مع الرجل ذي المراهة ، التفت الى مسيو لوبلان وكرر سؤاله ، مردفاً اياه بضحكته تلك ، الخفيفة ، المكبوحة ، الفظيئة :

« انت لا تعرفني اذن ؟ »

ونظر اليه مسيو لوبلان في وجهه ، واجاب :

« لا . »

ثم إن جوندريت تقدم حتى الطاولة . وانحنى فوق الشمعة ، مصالباً ذراعيه ، دافعاً فكته الضاري ذا الزوايا نحو وجه مسيو لوبلان الهادي . اقرب ما استطاع ان يدفعه ، من غير ان يحمله على الارتداد الى وراه . وفي ذلك الوضع ، الخليق بوحش مفترس على وشك ان ينهش فريسته ، صرخ :

« إن اسمي ليس فابانتو ، إن اسمي ليس جوندريت ؛ إن اسمي

تيناردييه ! انا صاحب فندق مونفيرماي ! هل تفهمني ؟ تيناردييه !
والآن هل عرفتني ؟ »

وسرى في جبين مسيو لوبلان احمرار لا يكاد يُلحظ ، واجاب من غير ان يرتعش صوته ، او يرتفع ، وفي سكينته المألوفة :

« لم ازد معرفةً بك . »

ولم يسمع ماربوس الجواب . ولو ان احداً رآه في هذه اللحظة وسط تلك الكلمة اذن لراه شارد العين ، مشدوهاً ، مروّع القلب .
فحين قال جوندريت : إن اسمي تيناردييه سرت الرعدة في اوصال ماربوس كلها ، واسند نفسه الى الجدار وكأنه قد استشعر برْدَ شفرة سيفٍ يخترق فؤاده . وعندئذ انخفضت ذراعه اليمنى ، وكانت على وشك ان تطلق الرصاصة المتفق عليها ، انخفاضاً بطيئاً ؛ حتى اذا كرّر جوندريت :

هل تفهمني ، تيناردييه ؟ كادت اصابع ماريوس الحائرة ان 'نقلت المسدس الصغير . إن إماطة جوندرت اللثام عن هويته لم تحدث هزة ما في نفس مسيو لوبلان ، ولكنها احدثت هزة مزلزلة في نفس ماريوس . وذلك الاسم ، تيناردييه ، الذي بدا وكأن مسيو لوبلان لم يعرفه ، قد عرفه ماريوس . فلنذكر اي شيء كان ذلك الاسم عنده ! لقد حمل ذلك الاسم فوق فؤاده ، مكتوباً في وصية أبيه ! لقد حمل في أعماق أعماق تفكيره ، في اعماق ذاكرته ، في هذه الوصية المقدسة : « إن رجلاً يدعى تيناردييه انقذ حياتي . فاذا ما لقيه ولدي فلنحسب ان يقدم اليه كل خدمة يقدر عليها . » كان ذلك الاسم ، كما نذكر ، احدى صلوات روجه . لقد مزجه مع اسم ابيه في عبادته . ماذا ؟ اهذا هو تيناردييه ، اهذا هو فنديقي مونفيرماي الذي بحث عنه على غير طائل ، تلك المدة الطويلة كلها ! لقد وجده آخر الامر ، وكيف ! إن منقذ ابيه هذا كان قاطع طريق ! إن هذا الرجل ، الذي كان هو ، ماريوس ، يتحرق لكي يقف نفسه لخدمته ، كان هولة ! إن مخلص الكولونيل بونغيرمي هذا كان على وشك ان يرتكب جريمة حقيقية ، لما يتبين ماريوس حتى الآن شكلها على نحو واضح جداً ، ولكنها بدت وكأنها جريمة قتل ! وضد من ! يا الهي العظيم ! اي قدر هذا ! اي سخرية مريرة من سخريات القضاء ! لقد امره أبوه من اعماق تابوته ان يقدم الى تيناردييه كل خير يقدر عليه ؛ وطوال أربع سنوات لم تراود ذهنه فكرة غير سداد دين أبيه هذا ؛ ولحظة اوشك ان يمكن العدالة من القاء القبض على قاطع طريق ، متلبس بجريمة ، يصيح القدر في وجهه : هذا تيناردييه ! وحياء ابيه ، التي أنقذت وسط وابل من القذائف المدفعية في ساحة واترلو البطولية ، كاد آخر الأمر ان يكافي هذا الرجل على تخليصها ، وان يكافئه بالمشقة ! كان قد وطن النفس ، اذا ما وجد تيناردييه هذا ذات يوم ، ان لا يدنو منه إلا

منطرحاً على قدميه ، وها هو ذا قد وجده الآن فعلاً ، ولكن يُسلّمه الى الجلاد . لقد قال له ابوه : ساعدْ تيناردييه ! وكان هو يجب ذلك للصوت المقدّس المعبود بسحق تيناردييه ! اذ يقدّم الى ابيه ، في تابوته ، مشهد الرجل الذي انتزعه من برائن الموت ، وقد أُعدم في ساحة سان جاك بفضل تدخل ابنه ، ابنه ماريوس الذي اوصاه بهذا الرجل ! وأية سفرية اعظم من ان يكون قد حمل فوق صدره ، طوال هذه المدة كلها ، أمنيات ابيه الأخيرة ، مكتوبةً بخط يده ، لا شيء إلا لكي يعمل بما يناقضها على هذا النحو المروع الى هذا الحد ! ولكن من ناحية ثانية ، أيرى الى هذا الكمين ولا يحبطه ؟ ! أيدين الضحية وبشفق على السفاح ؟ ! وهل من الممكن ان يكون مدينياً بجميل يجب ان يردّه لمثل هذا النذل ؟ لكأن جميع الافكار التي راودت ماريوس في السنوات الاربع الاخيرة قد اخترقتها هذه الضربة المفاجئة اختراقاً . وارتعد . كان كل شيء رهناً به . كان يُمسك بيده ، على غير وعيٍ منهم ، هذه الخلوقات التي تحركت هناك تحت بصره . فاذا اطلق النار من مسدسه الصغير ، نجما مسيو لوبلان وهلك تيناردييه . واذا لم يطلق النار ذهب مسيو لوبلان ضحيةً ، ومن يدري ؟ فقد يفرّ تيناردييه . إنه بين واحد من أمرين : ان يُهلك أحدهما او يدع الآخر يقع في الهاوية ! وفي كلتا الحالتين وخز ضمير ! ما الذي يتعين عليه ان عمله ؟ ايّ الأمرين يجب ان يختار ؟ أيجوز ذكرياته الأشدّ إلحاحاً ، والعهود الوثيقة التي اكثر من أخذها على نفسه ، وواجبه الأشدّ قداسةً ، وتلك الوصية المعنة في الجلال ! أيجوز ارادة ابيه ، أم بغض الطرف عن جريمة ترتكب ؟ لقد بدا له من ناحية ، وكأنه يسمع « أورشوله » تتوسل اليه ان ينقذ إياها ، ومن ناحية ثانية وكأنه يسمع الكولونيل يوصيه بتيناردييه . لقد استشعر انه فقد صوابه . وخذلته ركبته . ولم يجد حتى متسعاً من الوقت للتفكير وقد اندفع المشهد البادي امامه في مثل

هذا الغليان . كان ذلك اشبه باعصار حسيبَ ماريوس انه سيده ولكنه
كان يعصف به . كان على وشك ان يغى عليه .
وفي غضون ذلك ، كان تيناردييه - ولن ندعوه منذ اليوم
بغير هذا الاسم - يروح وييجي امام الطاولة ، في ضرب من الانشده
وفي ضرب من الظفر المسعور .
وأخذ الشمعة بقوة ، ووضعها على الموقد في عنف اطفأ شعلتها ، او
كاد ، ونثر شحمها على الجدار .
ثم إنه التفت الى مسيو لوبلان ، التفاتة مروعة ، وبصق
الكلمات التالية :

- « مُشَيِّط ! مدخن ! محمَّص ! مشوي ! »
وشرع يذرع الغرفة من جديد ، وقد انفجر انفجاراً كاملاً .
وصاح :

- « آه ، لقد عثرتُ عليك من جديد ، يا سيدي المحسن ! يا
سيدي المليونير البالي الثياب ! يا سيدي واهب الدمي ! يا سيدي
الغبي الخدوع ! ها ! انت لا تعرفني ؟ لا ، لست انت ذلك الرجل
الذي جاء الى مونفيرماي ، الى فندقي ، منذ ثماني سنوات ، ليلة عيد
الميلاد عام ١٨٢٣ ! انت لم تكن ذلك الرجل الذي انتزع ابنة فانتين ،
القبرة ، من منزلي ! انت لم تكن ذلك الرجل اللابس سترة صفراء !
والحامل في يده صرة من الثياب مثلما جئت الى هنا هذا الصباح تماماً !
قولي ، الآن ، يا زوجتي ! إنه مصاب ، على ما يظهر بمرض حمل الصرر
الملأى بالجوارب الصوفية الى المنازل ! ايها المحسن العجوز ، اخرج !
أنت صانع جوارب ، يا سيدي المليونير ؟ اتعطي الفقراء كُناسة دكانك ،
ايها الرجل القدسي ! يا لك من بهوان ! ها ! انت لا تعرفني ؟
حسن ، انا اعرفك ، انا ! لقد عرفتكَ لحظة اقمحت خطمك هنا .
آه ! سوف ترى آخر الامر ان الورود لا تغطي دائماً طريق الدخول

الى بيوت الناس على هذا الشكل ، بحجة انها فنادق ، بثياب مزقة بالية ، وفي هيئة شحاذ يجدر بأي امريء ان يمنحه فلماً ، لكي تخدع الناس ، وتمثل دور الكريم الجواد ، وتسلم مُعيلهم منهم ، وتهددهم في الغابات ، وسوف تجد ايضاً انك لا تستطيع ان تبزيء ذمتك من ذلك بان تعود بعد مدة ، حين يُصاب الناس بالافلاس ، وتقدم اليهم سترة طويلة واسعة جداً ، وبطانيّتين خسيّتين من بطانيات المستشفيات ، ايها الشحاذ العجوز ، السارق الاطفال !

وكفّ عن الكلام ، وبدا وكأنما وراح يتحدث الى نفسه لحظة . كان خليقاً بالمرء ان يقول ان ثورته قد سقطت مثل نهر « الرون » في حفرة من الحفر . ثم انه ضرب الطاولة بجمع كفه ، وصاح وكأنه يُنهي بصوت مرتفع شيئاً كان يقوله لنفسه :

— « بهيئته الهادئة ! »

ووجه الخطاب الى مسيو لوبلان :

— « وحق الاله ! لقد سخرت مني مرة ! انت علة مصائبي كلها ! لقد استوليت ، بالف وخمسة فرنك ، على فتاة كانت عندي ، وهي من امرة غنية حتماً ، وكانت قد عادت عليّ قبل ذلك بمقدار كبير من المال ، وكان يتعين عليّ ان احصل منها على مبلغ اعيش عليه طوال حياتي ! فتاة كانت جديرة بأن تعوّضي من كل ما خسرته في ذلك المطعم حيث كان الناس يسكرون سكرة ملوكية ، وحيث التهمت كل ثروتي كالأبله . اوه ، اتنى لو ان جميع الخمر التي شربت عندي كانت سماً على ساربيها ! ولكن ما لنا ولهذا ! قل لي اذن ! لا ريب في انك حسبتي ساذجاً حين انطلقت مع القبرة ! كان معك نبوتك في الغابة ! كنت انت الرجل الاقوى ! الانتقام ! إن الورقة الراجعة هي اليوم في يدي ! انت هالك ، ايها الرجل الساذج ! اوه ؛ واكني اضحك ! انا اضحك حقاً ! هل وقع في الشرك ؟ لقد قلت له اني بمنل ، وان اسمي فابانتسو ، واني مثلت الادوار الكوميديّة مع

مدموزيل مارس ، ومدموزيل موش ، وان عليّ ان ادفع الاجرة الى صاحب البيت غداً في الرابع من شباط ، ولم يخطر له حتى مجرد التفكير بأن موعد دفع القسط هو الثامن من كانون الثاني لا الرابع من شباط ! يا له من ابله مضحك ! وهذه القطع النقدية الاربع الحسبة التي جاءني بها ! النذل ! إنه لم يؤانس من نفسه الشجاعة الكافية التي تمكّنه من جعلها مئة فرنك ! وكيف ابتلع عباراتي الركيكة ! إن هذا قد سلاّني . وقلت في نفسي : رجلٌ عديم الفهم ! هيّا ، لقد امسكتُ بك ! لقد لحستُ برائتك هذا الصباح ! ولسوف أقضم قلبك هذا المساء ! ،

وسكت تيناردييه . لقد انقطع نفه . ولثت صدره الصغير الضيق مثل منفاخ الحداد . كانت عينه تمور بمثل البهجة الدنيئة التي تغمر حيواناً ضعيفاً وحشياً جباناً وُفتق آخر الامر الى ان يهزم ما كان يرهبه من قبل ، وُهين ما كان أطراه ، تلك البهجة التي تعصف بقلب قرم يضع عقيب قدمه على رأس جالوت ، والتي تستحوذ على ابن آوى شرع يمزق ثوراً مريضاً ، هو من الموت بحيث يعجز عن الدفاع عن نفسه وهو من الحياة بحيث لا ينقطع عذابه .

ولم يقاطعه مسيو لوبلان ، بل قال حين كفّ عن الكلام :
- « انت ادري ما تريد ان تقوله . أنت مخطيء . أنا رجل فقير جداً ، ولست مليونيراً بحال من الاحوال . انا لا اعرفك . انت تخط ما بيني وبين رجل آخر . »
فصاح تيناردييه :

- « ها ! اها المخادع الغشاش ! انت لا تزال تتمسك بهذه النكته ! انت مُرتبك » ، يا صاحبي العجوز ! آه ! إنك لا تتذكر ! انك لا ترى من انا ! ،

فأجاب مسيو لوبلان في نبرة من الكياسة كان لها في مثل تلك

اللعظة ، اثر قوي وغريب :

« عفواً ، يا سيدي ، اني ارى انك قاطع طريق . »
إن الكائنات البغيضة سريعة التأثر ، وان الهول سريعة الاغتياظ .
وهل ثمة من لم يلاحظ ذلك ؟ فما إن سمعتُ تينارديه الزوجة عبارة
قاطع طريق هذه حتى وثبت من السرير . وأمسك تينارديه بكرسيه
وكانما كان يعتزم ان يسحبها بيديه . وصاح في وجه زوجته :
« لا تتحركي ! »

ثم التفت نحو مـيو لوبلان وقال :

« قاطع طريق ! اجل ، انا اعلم انكم تدعوننا هكذا ، انتم
الاغنياء ! اجل ! هذا صحيح ؛ لقد أفكـنتُ ؛ انا احيا في مخبأ ؛ انا
لا أجد كسرة من الخبز ؛ انا لا املك فلساً ؛ فانا قاطع طريق ! ها
قد انقضت ثلاثة ايام لم آكل فيها لقمة ؛ فانا قاطع طريق ! آه !
انتم تدقثون اقدامكم ؛ انتم تنتعلون اخفافاً من نوع ساكوسكي ؛ انتم
تلبسون سترات طويلة مبطنـة مثل رؤساء الاساقفة ؛ انتم تسكنون في
الدور الاول من بيوت يحرسها بوابون ؛ انتم تأكلون الكمأة ؛ انتم
تأكلون حُزماً من الهليون ثمن الحزمة اربعون فرنكاً في شهر كانون
الثاني ، وتأكلون الجلبان ؛ انتم تعلقون انفسكم ، وحين تريدون ان
تعرفوا ما اذا كان الجوُّ سوف يبرد تلقون نظرةً على الجريدة لتروا
عند اية درجة سوف يقف ميزان الحرارة ، الذي اخترعه شوفالييه !
أما نحن ! فأجسادنا هي موازين حرارتنا ! نحن لسنا في حاجة الى
ان نذهب الى الرصيف عند زاوية « برج الساعة » لكي نرى كم درجة
تحت الصفر بلغت الحرارة ! نحن نحسّ بالدم يتجمد في أوردتنا والثلج
يصل الى قلوبنا ، فنقول : « ليس هناك ربّ ! » ثم تأتون انتم الى
كهوفنا ، اجل الى كهوفنا ، وتسمّوننا قطاع طرق ! ولكننا سوف نأكلكم !
ولكننا سوف نفتـرسكم ، ايها الصغار المساكين ! سيدي المليونير ! اعلم هذا :

لقد كنتُ رجلاً ذا تجارة ناجحة ، كنتُ دافع ضرائب ، كنتُ
ناخباً ؛ أنا مواطن ! أنا ! وقد لا تكون أنت مواطناً ، انت ! ،
وهنا خطأ تيناردييه خطوة نحو الرجال الذين كانوا قرب الباب ،
واضاف في رعدة :

- « حين افكر انه يتجرأ على المجيء ليحدثني كما يتحدث إلى اسكاف ! ،
ثم خاطب مسيو لوبلان في نكسة سُعر :

- « واعلم هذا ايضاً ، يا سيدي المحن ! أنا لست رجلاً مريباً ،
أنا ! أنا لست رجلاً لا يعرف احد اسمه ، رجلاً يأتي إلى البيوت
ليخطف الاولاد ! أنا جندي فرنسي قديم ، كان ينبغي ان أقلد وساماً !
لقد شهدتُ واترلو ، انا ! وفي اثناء المعركة انقذت جنرالاً يدعى الكونت
لا أدري ماذا ! لقد قال لي اسمه ، ولكن صوته الكلي كان ضعيفاً
إلى درجة جعلتني لا أسمعه . أنا لم اسمع إلا كلمة ميروسي (شكر)
ولقد كنت افضل ان اسمع اسمه لا أن اسمع شكره . * فقد كان
ذلك الاسم خليقاً بأن يساعدني على العثور عليه في ما بعد . واللوحة
التي تراها ، والتي رسمها دافيد * في بروكسيل ، أندري تمثل من ؟
إنها تمثلني . لقد أراد دافيد ان يخلد هذه البسالة . إني احمل ذلك
الجنرال على ظهري ، واني انقله تحت وابل من القذائف المدفعية .
ذلك هو التاريخ . وحتى هذا الجنرال لم يُسند اليّ خدمة ما في يوم
من الايام . إنه ليس أحسن من سائر الناس . ومع ذلك ، فقد انقذت
حياته مخاطراً بحياتي ، وإن جيبتي مليء بالشهادات على ذلك . انا جندي

* كان الكولونيل بونميرسي قد قال لتيناردييه ، وقد توهم انه اقبل لانتفاذه ،
« إن اسمي بونميرسي » كما رأينا من قبل . ويبدو انه لم يسمع من ذلك الاسم
الا جزاء الاخير وهو الجزء الذي يؤدي معنى الشكر .

** رسام فرنسي مشهور ، ولد في باريس ، ومات متفياً في بروكسيل (١٧٤٨ -
١٨٢٥) وفي عهد الامبراطورية كان رسام نابليون الخامس .

من جنود واترلو ، اسم من الف اسم ! والآن ، وقد حملتني الطبيعة على إخبارك بهذا كله ، دعنا نضع حداً للمسألة . يجب ان احصل على المال ؛ يجب ان احصل على مقدار هائل من المال ، وإلا قضيتُ على حياتك ، وحقّ رعود الله ! »

كان ماريوس قد سيطر ، بعض الشيء ، على قلقه البالغ ، وانشأ يصفي . كان آخر احتمال من احتمالات الشك قد تلاشى . كان من غير شك تيناردييه الوصية . وارتعد ماريوس لذلك التوبيخ الذي وُجّه الى أبيه بسبب من نكرانه للجميل ، والذي كان على وشك ان يقدم تبريراً فاجعاً له منذ لحظات . وتعاضم ارتبأكه ؛ والى هذا ، فقد كان في كلمات تيناردييه هذه كلها ، في جرسه ، في إيماءاته ، في عينيه اللتين أطلقنا اللهب مع كل كلمة - كان في انفجار هذه الطبيعة الشريرة الكاشفة عن حقيقتها كلها ، في هذا المزيج من الصلف والدناءة ، من الفرور والحقارة ، من الغيظ والحماقة ، في هذا الخليط المشوش من الشكاوى الحقيقية والعواطف الزائفة ، في هذه الوقاحة التي تكشف عنها رجلٌ شرير تدوّق حلاوة العنف ، في ذلك العري الذي تبدّت عليه نفسٌ شنيعة ، في ذلك الاضطرام الذي عصف بالآلام كلها وقد اتحدت بالبعض كله ؛ كان في هذه جميعاً شيء فظيعٌ كالشرّ ، موجع كالحقيقة .

ولم تكن اللوحة التي رسمها استاذ من اساتذة الفن ، الصورة التي ابدعها دافيد ، والتي عرض على مسيو لوبلان شراءها ، لم تكن - كما قد حزر القاريء - شيئاً غير لافتة مطعمه الخفير ، وقد رسمها هو كما نذكر بريشته ، وكانت الأثر الأوحده الذي استخلصه من افلاسه في مونفيرماي . وإذا لم يعد يعترض خطّ بصر ماريوس ، فقد صار في امكان ماريوس الآن ان يرى الى ذلك الشيء ؛ وفي طلي الحيطان ذاك تبين معركة ، فعلاً ، وخلفية من دخان ، ورجلاً يحمل رجلاً . لقد التقى فيها تيناردييه

وبوغيرسي ؛ الرقيب المنقذ ، والكولونيل المنقذ . وبدا ماريوس أشبه بالسكران . لقد أعادت هذه الصورة اباه ، بطريقة ما ، الى الحياة . لأنها لم تعد الآن لافتة فندق مونفيرماي ؛ كانت بعضاً . فيها انفتح ثابوت نصف فتحة ، ومنها انتصب طيف . وسمع ماريوس قلبه يدق بين صدغيه ، وسمع مدفع واترلو يدوي في أذنيه . كانت صورة ابيه الدامية المرسومة على نحو باهت في هذا اللوح القاتم قد أذهلته ؛ ولقد بدا له وكأن هذا الظل المشوه كان يجذب اليه على نحو موصول .

وحين اخذ تيناردييه نفساً ركز عينيه الداميتين على ميو لوبلان ، وقال في صوت خفيض خاطف :

- « ما الذي تريد ان تقوله قبل ان نبدأ الرقص معك ؟ »

ولم يقل ميو لوبلان شيئاً . وفي غمرة من هذا الصمت ، طرح صوت أجش ، مقبل من ناحية الرواق ، هذه السخرية المأتمية :

- « إذا كان الأمر يستدعي تشيف حطبي ما ، فأنا هنا ! »

كان الرجل الحامل مطرقة الجزار يتندّر .

وفي الوقت نفسه برز وجه ضخم ، شائك ، قدر ، لدى الباب ، وهو يضحك ضحكاً لم يكشف عن اسنان ، ولكن عن كلابيب .

كان وجه الرجل حامل مطرقة الجزار .

وصاح تيناردييه في ضراوة :

- « لماذا نزع القناع عن وجهك ؟ »

فأجابه الرجل :

- « لكي اضحك ! »

وطوال بضع لحظات ، بدا ميو لوبلان وكأنه قد تتبع وراقب جميع حركات تيناردييه الذي راح ، وقد أمماه غيظهُ وأذهله ، يذرع الوكر جيئة وذهاباً ، في ثقة مستوحاة من الشعور بأن الباب كان

محروساً ، وانه يمين وهو متصلح على رجل اعزل من السلاح ، وانه
وجاعته يشكلون تسعة الى واحد ، حتى ولو اعتبرت تينارديه الزوجة
بثابة رجل واحد ليس غير . وفي حديثه ذلك مع الرجل ذي
المطرقة التي يصطنعها الجزارون لقتل الثيران أدار ظهره لمسيو لوبلان .
واغتم مسيو لوبلان الفرصة السانحة ، ودفع الكرمي بقدمه ، والطاولة
بيده ؛ وبوثبة واحدة ، تمور برمشاة اعجوبية ، قبل ان يتمكن
تينارديه من ان يستدير ، انتهى الى النافذة . ولم يستغرق فتحها ،
وتسلق دعامتها ، وتخطتها غير ثانية واحدة . وما إن اصبح احدى
قدميه خارج الغرفة واحداها داخلها ، حتى امسكت به ستايد
قوية ، وردته الى الغرفة في قوة . كان « دكاترة المداخن » الثلاثة قد
وثبوا عليه . وفي الوقت نفسه ، كانت تينارديه الزوجة قد انثبت
اظفارها في شعره .

وفي غمرة الاضطراب الذي نشأ عن ذلك ، هرع قطاع الطرق الآخرون
من الرواق . ونزل العجوز - الذي كان فوق السرير والذي بدأ صريع
الحجر - عن الفراش الحقيق ، وتقدم متلماً سبيله ، حاملاً بيده مطرقة
معبد طرق .

ورفع واحد من « دكاترة المداخن » اضاعت الشمعة وجهه الاسود
وعرف فيه ماريوس برغم هذا الطلاء ، بانشو المعروف بـ « برينتايبه »
وبـ « بيغروناي » ايضاً - نقول رفع ذلك « الطيب » نبوتاً مصنوعاً
من قضيب حديدي ذي كتلة رصاصية في كل من طرفيه فوق رأس
مسيو لوبلان .

ولم يستطع ماريوس أن يحتمل هذا المشهد . وقال في ذات
نفسه : « إغفر لي ، يا أبت ! » وتلمس أصبعه زناد المدس
الصغير . وكانت الرصاصية على وشك ان تنطلق حين صاح صوت
تينارديه :

- « لا توقعوا به أيّ اذى ! »

كانت هذه المحاولة اليائسة التي قامت بها الضحية ، وقد عجزت عن إثارة سخط تيناردييه ، قد هدأت من غلوائه . كان في ذات نفسه رجلاً ، الرجل الضاري ، والرجل الداهية . وحتى تلك اللحظة ، في غمرة النصر ، وأمام فريسته المصعوقة غير المبيدة حراكاً ، كان الرجل الضاري هو صاحب اليد العليا . فما إن قاومت الضحية ، وبدأت راغبةً في النضال ، حتى برز الرجل الداهية من جديد واستعاد سلطانه .

وكرر :

- « لا توقعوا به أيّ اذى ! »

ومن غير ان يعي شيئاً من ذلك كانت أولى نتائج هذه الكلمة أن اوقفت المسدس الصغير الذي كان على وشك الانطلاق ، وشلت ماريوس الذي بدا له ان الألاح قد زال ، والذي لم يعد يرى حرجاً في الانتظار فترة اخرى . ومن يدري فقد تنشأ مصادفة تنقذه من هذا الحيار الرهيب بين أمرين : أن يدعّ والد أورشول يهلك ، أو أن يهلك منقذ الكولونيل !

كان صراع جبّار قد بدأ . وبضربة واحدة على أمّ الصدر ، طوح مسيو لوبلان الرجل العجوز متدحرجاً وسط الغرفة ، ثم بضربتين من ظاهر يده صرعَ معتديّين آخرين وأمسك بكل منهما تحت إحدى ركبتيه ؛ وصرخ الندلان تحت ذلك الضغط وكأنما كانا تحت رحى من الصوان . ولكن الاربعة الآخرين كانوا قد امسكوا بالعجوز الرهيب من ذراعيه ورقبته ، وأبقوه جالساً القرفصاء فوق « دكتورى المداخن » المدعورين . وهكذا فأن مسيو لوبلان - وكان مسيطراً على هذين الاخيرين مسيطراً عليه من اولئك الاولين ، ساحقاً اللذين كانا تحته ومختنقاً من اولئك الذين كانوا فوقه ، محاولاً على غير طائل ان يززع

جميع تلك الجهود التي تكدمت عليه - نقول وهكذا فانت مسيو لوبلان اخفتى تحت تلك المجموعة الرهيبية من قطاع الطرق ، مثل خنزير بري تحت كومة عاويةٍ من الكلاب الكبيرة الرؤوس ، وكلاب القنص الضارية .

ووقفوا الى طرحه على السرير الأقرب الى النافذة وتشبثوا به هناك في تهيّب . كانت تيناردييه الزوجة لم تُفقت شعره بعد .
وقال تيناردييه :

- « أنتِ ! لا تتدخلى في هذه المسألة . سوف يتزق مثالك . »
وامتمت تيناردييه الزوجة أمر بعلمها ، كما تمثت الذئبة أمر الذئب ،
في زججة .

واستأنف تيناردييه كلامه :

« وانتم الباقون ... هيا فتشوا جيوبه ! »

وبدا مسيو لوبلان وكأنه اطّرح المقاومة . وفتشوا جيوبه . فلم يجدوا فيها غير كيس نقود جلديّ منطويّ على ستة فرنكات ،
ومنديله .

ووضع تيناردييه المنديل في جيبه .
وتساءل :

- « ماذا ؟ لا حافظة اوراق نقدية ؟ »

فأجابه احد « دكاترة المداخن » :

- « حتى ولا ساعة ! »

فغمغم الرجل المقتع ذو المفتاح الضخم ، وكأنما يخرج صوته
من بطنه :

- « سيان . إنه شكسٌ عجوز ! »

ومضى تيناردييه الى الزاوية المجاورة للباب ، وتناول حزمة من الحبال
قذف بها اليهم .

وقال :

- « اوثقوه الى مؤخر السرير . »
حتى اذا لمح الرجل العجوز المنطرح ، عبرَ الغرفة ، وقد صرخته
الضربة التي سدّدها اليه مسيو لوبلان بجمع كفه ، تسأل :

- « هل مات بولاتروويل ؟ »

فأجاب بيغروفاي :

- « لا ، إنه سكران . »

فقال تيناردييه :

- « اكنفوه الى احدى الزوايا . »

ودفع رجلان من « دكاترة المداخن » بأقدامهما ، الرجلَ التملّ حتى
كرومة الحدائد العتيقة .

وقال تيناردييه موجهاً الكلام ، في همس ، الى الرجل ذي المراوة :

- « بابيه ! لماذا حدثت هؤلاء القوم كلهم ؟ لم يكن من حاجة

الى ذلك . »

فأجاب الرجلُ ذو المراوة :

- « ماذا تريد ان افعل ؟ لقد ارادوا كلهم ان يشتركوا في ذلك .

الموسم رديء . ليس هناك أشغال . »

كانت الحشبة التي 'قلبت على مسيو لوبلان شبهَ سرير من سُمر
المستشفيات ذي أربع قوائم خشبية ضخمة تكاد ان تكون مربعة . ولم
يُبدِ مسيو لوبلان مقاومة ما . وأوثق قطاع الطرق رباطه ، وقد انتصب
واخفاً ورجلاه فوق الارض ، الى قائمة السرير الاشدّ بعداً عن النافذة ،
والأشدّ قرباً الى الموقد .

وحين أحكموا العقدة الاخيرة اخذ تيناردييه كرسياً ، وتقدّم
فجلس تجاه مسيو لوبلان تقريباً . كانت سيّاه قد تغيرت تغيراً كاملاً ؛
فهي بضع ثوانٍ تحولت اساور وجهه من العنف الجامح الى الرقة الوداعة

الماكرة . وكاد ماريوس لا يتبين في تلك الابتسامة الكئيبة الجديرة
برجل من رجال الدواوين ، ذلك الفمَ الوحشي او يكاد ، الذي كان
يُرغمي ويزبد قبل لحظة . لقد نظر في ذهول الى هذا التحول الغريب
الموجع واستشعر ما يستشعره امرؤ يرى نمرأً ينقلب الى وكيل
دعاوى .

وقال تيناردييه .

- « سيدي . »

وبأيماءة ، مَرَّحَ قطاعَ الطرق الذين كانوا ما يزالون منشبين بمسيو
لوبلان ، قائلاً :

- « ابتعدوا قليلاً ، ودعوني اتحدث الى السيد . »

وانسحبوا كلهم نحو الباب . واستأنف تيناردييه كلامه :

- « سيدي ، لقد اخطأتَ في محاولة الرئوب من النافذة . كان من
الجانز ان تكسر رجلك . والان ، اذا شئت فسوف نتحدث في
سكينة . وقبل كل شيء ، يجب عليّ ان انبهك الى هذه الحقيقة التي
لاحظتها ، وهي انك لم تطلق حتى الان اقلّ صيحة . »

وكان تيناردييه على صواب . فقد كانت هذه الملاحظة صحيحة ، على
الرغم من أنها فاتت ماريوس ، في غمرة من القلق الذي استحوذ عليه .
كان مسيو لوبلان قد نطق ببضع كلمات من غير ان يرفع صوته .
وحتى في صراعه ، قرب النافذة ، مع قطاع الطرق الستة ، كان قد التزم
اصمق الصمت وأعجبه . وتابع تيناردييه :

- « يا الهي ! كان في ميسورك ان تصيح قليلاً : « اللص !
الاص ! » اذ ما كنت لاجد في ذلك شيئاً غير ملائم . او ان تصيح :
« السفاح ! السفاح ! » فهذا يقال بين الفينة والفينة ، أما انا فما كنت
لأفسرها تفسيراً رديئاً . فمن الطبيعي جداً ان يحدث الانسان ضجعة
صغيرة حين يجد نفسه مع اشخاص لا يوحون اليه بقدر كافٍ من الثقة .

كان في إمكانك ان تفعل ذلك ، فلا نحاول ان نزعجك . بل لانحاول ان نكلمك . وسأقول لك لماذا . لأن هذه الغرفة صماء جداً . هذا كل ما استطيع ان اقله عنها ، ولكنني استطيع ان اقول ذلك . إنها مغارة . في استطاعتنا ان نفجر قبلة هنا ، فنتسنع عند اقرب مركز للحرس وكأنها عظيم' سكران . هنا يعمل المدفع 'بم' ويعمل الرعد 'بف' . هذا مأوى مريح . ولكنك ، على الجملة ، لم تصرخ . هذا أحسن . إني اقدم اليك تهنئي على ذلك ، وسوف اقول لك اي شيء أستنتجه من هذا : يا سيدي العزيز ، حين يصرخ المرء من الذي يأتي ؟ البوليس . وبعد البوليس ؟ العدالة . حن ! انت لم تصرخ . لانك لم تكن راغباً ، اكثر منا نحن ، في ان ترى العدالة والبوليس يأتيان . لأن الك - ولقد ارتبت في ذلك منذ زمن طويل - مصلحة ما في إخفاء شيء ما . ونحن نشاركك هذه المصلحة . واذن ، ففي استطاعتنا ان نتفاهم .

وفيما هو يتحدث هكذا ، بدا وكأن تيناردييه ، الممر بصره على ميو لوبلان ، كان يحاول ان يُنفذ الحناجر ، التي انطلقت من عينه ، الى ضمير أسيره نفسه . والى هذا ، فقد كانت لغته ، المطبوعة بضرب من السفاهة المكظومة المرائية ، متحفظة بل متخيرة تقريباً . وفي هذا الوغد الذي لم يكن من قبل غير قاطع طريق ، كان في ميسور المرء الآن ان يلح الرجل الذي يدرس لكي يصبح كاهناً .

وكان الصمت الذي لزمه الأسير ، وذلك الحذر الذي اصطنعه الى حد تمريض حياته للخطر ، وهذه المقاومة لاول حافز من حوافز الطبيعة ، وهو اطلاق صيحة ما - كان هذا كله ، كما يتعين علينا ان نقول ، بعد ان أبدت هذه الملاحظة ، قد أقلق ماربوس وادشه على نحو أليم .

وكان في ملاحظة تيناردييه ، الحسنة الاساس ، ما ضاعف في عيني ماريوس السُّحْبَ الحَفِيَّةَ التي تعلّفت هذا الوجه الرصين الغريب الذي اطلق عليه كورفيراك لقب مسيو لوبلان . ولكن اياً ما كانت حاله - مؤثقاً بالحبال ، مطوّقاً بالسفاحين ، نصف مدفون ، اذا جاز التعبير ، في قبر كان يزداد تحته عمقاً في كل لحظة ، أمام هياج تيناردييه او امام رقته - فقد ظل هذا الرجل بمتنعاً على الألم ، ولم يستطع ماريوس ان يكبت في مثل تلك اللحظة اعجابه بذلك الوجه الكئيب على نحو بهي .

هنا كانت ، من غير شك ، نفس لا يتطرق اليها الخوف ، ولا تعرف الذعر . وهنا كانت واحد من اولئك الرجال الذي هم فوق الدهش في المواقف اليائسة . فهما تكن الأزمة حادة ، ومهما تكن الكارثة محتومة ، فلم يكن على وجهه شيء من نزع الرجل الفریق المحدث بعينين مروءتين فيما هو يفوص الى الامايق .

ونفض تيناردييه في هدوء ، ومضى الى الموقد ، وازاح الستار الحاجز مسنداً اياه الى الحشية الاكثر قرباً ، كاشفاً القناع بذلك عن الكانون الطافح بالجرات المتوهجة حيث كان في استطاعة الاسير ان يرى ، بوضوح ، الى الازميل حامياً حتى البياض ، تنقطه هنا وهناك نجوم قرمزية صغيرة .

ثم تراجع تيناردييه ، وجلس الى جانب مسيو لوبلان .
وقال :

- « أتابع الحديث . في استطاعتنا الان ان نصل الى تفاهم . دعنا نسوّي هذه المسألة ودياً . لقد اخطأت عندما استسلمت للامعة للانفعال . انا لا ادري اين كان عقلي ؛ لقد ذهبت الى ابعد مما يجب ؛ لقد كنت أهذي . فمثلاً ، لأنك مليونير قلت لك اني محتاج الى مال ، الى مبلغ كبير من المال ، الى مبلغ هائل . فلعل هذا غير معقول .

يا السهي ! فهما تكن غنياً فان عندك نفقاتك . وايّ منا لا نفقات
عنده . انا لا اريد ان أزل الحراب بك ؛ وانا لست موظفاً مهمته
القاء القبض على المتخلفين عن دفع الديون ، على كل حال . انا لست
إلا واحداً من اولئك الذين اذا وجدوا انفسهم في وضع افضل من
وضع الحشم افادوا من ذلك لكي يكونوا مضحكين . وها انا راغب في
السير نصف الطريق ، والقيام ببعض التضحية من جانبي . انا لا اطلب
غير مئتي الف فرنك .

ولم يفس مسيو لوبلان بكلمة واحدة . وتابع تيناردييه كلامه :
- « انت ترى اني اخفف من غلوائني كثيراً . أنا لا اعرف
حقيقة ثروتك ، ولكنني أعلم انك لا تبالي كثيراً بالمال ، ورجلٌ يحب
للخير مثلك لن يبخل بمئتي الف فرنك على ربّ اسرة بائس فقير . وانت
منطقيّ من غير شك ، فلست تتخيل اني تجشمت ما تجشمته اليوم من
عناء ، ونظمت حادث هذا المساء ، وهو تديير بارع في رأي هؤلاء
السادة كلهم ، لكي اطلب منك ما يكفيني للذهاب واحتساء كأس
بخمسة عشر « سو ، من الخمر الحمراء ، وأكل لحم العجل بطعم
دينواوييه . إن مئتي الف فرنك تعويض كافٍ . ومتى خرج هذا
المبلغ النافه من جيبك اؤكد لك ان كل شيء قد انتهى ، وانك لن
تحشى بعد ذلك ضربةً بطرف السبابة . وستقول لي : ولكن ليس في
جيبى مئتا الف فرنك ! اوه ! انا لا اتجاوز الحدّ . انا لا اطلب
ذلك . اني لا اسألك غير شيء واحد . فتلطّف واكتب ما سألميه
عليك . »

وهنا تمهل تيناردييه ، ثم أضاف مؤكداً كل كلمة ، مرسلًا ابتسامه
نحو الموقد :

- « احيطك علماً بأنني لن أسلمّ مطلقاً بانك لا تعرف الكتابة .
كان خليفاً بمعق قضايى كبير ان يجسده على تلك الابتسامه .

ودفع تيناردييه الطاولة حتى حاذت مسيو لوبلان ، واخرج من
دوجها دواة ، وقلماً ، وورقة مبقياً الدرج مفتوحاً نصف فتحة ، وقد
اومضت فيه شفرة المدية الطويلة .
ووضع الورقة امام مسيو لوبلان .
وقال :

« اكتب ا »

وتكلم الأسير آخر الأمر :

« وكيف تريد مني ان اكتب ؟ أنا مقيد . »
فقال تيناردييه :

« هذا صحيح ، اعذرنى ا أنت على حق ا »

والتفت الى بيغروناي وقال :

« فك ذراع السيد اليمنى . »

ونفذ بانشو ، المعروف بـ « بريتانييه » وبـ « بيغروناي » أمر
تيناردييه . حتى اذا أطلقت يد الأسير اليمنى من وثاقها غمس تيناردييه
الريشة في الحبر ، وقدّمها اليه ، قائلاً :

« تذكر ، يا سيدي ، انك في قبضتنا ، نعت تصرفنا المطلق ،
وأنة ما من قوة بشرية تستطيع ان تتزعك من هنا ، وانه سوف
يسوءنا حقاً ان نضطر الى اللجوء الى بعض الاجراءات المتطرفة البغيضة
الينا . أنا لا اعرف اسمك ، ولا اعرف عنوانك ، ولكنني انبهك الى
انك سوف تبقى موثقاً حتى يعود الشخص المكلف بنقل الرسالة التي
نوسك ان تكتبها . والان تلتف واكتب . »

فتساءل الاسير :

« ماذا ؟ »

« سوف أملي عليك . »

وتناول مسيو لوبلان الريشة .

- وبدا تيناردييه علي :
- « ابنتي ... »
وارتعد الأسير ، ورفع عينيه الى تيناردييه .
وقال تيناردييه :
- « وضع : ابنتي العزيزة . »
وامتثل مسيو لوبلان .
وتابع تيناردييه :
- « تعالي في الحال ... »
وقاطع نفسه متسائلاً :
- « انت تخاطبها بضمير المفرد ، اليس كذلك ؟ »
فساله مسيو لوبلان :
- « من ؟ »
فقال تيناردييه :
- « يا السهي ! الفتاة الصغيرة ، القبرة . »
واجاب مسيو لوبلان من غير ان يبدو عليه اقل اشارة من امارات
الانفعال :
- « انا لا أدري ماذا تعني . »
فقال تيناردييه :
- « حسن ، تابع الكتابة . »
واستأنف الاملاء :
- « تعالي في الحال . انا في حاجة ماسة اليك . إن الشخص الذي
سيقدم اليك هذه المذكرة مكلف بأن يقودك اليّ . أنا في انتظارك .
تعالي في ثقة . »
- وكان مسيو لوبلان قد كتب ذلك كله . واطاف تيناردييه :
- « آه ، اسطب تعالي في ثقة ، فقد يقودها هذا الى الاعتقاد بأن

المسألة ليست في غاية البساطة ، وأن عدم الثقة ممكن . ،
ومحا مسيو لوبلان الكلمات الثلاث .

وتابع تيناردييه :

- « والآن ، وقّع . ما اسمك ؟ »

واطّرح الأسير الريشة ، وسأل :

- « الى من هذه الرسالة ؟ »

فأجاب تيناردييه :

- « انت تعرف ذلك جيداً . الى الفتاة الصغيرة . لقد قلت لك

هذا منذ لحظة . »

كان واضحاً ان تيناردييه قد تجنب تسمية الفتاة الشابة موضوع

السؤال . لقد قال : « القبّرة » ؛ وقال : الفتاة الصغيرة ، ولكنه

لم يلفظ الاسم . حذّرُ رجلٍ ما كريسون سره امام شركائه في الجريمة .

فلو قد نطق بذلك الاسم اذن لأسلم « المسألة كلها » اليهم ، ولأخبرهم

بأكثر مما ينبغي لهم ان يعرفوه .

واستأنف كلامه :

- « وقّع . ما اسمك ؟ »

فقال الأسير :

- « اوربان فابر . »

وبحركة مثل حركة الهرة اقمع تيناردييه يده في جيبيه ، وأخرج

منها المنديل الذي انتزعه من مسيو لوبلان . وبحث عن العلامة التي

يحملها ، وقرّبها من الشمعة .

- « أ . ف . U . F . ذلك هو . اوربان فابر . حسناً ، وقّع :

أ . ف . »

ورقع الأسير .

- « ولما كان المرء يحتاج الى يديه الاثنتين لطّي الرسالة ، فأعطني

اياها . سوف أطوحها انا . »

حتى اذا تمّ له ذلك استأنف الحديث :

« وضع العنوان . الانسة فابر ، في منزلك . أنا اعرف انك تسكن في مكان غير بعيد جداً من هنا ، في جوار « سان جاك دو هو با » ، ما دمت تذهب الى هناك لحضور القداس كل يوم ، ولكني لا أعرف في ايّ شارع . أنا ارى انك تفهم وضعك . واذ كنت لم تكذب في ما يتصل باسمك ، فلن تكذب في ما يتصل بعنوانك . ضعه انت نفسك . »

واعتصم الأسير بالتأمل لحظةً ، ثم تناول الريشة وكتب :

« الانسة فابر ، منزل مسيو اوربان فابر ، شارع سان دومينيك دانفير ، رقم ١٧ . »

وامسك تينارديه بالرسالة في ضرب من التشنج المحموم .

وصاح :

« ابنتها الزوجة ! »

فاندفعت تينارديه الزوجة نحوه .

« هي ذي الرسالة . انت تعرفين ما يتعين عليك ان تفعله .

هناك عربة اجرة تحت . اذهبي في الحال ، وأرجعي في الحال . »

ووجه الخطاب الى الرجل ذي المطرقة الخاصة بقتل الثيران ، قائلاً :

« إسمع ، ما دمت قد نزعتم لثامك فاذهب مع المرأة . سوف

تركب خلف عربة الاجرة . انت تعرف ابن فارقت « العربة الصغيرة » .

فقال الرجل :

« نعم . »

وألقى مطرقة في احدى الزوايا ، وتبع تينارديه الزوجة .

وفياهما بمضيان لسيلهما ، أطلّ تينارديه برأسه من خلال الباب

نصف المفتوح ، وصاح في الرواق :

« حذار قبل كل شيء ان تضيعا الرسالة ! تذكرنا انكما نعملان
مشتي الف فرنك . »

فأجابه صوت زوجته الأجنس :

« كن مطمئناً . لقد وضعتها في صدري . »

ولم تكذب تنقضي دقيقة واحدة حتى سمعت ضربة سوط ما لبثت
ان ضعفت ثم تلاشت وشيكاً .
فغمغم تيناردييه :

« حسن ! إنها منطلقان في سرعة صالحة . وهذه السرعة سوف
ترجع المرأة في ثلاثة ارباع الساعة . »

وقرب كرسياً الى الموقد ، وجلس ، طاوياً ذراعيه ، رافعاً حذاءه
الملطخ بالوحل الى الكانون .
وقال :

« قدماي باردتان . »

لم يكن قد بقي في الوكر ، الان ، غير خمسة قطاع طرق مع
تيناردييه والأسير . وكان هؤلاء الرجال - بأفئنتهم او بالطلاء الأسود
الذي غطى وجوههم وجعلهم ، وفقاً لما يوحى الخوف ، فحامين او
زنوجاً او أبالسة - ذري مظهر خدر كالح ، وكان خليقاً بمن يراهم أن
يعتقد أنهم يقدمون على ارتكاب جريمة كما يقدمون على القيام بأي عمل
تافه من غير ما غضب ومن غير ما رحمة ، في ضرب من الضجر .
كانوا مكذابين في احدى الزوايا كالبهايم ، وكانوا صامتين . كان
تيناردييه يديفه قدميه . وكان الأسير قد اعتصم بالصمت من جديد .
وكانت سكينه مظلمة قد عقببت الجلبة التي ملأت العملية قبل بضع
لحظات .

وكانت الشمعة التي تكوّن فيها نؤلول ضخّم لا تكاد تضيء الوكر
الواسع الا بشقّ النفس ، وكانت النار قد خمدت ، والقت جميع تلك

الرؤوس الفظيعة ظللاً هائلة على الجدران وعلى السقف .
 ولم يكن في الامكان سماع أيما صوت غير صوت الانفاس الهادئة
 التي أطلقها العجوز السكران ، وكان مستسلماً للرقاد .
 وانتظر ماريوس في قلق كان كل شيء يزيده حدّة . كانت الاحجية
 ممتعة على التفسير اكثر منها في ايما وقت مضى . من كانت هذه
 « الصغيرة » التي دعاها تيناردييه « القبرة » ايضاً ؟ اهي فتاته
 « أورشول » ؟ ولم يبدُ على وجه الأسير انفعال ما لدن سماعه هذه
 الكلمة ، القبرة ، وأجاب باكثر ما يكون من الطبعية : انا لا ادري
 ماذا تعني . ومن ناحية ثانية ، فقد فُسر الحرفان أ . ف . U . F .
 كانا يرمزان الى « أوربان فاير » ، ولم تكن أورشول تدعى أورشول .
 ذلك كان الشيء الذي رآه ماريوس باكثر ما يكون من الوضوح .
 وأبقاه ضربٌ من السحر المروع مسمراً في المكان الذي راقب منه
 هذا المشهد كله وهيمن عليه . كان عاجزاً ، تقريباً ، عن التفكير
 والحركة ، وكانما قد محقته هذه الاشياء الرهيبة التي كان يراها عن
 كذب . كان ينتظر ، مترقباً ان يقع حادث من الحوادث ، كأنما ما
 كان ، غير قادر على ان يجمع شتات افكاره ، وغير عالم ايّ مسلك
 ينبغي ان يملك .

وقال :

« وعلى اية حال ، اذا كانت القبرة هي اياها ، فسوف أراها من
 غير شك ، لأن تيناردييه الزوجة سوف تجيء بها الى هنا . وعندئذ يصعب
 كل شيء واضحاً . إني مستعد لأن ابذل دمي وحياتي ، عند الحاجة ،
 ولكنني سوف أنقذها ! لن يحول بيني وبين ذلك شيء على الاطلاق . »
 وتصرّمت على هذا النحو ثلاثون دقيقة . وبدا تيناردييه مستغرقاً في
 تأمل مظلم . ولم يتحرك الأسير . ومع ذلك ، فقد حسب ماريوس
 انه سمع ، بين الفينة والفينة ، وطوال بضع لحظات ، ضجة صغيرة

بكاء مقبله من ناحية الأسير .

وفجأة وجه تينارديه الخطاب الى الأسير :

- « ميو فابر ، إنتبه الى ما سأقوله لك في الحال . »

ووجد ماريوس في هذه الكلمات القليلة بصيصاً من النور ، فأصفي

في انتباه . وتابع تينارديه حديثه :

- « إن زوجتي سوف ترجع وشيكاً ، فلا تكن عجولاً . وأنا

اعتقد أن القبرة هي ابنتك حقاً ، وأجد ان من الطبيعي جداً أن

تحرص على الاحتفاظ بها . ولكن اسمع لحظة . برسالتك تلك ، سوف

تعثر زوجتي عليها . ولقد قلت لزوجتي ان تكون حنة البزة ، كما

رأيت ، لكي تلحق بها آنتسك الصغيرة من غير تردد . ولسوف تركبان

معاً عربة الأجرة التي يتعلق رفيقي بمؤخرتها . وهناك في مكان ما

خارج احد ابواب المدينة ، عربة تُشد إليها فرسان أصيلان . سوف

تقودان آنتسك الصغيرة الى هناك . ولسوف تترجل من العربة . وعندئذ

يركب رفيقي العربة الاخرى معها ، وتعود زوجتي الى هنا لكي تقول

لنا « قضي الأمر . » أما آنتسك ، فلن يُنزلَ بها اذىً ما . ان

العربة سوف تسوقها الى مكان تنعم فيه بالهدوء ، وما إن تعطيني المشتي

الف فرنك ، هذا المبلغ الصغير ، حتى تعاد الآنة اليك . واذا ما

ابلغت الشرطة فاعتقلتنني ، فعندئذ يقرص رفيقي القبرة فرصة ، هذا

كل ما هناك . »

ولم ينبس الأسير ببنت شفة . وبعد تمهل ، استأنف تينارديه كلامه :

- « المسألة بسيطة ، كما ترى . لن يكون ثمة اذىً الا اذا شئت

أنت ان يكون . هذه هي القصة كلها . لقت ووبت لك كل شيء ،

لكي يكون على بيثة من امرك . »

وصمت . ولم يقطع الأسير حبل الصمت ، فأردف تينارديه :

- « بما إن ترجع زوجتي وتقول : « القبرة على الطريق ، حتى

نطلق سراحك ، وعندئذ يكون في إمكانك ان تذهب الى بيتك وتنام .
انت ترى أننا لا نضمر نيات سيئة .

وتعاقبت على عقل ماريوس صوراً رهيبه . ماذا ؟ هذه الفتاة الشابة
التي يعتزمون اختطافها ، لن يجيئوا بها الى هنا ؟ إن واحداً من هؤلاء
الغيلان سوف يسوقها تحت جناح الظلام ؟ الى اين ؟ ... واذا كانت هي !
وكان واضحاً أنها هي . واستشعر ماريوس ان قلبه يكف عن الحققان .
ما الذي ينبغي ان يعمله ؟ يطلق الرصاص من المدس الصغير ؟ أيلقي
بهؤلاء الأوغاد كلهم في يد العدالة ؟ ولكن الرجل الفظيع ذا المطرقة
سوف يكون بعيداً عن متناول البوليس مع الفتاة الشابة . وتذكر
ماريوس كلمات تيناردييه هذه التي حزر ما انطوت عليه من مغزى
دموي : اذا أبلغت الشرطة فاعتقلني فعندئذ يقمص رفيقي القبرة
قروصة .

والان لم تعد وصية الكولونيل وحدها هي التي تغلّ يده . لقد
غلّ يده فوق ذلك ، حبه نفسه ، والخطر المهدق بتلك التي احبها .
وفي كل لحظة ، اتخذت هذه الحالة الرهيبه ، التي نشأت منذ ساعة
او يزيد ، مظهراً جديداً . ووجد ماريوس القوة على استعراض مختلف
الافتراضات الموجعة ، على التعاقب ملتصقاً املاً ما ، غير واجد ذلك
الأمل . وتفايرت جلبة أفكاره تفايراً غريباً مع صمت الوكر المأتمني .
وفي غمرة من هذا الصمت سُمع صوت باب السلم يُفتح ، ثم يُغلق .
وقام الأسير بجرعة في قيوده .

وقال تيناردييه :

- « ها قد أقبلت السيدة . »

ولم يكذب يقول ذلك حتى اندفعت تيناردييه الزوجة الى الغرفة ،
حراء ، مبهورة ، لاهثة ، ملتعبة العينين ، وصاحت لاطمة شفتيها
بكلتا يديها في آنٍ معاً :

- « عنوان كاذب ! »

ودخل قاطع الطريق الذي قاده معها ، على اثرها ، وتناول مطرقته الحاصة بقتل الثيران ، من جديد .
وكرر تيناردييه :

- « عنوان كاذب ؟ »

وتابعت :

- « لا أحد ! شارع سان دومينيك ، رقم سبعة عشر ، لا يوجد شخص اسمه اوربان فاير ! لم يعرف احد من هو هذا الرجل ! »
وصمتت وقد غصت بريقها . ثم استأنفت كلامها :

- « مسيو تيناردييه ! إن هذا الرجل المعجوز قد خدعك ! انت ساذج اكثر مما ينبغي ، رأيت ؟ ! لو كنت مكانك لبدأت بتمزيق فكه الى اربع قطع ! ولولا انه قبيح ، لكان جديراً بي أن أطبخه حياً ! وعندئذ كان يجد نفسه مضطراً الى الكلام ، والى ان يقول اين الفتاة ، واين المال المحبوه ! هكذا أتأتى للأمر ! فلا عجب اذا ما قالوا ان الرجال اشدّ بلاهة من النساء ! لا أحد ! رقم سبعة عشر ! إنه باب كبير من ابواب العربات ! لا مسيو فاير في شارع سان دومينيك ! والفرسان ينطلقان باقصى السرعة ، والرشوة الى السائق ، وكل شيء ! لقد تحدثت مع البواب والبوابة ، وهي امرأة جميلة قوية ، فلم يعرفا الرجل . »

وتنفس ماريوس الصعداء . كانت هي ، أورشول أو القبرة - تلك التي لم يَعدْ يعرف بِمَ يدعوها - قد نجت .

وفيا كانت زوجته الساخطة تصيح ، جلس تيناردييه على الطاولة . لقد جلس بضع ثوانٍ غيرَ ناطقٍ بكلمة ، مؤرجحاً ساقه اليسنى ، المتدلّية ، محدّقاً الى الكانون وقد طَفَّتْ على وجهه سياً وحشية من الاستغراق في التفكير .

وأخيراً قال للأسير مغيّراً نبرةً صوته تغييراً بطيئاً وضارياً على نحو فريد :

- « عنوان كاذب ! ما الذي كنت ترجوه من وراء ذلك ؟ »
فصاح الأسير في صوت مجلجل :

- « ان اكسب الوقت ! »
وهزّ ، في الوقت نفسه ، القيود المكبّل بها . كانت قد قُطّعت . ولم يعد الأسير موثقاً الى السرير إلا برجلٍ واحدة . وقبل ان يجد الرجال السبعة متسعاً من الوقت يصنعون فيه من الدهش ، ويثبون على الأسير كان هو قد انحى نحو الموقد ، وبسط يده في اتجاه الكانون ، ثم نهض ، فاذا بتينارديه ، وتينارديه الزوجة ، وقطاع الطرق ، وقد قذفت بهم الصدمة الى مؤخر الغرفة ، يحدقون اليه في انشدهاء ، رافعاً فوق رأسه الازميل المتقد ، المرسل ضياءً مشؤوماً ، متمتعاً بجريته تقريباً في وضع رهيب .

وعند التحقيق القضائي الذي استتبعه كمين بيت غوربو العتيق ظهر أن قطعة نقدية كبيرة من فئة الـ « سو » ، مقطوعةً ومعالجةً على نحو فريد ، قد وُجدت في العلّية عندما داهمها البوليس . وكان هذا الـ « سو » الضخم احدى عجائب الصناعة التي ينتجها صبرُ الأشغاليين في الظلام ، ومن أجل الظلام ؛ عجائب ليست غير ادوات للهرب . وهذه الثمرات الدقيقة البشعة الناشئة عن فنّ رائع هي بالنسبة الى الصياغة كاستعارات اللهجة العامية بالنسبة الى الشعر . إن في سجون الأشغاليين عشرات من مثل بينفينيتو ميليني * كما ان في اللغة عشرات من مثل فييّنون ** . فالرجل الشقيّ الطامع في الخلاص يجد الوسيلة ،

* Cellini نقاش ومثال وصانع ايطالي شهير ، وند وتوفي في فلورنسة (١٥٠٠ - ١٥٧١) .

** Villion شاعر فرنسي قديم يعتبر اول شعراء فرنسة الغنائيين الكبار ، وتوفى حوالي ١٤٨٩ .

من غير ادوات في بعض الاحيان ، بسكين ، او بمسبلة قديمة ، الى
سحق قطعة نقدية من فئة الـ « سو » الى صفيحتين رقيقتين ، وتعتبر
هاتين الصفيحتين من غير ان تسمى السمة النقدية بسوء ، وإحداث
اسنان لولب على حافة الفلس بحيث يكون من اليسير إلصاق الصفيحتين
من جديد . وإنما تثبت هاتان الصفيحتان وتفتكّان ساعة يشاء المرء ؛
إنها اشبه شيء بصندوق . وفي هذا الصندوق يُخفي الاشغاليون نابضاً
من نوابض الساعات . وهذا النابض اذا ما اصطنع اصطناعاً جيداً
يقطع حلقاتٍ من حجم ما ، وقضباناً حديدية . إن البائس المحكوم
عليه بالاشغال الشاقة يُفترض فيه ان لا يملك غير « سو » واحد . لا ؛
إنه يملك الحربة . وإنما كان الـ « سو » الذي عثر عليه البوليس في
الغرفة ، في ما بعد ، من هذا الضرب الكبير ؛ وكان مفتوحاً ذ
سنتين مطروحين تحت الحشية ، قرب النافذة . ولقد اكتشف البوليس
ايضاً منشاراً صغيراً من فولاذ ازرق كان ممكناً اخفاؤه في قطعة الـ « سو »
النقدية الكبيرة . وأغلب الظن ان الاسير كان يحمل هذا الـ « سو » الكبير
عندما قُتس قطاع الطرق جيوبه ، وانه قد وُفق الى اخفائه في يده . حتى
اذا أُطلقت يده اليمنى ، بعد ، من عقابها ، فكته واصطنع المنشار في
تقطيع الجبال التي « شدّ بها وثاقه » ، وهو ما يفسر الضجة الضئيلة والحركات
الخفية التي لاحظها ماربوس .

واذ لم يكن قادراً على الانحناء خشية ان يفضح نفسه ، فإنه لم يقطع
الجبال التي تقيد رجله اليسرى .

وكان قطاع الطرق قد استفاقوا من ذهولهم الأول .
وقال بيغروناي لتيناردييه :

— « لا تجزع . ان احدى رجليه لا تزال موثوقةً بالجبال ، ولن
يستطيع الافلات . انا واثق من ذلك . لقد ربطتُ انا ساقه هذه . »
وهنا رفع الاسير صوته :

- « انتم مساكين ، ولكني حياتي لا تستحق عناء دفاعٍ طويل .
اما تخيلكم انه كان في امكانكم ان تحملوني على الكلام ، انه كان في
امكانكم ان تحملوني على كتابة ما لا اريد كتابته ، انه كان في امكانكم
ان تقولوني ما لا اريد ان اقله ... »
ورفع رُؤدن ذراعه اليسرى ، وأضاف :
- « انظروا ! »

وفي الوقت نفسه ، بسط ذراعه ، ووضع الازميل المضطرم على
لمحه العاري ، وقد أمسك بذلك الازميل ، من مقبضه الحشبي ، بيده
اليمنى .

وُسمع فصيح اللحم المحترق . وانتشرت في ارجاء الوكر الرائحة
الخاصة بغرف التعذيب . وترنح ماريوس وقد ذهب الذعر بصوابه .
وصرت الرعدة في أوصال قطاع الطرق أنفسهم . ولم ينقبض وجه الرجل
العجوز الغريب الا قليلاً . وفيما كانت الحديد الاحمر الحامي يفوص في
الجرح الداخن ، الممتنع على الوجع ، والذي كاد ان يكون فخيماً ،
ادار نحو تينارديه وجهه الجميل حيث لم يكن ثمة كره ، وحيث كان
الألم قد تلاشى في غمرة من الجلال المشرق .

فعند اصحاب النفوس الكبيرة الرفيعة تؤدي ثورة اللحم والحواس على
غارات الألم الجسدي الى إطلاق الروح فتبدو على الحيّا ، كما تُنكره ثورة
الجنود قائد الجيش على البوح بما نُكته نفسه .
وقال :

- « ايها الاوغاد ، لا تخافوا مني اكثر مما خفتُ منكم . »
وسحب الازميل من الجرح ، وقذف به الى الخارج من خلال النافذة
التي كانت لا تزال مفتوحة . واختفت الأداة الرهيبة المتوهجة ، مدوّمة
في الظلام ، وسقطت في المدى البعيد ، وخدمت وسط الثلج .
واستأنف الاسير كلامه :

- « افعلوا بي ما تشاءون ! »

كان أعزل .

وقال تينارديه :

- « أمسكوا به ! »

ووضع اثنان من قطاع الطرق أيديهما على منكبيه ، ووقف الرجل المقنّع ذو الصوت البطنيّ تجاهه ، مستعداً لأن يُطيح رأسه بضربة من المفتاح ، اذا ما قام بجرّة ما .

وفي الوقت نفسه سمع ماريوس نخته ، عند أدنى الجدار الحاجز ، ولكن على قرب شديد جعل من المتعذر عليه ان يرى المتكلمين - سمع هذا الحوار يدور في صوت خفيض :

- « لم يبق علينا ما نعمله غير شيء واحد . »

- « ان تقتله ! »

- « هو ذاك . »

كان الزوج والزوجة يتشاوران .

وفي خطى بطيئة تقدم تينارديه نحو الطاولة ، وفتح الدرج ، وأخرج المدية .

ودغدغ ماريوس زناد المسدس الصغير . ارتباك لم يُسمع بمنه من قبل ! فطوال ساعة كان صوتان ينطلقان في ضميره ، الاول يدعوه الى احترام وصية أبيه ، والآخر يهيب به الى إنجاد الاسير . وواصل هذان الصوتان ، في غير انقطاع ، صراعهما الذي أورثه آلاماً نفسية مريرة . وكان قد رجا ، حتى تلك اللحظة ، أن يجد وسيلة الى التوفيق بين هذين الواجبين ، ولكن أيما طريقة ممكنة لم تنشأ . كان الخطر قد أمسى الآن ملحاً ، وكان هو قد تخطى آخر تخم من تخوم الرجاء . فعلى بضع خطى من الأسير كان تينارديه يفكر والمدية في يده .

وأجال ماريوس في ما حوله نظراً شاردآ ، وذلك آخر سهم في كنانة اليأس .

وفجأة ارتعدت أوصاله .

فعند قدميه ، فوق الطاولة ، التمع شعاع مشرق من قمرٍ بدرٍ ، وبدا وكأنما كان يدلّه على قصاصة من ورق . وعلى هذه الورقة قرأ هذا السطر ، مكتوباً باحرف كبيرة ذلك الصباح نفسه ، بخطّ بنت تينارديه الكبرى :

- « لقد اقبلت الشرطة . »

واخترقت عقل ماريوس فكرة ، او 'قل ضياء . تلك كانت الوسيلة التي يبحث عنها ، الحلّ لهذه المشكلة الرهيبة التي كانت تعذبه تعذيباً : ان يُبقي على السفاح ويُنقذ الضحية . ورُكع على الحزانة ذات الأدراج ، ومدّ ذراعه ، والتقط قصاصة الورق . وفي سكوت ، انتزع من الجدار الحاجز قطعة جصّ ، ولفّها بالورقة ، وطرحها من خلال الثغرة الى منتصف الوكر .

وكان ذلك في الوقت المناسب . ذلك ان تينارديه كان قد قهر آخر مخاوفه ، او آخر وساوسه ، وتقدّم نحو الأسير .

وصاحت تينارديه الزوجة :

- « لقد سقط شيء ! »

فقال الزوج :

- « وما هو ؟ »

كانت المرأة قد وثبت الى أمام والتقطت قطعة الجصّ المغلّفة بالورق .

وقدّمتها الى زوجها .

وسألها تينارديه :

- « كيف جاءت هذه الى هنا ؟ »

فقالت المرأة :

« يا السبي ! من أين تريدها ان تجيء ؟ لقد جاءت من
النافذة . »

وقال بيغروناي :

« لقد رأيتها في طريقها الى الغرفة . »
وسارع تينارديه الى نشر الورقة ، ورفعها الى قريب من الشعلة .
« إنها بخطّ إيونين . يا للشيطان ! »
وأوماً الى زوجته ، فاقتربت على عجل ، وأراها الظر المكتوب على
الورقة . ثم اضاف في صوت غائر :

« عجّلوا ! السلم ! دعوا اللحم في الشرك ، وولّوا الادبار ! »
فسألته تينارديه الزوجة :

« من غير أن نحتوّم حنجرة الرجل ؟ »

« ليس لدينا متسع من الوقت . »

وقال بيغروناي :

« من اين ؟ »

فأجاب تينارديه :

« من خلال النافذة . لما كانت ايونين قد ألقت الحجر من خلال

النافذة فمعنى ذلك ان البيت غير مراقب من هذه الجهة . »

واطّرح الرجل المقتع ذو الصوت البطني مفتاحه الضخم ، ورفع
كائتا ذراعيه في الهواء ، وفتح واغلق يديه على نحو خاطفٍ ثلاث مرات
من غير ان يقول شيئاً . كان ذلك اشبه بصيحة الاستعداد للقتال على
ظهر سفينة من السفن . وخلص قطع الطريق المسكون بالاسير سبيله .
وفي ومضة عين كانت السلم المصنوعة من حبال قد طُرح طرفها الى
خارج النافذة ، ثم أُحکم تثبيتها الى حافة تلك النافذة بالكلايين
الحديدين .

ولم يُلَقِ الاسير بالآ الى ما كان يجري من حوله . لقد بدا وكأنه
كان يحلم او يصلي .

وما إن ثُبَّتَت السلم حتى صاح تيناردييه :

« تعالي ، ايها الزوجة ! »

واندفع نحو النافذة .

وفيا كان يحاول القفز من النافذة ، أخذ بيغروثاي بخناقه أخذاً

عنيفاً :

« لا ، لا ، أيها الماجن العجوز ! بَعْدَنَا ! »

وهراً قطاع الطرق :

« بَعْدَنَا ! »

وقال تيناردييه :

« انتم أطفال . إننا نضيع الوقت . إن البوليس يكاد 'يدركنا . »

فقال احد قطاع الطرق :

« حسن ، فلنسحب 'قرعة' على من يخرج اولاً . »

فصاح تيناردييه :

« هل انتم مجانين ؟ هل انتم مختلفو العقل ؟ انتم مجموعة من

السدج ! ضياع للوقت ، أليس كذلك ؟ سحب قرعة ، أليس كذلك ؟

بأصبع مبلتة ؟ وبواسطة قشّ متفاوت الطول ؟ نكتب اسماءنا ! نضعها

في قلنسوة ... ! »

وصاح صوت من عتبة الباب :

« أتريدون قبعتي ؟ »

واستداروا جميعاً . كان جافير .

كانت قبعته في يده ، وكان يبسط ذراعه بها وهو يتسم .

يجب ان يُبدأ دائماً بألقاء القبض على الضحايا

كان جافير قد عهد الى رجاله في مراقبة المنزل ، واختبأ خلف اشجار شارع « لا باريير دو غوبلين » الذي يواجه بيت غوربو العتيق على الجانب الآخر من الجادة . لقد بدأ بأن فتح « جيبه » ليُدخل فيه الفتاتين الشابتين اللتين كُلفتا مراقبة المداخل المؤدية الى الوكر . ولكنه لم يُلق القبض إلا على آزيهما . اما ايونين ، فلم تكن في الموقف المعين لها . كانت قد اختفت ، فلم يتمكن من اعتقالها . ثم إن جافير اخذ الى الراحة ، وأصغى منتظراً الاشارة المتفق عليها . وأقلقه ذهاب عربة الأجرة وإيابها إقلاقاً عظيماً . واخيراً نفذ صبره . واذ كانت واثقاً من انه كان ثمة وكر لصوص ، واذ كان واثقاً من « حسن حظه » بعد ان تبين عدداً من قطاع الطرق الذين دخلوا الى هناك ، فقد عزم آخر الامر على ان يرتقي السلم من غير ان ينتظر إطلاق النار .

والقراء يذكرون انه كان يحمل مفتاح ماربوس العمومي .
كان قد أقبل في الوقت المناسب .

واندفع قطاع الطرق المروءعون التماساً للاسلحة التي كانوا قد طرحوها كيفما اتفق حين حاولوا الفرار . وفي اقلّ من ثانية ، كان هؤلاء الرجال السبعة ، ذوو المنظر الرهيب ، قد تجتمعوا في موقف دفاع : احدهم يحمل مطرقة ثيرانه ، والاخر يحمل مفتاحه ، والثالث يحمل هراوته ، وسائرهم يحملون المقصات ، والكلاليب ، والمطارق ، وتينارديه يتشبث بمديته . وامسكت

تينارديه الزوجة بلاطة ضخمة كانت في زاوية النافذة ، وكانت ابنتها
تخذان منها مقعداً منخفضاً .

واعتمر جافير بقبعته من جديد ، ودخل الغرفة ، طاويًا ذراعيه ،
وعصاه تحت إبطه ، وسيفه في قرابه .
وقال :

« فقوا مكانكم ! انكم لن تقروا من النافذة . إنكم لن تقروا
من الباب . هذا اقل وخامة . انتم سبعة ، ونحن خمسة عشر . فلا
تكرهونا على ان نمك بخناقكم وكأنكم من سكان اوفيرثي . فلنكن
لطافاً . »

واخرج بيغروناي مسدساً صغيراً كان قد خباه تحت قبعه ، ووضعه
في يد تينارديه وهو حمس في أذنه :

« هذا جافير ! انا لا اجرؤ على تصويب النار الى هذا الرجل .
انجرؤ انت ؟ »

فأجابه تينارديه :

« وحق الالهة ! »

« اذن أطلق النار ! »

واخذ تينارديه المسدس ، وسدده الى جافير .

وحقق اليه جافير ، الذي كان على ثلاث خطوات منه ، تحديقاً
موصولاً ، واجترأ بالقول :

« لا تطلق النار ! ان زند مسدسك سوف يكبر . »

وضغط تينارديه على الزند ، فلم يُور .

فقال جافير :

« لقد قلت لك ذلك ! »

وطرح بيغروناي عصاه القصيرة المغلف طرفها بالرصاص على قدمي

جافير .

- « أنت امبراطور الابالسة ! إني أستسلم . »

وسأل جافير قطاع الطرق الآخرين :

- « وأنتم ؟ »

فأجابوا :

- « ونحن ايضاً . »

فأجاب جافير في هدوء :

- « هو ذاك ! هذا حسن ! لقد قلتُ ذلك ، انتم لطاف . »

فقال بيغروناني :

- « إني التمس شيئاً واحداً ليس غير ، وهو ان لا أحرم التدخين حين

اوضع في الحجيرة المنفردة . »

فقال جافير :

- « لك ذلك . »

والتفت ، ونادى :

- « ادخلوا الآن ! »

واندفعت الى الغرفة ، تلبيةً لدعوة جافير ، شرذمة من شرطة المدينة

الشاهري السيوف ، ومن رجال البوليس المسلحين بالعصي القصيرة

وبالمراوات . وأوثقوا قطاع الطرق . وملأت هذه الجبهة من الرجال

الذين لم تُضهم الشمعة إلا على نحو باهت - ملأت الوكر بالظلام .

وصاح جافير :

- « كبتلوا الجميع بالاغلال . »

وصاح صوتٌ لم يكن صوت رجل ، ولكن اياً من الناس ما كان

ليقول انه صوت امرأة :

- « اقتربوا قليلاً إذن ! »

كانت ليناردييه الزوجة قد تحصّنت في احدى زوايا للنافذة ، وكانت

هي التي اطلقت تلك الزارة .

وارتد شرطة المدينة ورجال البوليس .

كانت قد اطرحت سالها ، ولكنها ظلت معتمرةً بقبعتها . وكان زوجها ، الجالس القرفصاء خلفها ، قد احتجب او كاد تحت الشال الساقط ، وكانت قد غطته بجسدها ، رافعةً البلاطة بكلتا يديها فوق رأسها في مثل توازن عملاقةٍ على وشك ان تقذف صخرةً ما .
وصاحت :

- « خذوا حذرکم ! »

وارتدوا كلهم الى الوراء في اتجاه الرواق . وترك ذلك فراغاً عريضاً في وسط العلبة .

والقت تيناردييه الزوجة نظرة على قطاع الطرق الذين ارتضوا ان يُشدَّ وثاقهم ، وغمغمت في نبرة حلقة مبعوحة :
- « الجبناء ! »

وابتسم جافير ، وتقدّم الى الرقعة الفارغة التي كانت تيناردييه الزوجة تبتلعها بعينها .
وصاحت :

- « حذار أن تقرب . وإلا سحقتك سحقاً ! »

فقال جافير :

- « ايّ رامية قنابل انتِ ! ايها الأم ، إن الكِلية مثل رَجُل ، ولكنّ لي برائن مثل امرأة . »
وواصل تقدمه .

وباعدت تيناردييه الزوجة ، شعناً فظيعةً ، ما بين رجليها ، وانحنت الى الوراء ، وقذفت بالبلاطة ، في ضراوة ، رأس جافير . وطأطأ جافير رأسه ، فمرت البلاطة من فوقه واصابت الجدار خلفه ، مسدقةً منه قطعةً كبيرة من الجص ، وارتجعت واثبةً من زاوية الى زاوية عبر الغرفة ، للفارغة تقريباً لحسن الحظ ، لتستقر آخر الأمر عند عقبسيّ

جافير .

وفي تلك اللحظة انتهى جافير الى تيناردييه وامراته . وسقطت احدى يديه الضخمتين على كتف المرأة ، والاخرى على رأس زوجها .

وصاح :

« الاغلال ! »

وعاود رجال البوليس الدخول زمرة واحدة ، وما هي الا بضع ثوانٍ حتى نفذ امر جافير .

ونظرت تيناردييه الزوجة ، مهيفة الجناح ، الى يديها المغلولتين والى يدي زوجها ، وخرت على الارض ، وصاحت والدموع في عينيها :

« بنتاي ! »

فقال جافير :

« لقد تدبرنا امرهما . »

وفي اثناء ذلك كان رجال الشرطة قد عثروا على السكران الذي كان نائماً خلف الباب ، وهزّوه . فاستيقظ متلجلجاً :

« هل انتهى كل شيء ، يا جوندريت ؟ »

فأجابه جافير :

« نعم . »

كان قطاع الطرق الستة المكبتون واقفين على اقدامهم . بيد انهم ظلوا محتفظين بظهورهم الاشباحي : ثلاثة كانوا ملطخي الوجوه بالسواد ، وثلاثة كانوا مقتعي الوجوه .

وقال جافير :

« احفظوا باقنعتكم . »

واستعرضهم بمثل عين فريدريك الثاني وهو يستعرض قوات الجيش في بوتسدام ، وخاطب « ذكاترة المداخن » الثلاثة قائلاً :

- « طاب نهارك ، يا بيغروفاي ا طاب نهارك ، يا بروجون ا
طاب نهارك ، يا دو مييار ! »
ثم إنه التفت الى المقتعين الثلاثة ، وقال للرجل ذي المطرقة الخاصة
بقتل الثيران :

- « طاب نهارك ، يا غولوميه ا »

وقال للرجل ذي المراوة :

- « طاب نهارك ، يا بابيه ا »

وقال لصاحب الصوت البطنيّ :

- « نحياي ، يا كلاكسو ا »

وفي تلك اللحظة فقط لمح اسيرَ قطاع الطرق ، الذي كان قد اعتم
بالصمت منذ دخول البوليس ، وخفض رأسه .
وقال جافير :

- « فكّوا وثاق السيد ، ولا تدعوا احداً يخرج . »

نطق بذلك وجلس ، في سلطان ، أمام الطاولة التي كانت الشمعة
وادوات الكتابة ما تزال فوقها ، وسحب من جيبه ورقة تحمل طابعا
وشرع يدون محضره .

حتى اذا خطّ الأسطر الأولى التي لا تعدو ان تكون صيغة مألوفة
لا تتغير ابدأ ، رفع عينيه :

- « قرّبوا مني هذا السيد الذي كان هؤلاء السادة قد شدوا

وثاقه . »

وأجال رجال الشرطة طرفهم في ما حولهم .

وسألهم جافير :

- « حسناً ، اين هو الان ؟ »

كان أسيرُ قطاع الطرق ، مسيو لوبلان ، مسيو أوربان فابر ، أبو
أورسول ، أو القبرة ، قد اختفى .

كان الباب محروساً ، ولكن النافذة لم تكن محروسة . فما ان رأى الى نفسه محلول الوثاق ، وفيما كان جافير يكتب ، حتى اغتتم فرصة الاضطراب والجلبة ، والاختلاط ، والظلمة ، ولحظة كان انتباههم فيها غير مصوّب اليه ، لكي يشب من النافذة .

واندفع شرطي الى النافذة ، والقى نظرة منها . بيد ان عينه لم تقع على احد في الخارج .

كانت السلم الجبالية لا تزال ترتعش .

وقال جافير ، من بين أسنانه :

« يا للشيطان ! ينبغي ان يكون هذا هو احسنهم جميعاً ! »

٢٢

الصبي الصغير الذي صاح في القسم الثاني

وبعد اليوم الذي تلا وقوع هذه الاحداث في المنزل القائم عند « جادة المستشفى » صعد طفل ، بدا وكأنه قادم من ناحية جسر اوسترليتز ، في الزقاق الضيق الايمن ، باتجاه حاجز فونتانبلو . كان الليل قد اطبق على الكون . وكان هذا الطفل شاحب الوجه ، مهزول الجسم ، رث الثياب ، يرتدي بنطلوناً من نسيج كتاني في شهر شباط ، وكان يعني بأقصى ما يستطيع من قوة .

وعند زاوية شارع ال « بيتي بانكويه » ، كانت عجوز تنقب في ركام من القاذورات على ضوء مصباح الشارع . واصطدم الطفل بها في طريقه ، ثم انقلب على عقبه صائحاً :

- « عجيب ! لقد حسبتُ هذه كلباً هائلاً ، هائلاً ! »
ولفظ كلمة « هائل » ، في المرة الثانية ، بصوت منتفخ ساخر
تعبير عنه الاحرف الكبيرة احسنَ تعبير : كلباً هائلاً ، هائلاً ! »
ونمضت المرأة المعجوز مفتاظة .
ونمضت :

- « ايها المجرم الصغير ، لو لم اكن منحنية القامة لعرفتُ اين كان
يجب ان اضع قدمي ! »
كان الطفل قد أمسى الآن على بُعد يسير .
وقال :

- « بيخ ! بيخ ! وعلى اية حال ، فلعلسي لم اكن مخطناً . »
وغضت المعجوز بالحظ ، وانتصبت لتوتها ، وقد اخاء وهجُ الفانوس
الأحمر ، اضاءةً كاملةً ، وجهها الشديد الشحوب ، الخدودِ كله بالزوايا
والتجاعيد ، وبدت أقدام الأوزة عند طرفي فيها . كان جسدها محتجباً
في غمرة الدجنة ، وكان رأسها وحده بادياً للعيان . وخلقُ بالمرء أن
يقول لهما قناع المهرَم فصله شعاعٌ في الظلام . وانعم الطفل النظر اليها .
وقال :

- « إن سيدتي ليس لها ذلك الطراز من الجمال الذي يلائمني . »
ومضى لسبيله ، وشرع يغني من جديد :

« الملك كو دو سابو »

ذهب الى الصيد ،

الى صيد الثربان . »

وعند نهاية هذه الابيات الثلاثة كفت عن الغناء . كان قد بلغ رقم
٥٠ - ٥٢ ، واذا وجد الباب موصداً ، انشأ يرفسه بقدمه رفساً مرثلاً
بطولياً كشف عن الخداء الرجالي الذي انتعله اكثر مما كشف عن

قدمي الطفل اللتين كانتا له .
وفي غضون ذلك كانت المرأة المعجوز نفسها ، التي التقاها عند زاوية
شارع الـ « بيتي بانكييه » ، تعدو خلفه مرسلّة صيحات استقباح ،
وُسرقة في الايماءات المحبولة .

– « ما المسألة ؟ ما المسألة ؟ يا السّهي الرحيم ! إنهم يخترقون
الباب ! إنهم يقتحمون المنزل ! »
وتواصلت الرفسات .
واستبدت اللهاث بالمعجوز .

– « ابتهد الطريقة يستعملون البيوت في هذه الايام ؟ »
وفجأة كفت عن الكلام . كانت قد عرفت « المتشرّد » .
– « ماذا ! إنه ذلك الشيطان ! »

فقال الطفل :

– « ها ها ! إنها المرأة المعجوز . طاب نهارك يا « بورغون موش » .
لقد جئت لأرى اسلافي . »

واجابت المعجوز في تكشيرة مركبة – ارتجال رائع – من البفض
أفاد أقصى ما تكون الافادة من الهرم والبشاعة – ضاعت مع الأسف
في الظلمة :

– « لا يوجد أحد هنا ، ايها الولد الفظّ . »

فقال الطفل :

– « عجباً ! أين ابي ، اذن ؟ »

– « في لا فورس * . »

– « يا للشيطان ! وأمي ؟ »

– « في سان لازار * . »

– « حسن ، وشقيقتاي ؟ »

* « لا فورس » و « سان لازار » و « المادلونيت » سجون معروفة .

- « في المادلونيت . »

وحكّ الطفل مؤخر أذنه ، ونظر الى « مام بورغون » وقال :

- « آه ! »

ثم انقلب على عقبه ؛ وما هي الا لحظة حتى سمعته المعجوز ، التي
وقفت على عتبة الباب ، يعني بصوته الواضح الناضر ، فيما هو يجتفي
تحت شجرات الدردار السوداء المرتعشة في وجه الرياح الشتوية :

« الملك كو دو سابو

ذهب الى الصيد ،

الى صيد الثربان ،

متبهاً متفاخراً .

وحين يمرّ الناس به

يدفون اليه فلين . »

فهرست القسم الثالث : « ماريوس »

الكتاب الاول : باريس مدروسة من خلال ذروتها

ص

| | | |
|----|-----------|--|
| ٧ | | ١ . في نضارة الصبا |
| ٨ | | ٢ . بعض أماراته الخصوصية |
| ١١ | | ٣ . إنه قريب الى النفس |
| ١٣ | | ٤ . إنه قد يكون ذا غناء |
| ١٤ | | ٥ . حدرده |
| ١٨ | | ٦ . قليل من التاريخ |
| ٢١ | | ٧ . سوف يحتل المتشرد مكانه بين طبقات الهند |
| ٢٤ | | ٨ . حيث نقرأ كلمة فاتنة للملك السابق |
| ٢٦ | | ٩ . روح غالة القديم |
| ٢٧ | | ١٠ . هي ذي باريس ، هوذا الانسان |
| ٣٦ | | ١١ . سخرية وحكم |
| ٤٠ | | ١٢ . المستقبل كامن في الشعب |
| ٤٢ | | ١٣ . غافروش الصنير |

الكتاب الثاني : البورجوازي الكبير

- ١ . تسمون عاماً واثنان وثلاثون سنأ ٤٦
- ٢ . سيد كهذا جدير بمسكن كهذا ٤٩
- ٣ . لوقا - الروح ٥١
- ٤ . يرجو ان يمشي مئة عام ٥٢
- ٥ . باسك ونيقوليت ٥٣
- ٦ . حيث نرى مانيون وصنيرها ٥٥
- ٧ . قاعدة : لا تستقبل احداً الا في الماء ٥٧
- ٨ . واحدة وواحدة لا تاويان زوجاً ٥٨

الكتاب الثالث : الجهد والحفيد

- ١ . سالون قديم ٦٢
- ٢ . احد أشباح ذلك العصر الحمراء ٦٩
- ٣ . « لقد رقدوا في سلام » ٧٨
- ٤ . نهاية فاطم الطريق ٩٠
- ٥ . فائدة الذهاب الى القديس في جبل المرء ثورياً ٩٥
- ٦ . معنى الالتقاء بوكيل كنيسة ٩٨
- ٧ . تنورة ما ١٠٧
- ٨ . رخام ضد صوان ١١٥

الكتاب الرابع : اصدقاء الانبياء

- ١ . جماعة كادت تصبح تاريخية ١٢٢
- ٢ . بوسوويه يؤن بلوندو ١٤٩
- ٣ . دهش ماريوس ١٥٤
- ٤ . الحبرة الخلفية في معنى الموزين ١٥٨

- ٥ . توسيع الاق ١٧٠
٦ . موارد موزولة ١٧٦

الكتاب الخامس : فضل الشقاء

- ١ . ماريوس معدماً ١٨١
٢ . ماريوس فقيراً ١٨٤
٣ . ماريوس رجلاً ١٨٨
٤ . مسيو مابوف ١٩٥
٥ . الفقر ، جار طيب للشقاء ٢٠١
٦ . البديل ٢٠٥

الكتاب السادس : التقاء نجمين

- ١ . اللهب : كيف تنشأ أسماء الاسر ٢١٣
٢ . « وكان نور » ٢١٨
٣ . اثر الربيع ٢٢١
٤ . بذه اعتلال عظيم ٢٢٣
٥ . صواعق شتى تمضى على رأس « مام بوغون » ٢٢٦
٦ . في قبضة الاسر ٢٢٨
٧ . مقامرات الحرف [] وقد أمل الى الحدس والظن ٢٣٢
٨ . حتى مشوهو الحرب يمكن ان يكونوا محطوطين ٢٣٥
٩ . خسوف ٢٣٨

الكتاب السابع : المعلم مينيت

- ١ . الانعام واللاغمون ٢٤٢
٢ . الدرك الاسفل ٢٤٦

- ٣ . بايه ، غولوميه ، كلاكو ، ومونبارناس . ٢٤٨
٤ . تكوّن الشرذمة ٢٥٢

الكتاب الثامن : الفقيو الشرير

- ١ . ماريوس الباحث عن فتاة ذات قبة يلتقي برجل ذي قلنسوة . ٢٥٧
٢ . لقيّة ٢٦٠
٣ . أنصاب ذات اربعة وجوه ٢٦٣
٤ . وردة في الشقاء ٢٧٧
٥ . يوضاس الناية الالهية ٢٨٧
٦ . الرجل الضاري في مأواه ٢٩٠
٧ . ستراليجية وتكنيّة ٢٩٧
٨ . الشماع في البيت الحفير ٣٠٣
٩ . جوندريت يكاد يبكي ٣٠٦
١٠ . تعرفه عربات الاجرة ذوات الدرلايين فرنكان في الساعة . ٣١٣
١١ . عروض خدمة يقدمها البؤس الى الأسي ٣١٧
١٢ . كيف استعملت فرنكات مسيو لوبلان الخمسة . ٣٢٢
١٣ . « وحيد مع نفسي في مكان قصي فأنهم
لم يجدوا حافزاً للصلاة يا أبانا ! » ٣٣٠
١٤ . وفيه يقدم شرطي الى احد الممامين
مدممين فولاذيين ٣٣٤
١٥ . جوندريت يتبضع ٣٤٠
١٦ . وفيه سنجد من جديد تلك الاغنية
ذات اللحن الانكليزي دارجة عام ١٨٣٢ ٣٤٤
١٧ . كيف انفتحت قطعة ماريوس النقدية
ذات الفرنكات الخمسة ٣٥٠

- ١٨ . كرسيا ماريوس يتواجهان ٣٥٦
- ١٩ . شواغل الاعماق المظلمة ٣٥٨
- ٢٠ . الكمين ٣٦٥
- ٢١ . يجب ان يبدأ دائماً بالقاء القبض
على الضحايا ٤٠١
- ٢٢ . الصي الصنير الذي صاح في القسم الثاني ٤٠٧

انتهى المجلد الثالث
ويليه المجلد الرابع

مَطْبَعَةُ الْجَامِعِ
حارة حريك - لبنان